

التفسير الموضوعي

للسورة القرآنية المكية

إعداد

مختار بن محمد أبو العباس وعبد الوهاب القرظي

بإشراف

أ. د. مصطفى سنبل

جامعة الشارقة

المجلد السابع

فصل - الواقعة

٥١٤٣١ - ٢٠١٠

كلية الدراسات والبحوث العلمي - جامعة الشارقة





الإصدار رقم

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (+971-6-5050550)، فاكس: (+971-6-5050555)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (+971-6-5585000)، فاكس: (+971-6-5585099)

Web site: <http://www.sharjah.ac.ae>

إِلَهِيَّةُ السَّقِيذِيَّةِ لِلْمَشْرِوْحِ

بِرَأْسِيَّةٍ

أ. د. بَهْطَمِي مَسْلَمِي

بِعَضْوَةٍ

أ. د. عِيَادَةُ الْكَبِيصِي

بِعَضْوَةٍ

أ. د. أَحْمَدُ الْبَدَوِي

بِعَضْوَةٍ

أ. د. عَبْدُ اللَّهِ الْخَطِيبِي

بِعَضْوَةٍ

د. مُحَمَّدُ عَصَا الْقِضَاةِ

بِعَضْوَةٍ

د. قَاسِمُ مَسْعُودِي

بِعَضْوَةٍ

د. عَوَادُ الْخَلْفَاةِ

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

- د. عبد الرحيم الزقمة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف مرجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي
د. مصطفى مسلم محمد
د. عيادة أيوب الكيسي
د. أحمد محمد الشراوي
د. ناص سليمان العمس
د. أحمد عباس البدوي
د. محمد أحمد عيد الكندي
د. مساعد مسلم آل جعفر
د. شحادة حميدي العمري
د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناص الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت

بين يدي السورة

اسمها.. عدد آياتها.. محورها

أسماء السورة ووقت نزولها:

سورة فصلت مكية بلا خلاف وتسمى سجدة المؤمن أو حم السجدة لأنه ليس في الحواميم سجدة سواها، وتسمى سجدة المؤمن لأنها السورة التي فيها السجدة بعد سورة المؤمن وكذلك تسمى سورة المصايح لقوله تعالى: ﴿وَزَيْنًا لِّلسَّمَاءِ الدُّنْيَا يَمْصُبِغُ ..﴾ وتسمى كذلك سورة الأقوات لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ..﴾ جميع هذه الأسماء ذكرها الطاهر بن عاشور^(١). وقد نسبت هذه التسميات إلى كتب الحديث. والاسم الذي اشتهرت به هو (سورة فصلت).

فضل السورة:

رويت فيها أحاديث أهمها ما روى أهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: (اجتمع قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا إئته يا أبا الوليد فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع كلامك. أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب.

حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وأن في قريش كاهناً، والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبل أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١، ٢٤/٢٢٧.

تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباء فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرأ فقال رسول الله ﷺ: فرغت. قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته).. حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود).. فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟

وعند هذا الحد روايات أوضحها أنه وضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم ألا يكمل ورجع إلى قريش فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذني كلاماً مثله قط، وما دريت ما أرد عليه، وما هو بالسحر ولا بالكهانة ولا بالشعر، قال: ناشدته الرحم ألا يكمل لأنكم تعلمون محمداً ما وعد بشيء إلا نفذه.

وفي روايات أخرى: إن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا.. الخ.

وقال عتبة إضافة إلى ما سبق يا قريش: خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك محمد قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(١). وهذا الخبر يوحى بأن الرسول ﷺ اختار هذه السورة للمحاجة مع عتبة الذي هو أبلغ قريش وأفصحها فاخياره ﷺ هذه السورة لمكانتها وقوة حجتها.

وفي الجانب الآخر يشير هذا الخبر إلى العروض التي عرضتها قريش على الرسول ﷺ، ليست إقناعاً له وحسب وإنما ترى قريش أنه أهلاً لكل ما عرضته عليه وخاصة الملك والسيادة فإن حياته السابقة التي قضاها بينهم تدل على تبوئه هذه المكانة وأهليته لما عرضت عليه قريش

(١) فتح الجواد الكريم في اختصار وتحقيق تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ٤/ ٩٩-١٠٠. وفتح القدير، الشوكاني ج ٤ - ص ٦٥٨.

كما أنه من أوسطهم نسباً، فهو سيد من ساداتهم.

وفي هذه الحادثة دليل على إعجاز القرآن الكريم وتحديه لبلاغتهم وبلغائهم، إذ إن عتبة بن ربيعة هو أفصح قريش وأبلغها أو من أبلغها.

وكما بينا فإنه قال عن القرآن الكريم أنه لم يسمع مثله قط وأنه لم يستطع أن يرد عليه بكلمة واحدة.

فظهر في هذه القصة إعجاز القرآن وتحديه لهم واعترافهم أن الرسول ﷺ أصدق رجل فيهم إذ أن عتبة قال: وضعت يدي على فمه وسألته الرحم ألا يكمل لأنكم تعلمون محمداً إذا تحدث حديثاً لا يكذب وإذا وعد ينفذ وعده فخفضت عليكم من العذاب.

وهناك روايات تقول إنه قال: إني سمعت كلاماً ما هو بالسحر ولا هو بالشعر ولا بالكهانة وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله معذب وأعله مثمر وإنه يعلو ولا يعلو عليه وإنه يحطم ما كان تحته.

وموضوع السورة ومحورها هو:

«القرآن الكريم».

أثره في حياة البشرية في تصورها ومدركاتها وفي خط سيرها وفيها تفصيل القرآن الكريم المحكم وفق الأغراض والأهداف ووفق الطباع والعقول ووفق البيئات والعصور ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة ووفق هذه الاعتبارات سمة واضحة في القرآن الكريم الذي هو موضوع ومحور هذه السورة وموقف المعاندين منه، والسورة تشير إلى أن القرآن الكريم هو دستور الحياة الإنسانية الكريمة وهو معجزة الرسول ﷺ.

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة المؤمن التي تدور حول الحجج التي أوردها القرآن الكريم على أحقية الرسالة وجدوى إرسال محمد ﷺ ووجوب تطبيق الإسلام وفي هذه السورة وصف للمنهج الذي يريد الله للإنسانية بعدما أفحمهم في وجوب اتباع الرسول ﷺ.

عدد آيات السورة

آيات هذه السورة في مصاحف الشام وعند قرائهم (٥٢) اثنتان وخمسون آية وفي مصحف الحجاز وعند قرائها (٥٣) ثلاث وخمسون آية وفي مصحف الكوفة وعند قرائها (٥٤) أربع وخمسون آية. وقد بينا سبب اختلاف القراء في العدد حيث يجعل بعضهم البسمة آية والحروف لوحدها آية ويدمجون بعض الآيات وغيرهم غير ذلك.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها

والتناسب مع اسم السورة ومحورها واضح جلي فمحورها القرآن الكريم الذي فصلت آياته وأحكامه وحكمه ومواضيعه.

علاقة السورة بسورة المؤمن التي سبقتها

في سورة (غافر) أو (المؤمن) بين الله عز وجل الصراع العقلي والعلمي بين المؤمنين والمشركين وانتهى الجدل كما مرينا إلى بيان موقع المشركين في النار وكيف يؤمنون حيث لا ينفع الإيمان جاءت سورة فصلت تبين طبيعة المنهج الذي يسير عليه فريق المؤمنين وكيف أن الله أنزل لهم قرآناً يهديهم إلى الطريق الموصل إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ففي سورة فصلت التي بين أيدينا يبين الله سبحانه وتعالى صفات القرآن الكريم وموقف المؤمنين منه وموقف المشركين منه وانهمامهم أمام حقائقه كما سنرى إن شاء الله.

مقدمة في القرآن الكريم وموقف المشركين الإنهزامي

وصفة الرسول ﷺ وواجبه

﴿ حَمَّ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ ﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيهِ أَذَانُنَا وَقَرُّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا نَعْمَلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ٦ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٧ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٨ ﴾

مقدمة السورة

لم يكن الرسول ﷺ إلا مبلغاً عن ربه والذي أنزل له ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. وعلى ذلك فإن المشركين كفروا بكل الدلائل الواضحة في السنن الكونية وفي نشاط أجزاء الكون كل حسب وظيفته التي خلقه الله لها. فما على المؤمن إلا الانسجام مع حركة الكون.

التفسير الاجمالي

﴿ حَمَّ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ ﴾ .. تكرر الحديث عن الحروف في أوائل السور وقد خص الله جل جلاله هذه السورة بوصف القرآن الكريم أنه تنزيل من الرحمن الرحيم فهي إشارة أولاً على أنه من الله عز وجل وليس من أحد ولم يكن مستنسخاً من صحف أخرى ولم يمله أحد على الرسول ﷺ.

وثانياً أنه من الرحمن الرحيم فإن الله أنزله رحمة للعالمين فيريد إسعادهم ويريد إنقاذهم من التخبط والضياع والتردد، يرحمهم من التيه الذي هم فيه قبل نزول القرآن الكريم، وقد بين أثره في الإنسانية جميعاً، فعمر الإنسانية ينقسم إلى قسمين واضح المعالم، بيني الفروق قسم قبل نزول القرآن الكريم وقسم بعد نزوله، حتى الأديان التي سبقته صاغت عقائدها بعد نزول القرآن الكريم خلافاً لما كانت عليه قبل نزول القرآن الكريم.

قال بعض المفسرين: (حم) اسم السورة وهو مبتدأ وتنزيل خبره وقال آخرون إن تنزيل خبر لمبتدأ محذوف وكتاب بدل منه أو صفة التنزيل. وكونه كتاب إشارة للرسول ﷺ بوجوب كتابته حيث أن الله أوحى ألفاظه وأمر الرسول ﷺ بكتابته ولذا فقد اتخذ الرسول ﷺ كتاباً للوحي لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ .. أي فسرت وبينت ووضحت أهدافها ومعانيها وموضوعاتها فهو بيان للحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته أو بين وعده ووعيده وثوابه وعقابه.

وقرأت فصلت بالتخفيف أي فرقت الحق عن الباطل وميزت الصالحين عن الأشرار وأوضحت طرق الخير والفلاح والنجاة عن طرق الشر والهلاك.

وقال بعضهم أن معنى ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ فرقت في النزول فلم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل وسينزل نجومًا مفرقًا في الوقت والمكان والأحوال، ولا مانع من إرادة جميع المعاني. ولما كانت السورة مكية بإجماع أهل السنن^(١)، فهي إشارة إلى أن الباقي سينزل هكذا.

وهنا أحب الإشارة إلى أن الحكمة من نزوله منجماً إضافة إلى ما ذكره علماء القرآن الكريم ليكون صالحاً للتطبيق منذ نزوله إلى قيام الساعة لأن نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة استغرق جميع الأحوال التي يمكن أن يمر بها الإنسان والظروف التي تواجهه فيكون حالاً لمشاكل الإنسان وفق جميع المتغيرات التي تكتنف حياته في جميع عصوره لأن المجتمع الذي نزل به القرآن الكريم تغير جميع هذه المتغيرات التي يمكن أن يمر بها المجتمع الإنساني في جميع العصور عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وفكرياً.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ .. حال من فصلت أي فصلت آياته حال كونه قرآناً عربياً وكونه عربياً أي واضح الدلالة على ما يريد وهو بلغة القوم الذين نزل فيهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِئَلْبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ليحملوه إلى الناس جميعاً فكانوا واسطة التبليغ

(١) فتح القدير ج ٤ - ص ٦٥٨.

عن الله سبحانه وتعالى فهم الذين نشره وأوضحوا مراده للناس. وهذا تشريف للعرب إذ أنهم الذين يحملون رسالة الله إلى العالم ولذا علم الناس أن جريمة العربي في شركه أكبر من جريمة غيره لأنهم الذين يعرفون حقيقة القرآن الكريم وما يحمله من معان وما يتحملة من أهداف لينفذ الإنسانية مما هي فيه.

﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .. تأكيد على أن الذين نزل فيهم القرآن الكريم يعلمونه ويعرفونه حق

المعرفة.

وقد فهمه العرب الذين آمنوا به كما فهمه العرب الذين كفروا ولذا فإن الذين آمنوا به دافعوا عن إيمانهم حتى الشهادة وفتحوا بالتضحية بنفوسهم من أجل نشره، كما دافع المشركون عن شركهم حتى الموت لأنهم علموا أن هذا القرآن سيقرب مجتمعهم وقيمهم واعتباراتهم رأساً على عقب فإن القيم الجديدة التي نادى بها القرآن الكريم قضت على المقاييس التي كانت سائدة قبل نزوله. فإن التفاخر والشرف أصبح بمن يقدم الخير للإنسانية وليس الشرف لفلان لأنه ابن فلان أو ينتمي إلى القبيلة الفلانية. أو يحوز المال أو يملك القوة البدنية أو قوة الأنصار.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ .. صفتان للقرآن الكريم، فهو يخبر المؤمنين بما يسرهم ويعلمهم بما

أعد الله لهم من خير ونعيم لإيمانهم وعملهم بما يقتضيه الإيثار، ويحذر الكافرين بسوء العاقبة ويخبرهم أن مصير من كفر به وجحدته إلى النار وبئس القرار، ورغم هذه الحجج وهذه الأدلة وهذا الإنذار ﴿فَاعْرُضْ أَكْثَرَهُمْ﴾ .. فصدوا عنه وتولوا، ورغم ما وهبهم الله من أدوات المعرفة، بالسمع والبصر والقلب ولكنهم لم يستعملوها بما خلقها الله له، فعطلوها عما ينفعهم فعبر القرآن الكريم بنفي هذه الأدوات أو نفي واجباتها ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ .. لأن أدوات سمعهم لم تهدمهم إلى ما يسعدهم فكأنها لم تكن موجودة أصلاً ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي إِذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ .. فقد أكدوا على انهماكهم ومغالطتهم فقالوا إن قلوبهم عليها أغطية وهي مغلفة بغلاف لا تحترقها حججك ولا بيناتك ولا نريد أن نفتح عقولنا لما تدعوننا إليه، وآذاننا لا تسمع منك شيئاً لأنها ثقيلة لأن الوقر ثقل يؤدي إلى

الصمم وبيننا وبينك حاجزاً سميكاً لا تخترقه أنت ولا نحن وقوله (من بيننا) دليل على أن المانع من قبلنا ومن قبلك أي إن الحاجز يستغرق المسافة التي بيننا فإن هناك شيء عندك يدفعنا على الامتناع وهناك شيء في نفوسنا يمنعنا من الإيثار بك. وهذا موقف انهماجي مغالط لأن الذي يعتقد أنه على حق يود لو يبين حقه لكل الناس ويستمتع إلى ردودهم لأنه يعتقد أن حقه أقوى من حججهم فقولهم هذا يشير إلى أنهم يخافون من الاقتناع بصحة ما جاء به.

وقد روي أن سعد بن معاذ حينما سمع بوجود مصعب بن عمير رضي الله عنه في المدينة ذهب إليه وتوعده فقال له مصعب رضي الله عنه أو تستمع فإن رأيت صواباً فأنت وذاك، وإن رأيت خطأ فنقد ما تتوعد به فجلس إليه فأخذ يقرأ هذه السورة فقال سعد: والله إنه لحق وأسلم رضي الله عنه.

فكان أهل مكة يحاربون الرسول صلى الله عليه وسلم ويمنعون كل أحد أن يستمع إليه لأنهم يعلمون أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرده عاقل ولا يعانده إلا مكابر مغالط.

﴿ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمَلُونَ ﴾ .. أي فاعمل على دينك ونعمل لديننا وأعمل لإهلك ونحن نعمل لأهتنا، وقال بعض المفسرين: فاعمل على هلاكنا ونحن نعمل على إهلاكك.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ﴾ .. فهو إذن رسول مأمور بتبليغ ما أرسل به إلى من أرسل إليهم، فقال لهم أنه ليس ملكاً ولا هو خارج عن طبيعة البشر، هو واحد منكم أمره الله أن يتواضع لهم فهو مثلكم لا يختلف عنكم بخلق ولا بأصل ولكن الله عز وجل اصطفاه من بينكم لحمل هذه الرسالة وهي أن الله إله واحد ليس له مساعد وليس بينكم وبينه واسطة وهذه الأحجار ليس لها فعل في الكون ولا في نفسها فلا تملك من أمرها شيء، فالفاعل في الكون الوحيد هو الله سبحانه وهو الذي خلقه ويديره ويرعاه ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ .. وقد وضع لكم منهجاً كاملاً للتصور الصحيح والعقيدة السليمة وبين لكم النظام الذي خلق الكون بموجبه وكيف تسير أجزاؤه على هذه السنن وأنتم جزء من الكون فلا تخالفوا سنن الله وأخلصوا العمل لله وسيروا وفق ما يريد واستغفروه واطلبوا عفوه من تقصيركم فإنه يقبل التوبة عن عباده.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ والويل نوع من العذاب روي أنه واد في جهنم وقيل غير ذلك والمهم أنه العذاب للذين لا يعتقدون بوحدانية الله سبحانه ورعايته للكون ومن صفاتهم أنهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٧﴾ فلا يزكون أي يطهرون أنفسهم من الشرك وعقولهم من الضلال وقالوا أن المراد به الزكاة الحقيقية مع أن الآية مكية والزكاة فرضت في المدينة المنورة.

حيث أن الزكاة تطلق على مطلق الإنفاق في طرق الخير لأنها تطهر النفس من الشح. وكان أهل مكة ينفقون على حجاج بيت الله في الجاهلية فامتنعوا عن تقديم المساعدات والخدمات لاتباع الرسول ﷺ أي المسلمين.

فإن أريد تطهير النفس من أدران الشرك أو الانفاق في سبل الخير فالمشركون بعيدون عن فعل الخير أياً كان مورده، وقد فرضت الزكاة باعتبارها ركناً من أركان الإسلام ويقول العلماء أنها فطرة الإسلام فمن اجتازها نجا ومن منعها هلك.

هؤلاء المشركون هم الذين يمنعون الزكاة ولا يسلكون أي طرق للخير والنجاة لأنهم لا يعتقدون باليوم الآخر ويرون أن الحياة تنتهي بالموت ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وغالباً ما يعقب القرآن الكريم على صفات المشركين ومصيرهم ويذكر الفريق المقابل وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله إلهاً واحداً وبمحمد رسولاً ﷺ وأن كل ما جاء به هو الحق وعملوا بمقتضاه فإن الأعمال الصالحة هي ما أمر الله به فعملوا الصالحات هؤلاء لهم أجرهم دائم غير منقطع ولا يمن أحد به عليهم ولا يشكرون به إلا الله الواحد الأحد، خالق كل شيء ومليكه. وهذا الخير غير منقوص ولا مقطوع. وهو غير محسوب، محصور، ومن حيث هو من جهة الله تعالى فهو تشریف لا من فيه ولا أذى، لأن أعطيات البشر هي التي يمن فيها. وقيل أن هذه الآية نزلت في المرضى والزمنى الذين أقعدهم المرض عن إتمام أعمالهم الخيرية فإن الله لا ينقص أجرهم بناءً على ذلك.

وكثيراً ما نقول أن الآية إذا أمكن إجراؤها على جميع المعاني التي تحتملها فالأولى حملها على الجميع. وهذه بعض صفات القرآن الكريم التي تدور حولها السور.

علاقة المقطع بالمحور

ذكرت هذه الآيات بعض صفات القرآن الكريم ثم ذكرت موقف المشركين من هذا القرآن وكيف أنهم هربوا من مجرد سماعه وهذا موقف انهزامي يدل على قوة القرآن الكريم وعدم استطاعتهم الرد عليه أو تكذيبه فما عليهم إلا أن يعرضوا عنه وينهزموا امامه.

الهداية في الآيات:

- * أن القرآن الكريم أنزله الله رحمة للعالمين لأنه في هذه السورة التي موضوعها القرآن الكريم وهو محورها الرئيس يقول الله تعالى: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.. فقد قرن تنزيله بإسميه الرحمن الرحيم والتي تستغرق جميع أبعاد الرحمة وجميع المحومين.
- * وليعلم المؤمن الداعية أن المشركين يعارضوه لأنه مسلم لا غير، فلا يمنعهم من اتباعه الأصل ولا العرق ولا القومية وإنما هو الإيمان.
- * وأن الله شرف العرب بأن جعل الكتاب الذي حوى جميع كتب الله في اللغة العربية وجعل حملته للناس هم العرب. وأنه لا يقبل من العربي أي دين غير الإسلام لأنه العارف الأول لما فيه من الدلائل والتشريعات.
- * وأن الدعوة لا تسير سيراً حقيقياً ثابتاً إلا بإتفاق أهلها عليها أكثر مما ينفقون على حاجاتهم الشخصية حتى الضرورية منها لأن الله قرن الكفر بترك الزكاة وعدم الإنفاق. وأن المؤمنين على خير كثير ما داموا مطمئنين بالله موقفين أنفسهم للدعوة إلى شريعته ورفع رايته وإعلاء كلمته. ولا يبذلون أموالهم وأوقاتهم ونشاطهم على أئمن من الدعوة.

الاحتجاج بالسنن الكونية على صدق

الدعوة وانسجامها مع حركة الكون

﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
 وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى
 السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي
 يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة ذكر صفات القرآن الكريم وبين أنه يتكلم بلغتهم وأنهم يفهمونه حق الفهم ولكنهم اعرضوا عنه.

وفي هذه الآيات بين الله عز وجل أن فيما جاء في القرآن الكريم كيف بدأ الله خلق الكون وكيف عين وظيفة كل جزء من أجزائه، وأن جميع ما في الكون يخضع للسنن التي وضعها الله له.

التفسير الاجمالي

بعد أن بين لهم أن منهجه واضح وأنه قرآن يتلى يفهمونه وهو خالد يتلى على مسامعهم في كل حين فإن كان عندكم اعتراض عليه أو على نص من نصوصه أو قضية من قضاياها أو موضوع من مواضعه فاذكروه. أما أن تجعلوا بينكم وبينه حجاب حتى لا تسمعه فإنها انهزامية وعدم ثقة بما تعتقدون ولما كان شأنكم كذلك فإن المناسب هنا التفرير والتوبيخ، وإن كان لا يخلوا من حجة وبرهان ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

فأي جرم وأي ظلم أنكم تكفرون وتجددون من لا تخفى على عاقل عظمتته هو الذي خلق هذا الكون الذي لا تستطيعون مخالفة أي سنة من سننه التي بني عليها هذا الكون ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَذَا مِنَ الْمَعْرِبِ قَبْهُتَ الَّذِي كَفَرْتُ ﴿ [البقرة: ٢٥٨]. لأنه ليس له ما يدفع به هذا الاحتجاج.

إذن هل هناك أجهل ممن ينكر هذه الحقائق الثابتة الشاخصة، هو الذي خلق الأرض ووضع لها قانوناً تسير عليه ووظيفة تؤديها، خلقها في يومين، ما مقدار هذين اليومين؟ الله أعلم لكنها ليست أيامنا لأن أيامنا وجدت بعد الأرض والشمس والسماء واليوم في حسابنا هو دوران الأرض حول نفسها، ربما يكون مساوياً له وربما يكون أقل أو أكثر والذي نعتقده أن الله سبحانه جلت قدرته قادر أن يخلقها في لحظة في قوله كن ولكن الله كما يقول المفسرون أراد أن يعلم الناس الأناة أو قائل يقول أن الله جعل لكل جنس من المخلوقات وقتاً مستقلاً فمادة الأرض في يومين وما تتجه حياة الإنسان في يومين.

فهل يرى عاقل أن فاعل ذلك كله له أنداداً أي أشباهاً أو نظراء؟ والذي يترجح أن الأنداد النظراء في الاختصاص والصلاحيات وهو (رب العالمين) فلم يخلق هذه الأشياء ويتركها وإنما يرهاها، فالرب سبحانه السيد المالك الخالق القيوم بما خلق، ومع أنه عز وجل جعل لها نواميس تسير عليها ولكنه يرهاها ويقوم بشأنها ولم يكن كل شيء وفق النواميس التي نعرفها فكثيراً ما يخرق الله النواميس الكونية لعله يراها.

وفي الحديث الصحيح (إن من أكبر الكبائر أن تجعل لله نداً وهو خلقك) ^(١) ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا ﴾.. فقد خلق الأرض وجعل فيها مثبتات فإن الجبال تظهر فوق الأرض ومثلها تحت سطح الأرض لتقابل البحار والمنخفضات فلا تميد بساكنيها، فالله عز وجل جعل الجبال أوتاداً ثابتة في الأرض ومثبتة لها ﴿ وَبَرَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينَ ﴾.. فجعل في الأرض ما يكفي الإنسان ويعيش عيشة هنيئة ومن عظمة الله في خلق الأرض أن ما عليها من أسباب العيش من الثمار والنباتات، والتي هي سبب حياة الإنسان ومواد غذائه تنمو وتتجدد في كل حين فإن البركة معناها النماء، ولذا فإن النظريات الملحدة التي تقول أن

(١) البخاري (٤/١٦٢٦) رقم (٤٢٠٧)، ومسلم (١/٩٠) رقم (٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الأرض بتنامي سكانها وازديادهم ربما يأتي وقت لا تكفي ساكنيها في قوتهم وهذه الآية تدل على كذب وخطأ هذه النظرية والواقع يكذبها كذلك فإن الزراعيين يعلمون أن الأرض تزرع في كل موسم وبعد الحصاد تجدد نشاطها واستعدادها للإنبات ثانية.

فالله سبحانه قد بارك فيها وقرر ما يلزم لعيش من فيها وجعل ما يقتاتون عليه كافياً لهم وقد ذكرنا أن المدة هي أربعة أيام كاملة فخلقها وخلق ما فيها وما عسى أن يكون فيها في أربعة أيام كاملة مستوية. فالوقت قال الله عز وجل أنه أربعة أيام، هل هي من أيام الله الذي يقول عنها ويوم عند ربك كألف سنة مما تعدون أم أراد أنها تساوي أيام الدنيا بعد خلق الأرض فهذا ما لا نستطيع الجزم فيه، فالله تعالى أعلم.

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ثم قصد إلى السماء وهي دخان فخلقها سبعة شداداً وسقفاً مرفوعاً ثم جعل لها وللأرض قانوناً وسنة وناموساً فقال لها وللأرض أيتي طوعاً أو كرهاً هي من قبيل ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب: ٧١].. فإن الله عرض عليهم التكليف هل يسيرون وفق إرادتهم فيحاسبون عن تقصيرهم أم يسيرون وفق القانون الذي وضعه الله لهم، وليس لهم خيار في مخالفته فرضيت جميع مخلوقات الله أن تسير وفق النواميس ولا تريد الحرية في الاختيار سوى الإنسان اختار التكليف وأن تكون له مساحة من الحرية في بعض التصرفات فلم يؤد حقها. فالأرض والسماء وما فيهن قالتا أتينا طائعين منقادين للقوانين الكونية التي وضعها الله لنا.

فأمر أمراً قاطعاً وحكم بأن تكون سبع سماوات بناءً شديداً متماسكاً وجعل لكل سماء وظيفتها ونوع الخلق الذي فيها ووظيفتهم فتم حكم الله فيها ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهُ ﴾ .. وجعل وظيفة وصفة السماء التي تلي الأرض فيها الكواكب التي واجبتها أن تزين وتجمل جو الأرض ومحيطه، وتحفظ الملاء الأعلى من تصرفات الشياطين الذين يحاولون استراق السمع وإخبار أنصارهم من شياطين الإنس بما يدور في الملاء الأعلى من أخبار فيزيدون عليها ويشوشون على أوليائهم، فجعل هذه النجوم رجوماً للشياطين التي تحاول

استراق السمع لتؤذي أولياء الله. فالقضاء والأحكام وفيه إشارة إلى بديع صنع الله سبحانه وتعالى وخلقه لهن وصنعهن صنعاً محكماً.

﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فهو صنع الله المحكم الذي لا يظال ولا يقدر قدره لأنه عليم بكل ما يراد لهذا الكون وما يجري فيه.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد شرح طبيعة الكون وصفته ووظيفة كل جزء فيه وما يجب أن يكون موقف الإنسان منه، كذلك بين تدرج أجزاء الكون في التكوين والأنواع التي هي أقرب إلى بعضها في الوظيفة والهدف وما تقدمه مما يريد الله منها ببقية الأجزاء ومنها الإنسان. والناموس الذي يسير الله به أجزاء الكون وكيف يرعاه ويحفظه من التصادم والاضطراب، إذ أوحى في كل سماء أمرها.

وفي أصل تكوين الأرض والسماء فقال تعالى: (وهي دخان) يقول العلماء إن الكون كان مملوءاً غازاً فتكاثف هذا الغاز (السديم) فكون الكواكب والنجوم، وقد تكلم القرآن الكريم عما وصل إليه العلم بعد أربعة عشر قرناً وأننا نشهد القرآن على صدق العلم ولا نشهد العلم على صدق القرآن لأن القرآن لا شك في صدقه.

علاقة الآيات بمحور السورة

والذي يقتضي أن نقوله هو: أن وقت نزول القرآن كانت الناس تعبد الشمس والقمر والنجوم لأنهم يجهلون حقيقتها فيخشونها، فقال لهم الرسول ﷺ بوحى من الله تعالى، أنها كانت دخان فبناها بناءً شديداً وكانت متحدة فأبرزها كل في مداره وبناموسه فتبارك الله أحسن الخالقين. وهو ما يشير إليه القرآن الكريم في مواطن كثيرة.

الهداية في الآيات:

* إن الله خلق الكون في مراحل أو في أزمان متفاوتة مرتبة ويرى العلماء أنها لتعليم الأناة للمسلمين. ويرى آخرون أن الله خص كل نوع من الخلق بزمن وهذا ما أراه.

- * إن الأرض هي ضمن المجموعة التي تعلوها السماء فإن الله خلق السماء المحيطة بكل شيء ثم خلق الأرض ثم ميز طبقات السماء أو عددها وجعل لكل سماء اختصاص في الساكنين والفاعلين، فكون الأرض في شكلها الحالي قبل تقدير طبقات السماء أو قبل جعلها سبع سماوات فبعد أن جعلها سبع سماوات خلق أجزاء الأرض ووظيفة كل جزء.
- * ومن الهداية بيان ضحالة من يجعل لله نداً أو شهاً أو مساوياً له في الفاعلية والاختصاص مع أن كل ما جعله المشركون نداً أو فاعلاً معه هو وفعله، مخلوقات لله.

إعراض المشركين عن سماع الدعوة في القرآن الكريم

ومسيرة الدعوة متمثلة بالأمم السابقة

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

ذكر في الآيات السابقة كيف خلق الله الكون وعين ووظائفه وهذا يوجب الإيمان المطلق بوحداية الله وقدرته وتفردته بالكون فهو الفاعل الحقيقي فيه، بعدها ذكر الأمم السابقة وما حل بها في الحياة الدنيا بين عز وجل أن هذا العذاب والمصير في الدنيا لم يكن نهاية ما يستحقون على كفرهم وإنما ينتظرهم الحشر في النار لأنهم أعداء الله عاندوا رسله وأدوا دعائه.

التفسير الاجمالي

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۗ ﴾ (١٣) وبعد أن ساق القرآن الكريم هذه الأدلة على وحدانية الله وقدرته ولفت نظرهم إلى السنن التي لا يستطيعون مخالفتها ولا تغييرها وبين لهم قدرة الله تعالى في خلق هذه الأشياء العظيمة (الأرض وما فيها والسماء ووظيفتها)، لم يبق من الإعراض والصدود عن الإيمان إلا المغالطة والعناد.

إذ لم تكن لهم حجة في الصدود عن الإيمان، بقي أسلوب آخر وهو التهديد والوعيد ويعلمون أن محمداً ﷺ لا يتوعد إلا نفذ توعدوه ولا يكذب فيما يبلغ عن ربه، وليقينهم بذلك حينما قال: ﴿ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .. وضع عتبة بن ربيعة يده على فم الرسول ﷺ وناشده الرحم ألا ينفذ تهديده وقال لقومه (تعلمون أن محمداً لا يكذب ولا يخلف).

وقالوا إن الإنذار يراد به التخويف والصاعقة العذاب وهي معروفة لدى العرب نار يصحبها صوت شديد تحرق ما تقع عليه، ولا قدرة لهم على ردها، ولا مانع من أن يراد بها الحقيقة والذي جعل المفسرين يقولون أنه مطلق العذاب لأنها لم يعذبوا بعذاب واحد فإن عذاب عاد غير عذاب ثمود.

ولذا قالوا بأن الصاعقة مطلق العذاب، وأن قريشاً لم تصبها الصاعقة ولا العذاب لأنهم أسلموا بعد ذلك فلم يعذبوا كافة كما عذبت الأمم الأخرى.

ثم تأتي علة الإنذار والتهديد: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ .. إذ منعهم التكبر من الإيمان كما تكبرت طغاة قريش، فإن عاداً أعجبهم أجسامهم وقوتهم فقالوا ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .. ونسوا أنهم مخلوقين وأن الذي خلقهم اشد منهم قوة.

وهكذا يدفع التكبر أصحابه للإعراض والصد حتى عما ينفعهم ولا يريدون أن يقتنعوا بالحق فلا يسمعه ولا يعرضوه على المنطق ولا يحاولون مناقشته مناقشة علمية.

وقوله عز من قائل: ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .. مع أن التكبر لا يكون بحق

أبداءً، أشار تعالى إلى أن تكبرهم لا مبرر له لأن قوة الأجسام ليست مدعاة للكبر إلا للجهلة، لأن العاقل يعلم أن الإنسان مهما عظمت قوته فسوف يؤول إلى ضعف ثم إلى موت ولكن نقص عقولهم دعاهم للتكبر.

فأجابهم الله عز وجل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فإنهم يعلمون أن الله خلقهم ولكنهم جل اعتراضهم على الرسول فإنهم يرون أن فيهم من هو أقوى منه أو أغنى منه أو ما إلى ذلك من القيم التي يعتقدون أنها سبباً للسيادة والقيادة. ولذا قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾.

تكاد الأمم تتشابه في سبب إعراض مشركيها عن الإيمان فإنهم لا يرون الرسول ممن تحق له القيادة أو الاختيار من قبل الله جل جلاله، فقد قالت قريش ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].. وقالت اليهود ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلَكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٤٧].. وهنا يقول قوم عاد وثمود لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، وهذه تشير أيضاً إلى أن الله عز وجل موجود في تصور جميع بني الإنسان ولكن الذي يختلف هي صورته وصفاته من يرسل، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فجميع بني الإنسان يعتقدون بوجود الله ويعتقدون بأنه خالقهم.

ولذا فإن رد هذه الحجة سهل إذ أن الله سبحانه يرسل إلى البشر بشراً وإلى الملائكة ملكاً، إذ كيف يفهمونه أو يفهم منهم إن لم يكن منهم..؟

فقولهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ معناه أننا لا نقر بصحة إرسالكم من الله ولذا فإننا نكفر بما جئتم به مما تدعون أنه رسالة من الله تعالى.

إذن.. فإن الله تعالى الذي خلقهم هو أشد قوة لأن الذي يوجد لهم قادر على أن يعيدهم أي يعيدهم إلى ما كانوا عليه. ولكنهم تنكروا لجميع الدلائل والحجج إن كانت في المنطق الإنساني أو إن كانت بالسنن الكونية التي يشاهدونها.

ثم يبين الله لمشركي مكة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسَبَاتٍ﴾.. فهذه نتيجة

الإصرار على الكفر والجحود وعدم الرضوخ وعدم الاقتناع بالحجج والبراهين التي تدل على صحة المنهج ووجوب إتباعه ولا يمكن أن تصلح الإنسانية إلا بالمنهج المتلائم والمتوائم مع حركة الكون، فجزاء المعاندين ريحاً باردة جداً تحرقهم كما تحرقهم النار وقال المفسرون ﴿صَرَصْرًا﴾ هو استبدال لصرر وهو البرد الشديد فهذه الريح القوية جداً والتي تسمى الآن الأعاصير تقتلعهم من جذورهم، فهو جزاءً وفاقاً لقولهم من أشد منا قوة؟ وتحمل هذه الريح البرد الشديد وكانت شؤماً عليهم وعلى حياتهم وبلدهم الذي تحصنوا به واعتمدوا على قوتهم فيه.

فجاءت هذه الريح بالذل والهوان والعذاب ففي الدنيا ذاقوا عذاباً يصاحبه ذل وهذا أيضاً موافق لتكبرهم وجبروتهم واستهزائهم بالرسول وما جاءوا به وسخريتهم بالطريق والمنهج الذي أنزله الله سبحانه لهم مع الرسل ليحفظ كرامتهم ويحقق سعادتهم.

ثم لم تكن هذه النهاية وإنما هي بداية تسلسل ما يستحقونه من عذاب لأن عذاب الآخرة أخزى وأشد وأنكى، ولا يستطيعون نصر أنفسهم ولا أحد ينقذهم من هذا الواقع المرير.

ثم تعرج الآيات على قوم صالح الذين تكبروا أيضاً وطغوا ورفضوا المنهج الذي أعده الله لهم وأرسل به صالحاً ومعه دليل لا ينفية عاقل ولا يجحده حكيم حلیم. فإن الله تعالى جعل مع صالح ناقة يشربون منها جميعاً وتكفيهم ولكنهم أصابهم الغرور إذ أن مراكز نفوذهم تركزت في ﴿تِسْعَةَ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٣٨].. هذه العصابة تحكمت في قوم صالح فأرتهم الصواب خطأ والخطأ صواباً، وبين لهم الله على يد صالح المنهج السليم والطريق الحق ففضلوا الضلال والتهيه والتخبط على منهج الله المستقيم الواضح، فكان جزاءهم الذل والهوان. وجاءتهم الصاعقة، الصوت القوي الذي أعماهم وأصم آذانهم وأهلكهم وأهانهم وكذلك ينتظرهم عذاباً في الآخرة، أشد وأعتى ونجد في هذه الآيات ذكر الله قوم صالح وقوم هود (عاد وثمود) في صدر الآيات ثم فصل في آخر المقطع ما الذي أصاب قوم صالح وما الذي أصاب قوم هود.

وقد ذكر الله تعالى في صدر المقطع أنه أرسل لهم الرسل وبينوا لهم جميع ما يحتاج الإنسان

للهداية والإقناع فجاءتهم بالأخبار عن الأمم السابقة ورسمت لهم الصور التي أدت إلى نهايتهم ونهاية ضلالهم فلم ينفعهم هذا البيان ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ .. ففي جميع الاتجاهات ومختلف الأساليب.

وكل هذا البيان هو صورة ذهنية لكفار مكة لتجنب غضب الله وعقابه ليتعظوا ويعلموا أن الله أنعم عليهم إذ لم يسلط عليهم عذابه وعقابه بكفرهم وعنادهم ورفضهم حتى الاستماع لقول الحق، فإن الله سبحانه وتعالى صبَّ عذابه على هذه الأمم ولم يعملوا إلا كما عمل كفار مكة، لكن حلم رسول الله ﷺ وتحمله أذاهم ورفضه إهلاكهم حتى في أشد حالاتهم أذى، وفي أقصى ما لاقى منهم، وما قصته بالطائف بغائبة عن ذهن مسلم إذ أنه حينما عرض عليه ملك الجبال بأمر من الله أن يطبق عليهم الأخشبين تركهم وقال لعل من أصلاهم من يعبد الله. صلى الله عليك يا خير خلق الله ما أحلمك وما أحكمك. ثم تكتمل الصورة ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١٨) حيث أن الله جلت قدرته حينما يعاقب الأمم يخرج من بينهم الدعوة وينجيهم لأنهم أطاعوا الله ورسوله وعملوا بمقتضى المنهج الذي أرسله الله إليهم مع رسوله واتقوا عذابه وأنابوا إليه.

علاقة الآيات بالمحور

وهكذا يستمر القرآن الكريم في عرض الصور التي تعرض تجارب الأمم ومنهج الدعوة في مواجهة انحرافاتهم الاجتماعية والعقائدية ومصير المؤمنين الذين تحملوا الدعوة مع الرسل ومصير الجاحدين الذين لا يقبلون هداية ولا يذعنون إلا للقوة.

الهداية في الآيات،

* أن المشركين يحتجون بأي حجة على شركهم وتمسكهم بكفرهم وحققتهم أنهم لو حقق الله شرطهم للإيمان فلا يؤمنون أبداً، لأن الإيمان تستقبله نفوس مطمئنة وعقول فاحصة ذكية تهتدي إلى الحق فإن الإسرائيليين طلبوا رسولاً يقدم قرباناً تأكله النار ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَ فُؤَادٍ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ فَلَمَّا قَدَّ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَّاهِي قُلْتُمْ فَلِمَ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾
 [آل عمران: ٣٨١]. فأجابهم الله أنه حقق لهم ذلك ولم يهتدوا، والنصارى أرادوا مائدة
 من السماء فجاءتهم ومجرد ما رأوا المائدة عادوا إلى الكفر والآن جميع النصارى يعلمون
 بخبر المائدة وهم الآن أضل من الأنعام وأحقر.

* إنه ليس أخف عقلاً من الذي يجابه رسل الله بقوته إذ أنه مهما كان قوياً فإنه يعلم أنه وجد
 من عدم ويعود إلى عدم، فهل تنقذه قوته من ذلك.

* إن الذين يصرون على الكفر مهما وضح لهم الطريق لا يرونه أو لا يرون صلاحه ولا
 هدايته، وقد بين الله لهم طريق الحق على يد الرسل فأحبوا العمى على الهدى.

مصير المشركين وأن الله

أحصى أعمالهم التي أوصلتهم لهذا المصير

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
 وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلِدْنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
 أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
 سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ
 الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَاَلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ
 يَسْتَعْجِلُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

علاقة آيات المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة ذكر الله عز وجل كيف عاقب الأمم السابقة التي كذبت الرسل وبين
 سبحانه أن أولئك كانوا أشد قوة من قريش فأهلكهم بذنوبهم ونجى المؤمنين من العذاب في
 الدنيا وفي الآخرة.

وفي هذه الآيات بين عز وجل أن مصير أعداء الله هو النار التي سيصلون إليها بعد حسابهم في يوم يحشر الناس جميعاً للحساب وأن سلوكهم المخالف لما أمر الله مسجل عند الله تعالى وأن الشاهد عليه هو أعضاؤهم التي كانوا يستخدمونها في المعصية.

التفسير الإجمالي

ومن التسلسل الطبيعي أن بعد الإنذار والتهديد بعذاب في الدنيا أن يتكلم القرآن الكريم عن مصير هؤلاء في الآخرة فإن من صفات العرب أنهم لا يخشون الموت ونجد في أدهم الجاهلي الحث على الموت الكريم فلا يكون المرء منهزماً ولا مفرطاً بحقوقه ولا مستكيناً لعدوه وكما قال شاعرهم:

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل البقاء بمستطاع
وما ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخ الخنع السراع

وقال آخر:

ليس الكريم على القنا بمحرم

ولذا فإن الحديث عما بعد الموت هو المجدي وهو الرادع الحقيقي وأشد ما تكلم عنه القرآن الكريم في العذاب الأخروي هو عذاب الذل والهوان والخزي والعار وهذه ما يأنفها العربي ويبدل نفسه في اتقائها.

فحذره الله سبحانه، من هذا المصير فيكون كريماً في الدنيا والآخرة ما دام منضبطاً بشرع الله معتقداً بتوحيده وفاعليته في الكون فبعد أن قال ﴿ وَبَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴾ (١٨) قال: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٩) فهم أعداء الله خالفوا شريعته وكذبوا رسله وناصروا أوليائه العداء فما جزاؤهم إلا أن يساق أولهم على آخرهم ويجمعون ويساقون إلى جهنم التي كذبوا الخبر بوجودها وبأنها مصير أعداء الله.

ويوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها سيقال لصاحبها عليك شهود من نفسك فتشهد

عليه أعضاؤه بما سخرها له من الأعمال فالسمع يشهد بما سمع من الكلام غير اللائق ما يخالف به شرع الله والبصر يشهد بما رأى من فواحش والجلود ما باشرت من المآثم.

وفي الأثر: أن عبد الله بن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء نفر أو ثلاثة وصفهم فقالوا هل يسمعنا الله فأجاب بعضهم بنعم، وآخر بلا. فأخبر الرسول ﷺ قبل فنزلت هذه الآية وقال آخرون أنه استشهد بهذه الآية. وقيل أن الجلود هي الفروج فقالوا لها ﴿ وَقَالُوا لِيُجْلُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ .. فإذا كان الله قد خلقكم من عدم وعين وظيفه كل عضو من أعضاءكم بقدرته فما الذي يقتضيه أن يغير وظائفها يوم القيامة؟ فماذا تفيد المخاصمة إذن إذا كان الإنسان على نفسه بصير، وكانت أعضاؤه هي الشهود فهل يستطيع أن يعمل عملاً بدون أعضاء؟ هذه شهوده يوم القيامة فليتنق الإنسان ربه وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فالله خلق الإنسان من عدم ثم يؤدي به إلى عدم ثم يعيده ثانية للحساب والجزاء فيحصد ما زرعه في الدنيا.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فقد كنتم تستخفون عن الناس في فعلكم الشين، ولم تحسبوا حساب من بيده جزاؤكم وهو خلقكم ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم كل شيء عنكم فإنكم تستترون عن من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وظننتم أن الله لا يعلم ما تفعلون، وظننتم هذا أوقعكم في العذاب وأدى بكم إلى النار فهذا الظن سبب هلاككم وقد جاء في الحديث: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض الفلاسفة يعتقدون أن الله لا يعلم الجزئيات وإنما يعلم الكلليات فلا يعلم كل أفعال العباد وهذا الاعتقاد يخالف قوله تعالى: ﴿ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْمُنْزِلِ وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَشَدَّ وَأَيُّهَا

أقبح من أن يخسر الإنسان حياته ويترك نفسه على هواها ويعطل عقله فلا يرى إلا شهواته معتقداً أن الله لا ينظر إليه وظانناً أن الله لا يؤاخذُه على كل شيء..!! كيف يكون ذلك وهو رب العالمين.

﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.. فالصبر هنا ليس له جدوى وليس له عاقبة خيراً فالصبر في الدنيا على المكاره في سبيل الدعوة في سبيل الله عاقبته النصر والظفر وحسن الجزاء في الآخرة.

علاقة المقطع بالمحور

تكلمت الآيات عن مصير المشركين في الآخرة فصبرهم على النار وما الذي يفعلونه إن لم يصبروا ولو طلبوا العفو أو الرضى فما هم من المعتبين. فلا رضا ولا عتاب ولا ندم فاليوم حساب ولا عمل.

فلم يترك القرآن الكريم حقيقة إلا أشار إليها ولا عمل ينجي الإنسان إلا بينه ولا صورة صادقة لمصير الانسان إلا جلاها.

الهداية في الآيات:

* ما أغبى من يعتقد أنه يستطيع أن يخفي عمله على الله؟ لأن الله هو الذي خلق قلبه ووضع في صدره وهو الذي خلق عقله ويعلم ماذا يجوي وماذا يغفل وما هي قابليتها لكل عمل ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

* كما أن الله سبحانه وتعالى هو الذي عين وظائف الأعضاء فهذا يرى وهذا يسمع وهذا يشم إلى غير ذلك، وليس في اللسان كعضلة شيء يدل على أنه يتكلم ولا في الحنجرة كتركيبها خاصة الصوت وتقطيعه إلى حروف ولكن الله أعطاها هذه الخاصة فهو يوم القيامة يعطي هذه الخاصة لأعضاء أخرى.

* ولذا جاء الحديث الصحيح: (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١).

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان، حديث رقم (٥٠).

إصرار المشركين على عدم سماع الدعوة

﴿ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا كَانُوا يَأْتِينَنَا بِمَجْدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله

في الآيات السابقة ذكر الله صورة من صور يوم القيامة وكيف يساق أعداء الله إلى النار وجعل الله أعضاءهم هي التي تشهد عليهم وفي هذه الآيات بين الله جلته قدرته أن فعلهم القبيح له أنصار وهؤلاء الانصار يشجعونهم على ارتكاب المعاصي لأنهم يفعلونها أصلاً فهؤلاء قرن الله بعضهم ببعض حتى يزين كل فريق لقرنائه الفعل القبيح

وصموا آذانهم عن الموعظة وعن القرآن الكريم الذي رسم لهم طريق السعادة وفتحوا قلوبهم وعقولهم لقرناء السوء.

﴿ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ هؤلاء أعداء الله فقد خلى الله بينهم وبين قرناء السوء من الشياطين فقد أتاح لهم أصحاب يقترون بهم يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول فيزينون بعضهم لبعض ما هم عليه من العقائد الفاسدة وما وجدوا عليه آباءهم من الشرك.

وقال بعض المفسرين أن قويض معناه يسر فالله يسر لهم هؤلاء القرناء والحقيقة أن الذي يسر لهم هؤلاء القرناء هو إصرارهم على الكفر وصددهم عن سبيل الحق فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]، هؤلاء الأصحاب من شياطين الإنس والجن

يزينون لهم ما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وما سيؤول إليه أمرهم في الآخرة من إنكار للحساب والحياة بعد الموت وبناء على ذلك وجب عليهم العذاب والعقاب ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٦٠].. ولم يكونوا وحدهم الذين وجب لهم العقاب فإن قبلهم أمم من الجن والأنس كفروا بربهم وعصوا أمره وشاقوا الرسل فأوردتهم سوء العذاب وقد خسروا دنياهم وآخرتهم، فإن دنياهم كانت بتصرف سادتهم وكبرائهم كما ستأتي في بقية الآيات.

ويعود الحديث في المحور وهو القرآن الكريم حيث أنه سبب إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فإن فيه من القوة والتأثير في النفوس بما لا يستطيع الطغاة صرفه عن أنفسهم ولا عن غيرهم فلم يقولوا ردوا على هذا القرآن ولم يقولوا حاججوا هذا الخطاب بمنطق أقوى منه وإنما الذي يستطيعونه هم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.. وقد جاء في الصحيح حينما أجاز أبو البختری أبا بكر الصديق فأخذ يقرأ القرآن أخذ يؤثر في الناس فيؤمنون لقراءته فشكوه لأبي البختری وقالوا إنك أجزته على حياته ولم تجره أن يقرأ القرآن {فإننا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا}.. والحقيقة أنه يهدي سادتهم وعقلاءهم لقوته الذاتية وتأثيره في النفوس.

وقال الذين كفروا فكان دليل كفرهم قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن ونقلت التقارير بأسانيدهم أن أبا جهل والمشرکین كانوا إذا قرئ القرآن يملؤون المكان ضجيجاً وصياحاً وصفيراً يحمون أنفسهم من القرآن ويحمون أتباعهم منه واللغو هو الكلام الذي لا فائدة فيه ولا معنى له فكانوا يوصي بعضهم بعضاً أن لا يسمعوا للقرآن الكريم حتى أن أحد وجهاء العرب قيل له لا تسمع لمحمد فإنه يتكلم كلاماً يسحرك فيه فقال لهم والله ما أنا بالذي يتهم عقله سأسمع إليه فإن قال صواباً صوبته وإن قال خطأ رددته عليه فلما سمع للقرآن الكريم أسلم.

وقد قلنا إن محور السورة هو القرآن الكريم بصفاته وبموقف المشركين منه دائرة في

سامعيه وهذه فقرة من فقرات المحور أنه يحمل قوة ذاتية لا يستطيع العاقل ردها ولم يستخدم المشركون أي طريق عقلي أو منطقي.

ففي أول السورة تحذاهم بالسماح له وبين أنه مما تعرفون كلامه لأنه عربي في لغته واضح في بنائه وهدفه فإن كان لكم ما تردونه أو تعيبونه فيه فتقدموا، وقد مرت بنا قصة الوليد وهنا يبين انهزامهم وهروبهم حتى من سماعه.

فكان جزاؤهم المناسب ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) .. ومن الطبيعي أن تسمح للمدعي فيما أن توافقه وإما أن ترده بما لديك من حجة وإن غابت عنك الطريقتان فتسمح له أن يسمع غيرك والظلم منتهى الظلم أن لا تسمح ولا تسمح لأحد أن يسمع ولذا فإن لهم عذاباً شديداً.

وقوله لنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً المقصود أن نوصل العذاب إلى أدق مشاعرهم حتى يعلموا حقيقته، وهذا هو الجزاء المناسب جزاؤهم بأسوأ أعمالهم فإنه ليس أسوأ من هذا الظلم وهذا الجحود والوقوف بوجه الدعوة التي أراد الله إنقاذ الإنسان بها فالمشركون لا يؤمنون بهذا الخير ولا يدعوه يعم الناس، فكان جزاؤهم هو ما يناسب أعداء الله ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ .. فقد وقفوا سداً منيعاً ضد الدعوة كي لا تصل إلى الآخرين، فتشويشهم على الناس في سماع القرآن ومنع وصوله إلى العقلاء فهذا إظهار للعداوة لله وأوليائه وجزاؤهم المناسب هو الخلود في النار لكفرهم بكل هذه الدلائل، وهذه النصوص وجحودهم ونكرانهم لما فيها من حقائق ثابتة وأدلة دامغة واضحة.

ثم يصور القرآن الكريم حالة الندم والحنق على دعاة الشر من قبل متبعيهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٣١) فيها هؤلاء القرناء هؤلاء دعاة الضلال والظلم والكفر والجحود يريد أتباعهم أن يتقموا منهم بما زينوا لهم الشر والسوء والضلال. وقد جاء الخطاب بالثنى باعتبار الجنسين (الانس والجن) لا باعتبار الأفراد.

ولو أن دعوة هؤلاء لم تجد صدى في نفوس هؤلاء الأتباع لما ساروا وراء سادتهم فإن هناك أمثلة حية من الأتباع والرفيق الذين خالفوا سادتهم وتحملوا أشد العذاب كبلال رضي الله عنه وآل ياسر رضي الله عنهم فقد قال الحكماء (استفادة القابل من المبدأ تتوقف على المناسبة بينهما)، وورد عن الغزالي رحمه الله أنه قال: ما اجتمع اثنان إلا لعله فيهما.

وقد عبر الطاهر بن عاشور رحمه الله تعبيراً جميلاً حيث قال: (فالتقيض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التألف والتحاب بين الجماعات ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس الناس فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيئة فيها وللإحاطة بهذا المقصود أؤثر التعبير بـ « قيصنا » دون غيره نحو بعثنا وأرسلنا^(١)).

علاقة المقطع بالمحور

يكاد يكون المقطع كله للمحور فإن الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشركين الإنهزامي منه وتخطبهم في رد حقائقه وتأثيره في النفوس.

الهداية في الآيات:

- * إن الله جعل لكل إنسان سائق وشهيد ملائكة يكتبون عليه أعماله ويحصوها وإن الإنسان يختار قرناء أصدقاء وأخلاء يكونون وفق توجهه وهواه فإن كانوا صالحين فسيعينونه على الطاعة وإن كانوا غير ذلك فيزينون له الطريق الذي يختاره لنفسه فالمشرك يكون قرناؤه من نفس الفصيلة فيزينون له طريق المعصية فزين لهم الشيطان أعمالهم فصددهم عن السبيل.
- * والقضية الأخرى أن كفار مكة وعتاتها لا يستحون من عدم سماعهم القرآن لئلا يهديهم إلى الطريق المستقيم فدافعوا عن ضلالهم وهم يعلمون أنه ضلال وقد منعهم من الهدى تكبرهم وعنادهم وعصبيتهم مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم تبرأ من التعصب العرقي وحتى القومي، فيكون جزاؤهم الأوفى هو العذاب والنار التي أعدها الله لمن عصاه.

(١) التحرير والتنوير ج ٢٤ / ص ٢٧٥.

قرناء المؤمنين (الملائكة) يعينونهم على تبليغ الدعوة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُ فِي أَنْفُسِكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَيرِ رَجِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

ذكر الله جل وعلا في الآيات السابقة ندم المشركين على اتباعهم دعاة الباطل وبين حقدهم على قرنائهم الذين أوردوهم النار.

وفي هذه الآيات بين الله عز وجل أن للمؤمنين قرناء ولكن شتان بين قرناء المؤمنين وقرناء المشركين فقرناء المؤمنين ملائكة صالحون يهدوهم إلى ما يرضي الله ويعينوهم على الطاعة وفعل الخير فهم أولياؤهم وناصرهم يحبونهم ويرجون لهم كل خير فهم رفاقهم في الدنيا وفي الآخرة يبشرونهم بمصيرهم السعيد.

التفسير الإجمالي

هذا المصير الذي ناله المؤمنون بإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي أعانهم الله بملائكته على تحصيلها ووقفهم للسير في طاعته ورحمته لا بد أن يتعرض لهم الشيطان حتى يصرفهم عن طريقهم السوي ومصيرهم السعيد وعلى ذلك أعد الله لهم سلاحاً يتخلصون به من الشيطان فإن راودتك نفسك على معصية فاعلم أنها من عدوك من الشيطان فالجأ إلى الله واستجر به فإنه يجيرك بتوفيقه وبملائكته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَّلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.. للمشركين قراء وللؤمنين قراء وقد عرفنا في المقطع قبل هذا قراء المشركين شياطين الإنس والجن يقولون لهم لا تسمعوا الحق ولا تتبعوا ما ينفعكم ويسعدكم في الدنيا والآخرة ونتيجة هذا الاقتران أنهم كانوا خاسرين وأن كل واحد منهم يطلب من الله أن يجعل قرينه في أسفل الجحيم.

وهذا المقطع يتكلم عن قراء المسلمين المؤمنين، يتجلى وصف المؤمنين ومررتهم في هذه الآيات أنهم قالوا ربنا الله ولا رب لنا سواه وهو إلهنا ولا نبغي غيره ولا نشرك به ربنا الله خالقنا ورازقنا ومولانا جل أن يحتاج لسواه حتى يدير شؤون خلقه.

الذين يحفون من حول العرش هم أقران المؤمنين يقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٨]، هذه هي العلاقة بين المسلمين وقراءهم.

الذين قالوا ربنا الله أفصحوا عن معرفتهم الحقيقة العظمى عرفوا الحق للاهتمام به والانصياع لأوامره والسير على المنهج الذي أعدده للمسلمين وللناس جميعاً ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾.. شغلت الناس وخاصة المسلمين هذه الآية فما هي الاستقامة التي يقتضيها قولنا (ربنا الله)؟

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي لم يلتفتوا إلى إله غيره.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: استقاموا لله بطاعته ولم يروغوا وروغان الثعالب.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أخلصوا العمل.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أدوا الفرائض.

وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (شيتني هود)^(١) مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا

أُمِرْتَ﴾.

(١) أخرجه الطبراني (٢٨٦/١٧) رقم (٧٩٠). قال الهيثمي في المجمع (٣٧/٧): رجاله رجال الصحيح.

وفي تصور الرسول ﷺ للاستقامة المطلوبة منه وآراء الخلفاء قادة الإسلام في الاستقامة تستطيع أن تحدد نوع الاستقامة المطلوبة.

ففي أفواههم يتجلى تجريد الالهية وعدم ميل القلب إلى سوى الله أو اعتقاد فاعل في الكون سواه وأن يكون القلب خالياً من أي درن أو شائبة في توجهه إلى الله سبحانه وتعالى. وأن يؤدي ما عليه من الفرائض التي أوجبها الله تعالى أو ألزمها الإنسان ليكون مسلماً.

ومن طريف ما كتب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾.. ما كتبه الطاهر بن عاشور رحمه الله قال: ((أصلي الكمال الإسلامي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾.. فقلوه: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ مشيراً إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتمام به ومعرفة الخير لأجل العمل به فالكمال علم يقيني وعمل صالح فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني.

وأشار قوله ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق أي أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط. قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.. على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبري والقدري وبين الرجاء والقنوط وفي الأعمال بين الغلو والتفريط))^(١). وجاء في تفسير الرازي (أنها نزلت في أبي بكر الصديق قال ابن عباس لأن أبا بكر ﷺ وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير عن دينه فهو الذي قال ربي الله وبقي مستقيماً)^(٢).

(١) التحرير والتنوير ج ٢٤ - ص ٢٨١.

(٢) التفسير الكبير ج ٢٧ - ص ١٠٥.

(والاستقامة الاعتدال يقال: استقام له الأمر وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيَّ﴾ أي في التوجه إليه دون الآلهة وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى)^(١).

فبعد أن بين الله سبحانه ما وجب للمشركين بفعلهم، بين عز وجل للمؤمنين باستقامتهم فقال تنزل عليهم الملائكة وتحفظهم من الوقوع في الخطأ وتعينهم على الثبات ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].. ولا يفارقونهم أبداً ويوم القيامة يظهرون لهم ويبشرونهم ويشهدون لهم ويستغفرون لهم، وبهذا ترى الفرق بين الفريقين فقرناء المشركين يسوقونهم إلى جهنم، ويوم القيامة يرجون الله أن يضعوهم تحت أقدامهم فيكونوا من الأسفلين.

فالملائكة أولياء المؤمنين يقولون لهم لا تخافوا مما أنتم مفضين إليه، فإنها جنة ورحمة ولا تخزنوا على ما فاتكم أو ما خلفتموه من أهل وولد فسوف نرعاكم لكم ويحفظكم الله في ذريعتكم وإذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، نموذجاً لمن تصدق عليه هذه الآية فإنه نعم النموذج.

فإنه رضي الله عنه كان من أهل الثراء حينما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فأنفق جميع أمواله في سبيل الله، وعندما بايعه المسلمون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم شوهد في السوق يتاجر فاستقبله الصحابة رضي الله عنهم فقالوا ماذا تفعل وأنت خليفة رسول الله؟ قال انشغلت بشؤونكم فجاج عيالي فأعادوه وفرضوا له عطاء يكفيه وعياله كواحد من المسلمين وحينما حضرته الوفاة جمع أولاده البالغين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد. فقال لهم: لقد أخذت من أموال المسلمين الذي فرضه لي أصحابي ومنهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعثمان وأبو عبيدة وكانوا حاضرين فأمر أولاده أن يحضروا المال الذي أخذه عطاء من أموال المسلمين فجمعه وأعادته إلى بيت المال قائلاً لا أقابل ربي وفي ذمتي شيء من أموال المسلمين مع أنه عطاء يشبه الراتب وقد فرضه له الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

(١) لسان العرب ج ١٢ - ص ٢ مادة قوم.

فلما مات ﷺ خلفه الله في أهله فكلهم أختيار من قادة المسلمين من الفرسان، وبناته فقيهاً يحتلون الصدارة بين نساء المسلمين فإذا كان الخوف غماً يملأ النفس مما يتوقع من مكروه في المستقبل فلم يكن أسعد من أبي بكر ﷺ بعد رسول الله ﷺ بمصيره وإن كان الحزن غماً في النفس مما فاته من مكروه وقع له في الماضي فإن أبا بكر تحمل كل ما تحمل في سبيل الدعوة وهو أسعد الناس فيه وقد نقل له التاريخ هذه الأيام المشرقة في حياة الإنسانية.

والملائكة تقول للمسلم الذي أدى واجباته كما يريد الله وكما أمره أبشر فإنك تتبوأ داراً كما وعدك مولاك جنة عرضها السماوات والأرض لك فيه كل ما تحب وأكثر مما تتوقع ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (٣١) ﴿ نَزَّلْنَا مِنَ الْغَفُورِ رَحِيمًا ﴾ (٣٢) .. ويتجلى الفرق بين القرين والولي في هذه الآية حيث أن الولي الناصر والمعين والذي يجب ما يجب مولاة ويكره ما يحزنه فحينما يلتقون يوم القيامة لقاء المودة والمحبة فيخبروهم أنهم كانوا مناصرين لهم في فعل الخير كافين عنهم ما يغضب الله وما يسوءهم، ولكم في هذه الدار ما تشتهي أنفسكم وما تحبون وما تطلبون فالיום تجزون ما كنتم تعملون من خير وما يرضي الله وما تحملتم في سبيل الدعوة إلى الله، فإن المسلم ما دام في سبيل الله مجاهداً لنصرة دينه فإنه يشعر بسعادة لا يشعر بها إلا من عمل عمله فإن للجهاد في سبيل الله والمعاناة في نشر الدعوة الإسلامية لها لذة منقطعة النظر.

﴿ نَزَّلْنَا مِنَ الْغَفُورِ رَحِيمًا ﴾ (٣٢) .. وصف لقوله ﴿ مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ .. والنزل قالوا: ما يقدم للضيف هنيئاً لكم ضيوف الرحمن ضيوف الغفور الرحيم فلن يجاسبكم على ما أخطأتم لأنه غفور رحيم وسوف تكونوا في رحمته لأنه رحيم.

والحق أن الذي يريد تفسير هذه الآيات يجد نفسه عاجزاً أن يجاري جمال اللفظ القرآني ووضوحه.

ينتقل القرآن الكريم إلى صفة أخرى من صفات الداعية، فالآيات الأولى تكلمت عن صفات الداعية التي يحصل عليها بالمجاهدة وضبط النفس على السير وفق مقتضيات الشريعة

ومسلزمات العقيدة، أما الآيات التالية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) لا يمكن أن يصل إنسان إلى أفضل ما تتكلم عنه هذه الآية.

فمن هو أشرف مقاماً وأعلى رتبة ممن أوقف نفسه لدعوة الله؟ لهداية الخلق على طريق نجاتهم لإصلاح ما أفسد المفسدون، إن الدعوة إلى سبيل الله تنجي الأمة من الهلاك، فقد جاء في الأثر: قالوا يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم، لأن الصالح لنفسه فتهلك القرى ويبعث الناس على نياتهم أو أحوالهم ولكن لا يهلك الله القرى وأهلها دعاة فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٣٣) [هود: ١١٧].. إذن الدعوة سبب نجاة الأمة من الهلاك والإصلاح بين الرعية فيما بينهم أفراداً والإصلاح بين الحاكم والمحكومين.

وفي التفسير أن الداعية يجب أن يكون متخلفاً بالأخلاق التي يدعو لها فلا يدعو للمعروف ولا يفعلها، ويستنكر المنكر ويفعله. وغالباً ما يكون الناس أسرى المعاملة الحسنة وفي التاريخ أن جزر أندونيسيا أسلمت بفعل التجار المسلمين فقد ذهبوا إليها وأعجب الناس بحسن معاملتهم وعلموا أن هذه المعاملة ناتجة عن الالتزام بأوامر الإسلام ونواهيها.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن هذه الآية نزلت في المؤذنين واعترض عليها أن الآية مكية والأذان فرض في المدينة وفي تقديري أن لا بأس بأن تكون الآية نزلت بالمؤذنين وإن كانت مكية فهي تدعو لذلك وكثير من الآيات المكية تصف أفعالاً لم تفرض إلا بالمدينة كتحرим الميتة ولحم الخنزير والفواحش والزنا وغيرها، فإن القرآن المكي قرآن دعوة ومن واجبات الداعية رسم صورة ذهنية قريبة من الواقع أو مما يمكن ان تكون واقعاً للمجتمع الذي تريد تكوينه الدعوة في المستقبل، فالمؤذن يقول حي على الصلاة حي على الفلاح فيدعو إلى الصلاة ويدعو إلى فعل الخير والعمل الصالح، ثم يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمداً رسول الله وهذا قوله أنه من المسلمين.

ومن صفات النص القرآني أنه يشمل صوراً كثيرة ومن أوليات التفسير حمل النص على

جميع الصور التي يحتملها ما لم تكن مستحيلة الوقوع أو العمل.

ثم يعرج النص على صفة أخرى يجب أن يتحلى بها الداعية وهي احتمال الأذى من المدعويين فيقدر ما يتحمل من إيذائهم بقدر ما يدخل في نفوسهم وشواهد هذه الصفة لا تخصي ولا يغيب عن بالنا (قول هند بنت عتبة التي قتل أبوها وعمها في بدر قالت للرسول ﷺ: والله لم يكن أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا كاهل خبائك واليوم لم يكن أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا كاهل خبائك فقال لها رسول الله ﷺ: صدقت. ومثلها كثير)^(١).

وذلك أن رسول الله ﷺ ناله من الأذى ما لم يتحمله غيره وعند تمكنه من الذين آذوه قال: إذهبوا فأنتم الطلقاء ولم يؤذي أحداً منهم حتى الذين أهدر دمهم حيننا جاؤوه مبايعون قبل بيعتهم وأولهم (عكرمة بن أبي جهل)^(٢).

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) .. فيكون تعامل الداعية مع الناس هكذا وقد مثل أحد الدعاة الداعية بالطبيب والمدعو بالمرضى فالطبيب يتحمل من المريض كل سيئاته وأفعاله لأن الطبيب يريد الخير لهذا المريض الذي لا يعرف أين يكمن الخير الذي يسعد به ويعيش به حياة سعيدة.

فأيها أحسن السيئة بكل أنواعها أم الحسنة بكل صفاتها وأنواعها؟ فشأن الداعية الاتصاف بالأحسن فلا تصدر منه إلا الحسنة مهما كان المدعو سيئاً فإن الدعوة الإسلامية انتشرت بين الشعوب بهذه الطريقة.

فيعتبر الداعية المدعو كأنه من خاصته وحميم أي الذي يهم أمرك وطبعاً الذي يهم هو أمر المجتمع وما فيه من متناقضات ومساوئ يريد أن يخلصه منها بتخليص أفرادها وجعلهم معه دعاة إن بأخلاقهم أو بعرضهم الدعوة على الآخرين.

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٩٤.

(٢) البداية والنهاية (ابن كثير) (٤/١٠٣).

فتدفع السيئة بالحسنة والحسنة أقوى من السيئة فإذا أخلص الداعية لدعوته فسرعان ما تدفع السيئة وتمحى من المجتمع أو تختفي، فالحسنة هي الأحسن وهي الأقوى لأن الحسنة تؤيدها السنن الكونية وطبيعة الإنسان وفطرته وعقل الإنسان السوي فتجد الحسنة في نفس المدعو عوامل كثيرة تؤيدها وتستقبلها استقبالاً جيداً من حيث أن السيئة ليس لصاحبها حجة فيدافع عنها إلا الهوى والمغالطة والتكبر وعدم سماع الحق.

وهذه الأخلاق هبة من الله تعالى لأصفيائه هؤلاء الذين يحملون أنفسهم على تقبل الحق ولو كان مرأً وترك الباطل ولو كان مشتتهى، وقد ورد في الأثر أن الصحابة رضوان الله عليهم، حينما يفترون من مجلسهم يقرؤون ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ فيوصي بعضهم بعضاً على الدعوة والصبر على ما ينالون من مكاره في سبيل نشرها وهذه الصفات نصيب الذين اصطفاهم الله لحمل دعوته الذين يتبوؤون مكاناً رفيعاً في المجتمع وبين الناس، ولهم الدرجات العليا عند الله.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الصفات ويصفها بأجمل الصفات ويصف أهلها بأعلى المراتب.

ثم أن الله عز وجل يعلم الضعف من الإنسان فيوصي الدعاة بالثبات والصبر وتوقع الأذى وعدم الركون إلى الهوى، ويبين سبحانه وتعالى أن هذه الصفات يكرها الشيطان لأنها تقلل أنصاره فيحاول بشتى الطرق صرف المسلم عنها فإذا شعر الداعية بفتور أو كسل أو تماهل في أداء هذه الواجبات فليعلم أنها من وساوس الشيطان والنزغ الوسوسة وهو فعل الشيطان، فهو دفع المسلم بقوة خفية إلى ترك الدعوة، فإذا شعر المسلم بشيء من هذا الشعور فليستن بالله على مسبب هذا الشعور وهي وصية أن لا يفتد الداعية عن دعوته ولا يغفل عن نصر الله له وإعانة الملائكة الذين هم أولياؤه وأنصاره.

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣١ ﴾ وبقية

شياطين الإنس والجن يرصدون الداعية ويفتشون عن مواطن ضعفه وزوايا نفسه وما يجب وما يكره فيأتوه من حيث يجب حتى ليخيل له أنه يفعل الصواب، وأهم هذه الجوانب يكره له كل من يخالفه الرأي أو لديه منهج يختلف عن منهجه، فبدلاً من أن يندفع للتعاون معه وتغطية جميع الأساليب التي ينهض بها الإسلام يدفعه لمحاربته فيلهيه أولاً عن دعوته ويعطل آخر من الدعاة فينشغلون في أنفسهم ويتركون أولياء الشيطان يفعلون بالناس ما يحبون، فأمر الله الدعاة إن شعروا بشيء من هذا الشعور أن يركنوا إلى الله ويستعينوا به ويستعيدوا من الشياطين أيّاً كان جنسهم وأي أسلوب يتتهجّهون، ويستجيرون بالله فهو القوي العزيز.

والله تعالى يسمع دعائك ويعلم كيف ينصرك على الشياطين ويبعدهم عنك ويمكن أولياءك من المؤمنين ومن الملائكة.

علاقة الآيات بالمحور

إن الله في هذه الآيات بين قرناء المؤمنين وبين أن هؤلاء المؤمنين أزموا أنفسهم بالسير في الطريق الصحيح الذي أراه الله لهم وهو عز وجل بين لهم طريق الاستقامة في القرآن الكريم فيه اهتدوا وهكذا قال الله لك استقم وأنزل لك كتاباً فيه كل ما يريد الإنسان كي يستقيم.

الهداية في الآيات:

* إذا حسن عمل المرء المسلم وأدى ما عليه من حقوق وواجبات وتحرى رضا الله تعالى في عمله وانتصر لدعوة الحق فهو مستقيم، وهذا يكون له عون من الملائكة لأنها ترافقه في الدنيا وتجنبه كل ما يغضب الله وتعينه على فعل الخير وتناصره إذا دعا إلى الله وإلى شريعته وجاهد لإعلاء كلمة الله.

* وإن الملائكة تبشره أنها كانت له عوناً في الدنيا وتبشره بأنها سترعى أولاده وتعينهم على سلوك الطريق الذي يرضي الله، لأنها تقول له لا تخف من المستقبل فإنك في الجنة ولا تحزن على الماضي فإننا نرعى من هو محتاج لك من ذريتك أو من تعول.

* كما أن في الآيات ما يحث المسلم على فعل الخير إن كان مع الذين أحسنوا إليه أو الذين أساءوا إليه فإن أساء إليه أخوه المسلم فليحسن إليه ويستغفر له الله فإن الله يكافئه على ذلك خير الجزاء.

* وترشد المسلم ليكون مرتبطاً بالله تعالى ويستنجد به ويستعينه على محاربة الشيطان فإن أصابه فتور في أداء واجب شرعي فليعلم أنه من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان.

الاحتجاج بالسنن الكونية

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة بين الله عز وجل مصير الذين جعلوا القرآن الكريم منهجاً لهم به استقاموا وبه نالوا سعادتهم في الدنيا والآخرة وبين أن المكانة العالية الرفيعة في هذه الحياة هي لدعاة الحق وبين الدليل على ذلك.

وبعد هذه الأدلة على صدق الرسل وعلى سعادة أولياء الله يعرض جل وعلا للمشركين المقارنة فأيهم أحسن الفريقين الذين آمنوا وهذا مصيرهم أم الذين كفروا وهذا عذابهم؟

التفسير الاجمالي

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٧) ..

بعد أن ساق الأدلة العقلية ثم بين واجبات الداعية وما يجزيهم ربهم لقاء تحمل الدعوة إلى الله ومحاجة المشركين أخذ يبين الآيات والدلائل والسنن التي توحى للعاقل أنها مخلوقة لرب عظيم قادر، ومن عظيم قدرته في تسيير هذه الأجرام وبهذه الدقة ومكانة هذه الأجرام في حياة الإنسان، جعل بعض الناس يعبدها، فأشار القرآن الكريم إلى أنها مخلوقة وأنها لا تملك من أمرها شيئاً وأن الله هو الذي خلقها ويسرها ووضع لها سنة وقانوناً لا تستطيع أن تخالفه ولا أن تسيّر بسواه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١١).

وتشير الآية أن هناك من يعبد الشمس والقمر ففي قصة إبراهيم مع قومه تشير أنهم كانوا يعبدون النجوم وفي قصة ملكة سبأ أن قوماً كانوا يسجدون للشمس.

وهناك دلائل تشير إلى أن بعض العرب كانوا يعبدون الشمس ولذا نجد بعضهم يسمى عبد شمس، فإذا كانت الشمس والقمر والنجوم تستحق العبادة لفائدتها للإنسان ولقيام حياة الإنسان عليها فخالقها أحق بالعبادة منها: ﴿ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

والآية تشير إلى أن الإنسان لم يتخلَّ عن معرفة الله ولا ينكر وجوده وإنما يتوسل ببعض مخلوقاته إليه ولذا قال: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .. فالأولى أن تسجدوا لله وتعبدوه مباشرة من غير واسطة لأن هذه الوسائط مسيرة كالإنسان ومخلوقة ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ .. وهنا يعود القرآن إلى البيان أن سبب الكفر هو التكبر في كل الأحوال فإن استكبروا عن طاعة الأنبياء أو عن التخلي عن معبودهم الذي ألفوه، فإن الملائكة

أو الذين عند الله ربها يكونون ملائكة أو شيئاً آخر من المخلوقات العاقلة فهؤلاء يعبدون الله ويتزهدون عن الشريك الوسيط.

والعرب وسائر بني الإنسان يعلمون أن الملائكة أفضل من البشر وأقوى وأقدر فهؤلاء الذين تروهم بمرتبة عالية في القدرة والمكانة يسبحون له بالليل والنهار وقال بعض المفسرين أن تسبيح الملائكة أصبح كالتنفس للإنسان فتنفسهم تسبيحٌ وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمُونَ﴾، أي لا يملون ولا يضرجون.

فأنتم أولى بالعبادة والتسبيح وترك التكبر الذي لا يليق بكم وليس له مبرر ثم يعود القرآن الكريم على ذكر الدلائل الكونية على وحدانية الله تعالى، بتسيير الخلق فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ .. فآية أخرى ودليل آخر أنك ترى الأرض ذليلة كئيبة حزينة محزنة فإذا أنزل الله سبحانه عليها الماء دبَّت فيها الحياة واهتزت وارتفعت وانتفخت.

ويجدد بنا أن نشير أن إنزال الماء إلى الأرض معجزة عظيمة فإن السحاب وحركته وإيصال الماء إلى الصحارى والجبال مما تقف النفس الإنسانية أمامه مبهورة، وقد حاولت بعض الأمم صناعة سحاب ومطر فأنفقت أموالاً كثيرة جداً ولم تحصل على ماء أو مطر يسد جزء من ألف أو أكثر مما أنفقت فوقفت أمام قدرة الله عاجزة مقرة بأن الله تعالى هو وحده القادر.

ولو رأينا الثمار التي توجد في أعالي الجبال والنباتات التي يعتمد الإنسان عليها في حياته كالخنطة والتي يغذيها المطر في أقصى الصحارى لوجب علينا أن نسجد للذي أوصل لها الماء.

والأرض أحوالها قبل المطر وبعده تدعو للاعتبار والتدبر في هذه الحالة العجيبة، فقبل المطر تدعو للكآبة وترى خاشعة ذليلة وبعده المطر تجد فيها كل ما يدل على الحياة وتبعث البهجة في نفس الإنسان بحيويتها وما نبت فيها من الأحياء وأسباب الحياة.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ فكما ترى الحياة في الأرض بعد المطر وتعلم أنه لم يستطع

أحد سوى الله سبحانه وتعالى، فكذلك إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة، وكما جاء في الأثر أن الإنسان ينبت كما ينبت النبات وبذرتة عقب الذنب أو نهاية العمود الفقري، وقد علم الإنسان مؤخراً أن الهندسة الجينية وعوامل الوراثة جميعاً في عقب الذنب، كما جاء في حديث الرسول ﷺ، لو كان في الناس عقل لاستحووا، ولكن التكبر هو الذي يمنعهم لثلا يقال أنهم اتبعوا المسلمين في عقيدتهم لأن أحوال المسلمين لا تدعو إلى الاحترام في هذا الوقت ولو أن للمسلمين مكانة في المجتمع الإنساني لرأينا أول من يسلم هم العلماء في كل أمة.

بعد هذه البراهين الساطعة والحجج الدامغة لم يبق إلا أن يهددهم الله بمصيرهم، مصير المغالطين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فالذين يميلون عن الحق ويكذبون كل الدلائل والبراهين على وحدانية الله وألوهيته مرصودون ومحاطون بعلم الله، فلا يخفى عليه خافية منهم فسوف يعاقبهم على هذا العناد فهم ﴿ أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيهِ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾، فالذين آمنوا يقول أحدهم ﴿ هَآؤُمْ أَقْرَبُوا كِنْيَةً ﴾ [الحاقة: ١٩] فرح فخور بما أدى إليه إيمانه أما الآخر فيقول ﴿ يَلْتَنِنِي لَمَّا آتَتْ كِنْيَةً ﴾ [٢٥] ﴿ وَلَمَّا آدَرَ مَا حَسَابِيَةَ ﴾ [٢٦] [الحاقة: ٢٥-٢٦]. فأيهما أفضل؟ الذي يأتي ربه تسلم عليه الملائكة ويحتفل به المؤمنون ويقال لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين أم الذي يلقي في النار؟

ويعود القرآن الكريم إلى التهديد ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وسوف يجاسبكم ويجزيكم بما عملتم، مشيراً إلى أنكم أيها الكفرة سيطالكم العقاب لأنكم لا تستطيعون أن تخفوا شيئاً من أعمالكم ولا من عقيدتكم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [١٣] ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣-١٤].. فهو الذي خلق الصدور ويعلم ما تستوعب وما تخزن.

نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما

وروي أن قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيهِ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ نزل في أبي جهل، وعثمان بن عفان ﷺ، وهي صورة جميلة من صور المقارنة، لأن أبا جهل سيجر في النار. وعثمان بن عفان حينما حوضر في الدار رأى ليلة قتله رسول الله ﷺ في المنام يقول له اختر أن

تقاتلهم وأنت على حق وهم على الباطل أو نفطر معاً هذه الليلة (وكان ﷺ صائماً) فاختار الالتحاق برسول الله ﷺ.

فهل هناك اطمئنان وأمن من المستقبل أكثر من هذا!!؟.

علاقة الآيات بالمحور

لا تفارق السورة محورها فإنه تعالى بعد أن تكلم عن السنن الكونية وأنه عزوجل خلق الكون وجعلها له نظاماً قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ وهذه الآيات في القرآن الكريم الذي هو محور السورة.

من الهداية في الآيات:

* أنها تشير إلى الذين يسجدون للنجوم والشمس والقمر وهم في هذه الأزمان النصيرية (العلي اللهية) الذين يرون في علي روحاً إلهية يرون أن الشمس تبسمه ولذا فإنهم يسجدون للشمس وقديماً كان أهل بابل يعبدون النجوم ومن قریش من كان يعبد الشمس فوجد فيهم عبد شمس، وعلى كل حال تقول الآيات أن هذه مخلوقة لله فالأولى السجود للمخلوق وليس للمخلوق، وهو إرشاد بعدم الخضوع والتذلل لغير الله.

* وفي الآيات إشارة إلى أن الملائكة لا تفتن عن تسييح الله تعالى ولا يملون.

* كذلك تشير الآية إلى أن جميع مخلوقات الله تسبحه وتنزهه عن الشريك في الذات وفي الصفات وفي الأفعال.

* وأن الله يحيي الموتى ويبعثهم والدليل أن الأرض في الجذب كل ما فيها يشير إلى الموت، فإذا سقاها الله الغيث، فترى كل ما فيها يدل على الحياة، فالذي أحياها بعد الموت قادر على أن يحيي الإنسان بعد موته.

صفات القرآن الكريم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبٌ غَزِيرٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ أَعْجَبٌ وَعَرَفٌ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَمِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

علاقة الآيات بما قبلها

انتهت الآيات في المقطع السابق بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ .

وهذه الآيات والدلائل كلها أوردتها القرآن الكريم دليلاً على صحة توجهه وصواب دعواه جاء هذا الدستور العظيم الذي عجز البشر أن يعارضوه أو يجدوا فيه خللاً أو نقصاً أو خطأ، ألم يكن الأولى للعقلاء أن يتبعوه ويسيروا وفق ما جاء به .

وفي النهاية من عمل صالحاً فلنفسه فينقذها من العذاب ومن أصر على الكفر أورد نفسه سوء المصير .

والبرهان الآخر هل يستطيع أحد أن يعلم متى تقوم الساعة أو يستطيع أن يعلم ساعة موته وسببه وإذا كان مستحيلاً ألم يكن الأولى أن يدعن للحق .

التفسير الاجمالي

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبٌ غَزِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ .. لا يبعد النص عن المحور حتى يعود إليه ليدكرنا ولا يدعنا ننسى ما جعلته السورة موضوعها الرئيسي ومحور حديثها وهو القرآن الكريم .

فالحديث في أول السورة عن أن القرآن الكريم تنزيل من الرحمن الرحيم وأنه أنزل على قوم يعرفونه حق المعرفة، حتى لا يبقى لأحد منهم عذرٌ في جحوده وعدم الإيمان بحيثياته وبوصفه للعقيدة السليمة، فيقرر أن الجاحدين لا يحملهم على الكفر إلا التكبر والمغالطة ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آءَادَانِنَا وَقُرْ﴾.

وفي وسط السورة يبين النص أنهم متيقنون من أن هذا القرآن حق، وأن منطقهم لا يغلب وحججه لا ترد، ولا سبيل إلى محاربتهم إلا بمنع الناس عن سماعه ولو بأخس الطرق ﴿وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وتعطيك السورة صورة من صور الانهزامية لا تليق بعاقل: من أول السورة إلى وسطها إلى نهايتها.

وفي هذا المقطع تبدأ بحقيقة مقررة وهي ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وحذف خبر أن وشرق به المفسرون وغربوا فمنهم من حذفه ومنهم من جعله في آخر الكلام، وتقدير المحذوف أيضاً أولوه تأويلات مختلفة.

وأجمل تعبير عن هذا الحذف قول سيد قطب أن اسمها بقي مجهولاً حتى يصح فيه كل وصف ويخطر في بالي أننا نستطيع أن نقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ سخفاء أو سفهاء أو لا عقل لهم أو لا دراية لهم أو مغالطون أو مجانين لأنه لا يكفر به عاقل سوي.

ثم وصفه الله ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتَبٌ عَزِيزٌ﴾.. وقال الألوسي: العز: حالة مانعة للإنسان عن أن يغلب^(١). فهو كريم على الله وهو منعدم النظر وهو ممتنع عن المعارض وهو ممتنع عن العيب أن يصيبه.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٤٤).. فلم يأت قبله كتاب أو معلومة تخالفه أو تبطل ما فيه من حقائق أو علوم أو أخبار، فجميع الكتب التي

(١) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني لأبي الشفاء الألويسي ج ٥٢ - ص ٦.

جاءت قبله تؤيده وتؤكد حقائقه وأخباره.

مما حمل اليهود أن يحرفوا التوراة لأنها تؤيده وتؤكد حقائقه حتى بعثه النبي محمد ﷺ المذكورة في التوراة وقال صادقوا لليهود للرسول ﷺ نجدك في التوراة باسمك وصفتك، ولما كانت التوراة محصورة عند علماءهم حرفوها وحذفوا اسم الرسول ﷺ وصفته لئلا يطلع عليها عامة اليهود فيسلموا.

وهذا يحملنا على القول أن جميع الكتب التي تسمى مقدسة والتي هي عند أصحاب الديانات من اليهود والنصارى، إذا وجد ما يخالف القرآن الكريم فإنه محرف أو محذوف منه ما يؤيد القرآن الكريم.

كما أن القرآن الكريم أشار إلى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى حرفوا الكتب التي عندهم والتي ورثوها عن أنبيائهم كما يزعمون ولا أدل على تحريفها من تعددها واعتبار كل مذهب من مذاهبهم أنجيله هو الصحيح حتى قال بعضهم عن بعض أناجيل غيرهم أنها من تأليف جهال النصارى.

كما أنها تتغير في كل عقد من الزمان أو أكثر بقليل حتى أن الطبقات الأخيرة تختلف عن الطبقات التي قبلها، هذا تفسير الجزء الأول من الآية وهو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾. أما الجزء الثاني وهو ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾.. فهو تحد سافر للبشر أن يأتوا بما يشهد خطأه أو كذبه.

فإن جميع البحوث العلمية التي يقوم بها الغربيون والتي يريدون بها تكذيب القرآن الكريم تثبت صحة ما جاء في القرآن الكريم من الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة قبل مائة عام وقد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة عام.

فسوف لن يأتي شيء يكذب القرآن أو يخطئه في علم أو خبر، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو أن الغربيين وجدوا شيئاً يشهد بخطأ القرآن الكريم أو كذبه لطاروا به ولنشروه حتى لا تجد بيتاً من بيوت المسلمين إلا وفيه هذه الشهادة ولكنهم يسوا من أن يجدوا طعنًا في القرآن الكريم، فراحوا يستشهدون بواقع المسلمين على خطأ الإسلام وهذا الواقع ساهموا به بكل سفالة وهمجية وانحطاط وهم يدعون التقدم والرقي.

فلن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد لأن الحكيم هو الذي يضع الأمور في نصابها وفيما تجب له، لأن الحكمة هي المعرفة الحقيقية.

والحميد كامل صفات الخير، أي المحمود المثني عليه بحق الذي يستحق جميع الصفات الكريمة فيثنى عليه فيها.

فهي علة لكونه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإن مُنَزَله يعلم ما سبقه من العصور وما كان فيها وما سيأتي بعده إلى يوم القيامة وما سيحدث فيها.

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ .. ما الذي يقال ومن ذا يقول؟ إذا كان القائل هو مرسل الرسل فإنه سيحملك من الشريعة ما حمل الرسل قبلك ويأمرك بالدعوة إلى ما أمر به كوكبة الرسل منذ أن كان الرسل وما أمروا أن يقدموا للإنسانية من العقائد السليمة والشريعة الغراء التي تصلح للإنسان ويصلح بها.

فليس عليك أن تضجر أو تبرم وهو حاشاه عليه الصلاة والسلام من أن يضجر فهي وصية للدعاة إلى دينه (لما بين تعالى أن الدعاء إلى الله وإلى دينه من أعظم القربات وأنه يحصل ذلك بذكر دلائل التوحيد والعدل والبعث).

ومما قيل للرسول ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .. فهو عز وجل غفار لذنوب من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً وعاد إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم وهو أليم العقاب لمن أصر على كفره بعد أن شاهد كل هذه البراهين والأدلة وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٦﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].. فقد جاء في صحفهم وصفاً لأقسام الإنسان وهنا وصفاً لجزء كل صنف بمعتقداتهم.

والوجه الآخر أن القائل هم الناس فإن الناس الذين أرسل لهم الرسل قالوا لرسولهم ما قالته قريش لك من كذاب ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].. أو ساحر أو مجنون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].. وهكذا ديدن الشعوب مع الرسل وأممهم فإنهم يكذبون الرسل ويؤذونهم بالقول وغيره.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.. قال بعض المفسرين أن هناك من قال ما جاء في القرآن أعجمي أو أن فيه أعجمي أصلاً لأن بعض الألفاظ كانت مما استخدمه الأعاجم أو مما تشترك فيه اللغات غير العربية، والوجه الآخر أن هؤلاء يكذبونك ويكذبون القرآن على أي حال جاء لأن تكذيبهم لم يكن وفق منطق معين أو توجه عقلائي، وإنما هو مجرد عناد ومغالطة وتكبر، فلو كان أعجمياً أو بأي لغة لقالوا لولا فصلت آياته وبينت ووضحت، ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ في أغلب القراءات همزتين إحداهما استفهام إنكاري وبعض القراءات على همزة واحدة كأنه خبر فيكون محتوياً للثنتين العجمي والعربي فيكون في القراءة الأولى وهي الإنكار معناه كيف يكون أعجمياً يخاطب عرباً، أو كيف يكون غير فصيح لأن الأعجمي غير الفصيح عربياً كان أو غير عربي، فكيف يكون غير فصيح ويخاطب قريشاً التي هي أفصح العرب، أو كيف يكون ركيكاً فتضطرب معانيه ولا يفهم المراد منه فهماً دقيقاً وهذا ما أرجحه والله المستعان. فلو لم يكن في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة لكان لهم فيه مقال كيف وأن أفصحهم وأبلغهم وهو عتبة بن ربيعة يشهد ببلاغته.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.. وحاصل الأمر أن القرآن الكريم هو الطريق المستقيم والمنهج القويم فهو للذين آمنوا المنهج الذي يسرون عليه فينقذهم من جميع الأمراض

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تصيب النظم الأرضية الوضعية والتي هي ماثلة أمامنا في العالم سابقاً وحالياً.

والذين لا يؤمنون ولا يصدقوه يصيبهم بجميع الأمراض في آذانهم ثقل وفي قلوبهم مرض وفي نفوسهم ضلال وهو عليهم عمى فإنهم يتخبطون فلا يعرفون كيف يصرفون أمورهم كلما طبقوا نظاماً مما تمليه عليهم شهواتهم وأهوائهم يجدون غيره أحسن ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].. وهكذا يورثهم تركهم للقرآن جميع الأمراض. ﴿أُولَئِكَ يَتَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.. فهؤلاء لا يسمعون داعياً ولا يجوبون مصلحاً فالحق في واد وهم في واد، فلا هم على حق ولا هم قرييون منه ولا يجوبون أن ينصلحوا أو يسيروا وفق ما أراد الله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾.. فلم تكن الكتب السابقة بمنأى عن الطعن والاختلاف فقد أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، حتى بني إسرائيل الذين أنقذهم من ظلم فرعون لم ينسجموا جميعاً مع التوراة فسرعان ما عبدوا العجل وقبلها قالوا للموسى اجعل لنا آلهة كما لهم إله، ونسوا ما جاءهم في التوراة التي أنقذهم موسى من ظلم فرعون الذي مكثوا معه دهرًا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.. وقد جعل الله حساب الناس يوم القيامة وقال سبحانه وتعالى: ﴿السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.. ولولا كلمة الله التي أجل بها عقابهم إلى يوم يبعثون، لحكم بينهم بين المختلفين الذين اختلفوا في موقفهم من كتاب موسى واختلفوا في القرآن الكريم وجميع الأنبياء فإن الله جعل يوم الفصل هو يوم القيامة، حينما يحشر الناس جميعاً وتدعى كل أمة بإمامها وهذه حكمة الله وحلمه فإن في الوقت فسحة للتوبة والرجوع إلى الحق الأبلج.

وخير ما يصدق في هذه الحالة ما حصل لقريش حينما قالوا للرسول ﷺ: في آذاننا وقر وبيتنا وبينك حجاب ولا نفقه كثيراً مما تقول ولم يلبثوا كثيراً حتى جاء سبعون منهم أسلموا

على يد الرسول ﷺ، وقالوا كنا نكذب فإننا سمعنا القرآن الكريم واهتدينا بهديه.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤٦) والنتيجة

الحتمية في نهاية المطاف، كل يجازى بعمله فإن الله لا يزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا ينقص من ملكه عصيان العصاة.

ولذا فإنه سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث القدسي (إنها هي أعمالكم أجزيكم بها). فمن عمل صالحاً وأطاع الله ورسوله وسمع كلام الله فحكم به عقله وأدار الأمور في نفسه فتبين له صدق الصادقين وكذب المعاندين فإنه سيجزى خيراً، ومن أدار ظهره للحق وأساء موقفه وعمله من القرآن الكريم وما جاء به من خير فلا يلو من إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يظلم الناس لأنهم عنده سواء الطائع والعاصي.

علاقة المقطع بالمحور

المقطع جميعه تكلم عن القرآن الكريم ويتحدى الله الناس أن يأتوا بمثله أو يجدوا فيه ما يخالف الحقائق العلمية أو تثبيت التاريخ الماضي أو المستقبل أنه خالف حقيقة ثابتة، ثم يبين أنه لم يكن أول كتاب يكفر به الناس مع نصوص حقائقه وإنما هذا شأنهم في الكتاب الذي أنزل إلى موسى وغيره من الرسل.

الهدايات في الآيات:

* إن القرآن الكريم يتحدى الناس أن يأتوا بشيء يكذبه أو أن يذكر قبله كتاب ناقض حقيقة من حقائقه فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلم يأت قبله كتاب يناقضه ويثبت خطأه كما لن يأت كتاب يناقضه أو حقيقة علمية تكذب ما فيه وهذا دليل إعجازه.

* إن الله تحدى الناس أن يأتوا بمثله وتحداهم أن ينقصوا منه حرفاً أو يزيدوا عليه حرفاً أو كلمة.

- * إن الناس يكذبون الرسل وما جاؤوا به من الهداية فليس القرآن ولا الرسول ﷺ أول من كذبه قومه فقد كذب الناس جميع الرسل ولكن الله انتصر لدعوته ونصر رسله.
- * إن الله يمهل الناس فيحاسبهم يوم القيامة أو يهلك الظلمة في الدنيا.

علم الله الذي لا يستطيعه غيره

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۗ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ ۖ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

علاقة المقطع بما سبقه

تكلمت الآيات السابقة عن القرآن الكريم وحقيقته وهنا يبين الله عز وجل علة كون القرآن لا يكتنفه الخطأ أو النقص وهي أن منزله هو الله عز وجل الذي يرد إليه علم الساعة فلا يعلمها سواه فإذا كان من عند من أحاط بكل شيء فحتماً سيكون القرآن متحدياً للنقص والخلل.

التفسير الاجمالي

فإذا علموا مصيرهم وهم مشفقون من العذاب فما فائدة طلبهم الخير في كل وقت، والخير كل الخير في طاعة الله.

لابد للإنسان من يوم يتتصف المحسن من المسيء والمظلوم من الظالم ولولا ذلك اليوم لاختل نظام الكون ولشعر الإنسان أنه مظلوم بأصل خلقه، إذ كيف تتساوى نهاية المجرم والمحسن وكيف تنصلح الأخلاق ويتعامل الناس إذن لابد من يوم تجتمع فيه الخلائق ويتقاضى الناس سيئهم ومحسنهم فيأخذ كل جزاءه.

ذلك اليوم يوم القيامة وهنا عبر عنه القرآن الكريم علم الساعة. ساعة الحساب ساعة الجمع، متى هذا اليوم وهذه الساعة؟ هذه التي اختص الله جل وعلا بها، فلا يعلمها سواه. وهناك أحاديث كثيرة أهمها ما رواه البخاري ومسلم من حديث جبريل إذ سأل الرسول ﷺ متى الساعة قال: ما المسؤول بأعلم من السائل، (أي لاجبريل وهو سيد الملائكة ولا الرسول ﷺ وهو سيد البشر يعلم وقت قيام الساعة)^(١).
والتعبير القرآني دقيق وجميل فاختص الله بعلم الساعة، إليه يرد علم الساعة فلا يعلمها ولن يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿ وَمَا تَخْجُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴾.. فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله جل وعلا، ولم يقل لن يعلمها غيره فعلمه أحاط بها إحاطة كاملة تفصيلية ولكن من الممكن أن يعلمها غيره والتعبير يحتمل ذلك إذ أنه ذكر أنها تقع في علم الله كسائر المخلوقات وتصرفاتها ولكن من الممكن أن يعلمها أو بعضها غيره.

أما الساعة أو يوم القيامة فلا يعلمها سواه إن كان وقت موت الإنسان أو يوم حشر الناس جميعاً ومحاسبتهم فهذه لا يعلمها غير الله، فمهما استخدم من آلات ومهما اتبع من أساليب أو آلات هل يستطيع أحد أن يخبر عن يوم القيامة؟ ولا ساعة موت الإنسان ولا وقته ولا مكانه ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].. فهذا ما لم يتوصل له الإنسان ولن يتوصل.

وقد قال إن الغيبات المذكورة يعلمها الله، فالثمرات حينما تكون في أوعيتها والأنثى حينما تكون حاملاً يعلمها الله عز وجل وأنثى الإنسان والحيوان على حد سواء في علم الله وحينما تضع الأنثى حملها يعلمها الله سبحانه.

ثم يستأنف القرآن الكريم الحديث عن موقف المشركين يوم القيامة فيسألهم الله سبحانه

(١) البخاري (٢٧/١) رقم (٥٠)، ومسلم (٤٠/١) رقم (١٠).

أين ما أشركتموني معه أو أشركتموه معي في النفع والضر والعبادة والألوهية، هذه المخلوقات التي جعلتموها أندادا لله تبرأت من عبّادها أو تبرأتم منها (أذناك) ما لها سواك رباً وإلهاً ولكن هذا الإيمان لا فائدة منه فالله مدح المسلمين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣]، لأن الإيمان يوم القيامة أصبح إيمان مشاهدة وليس غيباً ﴿ ءَأَذِّنَا مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أي أعلمناك أو أسمعناك أو اسمح لنا نقول ونعتقد أن لا يوجد إنسان، في هذا الوقت إلا يؤمن بوحدانيتك وفاعليتك بالكون.

فأنكروا شهادتهم بهذه الآلهة وكذلك تبرأت الآلهة منهم إذ جاء في الأثر أن الأصنام والأوثان تقول للإنسان ما طلبنا عبادتك لنا فهي تتبرأ منه أيضا وضل عنهم أي غاب عنهم ما كانوا يشركونه مع الله بالتوجه أو العبادة أو الفاعلية فأولاً يشهدون أنهم لا يشركون بالله فلم يروا فعلاً من غيره ذلك اليوم ففي هذا اليوم الملك الوحيد والحاكم المطلق والقاضي هو الله.

فشهدوا أنهم لا يعبدون سوى الله، ولا يشركون به فيما منا من شهيد يشهد أنا نعبد سوى الله. فحتماً يسألهم الله أين ما كنتم تشركون يقولون ضلوا عنا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ من قبل من دون الله فقد غابوا وتلاشوا، وقد علمت الخلائق المكلفة أنه ليس غير الله يحكم بين العباد في هذا الموقف وحينما ينادي سادتهم في الدنيا ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءِي ﴾ ويقولون ليس لك شريك ولا ند من قبل وعلموا أنهم محاسبون على فعلهم وليس لهم مخرج من هذا الموقف العظيم وظنوا هنا معناها علموا فقد تيقنوا أن ليس لهم مخرج من هذا الموقف ولا فرار من هذا العذاب ﴿ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].. فإلههم من محيص أي مهرب من المأزق.

علاقة المقطع بالمحور

ذكر الله هذه الحقائق جميعها في القرآن الكريم الذي قال الله عنه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ فتكون هذه الحقائق مادته وعلته أيضاً.

الهداية في الآيات:

- * إن الله سبحانه انفرد بعلم الساعة أي يوم القيامة فلا يعلمه غيره حتى الملائكة كما جاء في الحديث أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن الساعة فقال له: ليس المسؤول بأعلم من السائل. أي لا جبريل ولا الرسول ﷺ يعلمون موعدها، حتى موعد موت الإنسان لا يعرفه ولا سببه أحد حتى الإنسان نفسه.
- * إن الله أحاط علمه بكل خلقه ما يخفون وما يعلنون فهو واقع في محيط علمه.
- * إن المشركين يتبرؤون يوم القيامة من معبوداتهم فينكرونها كما أن المعبودات ينكرون أنهم طلبوا منهم أن يعبدونهم.

تردد الإنسان نفسياً من الأحداث حوله

﴿لَا يَسْتَعْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْثُ فَنُوْطُ﴾ (٤٩) وَلَيْنَ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُوْلَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة قال تعالى ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيصٍ﴾ (٤٨)

وفي هذا المقطع يقول الله عز وجل ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فينبئهم بما ضل عنهم

وهذه نتيجة حتمية لما لا يمكن أن يفر الانسان منه ولا يستطيع أن يخلصه منه أحد من الذين أشركهم مع الله مما أعد الله جزاءً وفاقاً.

التفسير الاجمالي

وهكذا الإنسان إن أنعم الله عليه قال هذا من جهدي وسعيي كما قال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ وإذا أصابه سوء أو أذى فيلج في طلب رفع الضر عنه.

ألم يبلغك أن الله أنزل قرآناً فكذبه فإذا علمت أنه من الله أو كنت بين التصديق والكفر فأَيَ الطريقين أسلم ألم يكن اتباعك القرآن مع شكك به خير لك من العناد فإنه سوف ينالك وعيد الله لك ولا يضرك لو اتبعت القرآن فسوف تعلم حقاً أنه من الله ويزول شكك ولم تكن قد خسرت شيئاً باتباعك له.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطًا﴾ وفي هذه الآيات يعالج القرآن الكريم الحالة النفسية للإنسان بعد أن يصفها وصفاً دقيقاً، فلا يمل الإنسان من طلب الخير، فسر قسم من العلماء الخير بالمال وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الخير يراد به المال في كثير من الآيات. ولكن هذا لا يطرد فقد ورد الخير في آيات من القرآن الكريم يراد به كل ما يجلب نفعاً للإنسان في الدين أو في الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].. فلا يراد هنا المال بأي حال من الأحوال.

فالإنسان لا يمل من طلب المال أو الصحة أو كل ما يجلب له نفعاً. ولكنه إن مسه الشر أي أنواع الشر، نقص في المال أو الجاه أو الصحة فينقطع أمله في النجاة أو عود الخير له ويظهر ذلك في تصرفاته وعلى وجهه فالقنوط أعلى أنواع اليأس لأن اليأس من أعمال القلب فإذا ظهر أثره على الوجه فإنه قنوط.

فهو يقنط لأي سوء أصابه لأن ارتباطه بالله ضعيف جداً وكما مر بالآيات السابقة أن ظنهم بالله أرداهم فالمؤمن إن أصابه خير شكر وإن أصابه ضر صبر وبكليهما ينتظر الأجر من الله فهو سعيد في الحالتين.

﴿وَلَيْنَ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ .. وهذا هو شأن الإنسان

فإن قارون حينما أتاه الله الثروة الكبيرة قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨]، وكذا صاحب الجنتين قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦]، والإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان ينسى فضل الله عليه بالنعمة فإذا أصابه ضر تذكر الله جل وعلا عكس المؤمن ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولهذا حينما يؤتاه الله خيراً برحمته يقول هذا ما استحقه بمكانتي وبعملي أو بمركزي الاجتماعي ولا يشكر الله الذي أسدى إليه النعمة ولا يعلم أن هذا الخير اختبار له أشكر أم يكفر؟ ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾، فهو يكفر بالحساب بعد الموت ويقول لو قلت أن هناك حشر وحساب وحياة أخرى فإني سوف أحظى بنفس المنزلة التي كنت عليها في الدنيا لأنه ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾، فإذا كانت هذه من استحقاقاته وليس بفضل من الله فإنها في الآخرة كذلك فيجيبه الله تعالى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.. فيخبره الله أن أعمالك هذه في الدنيا وكفرك ومحاربتك الدعوة تستحق عليها هذا العذاب الشديد فإن الغلظة هي الشدة في جميع الأمور.

ولا تستحق الحسنى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ جَانِبِيهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ يتكرر الموقف بصور مختلفة، لأن الحالة تتكرر كثيراً، فهو لا يسأم من طلب الخير وهو يتضجر إن أصابه ضر وعندما يؤتاه الله تعالى خيراً فإنه يقول أن هذا ما استحقته، ولذا يأتي النص القرآني يكذبه، فيقول الله له إذا كان هذا ما تستحقه بعملك أو بعلمك أو بمقامك عند الله فلم أذهب الله عنك؟ أو لم ذهب عنك!!؟ والبطر والتكبر لا يفارق الإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان، فإذا أصابته نعمة تكبر ونأى بجانبه فهو يعرض ويتكبر ويتبختر بمشيئته وإذا ذهب عنه نعمة الله يعود إلى الله متضرعاً ناسياً كفره لنعمة الله عليه، تكبره على خلق الله ادعائه العظمة والنباهة والحذق. نهاذج كثيرة يبرزها القرآن الكريم عن هذه الحقائق.

نعوذ بالله من البطر والأشر والتكبر والجحود وكفران النعمة.

نزلت هذه الآيات في كفار قريش كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

علاقة الآيات بالمحور

لقد نبأ الله الإنسان بكل ما عمل ولقد ذكر له في القرآن الكريم كل ما سوف يناله في أي صورة من الصور كان عمله أو عقيدته ولكنه أعمى عيونه وأصم آذانه عن كل الحق.

الهداية في الآيات:

- * إن الإنسان لا يمل من طلب الخير إن كان مالاً أو كل ما يجلب له نفعاً وإذا مسه الشر فسرعان ما ييأس ويظهر على وجهه وفي تصرفه اليأس والقنوط.
- * إذا خول الله الإنسان نعمة فسرعان ما يدعيها ويعتبرها من مستحقاته ومما يجب له.
- * يعتبر كل نعمة أصابته أنه حصلها بعلمه وبعمله وبما يستحق.

تحقيق أن القرآن من الله جل وعلا

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَتْرِيهِمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيضَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَنْهَوُا عَنْ شَيْءٍ مُّحِيطٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

علاقة الآيات بما سبقها

كأن هذه الآيات لها علاقة بجميع السورة لأنه في هذه الآيات يدعو إلى التفكير ثم يبين أن جميع ما في الكون يدل على أن القرآن الكريم من الله فبعد أن ذكر صفاته وما احتواه من إشارة إلى السنن الكونية وغيرها.

يقول ﴿ سَتْرِيهِمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ وبهذه الآيات سيعلمون أن القرآن حق وأن منزله هو الله عز وجل لأنه لا يستطيعه مخلوق.

التفسير الاجمالي

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .. القرآن منزل من الله تعالى، فاعرضوه على عقولكم وناقشوه مناقشة من يفتش عن الحقيقة حتى لو كان مصدرها عدوه، فإذا ثبت أنه من عند غير الله فأنتم على موقفكم ولكن إن ثبت أنه من عند الله فستكون خسارتكم عظيمة وخيبتكم ثقيلة ولا يمكن التراجع.

ولذا فإن الله قال لا يوجد ضال أكثر ضلالاً من المغالطين، الذين هم في شقاق ونزاع ورفض لكل سبل الخير والمنطق السوي والعقل. هل بعد هذا الضلال من ضلال.

فموقف المشركين المغالطين من القرآن الكريم أولاً قالوا قلوبنا في أكنة وثانياً قالوا بيننا وبينك حجاب وثالثاً قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه فاتبعوا جميع السبل غير العاقلة والتي تدل على جهلهم ومغالطتهم وعدم قبولهم الحق.

فهذا يدل على قوة القرآن الذاتية ودخوله النفس الإنسانية من أزهى جوانبها وثالثاً يرسم الحياة الإنسانية الكريمة التي لا يسع أحد رفضها ولا يستطيع أحد أن ينقضها أو يأتي بخير منها.

﴿ سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .. إن هذا القرآن كالخارطة للكون في جميع جزئياته ولذا فإننا نرى في كل جيل ما يكشف أن هناك حقيقة في القرآن الكريم لم يدركها الناس في وقت سابق.

والاكتشافات العلمية في جميع آفاق الكون وفي جميع مناحيه وأبعاده والسنن التي بني عليها تدل على صدق القرآن ومن وقت قريب اكتشفوا أن البحار تحتفظ بخصاياتها حتى في مواطن التقائها ولا تختلط ببعضها. فقال لهم المسلمون إن القرآن الكريم قال لنا ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْهَمَا بَرَزٌ لَا يُعْيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٣]..

وقبلها علموا أن المعادن تتكون في الجو هي وأسباب الحياة الإنسانية كالمياه العذبة وغيرها فقال لهم المسلمون أخبرنا الله في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ﴾.

وفي كل وقت يكتشف الإنسان أن في نفسه في جسمه في تركيبه أشياء تظهر تباعاً ذكرها القرآن الكريم ولكن الناس عنها غافلون أو أن كل جيل يفسرها بما توصل إليه من علوم فالنفس الإنسانية فيها أغوار وزوايا لا يعلمها إلا الله.

فالآية فيها دليل إعجاز يقول للإنسان أتحدّك أن تقول أنك علمت كل ما في القرآن الكريم من العلوم، فكل جيل من العلماء يكتشفون في جسم الإنسان وفي نفسه أشياء لم يطلع عليها أسلافهم ويقول أتحدّك أن تدرك حقيقة نفسك التي بين جنبيك.

ولذا فإن الله تعالى قال سنريهم كل ما يدل على أن القرآن حق وأنه من عند الله أن في الطبيعة التي حولنا أو في النفس الإنسانية التي بين جنبينا.

ويعود السياق يذكر ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.. متى تعودون إلى الله وتتبعون كتابه وتتهجون نهجه؟

الدولة الإسلامية التي سبقت الغزو الغربي الذي فرق المسلمين على دول صغيرة تعمل برأيه وتآمر بأمره هذه الدولة كان وجودها يدل على أن الإسلام هو الأقوى وأن القرآن هو النهج الحق الذي تسعد الإنسانية باتباعه ولا تسعد غيره.

ولذا فإن القرآن الكريم يصرخ بالمسلمين صباح مساء أن لا تتبعوا مناهج غير الله ولا تسيروا بمناهج أعدائكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، و﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٣].

وينادي المسلمون أن هذا طريق الفلاح والنجاح والعزة والكرامة فتوحدوا فإن الله وحدكم بالقرآن فتوحدوا به وله حتى تحكموا العالم وتتصدروا الإنسانية كما وضعكم ربكم له من مكانة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون

ميزان القيم وتقيمون اعوجاج الإنسانية التي شققت به؟

﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ..

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٥٤) هذا الابتعاد وهذا التخبط مبعثه شكهم في لقاء الله ومحاسبتهم عما انتهجوا، وعما هم فيه من الشقاء الذي جلبوه لأنفسهم.

إن الله يعلم متقلبكم ومثواكم ويعلم ما في نفوسكم ألم يكن يعلم ما تعملون؟ ألا إنه بكل شيء محيط ولكنكم غافلون ساهون لا تريدون النجاة.

علاقة المقطع بالمحور

لا يمكن أن تفارق السورة محورها وموضوعها وكلما استطردت في الأدلة والشواهد نجدتها شواهد قرآنية أو على ما يعنيه القرآن الكريم، وفي هذه الآيات دعوة للإنسان على تدبر القرآن الكريم ستجد جميع ما في الكون يشهد أن القرآن الكريم منزل من الله عز وجل وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الهداية في الآيات:

- * إن الله سيظهر للإنسان أن القرآن حق وأنه من عند الله فثبت بالدلائل في الحال والمستقبل أنه من عند الله، وقد ظهرت هذه الدلائل فإن علماء اليهود والنصارى في كل جيل يظهر منهم من يكتشف أن ما جاء به القرآن حق وأنه من عند الله.
 - * إن اكتشاف الإنسان لنفسه وعملياته الحيوية تشير إلى أن الذي أخبر به القرآن الكريم عن نفس الإنسان وعن أعماله الحيوية هو الصدق.
 - * إن تشريعات القرآن الكريم تثبت يوماً بعد يوم وفي كل جيل أن القرآن هو الصدق وهو الذي شرع للإنسان ما ينفعه من حيث أنه لم يستطع أن يشرع لنفسه ما يسعدها.
- من ذلك انتشار المصارف الإسلامية في غير بلدان المسلمين فقد أثبتت أن تنظيم القرآن

الكريم للاقتصاد هو الذي ينفع الإنسان.

* حرم الله الربا والإنسانية يوماً بعد يوم تثبت أن الربا كارثة إنسانية ؟؟؟؟

وغير ذلك فإن الله تعالى أرانا في الطبيعة وفي أنفسنا أن القرآن منزل منه عز وجل وليس للإنسان دخل فيه.

سورة الشورى

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية :

سُميت «سورة الشورى» بهذا الاسم تنويها بمكانة الشورى في الإسلام، وتعلية للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل منهج الشورى، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع.

ب - فضل السورة :

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواه الإمام أحمد وغيره عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَثْنَيْنِ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلَتْ بِالْمُقْصَلِ) (١).

ج - مكية السورة :

سورة الشورى مكية ماعدا الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف الثانية والأربعون (٤٢). نزلت بعد سورة فصلت. من الجزء «٢٥» الحزب «٤٩». عدد آيات السورة. عدد آياتها ٥٣ (٢).

- (١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٠٧/٤. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٢٤.
- (٢) يراجع: الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي ١/١٨٦.

محور السورة :

هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوعات السور المكية التي تعالج أمور العقيدة: «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء». والمحور الذي تدور عليه السورة هو: «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساس للسورة الكريمة.

المناسبات في السورة الكريمة :**١ . المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :**

المناسبة بين مطلع سورة الشورى وخاتمتها واضحة جدا، ففي بداية السورة حديث عن القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ حَمْدٌ ۙ عَسَىٰ ۙ أَنْ يَبْعَثَ ۙ إِلَيْكَ ۙ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۙ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ

وفي نهاية السورة حديث أيضا عن القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۙ ﴾ ﴿ ٥٢ ﴾

٢ . المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها .

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الشورى وخاتمة السورة التي قبلها: (فصلت) ففي نهاية سورة فصلت حديث عن القرآن الكريم: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِّنْ ضَلَالٍ مَّعَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۙ ﴾ ﴿ ٥٢ ﴾ سَتُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴾ وجاء الحديث عن القرآن الكريم في افتتاحية سورة الشورى في قول الله تعالى: ﴿ حَمْدٌ ۙ عَسَىٰ ۙ أَنْ يَبْعَثَ ۙ إِلَيْكَ ۙ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۙ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الشورى) والسورة التي قبلها (فصلت)، وذلك في

مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين حديث عن القرآن الكريم؛ جاء ذلك في سورة فصلت في الآيات الكريمة الآتية:

﴿ حَمْدٌ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ ﴾
 بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ
 لَكِنِيبٌ عَرِيضٌ ٥ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٦ ﴾ مَا يُقَالُ
 لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ٧ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا
 أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٨ ﴾
 ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَسَمٌ كَقُرْءَانٍ بَدِءَ مِنْ آضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ
 ٩ ﴾ سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ١٠ ﴾

وجاء الحديث عن القرآن الكريم في سورة الشورى في الآيات التالية:

﴿ حَمْدٌ ١ عَسَقٌ ٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ ﴾
 ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ ٤ ﴾
 * في السورتين حديث عن دلائل وحدانية الله تعالى وقدرته:

ففي سورة فصلت: ﴿ قُلْ أَبِئْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا
 ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
 سِوَاءَ لِلسَّالِبِينَ ١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
 أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِذْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

وجاء الحديث عن دلائل وحدانية الله تعالى في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرَنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

* في السورتين حديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين:

جاء ذلك في سورة فصلت في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلَبُونَ ﴿٦١﴾ فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٤٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا فَشَتْتَهُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزْلَا مِنْ عَفْوَهِ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴿

وجاء الحديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين في سورة الشورى في الآيات الآتية:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ أَلْحَنَاتٍ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

تنزيل الوحي وبيان جلال الله تعالى وعظمته

﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تبتدى السورة الكريمة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله رب العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان.

وهذه الحروف المقطعة ﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ ﴾ ذكرت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها. ^(١)

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله =

ومثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة، وهذا كقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

والذي أوحى إليك وإلى إخوانك من المرسلين هو الله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعييداً، هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة.

تكاد السماوات يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد. والملائكة الأبرار دائبون في تسييح الله، ينزهونه عما لا يليق به ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين.^(١)

والآية عمومٌ يراد به الخصوص، لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض^(٢) يقول صاحب الظلال: « الملائكة أهل طاعة مطلقة، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة. ولكنهم

= يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.

ومن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبية إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جواباً»، في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.

ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٢.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ١٧.

دائبون في تسييح ربهم، لما يحسون من علوه وعظمته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته. ذلك بينا أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير.

ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا، كالذي جاء في سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧]. وفي هذه الحالة يبدو: كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض، حتى من الذين آمنوا، وكم يرتاعون لها، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته؛ واستهواً لأية معصية تقع في ملكه؛ واستدرااراً لمغفرته ورحمته؛ وطمعاً فيها. «^(١)

ألا فانتبهوا أيها القوم: إن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم. قال القرطبي: هيب وعظم جل وعلا في الابتداء، وألطف وبشّر في الانتهاء.^(٢)

والذين جعلوا له شركاء وأنداداً فإنه سبحانه رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيءٌ، وهو محاسبهم عليها وما أنت يا محمد بموكلٌ على أعمالهم حتى تقسره على الإيمان، إنها أنت منذرٌ فحسب.^(٣)

من هداية الآيات:

* وحدة الوحي بين سائر الأنبياء، إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والترغيب في الصالحات، والترهيب من الموبقات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٤٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ٥.

(٣) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٣.

- * بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين.
- * تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه بأنه غير موكل بحفظ أعمال المشركين ومجازاتهم عليها. إنها هو الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. (١)

مقاصد الوحي الإلهي

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ إِيَّاهُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَمَا لَهُمْ بِاللَّهِ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربيًّا معجزاً، بلسان العرب، لا لبس فيه ولا غموض، لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان. (٢)

وأمُّ القُرى أصلُ القُرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعربُ تسمي أصل كل شيء أمه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان. (٣)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٠ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨ / ٤٢٨.

(٣) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٧ / ١٤٧.

وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر في الإنذار، لأنهم أقرب الناس إليه ﷺ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

وليس معنى هذا التخصيص أن رسالته ﷺ كانت إليهم وحدهم، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته ﷺ كانت إلى الناس كافة، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨). وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقوله عز وجل: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (الأنعام: ١٩).

وتنذر الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيد واحد، وهذا اليوم لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه، فريق من هذا الجمع في جنات النعيم، وهم المؤمنون، وفريق منهم في دركات الجحيم، وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء،

ولو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دين واحد وملة واحدة وهي الإسلام، ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير، ولهذا قال: والكافرون ليس لهم ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عذاب الله. ^(١)

والآية تسلية للرسول ﷺ عما كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيف على أن ذلك راجع إلى مشيئته جل وعلا، ولكن من سبقت له السعادة أدخله في رحمته، يعني دين الإسلام. ^(٢)

وينكر الله تعالى على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم. كيف ذلك والله وحده هو الوليُّ الحقُّ الناصر، لا ولي سواه هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، لا يعجزه شيء، فهو سبحانه الحقيق بأن

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٣.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥٠٩.

يُتخذ ولياً دون من سواه.

وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه ﷺ، الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وليي ومالك أمري. (١) وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولُ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن الكريم؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم، وأخلاقهم وسلوكهم. وبين لهم هذا كله بياناً شافياً. وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر، أوسع من دساتير الحكم وأشمل. فإذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ لتقوم الحياة على أساسه. (٢)

ثم بين تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فأخبر أنه سبحانه خالق السموات والأرض ومبدعها على غير مثال سابق، أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات، وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً يكثركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثمة تناسلٌ ولا توالدٌ، ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد. (٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ قال القرطبي - رحمه الله - : الذي يُعتقد في هذا الباب أن الله - جلَّ اسمه - في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسنِ أسمائه، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشَبَّه به أحد، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صفاتُ القديم - عزَّ وجلَّ - بخلاف صفات المخلوق، وإذ صفاتُهم لا تنفك عن

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٤ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٤٥.

(٣) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨ / ٤٣٢.

الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزّه عن ذلك.

وقد قال بعض المحققين: التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غيرٍ مشبهةٍ للذوات، ولا معطّلةٍ من الصفات، وزاد الواسطيُّ فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهذا مذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة. (١)

وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم، بيده جل وعلا مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وسائر الحاجات، يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية.

من هداية الآيات:

- * تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي.
- * شرف مكة بتسميتها أم القرى أي أم المدن والحواضر.
- * انقسام الناس يوم القيامة إلى سعيد وشقي.
- * لم يشأ الله أن يجعل الناس أمة واحدة، وذلك لحكم عالية، ومقاصد سامية علمها إليه سبحانه.
- * من طلب ولاية غير الله هلك، ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه.
- * وجوب ردّ ما اختُلف فيه إلى الله تعالى ليحكم فيه، وهو الرد إلى الكتاب والسنة.
- * وجوب التوكل على الله والإنابة إليه في كل الأمور.
- * تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا.
- * وجوب الإيمان بأن الله تعالى هو الرزاق، بيده مفاتيح خزائن الأرزاق، فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق. وكل ذلك وفق حكمته البالغة. (٢)

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٢ وما بعدها بتصريف.

وحدة الأديان في أصولها

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرْنَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تعود السورة الكريمة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحد أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث الله به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام.

قال الصاوي: خصَّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملة أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبين أن شرعنا - معشر الأمة المحمدية - قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام. (١)

والمراد بما شرعه - سبحانه - على ألسنة هؤلاء الرسل: أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين، أو شريعة عن شريعة، كإخلاص العبادة لله - تعالى - والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، والتحلي بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف.

أما ما يتعلق بفروع الشرائع، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل في الأصول الثابتة في جميع الأديان، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال. (٢)

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٣٢.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٧٥٩.

ووصينا هؤلاء الرسل بأن أقيموا الدين الحق - دين الإسلام - الذي هو توحيدُ الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وبالبعث والجزاء.

قال القرطبي: المراد اجعلوا الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام والزكاة، والحج، وغيرها، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة. (١)

عُظْمُ وشقٌّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار.

الله تعالى يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكراماً. (٢)

وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلا من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم، وكان تفرقهم هذا ظلماً وتعدياً، وحسداً وعناداً، ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً باستئصالهم.

قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعاً. وإن بقية أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان. (٣)

من هداية الآيات:

* دين الله واحد وهو الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

* حرمة الاختلاف في دين الله المسبب تضييع الدين كلا أو بعضاً.

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ١١.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٥.

(٣) مختصر ابن كثير ٣ / ٢٧٢.

- * مرد التفرق في الدين إلى الحسد والبغي بين الناس. (١)
- * أهل الكتاب ليسوا على شيء يقيني من دينهم، بل هم في ظلمات الشك يترددون.

الأمْر بالدعوة والاستقامة، وإبطال حجج المعاندين

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِإِعْدَالٍ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَحْجُجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، مَجْهَلُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِهُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

فلأجل وحدة الدين، وعدم التفرق فيه، فادعهم إلى إقامة الدين، وثابر على تلك الدعوة كما أمرك الله، ولا تساير أهواء المشركين، وقل: آمنت بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله وأمرني الله بإقامة العدل بينكم، وقل لهم: الله خالقنا وخالقكم، لنا أعمالنا لا لكم، ولكم أعمالكم لا لنا، لا احتجاج بيننا وبينكم لوضوح الحق. الله يجمع بيننا للفصل بالعدل، وإليه - وحده - المرجع والمآل. (٢)

قال الرازي: يعني الإيذان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٥.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٤٤.

آمنوا ببعض وكفروا ببعض وأمرني بآن أعدل بينكم في الحكم. (١)
 الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة، لنا جزء أعمالنا ولكم جزء
 أعمالكم، من خير أو شر، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم. (٢)

قال ابن كثير: هذا تبرؤ منهم، أي نحن برآء منكم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي
 عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ﴾ [يونس: ٤١]، لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحق قد ظهر
 وبآن، كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون. الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل
 القضاء، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر. (٣)

قال الصاوي: والغرض أن الحق قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد
 العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلًا بعمله. (٤)

وهذه الآية الكريمة من الآيات العظيمة، ولا نظير لها إلا آية الكرسي، فإنها عشرة أصول
 كل أصل منها مستقل برأسه. (٥)

والذين يخاصمون في دين الله لصدّ الناس عن الإيمان من بعد ما استجاب الناس له
 ودخلوا في دينه حجّتهم باطلة، لا ثبوت لها عند الله. قال ابن عباس: نزلت في طائفة من بني
 إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل، وهؤلاء الجاحدون عليهم
 غضب عظيم في الدنيا، وعذابٌ شديد في الآخرة. (٦)

والله تعالى نزل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع، والحق الساطع، في

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٥٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٦.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٣.

(٤) حاشية الصاوي ٤ / ٣٣.

(٥) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٣٩٦.

(٦) البحر المحيط ٧ / ٥١٣.

أحكامه وتشريعاته وأخباره. ونزل الميزان أي العدل والإنصاف. وسمي العدل ميزاناً لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب. (١)

« فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل؛ وجعله حكماً فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم؛ وأقام شرائعه على العدل في الحكم. العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم، وتوزن به الحقوق. وتوزن به الأعمال والتصرفات». (٢)

وما ينبئك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعد لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكانه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم. (٣)

يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدّقون بها، فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون؟ والمؤمنون المصدّقون بها خائفون وجلون من قيامها، ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة. والذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته. (٤)

والله تعالى بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم. قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم. يرزق من يشاء كما يشاء، وهو الغالب على كل شيء، المنيع الذي لا يغلب. (٥)

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٠.

(٣) البحر المحيط ٧ / ٥١٣.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٧.

(٥) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥١٤.

قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعض إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].^(١)

من هداية الآيات:

- * وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
- * حرمة اتباع أهل الأهواء والسير معهم وموافقتهم في باطلهم.
- * وجوب الاستقامة على الإسلام، عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
- * تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وأهل الأهواء.
- * بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب والميزان، وهو أن يحكم الناس بالقسط.
- * المستعجلون بالساعة هم الكافرون الجاحدون لها.^(٢)

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ١٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٧ - ٤٩٩.

حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين، وقبول التوبة

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما بين سبحانه كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ (١)

التفسير الإجمالي

يبين الله تعالى هنا سنته التي لا تتخلف في أن الأعمال بمقاصدها، وأن الجزاء مرتب على الأعمال. فمن كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَثَوَابِهِ، بمضاعفة حسناته. ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطة بعض ما يطلبه من المتاع العاجل مما قُدر له، وليس له في الآخرة حظ من الثواب والنعيم.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٨.

قال الزمخشري: سَمِيَ ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للأخرة ضوعفت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئاً منها، لا ما يريدُه وبتبغيه. (١)

وقال ابن جزي: حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحرثَ يعمل وينتظر المنفعة بما عمل. (٢)

ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال متسائلاً على سبيل الاستفهام للتقرير والتوبيخ: أهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟

فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب، وتؤنبهم على جهالتهم حيث أشركوا بالله تعالى دون أن يكون عندهم دليل، أو ما يشبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل. «وإسنادُ الشرع إلى الأوثان وهي جمادات إسنادٌ مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب وسماه ديناً للمشاكلة والتهمك» (٣).

«وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائناً من كان؛ فالله وحده هو الذي يشرع لعباده. بما أنه - سبحانه - هو مبدع هذا الكون كله، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له. والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس. وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال. فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور». (٤)

(١) الكشاف / ٤ / ١٧١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل / ٤ / ١٧١.

(٣) حاشية البيضاوي / ٣ / ٢٧٥.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٣١٥٥.

لولا أن الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن.

وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجه مؤلم. وتراهم يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا، والجزاء عليها نازل بهم يوم القيامة لا محالة، سواءً خافوا أو لم يخافوا. وأما المؤمنون الصالحون فهم في رياض الجنان يتمتعون في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها، لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم.

فأين هذا من هذا، أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان؟ فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء^(١). وهو الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جل وعلا إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره.^(٢)

ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقاء ربهم.

قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من الأجر والمال، إلا أن تحفظوا حقَّ القربى، ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي.^(٣)

قال ابن كثير: أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالا، وإنما أطلب أن تذكروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، قال ابن عباس: يقول إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وتؤذوني في نفسي لقرابتي منكم. ومن يكتسب طاعة من الطاعات

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ٢٠.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٩.

نضاعف له ثوابها فالله سبحانه غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات.

ثم ينتقل السياق إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم، بل أيقول كفار قريش إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟^(١)

قال أبو حيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة.

لو افترت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لحتم على قلبك، فأناك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفر على الله كذباً ولهذا أيدك وسدّدك، وهذه كقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٦].^(٢)

والآية استشهاداً على بطلان ما قالوا ببيان أنه ~~الكتاب~~ لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالحثم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه ويمح الله الباطل فيزيله بالكلية، ويثبت الله الحق ويوضحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم إنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه الصدور.^(٣)

ثم يمتن الله تعالى على عباده فيبين أنه جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا بصدقٍ وإخلاصٍ نيةً، ويصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر.^(٤)

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٥.

(٢) البحر المحیط، لأبي حيان ٧ / ٥١٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤. وقد ورد معنى مغاير لهذا حاصله: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، واتهامك بالافتراء على الله، ويزيل الله الشرك ويخذه، ويثبت الإسلام ويظهره. تفسير المنتخب ٢ / ٣٤٦.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٠.

ويستجيب سبحانه من الذين آمنوا دعاءهم، ويزيدهم من فضله وإحسانه، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما سألوا. وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجه الأليم في دار الجحيم. (١)

من هداية الآيات:

- * بيان لطف الله بعباده، فله سبحانه الحمد وله المنة والشكر.
- * بيان وجوب إصلاح النيات، فإن مدار العمل قبولاً ورفضاً بحسبها.
- * حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
- * تقرير حق القرابة ووجوب المودة فيها. واحترام قرابة الرسول ﷺ وتقديرها.
- * تبرئة رسول الله ﷺ من الافتراء على الله عز وجل.
- * مضاعفة الحسنات، وشكر الله للصالحات من أعمال عباده المؤمنين.
- * وجوب التوبة ووعده الله تعالى بقبولها.
- * وعده الله تعالى باستجابة دعاء المؤمنين العاملين للصالحات. (٢)

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٦٩.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٩ - ١ / ٤.

مظاهر حكمة الله، وآياته الدالة على قدرته

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْمَجَارِفُ بِالْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

سبب النزول:

أخرج الحاكم في سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ عن علي رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا...، فتمنوا الدنيا والغنى. ^(١)

التفسير الإجمالي

ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطفوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان. قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً. ^(٢)

وقد فعل ما فعل - سبحانه - من إنزال الرزق على عباده بقدر، لأنه - تعالى - خير بخفايا أحوال عباده، وبطوايا نفوسهم، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه.

قال صاحب الكشاف: أي أنه - تعالى - يعلم ما يؤول إليه حالهم، فيقدر لهم ما هو أصلح

(١) المستدرک ٢ / ٤٨٣. رقم الحديث ٣٦٦٣. وقال الحاكم: حديث صحيح.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٧.

لهم، وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويسط، كما توجه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهكلوا.

ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل، ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط، لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن.

ولكنه تعالى يُنزل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو سبحانه عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية. (١)

« وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق - مهما كثرت - بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير. فالله يعلم أن عباده، هؤلاء البشر، لا يطيقون الغنى إلا بقدر، وأنه لو بسط لهم في الرزق - من نوع ما يبسط في الآخرة - لبغوا وطغوا.

إنهم صغار لا يملكون التوازن. ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد. والله بعباده خبير بصير. ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً، بقدر ما يطيقون. واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض، ويجتازون امتحانها، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام. ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود» (٢).

ثم يعدد الله تعالى نعمه على عباده فيبين أنه هو تعالى الذي ينزل المطر، الذي يغنيهم من الجذب، من بعد ما يتسوا من نزوله ويسط خيراته وبركاته على العباد وهو الولي الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء (٣).

« وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده في الأرض. وقد

(١) الكشاف ٤ / ١٧١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٧.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٠.

غاب عنهم الغيث، وانقطع عنهم المطر، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول.. الماء.. وأدركهم اليأس والقنوط. ثم ينزل الله الغيث، ويسعفهم بالمطر، وينشر رحمته، فتحيا الأرض ويخضر اليباس، وينبت البذر، وبترعرع النبات، ويلطف الجو، وتنطلق الحياة، ويدب النشاط، وتفرج الأسارير، وتتفتح القلوب، وينبض الأمل، ويفيض الرجاء.. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات. تتفتح فيها أبواب الرحمة، تفتتح أبواب السماء بالماء.. وهو الولي الحميد.. وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات»^(١).

ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلق السماوات والأرض بهذا الشكل البديع وما نشر وفرّق في السموات والأرض من مخلوقات. قال ابن كثير: هذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم، وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أي وقت شاء.^(٢)

« وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلاً ولا ريبة. فهي قاطعة في دلالتها، تخاطب الفطرة بلغتها، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد. إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان، ولا غيره من خلق الله. ولا مفر من الاعتراف بمنشئ مدبر. فإن ضخامتها الهائلة وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواحيها الثابتة.. كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ودبرها.^(٣)

وإن ما أصابكم أيها الناس من المصائب في النفس أو المال فإنها هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها. قال الجلال: وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها.^(٤)

وهو سبحانه يصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو أخذكم بكل ما كسبتم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٨.

(٤) تفسير الجلالين ٤ / ٣٨.

هلكتكم. ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هارين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب، وليس لكم غير الله ولي يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها، لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن سواكن وثابت على ظهر البحر لا تجري. إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكر في الرخاء. ^(١)

وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها.

وإن يشأ سبحانه يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم، والله تعالى يتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم من الهلاك، وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله. ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم، فيخلصون له العبادة. ^(٢)

من هداية الآيات:

- * بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
- * من مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته على عباده إنزال الغيث بعد اليأس وخلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤١.

(٢) يراجع: تفسير القرطبي ١٦ / ٣٣. البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥٢٠.

- * بيان حقيقة علمية ثابتة وهي أن المخالفة للقوانين يترتب عليه ضرر يصيب المخالف.
- * بيان أن ما من مصيبة تصيب المرء في نفسه أو ولده أو ماله إلا بذنب ارتكبه.
- * بيان أن من الذنوب ما يعفو الله تعالى عنه ولا يؤاخذ به تكريماً وإحساناً.
- * مظاهر ربوبية الله وألوهيته على خلقه.
- * فضل الصبر والشكر وفضيلة الصابرين الشاكرين.
- * عند معاينة العذاب يعرف الإنسان ربه وينكر غيره. (١)

صفات المؤمنين المستقيمين

﴿ مَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾
 وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ
 سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ
 مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما علم أن جميع النعم من الغيث وأثاره، ومن نشر الدواب برأ وبحراً بمعرض من الزوال وهو عظيم التقلبات هائل الأحوال سبب عنه قوله محمراً لديناهم وما فيها من الزهرة بسرعة الذبول والزوال، والأفول والارتحال، وبأنهم لا قدرة لهم على شيء منها، وليس لهم من أنفسهم إلا العجز، فلو عقلوا العلموا، ولو علموا العملوا عمل العبيد، وأطاعوا القوي الشديد (٢).

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣ - ٥ بتصرف يسير.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٤٢٠.

التفسير الإجمالي

فما أوتيتم - أيها الناس - من شيء من المال أو البنين وغير ذلك فهو متاع لكم في الحياة الدنيا، سرعان ما يزول، وما عند الله تعالى من نعيم الجنة المقيم خير وأبقى للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربهم يتوكلون. (١)

وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين وَالْفَوَاحِشَ، قال ابن عباس: يعني الزنى، وإذا غضبوا على أحدٍ ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا. قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مغل بالمروءة، ولا واجباً كما إذا انتهكت حرمة الله فالواجب حينئذ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استغضب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر: «وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل» أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة. (٢)

والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة، وأدوا الصلاة بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها، ويتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمراً من مهات الدنيا والدين إلا بعد المشورة، وينفقون مما أعطاهم الله بالإحسان إلى خلق الله ويتقون من بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي. (٣)

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذَلَّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق. وقال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً في موضعه محمود. وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة. (٤)

(١) يراجع: التفسير الميسر ٨ / ٤٥٦.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤٠.

(٣) صفة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٣.

(٤) إرشاد العقل السليم ٥ / ٣٦.

قال الإمام الرازي: لما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٣٦) أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة. وإنما سُمِّي ذلك سيئة، لأنها تسوء من تنزل به. فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه، فإن الله يشبهه على ذلك الأجر الجزيل. (١) والله تعالى ييغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام.

قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك، كما جاء في الحديث: (وما زاد الله تعالى عبداً بعفوٍ إلا زاده عزاً) (٢).

ومن انتصر ممن ظلمه دون عدوان فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذه، لأنهم أتوا بما أبيض لهم من الانتصار. إنما العقوبة والمؤاخذه على المعتدين، الذين يظلمون الناس بعدوانهم ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً، بالمعاصي، والاعتداء على الناس في النفوس والأموال. أولئك الظالمون الباغون، لهم عذاب مؤلم موجه بسبب ظلمهم وبغيهم.

ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها. قال الصاوي: كرّر الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة. (٣)

من هداية الآيات:

- * متاع الحياة الدنيا ضئيل إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين.
- * مشروعية القصاص ومعاقبة الظالم، والضرب على يديه.
- * عدم مؤاخذه من ظلم فأخذ بحقه بلا زيادة عنه، ما لم يكن حداً فإن الحدود يقيمها الإمام.

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٧٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٢. والحديث رواه مسلم ٤ / ٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة ؓ.

(٣) يراجع: حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤١، صفوة التفسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٤.

* لا سبيل إلى معاقبة من انتصر لنفسه بعد ظلمه.

* فضيلة العفو والصبر والتجاوز عن المسلم إذا أساء بقول أو عمل. (١)

مشهد يصور حال أهل النار

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَتِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَّجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشَعَتِ مِنَ الذَّلِيلِ عُنُودُهُمْ وَمِن ظَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة، وعمّا أعده سبحانه لهم من ثواب، جاء الحديث عن الظالمين وما أعد لهم من عقاب، وأمرهم سبحانه بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتي يوم الحساب، الذي لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير. (٢)

التفسير الإجمالي

ومن يضلله الله فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق، وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهل ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟

قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل، فلا يُجَابون. وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار متضائلين صاغرين، مما يلحقهم من الذل والهوان، يسارقون

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٧ وما بعدها، بتصرف.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٧٧٦.

النظر - بطرفٍ ذابلٍ ذليل - خوفاً منها وفزعاً، كما ينظر من قُدِّم ليقْتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه. (١)

« والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء. إنهم يرون العذاب، فيتهاوى كبرياؤهم. ويتساءلون في انكسار: هل إلى مرد من سبيل؟ في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة، والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص! وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان! وهم يعرضون منكسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار: ينظرون من طرف خفي.. وهي صورة شاخصة ذليلة» (٢).

يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم. ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع. وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله، كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ومن يضلله الله فليس له خلاص، وليس له من طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة. (٣)

من هداية الآيات:

- * الهداية والضلال بيد الله، والعبد مؤاخذ بكسبه.
- * بيان حال الكافرين يوم القيامة، وحين يُعرضون على النار لأخذ الحذر والعبرة، والعاقل من اتعظ بغيره.
- * أكبر المصائب الحرمان من الجنة، وأعظم الخسران خسران النفس والأهل يوم القيامة.

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٤٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٦٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٢.

الأمر بالاستجابة لله والاستسلام لحكمته

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِن نُّصَبِّهِمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

بعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدين الله والانقياد والاستسلام لحكمه، قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب.

فيا أيها الناس استجيبوا إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة، من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب، الذي لا يقدر أحدٌ على رده، لأنه ليس له دافع ولا مانع. وليس لكم مفر تلتجئون إليه، وليس لكم منكرٌ يُنكر ما ينزل بكم من العذاب. أو ليس لكم إنكار لما اقترتموه، لأنه مدوّن في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم. (١)

فإن أعرض المشركون عن الإيمان، ولم يقبلوا هداية الرحمن، فما أرسلناك يا محمد رقيباً على أعمالهم، ولا محاسباً لهم. ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت. والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيس له، وإزالة لهمة بهم. (٢)

ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان - الذي لم يهذه الإيمان - الكفران لنعم الله فإذا أكرم الله الإنسان بنعمة من نعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبر. وإن أصابه جذبٌ ونقمة،

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٣٧.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥٢٥.

وبلاءٌ وشدة، بسبب ما اقترفه من آثام فإنه مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية.

وهذه الحالة صورتها آيات عديدة في كتاب الله تعالى نذكر منها ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۝٩١ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝٩٢﴾ [هود: ٩-١٠].

- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْفُرُ بِمَا كَفَرَ ۝٤٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُودَعَاً غَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥١].

قال الصاوي: والحكمة في تصدير النعمة بـ «إذا» والبلاء بـ «إن» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه. (١)

وقال الفخر الرازي: نِعْمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَإِن كَانَتْ عَظِيمَةً إِلَّا أَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَعَادَةِ الْآخِرَةِ كَالْقَطْرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَحْرِ، فَلذَلِكَ سَمَّاهَا ذَوْقًا، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَازَ بِهَذَا الْقَدْرِ الْحَقِيرِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَفْرَحُ بِهَا، وَيَعْظُمُ غُرُورُهُ بِسَبَبِهَا، وَيَقَعُ فِي الْعَجَبِ وَالْكَبْرِ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ فَازَ بِكُلِّ الْمُنَى، وَذَلِكَ لِجَهْلِهِ بِحَالِ الدُّنْيَا وَبِحَالِ الْآخِرَةِ. (٢)

والمقصود من الآية الكريمة أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وييده مقاليد التصرف في السماوات والأرض، يعطي ويمنع، لا راداً لقضائه ولا معقب لحكمه، يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ويخص من شاء بالذكر

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٧٩.

دون الإناث، ويجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات، ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد.

ولصاحب الظلال كلمات رقيقة في هذا الموضوع، يقول رحمه الله: «الذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان؛ وهي قريبة من نفس الإنسان؛ والنفس شديدة الحساسية بها. فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق. وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه. فهذه تكملة في الرزق بالذرية، وهي رزق من عند الله كامال.

والتقديم بأن الله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام. وكذلك ذكر: يخلق ما يشاء.. فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضوع. ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرّ وما يسوء ومن عطاء أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو يهب لمن يشاء إناثاً - وهم كانوا يكرهون الإناث ويهب لمن يشاء الذكور. ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء. ويحرم من يشاء فيجعله عقيماً - والعقم يكرهه كل الناس - وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله. لا يتدخل فيها أحد سواه. وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: إنه عليم قدير»^(١).

من هداية الآيات:

- * وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه، وذلك قبل أن يطلب الاستجابة ولا يمكن منها.
- * على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ مطلوب الله تعالى من عباده، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
- * بيان طبع الإنسان وحاله قبل أن يهذب بالإيمان واليقين والطاعات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٣١٦٩.

- * لله تعالى مطلق التصرف في الملكوت كله، فلا يصح الاعتراض عليه في شيء، فهو يهب ويمنع لحكم عالية، لا تدركها عقول العباد.
- * وجود عقم في الرجال وعقم في النساء، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع.^(١)

الوحي وأقسامه

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تختم السورة الكريمة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة ليتناسق الكلام في البدء والختام.

فذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه، وأن تكليم الله تعالى للبشر وقع على ثلاثة أوجه:

الأول: عن طريق الوحي، وهو الإعلام في خفاء وسرعة، عن طريق الإلقاء في القلب يقظة أو مناما، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية.

والثاني: عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أي حاجز، بأن يسمع النبي كلاما دون أن يرى من يكلمه، كما حدث لموسى عليه السلام عندما كلمه ربه عز وجل، وهذا الطريق هو المقصود

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ١١ بتصرف يسير.

بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾.

والثالث: عن طريق إرسال ملك، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله بتبليغه له، وهو المقصود بقوله - تعالى -: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث الذي رواه الإمام البخاري «عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس «وهو أشد علي - أي: أحياناً يأتيني مشابهاً صوته وقوع الحديد بعضه على بعض - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً. (١)»

وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسأه روحاً لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيثار ومعاملته على وجه التفصيل ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً نهدي به عبادنا المتقين. وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم، هو الإسلام، هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه، هو دين الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً. ألا إلى الله وحده ترجع الأمور، فيفصل فيها بين خلقه بعدله وحكمته. (٢)

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه. ك: بدء الوحي ١ / ٤. حديث رقم ٢. ومعنى يتفصد: يسيل، من

الفصد، وهو قطع العرق لإسالة الدم. شبه الجبين بالعرق المفصود مبالغة في كثرة عرقه ﷺ.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٧ بتصرف يسير.

من هداية الآيات:

- * بيان جلال الله تعالى وعظمته فهو سبحانه ما كلم أحداً من خلقه إلا عن طريق الإلهام أو الملك أو من وراء حجاب.
- * القرآن الكريم نور يستضاء به في الحياة، وروح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح. (١)
- * الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم. وما سواه اعوجاج وتفرق.
- وأخيراً.. فهذه سورة الشورى، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعج أي وفيه هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسي أي حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يجرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الشورى

احتوت سورة الشورى على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

- * وحدة الرسالات بين سائر الأنبياء، إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.
- * بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين.
- * لم يشأ الله سبحانه أن يجعل الناس أمة واحدة، لحكم عالية علمها إليه سبحانه وتعالى.
- * من طلب ولاية غير الله هلك؟ ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه في دنياه وأخراه.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٣ بتصرف.

- * وجوب ردّ ما اختلف فيه إلى الله تعالى ليحكم فيه وهو الرد إلى الكتاب والسنة
- * وجوب التوكل على الله تعالى، والإنابة إليه في كل الأمور.
- * تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، مع وجوب الإيمان بأسائه الحسنی وصفاته العلیا.
- * وجوب الإيمان بأن الله هو الرزاق، بيده مفاتيح خزائن الأرزاق، فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق، وأنه يوسع لحكمه ويضيق لأخرى.
- * وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم، إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
- * حرمة اتباع أهل الأهواء والسير معهم، أو موافقتهم في باطلهم.
- * وجوب الاستقامة على الإسلام، عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
- * تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وأهل الأهواء.
- * حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
- * بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
- * متاع الحياة الدنيا ضئيل وحقير إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين.
- * فضيلة الصبر والعفو والتجاوز عن المسلمين والإصلاح بينهم.
- * وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه.
- * على الدعوة إلى الله تعالى إبلاغ دين الله تعالى للعالمين، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
- * القرآن الكريم نور يستضاء به في الحياة، وروح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.
- * الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم وما سواه اعوجاج وتفرق.

سورة الزخرف

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية :

سُميت سورة الزخرف بهذا الاسم، لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون مع أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين.

ب - فضل السورة :

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواه الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْتَعِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَثْنَيْنِ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلَتْ بِالْمُقْصَلِ)^(١).

ج - مكية السورة :

سورة الزخرف مكية، ماعدا الآية ٥٤ فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف الثالثة والأربعون (٤٣). نزلت بعد سورة الشورى. من الجزء «٢٥» الحزب «٤٩، ٥٠».

عدد آيات السورة: عدد آياتها ٨٩.^(٢)

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٠٧/٤. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. ١/١٨٦.

محور السورة:

سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان: «الإيمان بالله وحده، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

المناسبات في السورة الكريمة**١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:**

المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها واضحة جداً، ففي بداية السورة تقرير وبيان لحال المشركين العجيب من اعترافهم بربوبية الله تعالى، وتفرده بالإيجاد والخلق ثم هم به يشركون. ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ①﴾ وجاء هذا المعنى في نهاية السورة الكريمة حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ②﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الزخرف وخاتمة السورة التي قبلها (الشورى) ففي نهاية سورة الشورى حديث عن القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ③﴾ [الشورى: ٥٢]. وفي مطلع سورة الزخرف حديث عن القرآن أيضاً ﴿حَم ④ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُنزُورِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ④﴾.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الزخرف) والسورة التي قبلها (الشورى)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين حديث عن القرآن الكريم؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨﴾ 》

* وفي سورة الزخرف جاء الحديث عن القرآن الكريم في عدة مواضع: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبِيَاءِ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ 》 ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٤﴾ 》

* في السورتين حديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَكَانَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لِقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾ 》， وفي سورة الزخرف: ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ لَا حَوْلَ إِلَّا عِنْدَ رَبِّكَ وَلَا أَسْمَاءُ تَحْزَنُونَ ﴿٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿١٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِبَهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ ﴿١٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَادْعُوا بِكَلِمَاتِكُمْ لِيُقْضَىٰ عَلَيْكُمْ قَوْلُكُمْ قَالِ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لَعِقٌ كَرِهَونَ ﴿١٨﴾ 》

* في السورتين حديث عن دلائل قدرة الله تعالى ووحديته؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ

اللَّهُ هُوَ الْعَفْوُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ
 الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
 إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ
 ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
 الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
 صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا
 لَهُمْ مِنْ مَخِيبٍ ﴿٣٥﴾ .

* وفي سورة الزخرف: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ
 ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ .

مكانة القرآن الكريم، وعاقبة المستهزئين بالمرسلين

﴿ حَمَّ ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ
 فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَنْفَضِرُوبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا
 مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
 ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴿

التفسير الإجمالي

افتتحت السورة الكريمة بالحديث عن إثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي
 أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصح بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

﴿ حَمَّ ﴾ حرفان من الحروف المقطعة، ذكرت في أوائل بعض السور للتنبيه على إعجاز
 القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف

التي يتخاطبون بها. (١)

وقد أقسم المولى جل شأنه هنا بالقرآن الكريم، الواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبين للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية أقسم سبحانه على أنه جعل القرآن عربياً. وهذا القسم من البدائع البلاغية، لتناسب القسم والمقسم عليه، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه.

وإنه في اللوح المحفوظ عندنا رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمةٍ بالغةٍ ومكانةٍ فائقة. (٢)
قال ابن كثير: بين سبحانه شرف القرآن في الملاء الأعلى، ليشرفه ويعظمه أهل الأرض أي وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة، وشرف وفضل. (٣)

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.
ومن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جواباً! » في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.
ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من التشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣ / ٢٨٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٤ بتصرف يسير جدا.

ويا أيها الجاحدون المعرضون، أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، بل نذكركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفِع حين رُدّه الأوائِل لهلكوا، ولكن الله برحمته كرّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة. (١)

قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. (٢)

وما أكثر مَنْ أرسلنا مِنَ الأنبياء في الأمم الأولين، ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخرُوا منه واستهزؤوا به.

قال الصاوي: وهذا تسليية له ﷺ. والمعنى: تسلّ يا محمد ولا تحزن، فإنه وقع للرسول قبلك ما وقع لك، فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى. وسبق في القرآن أحاديثُ إهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين. (٣)

وقد جاء الحديث في القرآن الكريم عن إهلاك الأمم الغابرة التي كذبت رسلها وأعرضت عن هدي ربها في مواضع عديدة منها:

- * ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُرٌّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦].
- * ﴿ أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٩٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٥.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤٤.

﴿ طه: ١٢٨ ﴾.

* ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الروم: ٩].

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله في المكذبين، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابي. وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة في نشوئها ودثورها، وضعفها وقوتها.

والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هذه القوانين، واطراد تلك السنن، ويتخذ من مصارع القرون، وآثار الماضين، الدارسة الخربة، أو الباقية بعد سكانها موحشة. يتخذ منها معارض للعبرة، وإيقاظ القلوب، وإثارة الحساسية، والخوف من بطش الله وأخذة للجبارين.

كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس. ويرفع بهذا مدارك البشر ومقاييسهم فلا ينزل شعب أو جيل في حدود الزمان والمكان؛ وينسى النظام الثابت في حياة البشر، المطرد على توالي القرون. وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير! ^(١)

قال الإمام فخر الدين الرازي: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فقد ضربنا لهم مثلهم. ^(٢)

من هداية الآيات:

- * بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.
- * كون الناس مسرفين في الشرك والفساد لا يمنع وعظهم وإرشادهم.
- * في إهلاك الأقوى دليل على أن إهلاك من هو دونه أحرى وأولى، لا سيما مع شدة كفره. ^(٣)

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨١٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٩٥.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ١٥ بتصرف يسير جدا.

إقرار المشركين بربوبية الله

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ① الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ② وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ③ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ④ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑤ وَإِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ⑥ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما كان التقدير: ولئن سألتهم عن من سمعوا بخبره من ذكرناهم من الأولين المهلكين ليعترفن بها سمعوا من خبرهم، عطف عليه هذا الكلام مبيناً لجهلهم بوقوعهم في التناقض مؤكداً له، لما في اعترافهم به من العجب المنافي لحالهم؛ فقال: ولئن سألتهم أيضاً عما هو أكبر من ذلك وأدل على القدرة، وجميع صفات الكمال فقلت لهم: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾. (١)

التفسير الإجمالي

تتحدث الآيات الكريمة هنا عن دلائل قدرته تعالى ووحدانيته المنبثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السماوات والأرض بهذا الشكل البديع ليقولنَّ خلقهنَّ الله وحده، العزيز في ملكه، العليم بخلقه.

فهم أقروا بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، واعترفوا بعزته سبحانه وعلمه، ومع

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٤٤٣ بتصرف.

إقرارهم بذلك عبدوا غيره، وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم.^(١)

ثم بيّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال: بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون، وجعل لكم فيها طُرُقاً تسلكونها في أسفاركم، لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مبدع هذا النظام العجيب.

« وحققة جعل هذه الأرض مهدياً للإنسان يدركها كل عقل في كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها في رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير، وأمامهم ممهدة للزرع، وفي عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء.

ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة في مساحة أعرض وفي صورة أعمق، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب - لو صحت نظرياتنا في هذا وتقديراتنا - والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة ما لم ندرك نحن؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق، ويتكشف عن آفاق وأماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان.^(٢)

ونزّل سبحانه الماء بقدرته من السماء بمقدار ووزن معلوم، بحسب الحاجة والكفاية، أي بمقدار ينفع ولا يضر فهو مقدر موزون لا يزيد فيُغرق؛ ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة؛ ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله.^(٣)

فأحيينا به أرضاً ميتةً مقفرةً من النبات، كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة.

وخلق سبحانه جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك. قال ابن عباس: «الأزواج

(١) تفسير الخازن ٥ / ٣٧٣ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٧٩.

(٣) المرجع السابق، نفس الموضوع. بتصرف يسير.

« الأصناف والأنواع كلها، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى. وسخر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم.

قال ابن كثير: أي ذللها وسخرها ويسرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها. (١)

لتستقروا على ظهر هذا المركوب، سفينة كانت أو جملاً أو غيره، وتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها، فتشكروه بقلوبكم، وتقولوا بألستكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذللَّ ويسر لنا ركوب هذا المركوب، وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه، لولا تسخيره تعالى لنا، وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت. (٢)

قال في حاشية البيضاوي: وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم، مستدعية لطاعته وشكره.

فإن من تفكر في أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام، أكثر قوة وأكبر جثة من راحبه، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أي جانب شاء، وتفكر أيضاً في خلق البحر والرياح وفي كونها مسخرين للإنسان مع ما فيها من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. (٣)

وفي الحديث الشريف « أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر حمد الله تعالى، وسبح وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم هون سفرنا هذا، واطو عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٥.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٢ بتصرف يسير جدا.

(٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣ / ٢٩١.

من وعشاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد. وإذا رجع قاهن وزاد فيهم: آييون تائبون عابدون لربنا حامدون»^(١).

من هداية الآيات:

- * تقرير التوحيد بذكر صفات الربوبية المقتضية للألوهية.
- * تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- * معجزة القرآن في الإخبار بالزوجية، وقد قرر العلم الحديث نظام الزوجية في كل شيء حتى الذرة.
- * مشروعية التسمية والذكر عند ركوب وسيلة الانتقال.^(٢)

(١) الحديث رواه مسلم ٩٧٨ / ٢ برقم: ١٣٤٢. عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قوله وعشاء السفر: يعني تعبته وشدته ومشقته. وكآبة المنظر وسوء المنقلب الكآبة الحزن. والمنقلب المرجع. وذلك أن يعود من سفره حزناً كثيباً، أو يصادف ما يحزنه في أهل أو مال. يراجع: تفسير الخازن ٥ / ٣٧٤.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ١٧ / ٤ بتصرف.

ضلال المشركين في عبادتهم وتصورهم

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْفِتْنَةِ عَيْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتَاءً أَسْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَسُئِلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عَلِيمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَلْبَسْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَوْلُو حِجَّتِكُمْ بَأْهَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السماوات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله.

التفسير الإجمالي

تعرض الآيات الكريمة هنا لما كان عليه المجتمع الجاهلي من ضلال في العقيدة والعبادة والتصوير، فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفهاً وجهلاً، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت هذه الآيات لتصحيح تلك الانحرافات والأباطيل، وردّ النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

وجعل المشركون لله - سبحانه - بعض خلقه ولدًا ظنوه جزءاً منه، إن المفترى هذا القول لمبالغ في الكفر، عظيم الجحود وظاهر الكفران والطغيان؛ لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه.

ثم تنكر الآيات الكريمة عليهم صنيعهم، وتتعجب من حالهم، أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصكم واختار لكم البنين؟^(١) قال ابن كثير: وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ بِالْأُنثَىٰ التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له، صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وصار ملاناً غيظاً وغماً من سوء ما بُشِّر به.^(٢)

قال الإمام الرازي: والمقصود من الآية التنبيه على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى؟.^(٣)

أيجعلون لله من يُربى في الزينة، وينشأ ويكبر عليها، وهنَّ الإناث؟ ومن هو في الجدل غير مظهرٍ لحجته لضعف رأيه؟ أو من يكون هكذا يُنسب إلى جناب الله العظيم؟.

قال ابن جزى: والمقصود الرد على الذين قالوا الملائكة بنات الله، كأنه قال: أ جعلتم لله من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفةُ النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى فقال: ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص؟.^(٤)

واعتقد كفار العرب بأن الملائكة - الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله - إناثٌ وحكموا عليهم بذلك. أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم.

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٧ بتصرف يسير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٦.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٧ / ٢٠١.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى ٤ / ٢٦.

سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم، ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيدٌ شديدٌ مع التهديد.

وقد حكى الله تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال.

ثم زادوا ضلالاً وبهتاناً فزعموا أن ذلك برضى الله. قالوا - على سبيل السخرية والاستهزاء - لو شاء الله ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولما كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها. (١)

وهذا منهم كلمةٌ حقٌّ أريد بها باطل، فكل شيء بإرادة الله سبحانه، والمشيئة غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ذلك. (٢)

وقد كذبهم الله فيما زعموا؛ فما لهم بذلك القول حجة ولا برهان. ما هم إلا يكذبون ويتقوّلون على الله كذباً وزوراً.

هل أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن، فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته؟ (٣)

قال الإمام الرازي: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن حتى يعولوا عليه ويتمسكوا به؟

إنهم لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة. (٤)

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٣ بتصرف يسير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٧٣.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٤.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٧ / ٢٠٦.

وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان، كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولاً في أمة من الأمم إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة، وأعمتهم الشهوات والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم.

والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم، وأسلافهم لم يكن لهم سندٌ منظورٌ يُعتدُّ به. وإنما خصَّص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى. (١)

قال كل نبيٍّ لقومه - حين أنذرهم عذاب الله - : أتقتدون بأبائكم حتى ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه ؟ قالوا إنا كافرون بكل ما أرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور. فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب، فانظر كيف صار حالهم ومآلهم !!

« وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحتجتهم كذلك مكرورة: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون أو مقتدون.. ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد. ولو كان أهدى. ولو كان أجدى. ولو كان يصدع بالدليل. وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلية التي لا تريد أن تفتح عينيها لترى، أو تفتح قلبها لتحس، أو تفتح عقلها لتستبين..

وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذي يسلكون». (٢)

من هداية الآيات:

* وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتوسع له طاقة الإنسان.

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٢.

- * بيان حال المشركين العرب في الجاهلية من كراهيتهم البنات خوف العار وذلك لشدة جهلهم.
- * بيان ضعف المرأة ونقصانها، ولذا تكمل بالزينة، وأن النقص فيها فطري في البدن والعقل معاً.
- * من شهد شهادة باطلة سوف يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب عليها.
- * حرمة القول على الله بدون علم، فلا يحل أن يُنسب إلى الله تعالى شيء لم ينسبه تعالى لنفسه.
- * حرمة التقليد والاتباع بغير علم. (١)

حكمة الله في اختيار رسله، وتقسيم رزقه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هُنُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِكَنَّهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضْفِئِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُوشِكَنَّهُمْ أَنْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الخنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرأه من قومه، ومن عبادة الأوثان،

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ١٩ وما بعدها بتصرف.

وذلك للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد. (١)

التفسير الإجمالي

تتحدث الآيات الكريمة هنا - بإيجاز - عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله. لكنني أعبد الله الذي خلقني، لأنه سبحانه - الذي سيرشدني إلى الدين الحق.

وجعل الله - كلمة التوحيد - باقية في ذرية إبراهيم، فلا يزال فيهم من يوحد الله رجاء أن يرجع إلى الإيوان من أشرك منهم.

قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين. (٢)

بل تمتعت أهل مكة وآباءهم - وهم من عقب إبراهيم - بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد، حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله. (٣)

وحين نزل القرآن يرشدهم إلى التوحيد ضموا إلى شركهم تسميته سحراً وتمويهاً - استهزاء به - وأصروا على كفرهم.

وقال المشركون استخفافاً بمحمد، واستعظماً أن ينزل عليه القرآن: هلا نزل القرآن -

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٨.

(٣) المرجع السابق.

الذي يزعم أنه وحي الله - على رجل عظيم من مكة أو الطائف ؟. (١)

يقول صاحب الظلال - رحمه الله -: يحكي القرآن الكريم هنا تخليطهم في القيم والموازن وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور: وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!.. يقصدون بالقريتين مكة والطائف. ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش، ثم من ذؤابة بني هاشم. وهم في العلية من العرب.

كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته. ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، في بيئة تعزب بمثل هذه القيم القبلية. وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!

والله أعلم حيث يجعل رسالته. ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل. ولعله - سبحانه - لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى الخلق، وهو من طبيعة هذه الدعوة. وسمته البارزة التجرد، وهو من حقيقة هذه الدعوة. ولم يختره زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء. كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء. ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء. ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة. ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف.

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض. لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله، التي يختار لها من عباده من يشاء؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء؛ مبيناً لهم عن حقيقة القيم التي يعترضون بها،

(١) المنتخب ٢ / ٥٦.

ووزنها الصحيح في ميزان الله.^(١)

أهم يمنحون النبوة ويخصُّون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغني، أو فلان الكبير من الناس؟ نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة - وهو تافه حقير - لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهوائهم ومشتهياتهم!!^(٢)

قال ابن جزى: كما قسمنا المعاش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الغانية، فأولى وأحرى ألا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية.^(٣)

قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، ليتفجع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه.^(٤)

وقال أبو حيان: وقوله تعالى: ﴿سُخَّرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزاء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك. وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ تهديدٌ في الإكباب على طلب الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله.^(٥)

قال قتادة: تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيب اللسان، وهو موسع عليه في الرزق. وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتر عليه في الرزق.^(٦)

ليسخر بعضهم بعضاً.. ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً. وليس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٤.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٦.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى ٤ / ٢٨.

(٤) حاشية الصاوي ٤ / ٤٨.

(٥) البحر المحيط، لأبي حيان ٨ / ١٣.

(٦) المرجع السابق، نفس الموضوع.

التسخير هو الاستعلاء.. استعلاء طبقة على طبقة، أو استعلاء فرد على فرد.. كلا! إن هذا معنى قريب ساذج، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد. كلا! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب و ظرف يجيء..

إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض. ودولاب الحياة يدور بالجميع، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف. المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق. والعكس كذلك صحيح. فهذا مسخر ليجمع المال، فيأكل منه ويرتق ذاك. وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء.

والتفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذلك، ويسخر ذلك لهذا في دورة الحياة.. العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل. والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل. وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء.. وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات، والتفاوت في الأعمال والأرزاق^(١).

وإنعامه تعالى عليك - أيها النبي - بالرسالة خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفاني. ثم بين تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال: ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمة واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة وجعلنا لهم مصاعد وسلام من فضة عليها يرتقون ويصعدون. وليوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة، زيادة في الرفاهية والنعيم، على تلك الأسرّة الفضية يتكئون ويجلسون. وجعلنا لهم زينة من ستور ونهارق ونقوش^(٢).

وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلا شيء يُتَمَتَع به في الحياة الدنيا الزائلة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٣١٨٧.

(٢) صفوة التفسير، محمد علي الصابوني / ٣ / ١٥٧.

الحقيرة. والجنَّة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين، لا يشاركونهم فيها أحد.

والآياتُ الكريمة سِقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لو لا الفتنة لخصَّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظِّه في الآخرة.

ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم. وفي الحديث: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرة ماء) ^(١).

قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسَّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتمالكهم عليها، فهلاً وسَّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلتُ التوسعةُ عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبَّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى. ^(٢)

من هداية الآيات:

- * من الكمال العقلي أن يتبع المرء الهدى ولو خالفه قومه وأهل بلاده.
- * وجوب البراءة من الشرك والمشركين وهذا معنى لا إله إلا الله.
- * فضيلة من يورث أولاده هدى وصلاً.
- * لا يعترض على الله أحد في شرعه وتدبيره إلا كفر والعياذ بالله تعالى.

(١) الحديث رواه الترمذي وصححه، عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - / ٤ / ٥٦٠ رقم ٢٣٢٠. وصححه الألباني.

(٢) الكشف / ٤ / ١٩٧.

- * بيان الحكمة في الغنى والفقر، والصحة والمرض والذكاء والغباء.
- * الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان فلذا لو أعطيتها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر.
- * حقارة الدنيا وهوانها على الله. وفي صحيح مسلم: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ».^(١)

حال المعرض عن ذكر الله، وتسلية النبي ﷺ

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنْتَهِبُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُزَيْتِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما بينت الآيات الكريمة السابقة زهادة الحياة الدنيا وهوانها على الله؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله، وأن الآخرة عند ربك للمتقين، استطراد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض، وهم عمي عن ذكر الله، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين.^(٢)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٣ وما بعدها. والحديث رواه مسلم ٤/ ٢٢٧٢ برقم ٢٩٥٦.

عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٩.

التفسير الإجمالي

ومن يعرض ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن نهيى ونيسر له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُوهُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [مريم: ٨٣]. فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه.

وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى، ومحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهداية من أمرهم.

حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربطا بسلسلة واحدة قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس صاحب أنت، لأنك كنت سبباً في شقائي بتزيينك الباطل لي. قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار. (١)

يقول صاحب الظلال: قضت مشيئة الله في خلقه الإنسان أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له، ويزين له سوء. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه. (٢)

ولن ينفعكم - أيها الكافرون الجاحدون - اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه. قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه، لأن المصيبة إذا عمّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٨ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٩.

العذاب، لا يخفف عنهم البلاء. (١)

فأنت يا محمد لا تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصم والعمي، ومن كان في ضلالٍ واضحٍ؟ ليس لك ذلك، فلا يضقُّ صدرك إن كفروا.

والآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ، فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلاّ تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً. (٢)

وإن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم، فإننا سننتقم منهم بعد وفاتك، أو نرينك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك، فإننا قادرون عليهم، فهم في قبضتنا لا يفوتونا.

قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر، وقال ابن كثير: المعنى لا بدّ أن تنتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحكّمه في نواصيهم. (٣)

فتمسك يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه إليك، فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم.

وإن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أنزل بلغتهم وعلى رجلٍ منهم. وسوف تُسألون عن شكر هذه النعمة

قال ابن جزى: والذكرُ هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، وكيفيك أن فتحو مشارق الدنيا ومغارها، وصارت فيهم الخلافة والملك. (٤)

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٢٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٠.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى ٤ / ٢٩.

وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠) ﴿[الأنبياء: ١٠].

وإن كنت يا محمد شاكاً في أمر الوحي فسل من سبقك من الرسل، هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله؟ وهذا على سبيل الفرض، والآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤) ﴿[يونس: ٩٤].

قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادى. (١)

وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم؟ وهذا كما يسأل الشعراء الديار والأطال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقِّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً، وهذا كله من باب المجاز. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان سنة الله تعالى فيمن يعرض عن ذكر الله فإنه يسبب له شيطاناً يصاحبه ويزين له طريق الغواية.

* الاشتراك في العذاب يوم القيامة لا يخففه.

* بيان أن من أعماه الله وأصمه لا هادي له ولا مسمع له ولا مبصر.

* صدق وعد الله تعالى لرسوله فإنه ما توفاه حتى أقر عينه بنصره على أعدائه.

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤٥ / ٥.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ١٩ / ٨.

* وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.

* شرف هذه الأمة بالقرآن فإن أضاعته أضاعها الله وأذلها. (١)

العبرة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ
 بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّاحِى لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
 فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي
 مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
 وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
 فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْنَقَمْنَا مِنْهُمْ
 فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقير عديم المال والجاه؛ ذكر
 تعالى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون، ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد، فقد سبقهم
 فرعون إلى التجبر بهاله وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالا وجاهاً من
 موسى؛ فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان. (٢)

التفسير الإجمالي

يحكي الله تعالى هنا قصة نبيه موسى - عليه السلام - الذي أرسله إلى فرعون وقومه القبط، وأيده

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٦ وما بعدها بتصريف يسير.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٩.

بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه. فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده. فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريّةً واستهزاءً به.

قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحرٌ، وأنهم قادرون عليها. ^(١)

وما نريهم آية من آيات العذاب، كالطوفان، والجراد والقمل إلا وهي في غاية القوة والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها.

قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها. ^(٢)

ولقد عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

وقالوا لما عاينوا العذاب: يا أيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك. ولنؤمنن بك إن كشف عنا العذاب.

وقولهم: { يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ } ليس على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان علم زمانهم، ولم يكن مذموماً، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقرونه. ^(٣)

فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٩٧.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٥١.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٠.

ونادى فرعون رؤساء القبط وعظماؤهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا قال مفتخراً متبجحاً: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة ملكاً لي؟ وهذه الخُلجان والأُنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري؟^(١) أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلّة موسى وذلته؟

بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير، الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان - يعني بذلك موسى ﷺ - ولا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على نبي الله موسى، وتنقيصاً له ﷺ في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه.

فهلاًّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوته!!^(٢) قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهبٍ علامة لسيادته، أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه، خدمةً له وشهادة بصدقه.

قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلْك، ووازن بينه وبين موسى ﷺ ووصفه بالضعف وقلّة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقاً فهلاًّ ملكه ربُّه، وسوره، وجعل الملائكة أنصاره!^(٣)

فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخبّة أحلامهم، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة. وإنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

فلما أغضبونا وغازطونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب؛ فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نبق منهم أحداً.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٥١.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤٦.

(٣) البحر المحيط، ٨ / ٢٢.

قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه، وذلك بالغرق بهاء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزز بشيء أهلكه الله به.

وجعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك. قال مجاهد: سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرة لمن يأتي بعدهم.^(١)

من هداية الآيات:

- * قد يؤاخذ الله الأفراد أو الجماعات بالذنب المرة بعد المرة لعلهم يتوبون إليه.
- * حرمة خلف الوعد ونكث العهد، وأنها من آيات النفاق وعلاماته.
- * ذم الفخر والمباهة إذ هما من صفات المتكبرين والظالمين.
- * الاحتقار للفقراء والازدراء بهم من صفات الجبارين الظلمة المتكبرين.
- * الفسق يجعل صاحبه مطية لكل ظالم أداة يسخره كما يشاء.
- * التحذير من غضب الله تعالى فإنه متى غضب انتقم فبطش.^(٢)

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ١٠٢.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٨ وما بعدها بتصرف يسير.

العبرة من قصة عيسى عليه السلام

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا يَا أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنْ اللَّهُ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

سبب نزول قول الله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ... ﴾

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - « أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله وفيه خير، فقالوا: أأنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عبُد من دون الله؟ فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ... ﴾ الآية. (١)

التفسير الإجمالي

ولما ذكر عيسى بن مريم في القرآن وُضِرَ المثل بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركوا قريش يضحجون وترتفع أصواتهم بالصياح.

قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال ابن الزبيري: أهذا لنا ولأهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولأهتكم وجميع الأمم فقال: قد خصمتك ورب الكعبة؟ أليست النصراني يعبدون المسيح، واليهود

(١) أخرجه الحافظ الهيثمي في: مجمع الزوائد ٧ / ٢٣١. رقم الحديث ١١٣٣١. وقال: رواه أحمد والطبراني بنحوه وفيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره. وهو سيء الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح.

يعبدون عزيزاً؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة!! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضيينا أن نكون نحن وأهلتنا معهم، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحي، فظنوا أنه ألزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

و هذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك لأنهم قوم عرب، ومن لغتهم أن (ما) لما لا يعقل فقوله: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيزاً، ولا أحداً من الصالحين؛ لأن الآية لا تتناولهم، لا لفظاً ولا معنى، فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل كما قال الله تعالى: ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون^(١)

قال ابن جزى: أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبيرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى: ﴿حَصْبٌ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة، فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون^(٢).

ما عيسى إلا عبد كسائر عبيد الله، أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلهاً ولا ابن إله كما زعم النصارى. وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خلق من أم بلا أب^(٣).

ولو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكةً يسكنون في الأرض، يكونون خلفاً عنكم.

(١) صحيح السيرة النبوية للألباني ١ / ١٩٨.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى ٤ / ٣٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٢.

وإن خروج عيسى علامة على قرب الساعة، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فلا تشكُّوا في أمر الساعة، فإنها آتية لا محالة. وفي الحديث: (يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً.. الحديث) (١).

وقل لهم يا محمد: اتبعوا هُداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيمٌ وطريق مستقيم.

ولا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدوٌ ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور. (٢)

ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البيئات الواضحات قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع، وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين.

قال ابن جزي: وإنما قال: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا. (٣)

فاتقوا الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكليف.

إن الله جل وعلا هو الربُّ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة.

قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده. هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم. (٤)

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦ / ١٠١ برقم ١١٣٢٩. ورواه الإمام أحمد بنحوه ٢ / ٣٩٤ برقم

١١٠. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) صفوة التفسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٣٢.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٥.

فاختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه. منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه - وهو الحقُّ -، ومنهم من يدَّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.^(١)

فهلك ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يومٍ مؤلم وهو يوم القيامة.

هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا أن تبغتهم الساعة، وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم.

من هداية الآيات:

- * ذم الجدل لغير إحقاق حق وإبطال باطل.
- * شرف عيسى وعلو مكانته وأن نزوله إلى الأرض علامة كبرى من علامات قرب الساعة.
- * تقرير البعث والجزاء.
- * حرمة اتباع الشيطان لأنه يُضل ولا يهدى.
- * وعيد الله لليهود والنصارى الجاحدين بعذاب يوم أليم.^(٢)

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٥.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣١ وما بعدها بتصرف يسير.

نَعْمُ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٣) يَبْعَادُ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٧٤﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٦﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴿

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما قال سبحانه: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ ذكر عقبيه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة، فأولها قوله تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٣) (١)

التفسير الإجمالي

يذكر الله تعالى هنا طرفاً من أحوال القيامة، فيبين أن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء، إلا من كانت صداقته ومحبته لله. قال ابن كثير: كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله فإنها تتقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه. (٢)

ينادي الله المتقين - تكريماً لهم - يا عبادي، لا تخافوا اليوم عذاباً، ولا أنتم تحزنون، فقد أمتم العذاب، وضمن الله لكم الثواب.

الذين صدقوا بآيات الله وأطاعوه، وكانوا له منقادين. يقال لهم يوم القيامة تشرافاً: ادخلوا الجنة أنتم مع أزواجكم، تُسرُّون فيها سروراً عظيماً، يظهر أثره على وجوهكم. (٣)

ويطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها الطعام، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب.

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٤٨٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٥.

(٣) المنتخب ٢ / ٣٦١.

قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكؤوس التي يشربون فيها الشراب كلها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥]. وفي الحديث: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحفائها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)^(١).

وفي الجنة كل ما تشتهيهِ النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة، وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبداً. وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمالٌ للسرور، فإنَّ كل نعيمٍ زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال.^(٢)

وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أعطيتُموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا. قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات.^(٣)

لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكهاً وتلذذاً.

قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينة بالثمار أبداً، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله.^(٤)

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٥. والحديث متفق عليه رواه البخاري ٥ / ٢٠٦٩،

برقم ٥١١٠، ومسلم ٣ / ١٦٣٧ برقم ٢٠٦٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٦.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٥.

من هداية الآيات:

- * كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله والله تعالى.
- * بيان فضل التقوى وشرف المتقين.
- * بيان أن الرجل يجمع الله بينه وبين زوجته المسلمة في الجنة.
- * بيان نعيم أهل الجنة من طعام وشراب وسائر المستلذات.
- * الإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة بعد فضل الله، كما أن الشرك والمعاصي سبب في دخول النار وهذا عدل الله. (١)

حال الأشقياء الفجار يوم القيامة

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ۖ لَآ يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ۗ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَتَادُوا بِمَنَّا لِيَقْضَىٰ عَلَيْكَ قَوْلُنَا إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِحُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار؛ للمقابلة بين الصورتين، والمقارنة بين الحالتين.

التفسير الإجمالي

إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبداً. قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري / ٤ / ٣٤ بتصرف يسير.

لا يخفف عنهم العذاب لحظة، وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير.

وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكن كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد. (١)

ونادى المجرمون - حين يثسوا من تخفيف العذاب الشديد - مالكا خازن النار قائلين له: سل ربك أن يُميتنا لنستريح من أهوال جهنم. فقال لهم مالك: إنكم مقيمون في العذاب دائماً، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره.

لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم. وفي هذا الخطاب من التوبيخ والتقريع ما فيه.

بل أحكم مشركو مكة أمرهم على تكذيب الرسول والتأمر على قتله؟ فإننا محكمون أمراً في مجازاتهم وإظهارك عليهم. (٢)

بل أحسب هؤلاء المشركون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بتدبير الكيد، وما يتكلمون به فيما بينهم من تكذيب الحق؟ بلى نسمعها، والحفظة من الملائكة عندهم يكتبون ذلك. قال ابن جزى: السرُّ ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفية. والنجوى ما تكلموا به بينهم. (٣)

من هداية الآيات:

- * بيان عقوبة الإجرام على النفس بالشرك والمعاصي.
- * عذاب الآخرة لا يطاق ولا يُتصور، يدل عليه طلبهم الموت ليستريحوا منه وما هم بميتين.
- * أكبر عامل من عوامل كراهية الحق، حب الدنيا واتباع الهوى. (٤)

(١) المنتخب ٢ / ٣٦٢ بتصرف.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٦٢.

(٣) يراجع: التسهيل لعلوم التنزيل، ٤ / ٣٣، المنتخب ٢ / ٣٦٣.

(٤) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٥.

تنزيه الله تعالى عن الولد والشريك

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ مَخْرُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنُؤَلَاءُ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فرض أن الله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ولكنه جل وعلا منزّه عن الزوجة والولد، قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، وترقيق في الكلام.

وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح. (١)

تنزهه وتقدس الله العظيم الجليل، رب السماوات والأرض، ورب العرش العظيم، عما يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه.

اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وعدوه - وهو يوم القيامة - فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم. فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة.

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٨.

إنه الله جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبودٌ في الأرض، لأنه هو الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض. قال ابن جزى: أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء. (١)

وقال ابن كثير: أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض، يعبداه أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، هو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم. (٢)

تعالى وتعظم الذي له - وحده - كمال التصرف في السموات والأرض، وفيما بينهما من مخلوقات الجو المشاهدة وغيرها، وله تدبير الأمر في ذلك، وعنده - وحده - علم وقت القيامة، وإليه - وحده - ترجعون في الآخرة للحساب.

ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه لا شفاعة إلا بإذنه ولن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة. (٣)

وقيد - سبحانه - الشهادة بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ للإشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هي المعتدة، أما الشهادة بدون علم بالمشهود بها فإنها لا تكون كذلك. (٤)

ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ليقولنَّ اللهُ خلقنا، فهم يعترفون بأنه الخالق، ثم يعبدون غيره، ممن لا يقدر على شيء، فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول.

وهذا استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أي: ما دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره. (٥)

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٣٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٨.

(٣) المنتخب ٢ / ٣٦٣ وما بعدها.

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٨.

(٥) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٨.

ثم حكى سبحانه ما تضرع به الرسول ﷺ إلى ربه فقال: ﴿يَتَرَبَّ إِنَّا هَتُّؤَلَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. والضمير يعود إلى الرسول ﷺ. وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء (وقيله) على أنه معطوف على قوله تعالى قبل ذلك: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ويكون مقول القول: ﴿يَتَرَبَّ إِنَّا هَتُّؤَلَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى: أحيسب هؤلاء الكافرون الجاهلون، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله: ﴿يَتَرَبَّ إِنَّا هَتُّؤَلَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان فقد كذبوا وخسروا، لأننا نعلم ذلك وغيره علماً تاماً.

ويصح أن يكون قوله تعالى ﴿وَقِيلَهُ﴾ منصوباً بفعل محذوف والتقدير: ويعلم قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون..

وقرأ عاصم وحمة: ﴿وَقِيلَهُ﴾ بكسر اللام والهاء، عطفاً على الساعة أي: وعنده سبحانه علم الساعة، وعلم قول الرسول ﷺ يا رب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون.

والتعبير بالنداء لفظ الرب، يشعر بالقرب، ويوحى بالإجابة، ويفيد كمال التضرع كما أن التعبير بقوله: ﴿قَوْمٌ﴾ يشير إلى أن كفرهم كان كفراً جماعياً، لا كفراً فردياً.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمْتُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) إرشاد وتسلية من الله تعالى لنبيه. أي: فأعرض عنهم، ولا تطمع في إيمانهم لشدة كفرهم، وقل لهم: أمري وشأني الآن مسالمتكم ومتاركتمكم.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم. (١)

من هداية الآيات:

- * جواز استعمال الفروض الجدلية للإقناع وإلزام الحجة
- * الشفاعة ملك لله تعالى، وقد يأذن بشيء منها لأحد من كرام خلقه.

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٩.

- * بيان تضارب الكفار المعاندين في اعترافهم بالله سبحانه مع إشراكهم به.
- * الإعراض عن الكافرين ومشاركتهم مرحلة من مراحل الدعوة. وقد تتحقق في أي زمان أو مكان.
- وأخيراً.. فهذه سورة الزخرف، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعجني وأني وفيه هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يجرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الزخرف

- احتوت سورة الزخرف على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:
- * بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.
- * وجوب إنكار المنكر ومحاوله تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتوسع له طاقة الإنسان.
- * حرمة التقليد للأباء والسابقين في غير الحق.
- * هوان الدنيا وحقارتها عند الله، وهي سجن المؤمن وجنة الكافر.
- * وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.
- * شرف هذه الأمة بالقرآن، فإن أضعفته أضعها الله وأذلها.
- * ذم الجدل لغير إحقاق حق وإبطال باطل.
- * كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله سبحانه.
- * أكبر عامل من عوامل كراهية الحق حب الدنيا واتباع الهوى.

سورة الدخان

بين يدي السورة :

تسميتها :

تسمى «سورة الدخان» وسميت بهذا الاسم في أكثر المصاحف وعند أكثر المفسرين والمحدثين لأن الله تعالى جعل الدخان آية لتخويف الكفار حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، فبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ. وقال بعضهم: أن اسم السورة: (حم الدخان)^(١).

عدد آياتها :

قال الداني: آياتها تسع وخمسون في الكوفي، وسبع وخمسون في البصري، وست وخمسون في عدد الباين^(٢).

مناسبتها لما قبلها :

إن الله سبحانه ختم سورة الزخرف قبلها بالوعيد والتهديد ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩] أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعيد من الله لهم وتهديد، فناسب افتتاح هذه السورة بشيء من الإنذار الشديد^(٣) ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [٣].

وقال البقاعي: قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضمنت «سورة حم» السجدة، وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه، وحصل من

(١) أسماء السور القرآنية: عبد الله الهنائي: ٢٣٥، رسالة ماجستير، وقال القرطبي: مكية باتفاق إلا قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَاشِفُوهُمُ الْعَذَابَ قَلِيلًا ﴾. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ٨٣، صفوة التفاسير: الصابوني، سورة الدخان.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٦٩؛ فتح القدير: الشوكاني: ٢/ ٩٨٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي: ٣: ١٨، روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٦٩.

مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله.... إلى قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، افتتح الله تعالى سورة الدخان بما يكمل الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْتَرَكَةٍ ﴾ ثم ذكر من فضائلها فقال: (فيها يفرق كل أمر حكيم)^(١).

سبب نزولها:

أخرج البخاري: عن مسروق: قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف (عليه السلام) فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة من الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان / ١٠] فأتى الرسول ﷺ فقيل يا رسول الله: استسق لمضر فإنها قد هلكت، قال: "لمضر؟ إنك لجريء". فاستسقى فسقوا فنزلت: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴾ [الدخان / ١٦]^(٢).

أهدافها:

التوحيد، النبوة، الرسالة، البعث وهي نفس أهداف السور المكية بصفه عامة لترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائم الإيمان.

فضائلها:

ذكر المفسرون أحاديث كثيرة في فضل سورة الدخان، وغيرها من السور إلا أن أغلب هذه الأحاديث ضعفها العلماء، ومن هذه الأحاديث^(٣) ما أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، ١٨ / ٣.

(٢) الصحيح المسند في أسباب النزول: مقبل بن هادي الوادعي، ط١، دار القدس، صنعاء، ١٩١٣، ص ٢٠٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧ / ٢٣١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨ / ٨٣. وانظر: =

هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك -قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأحد رواة هذا الحديث عمر بن أبي خثعم ضعيف^(١).

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له.

قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدم يضعف والحسن لم يسمع من أبي هريرة^(٢).

محور السورة:

محور السورة الذي يربط أجزاءها ومقاطعها هو حقيقة الإيمان، والحديث عن التوحيد والبعث، والرسالة، وهي أهداف السور المكية عامة في ترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان. وقد قسمت السورة إلى ست مقاطع:

المقطع الأول: إعجاز القرآن ونزوله في ليلة مباركة.

ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن الكريم المعجزة الخالدة الباقية الذي مصدره الله القوي الغالب الذي لا يقهر رحمة بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور ووقت إنزاله في ليلة مباركة هي من أفضل الليالي «ليلة القدر» وبينت شرف هذه الليلة التي فيها تدبر وتفصل أمور الخلق، والتي اختارها الله تعالى، العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه.

= روح المعاني، الألوسي، ١٤ / ١٧٠.

(١) سنن الترمذي: أبواب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل حم الدخان، رقم ٢٨٩٠. وانظر: الإتيقان في علوم القرآن، ٢ / ١١٢٥. تحفة الأحوذى، أبواب فضائل القرآن: باب ما جاء في حم الدخان، رقم الحديث ٣٠٥٠، ٨ / ١٩٨.

(٢) تحفة الأحوذى، أبواب فضائل القرآن: رقم الحديث، ٣٠٥١، ٨ / ١٩٨، والترمذي: باب ما جاء في فضل حم الدخان: رقم (٢٨٨٩).

المقطع الثاني: موقف المشركين من القرآن.

بين الله تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم وأنهم في شك وارتياب من أمره فهددهم بالعذاب، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن قريشاً لما استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم، دعا عليهم بسنين كسني يوسف عليه السلام فأصابهم قحط، حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﴿ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فسقوا فنزلت.

وفي رواية البخاري تنمة للرواية السابقة: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله: ﴿ يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

المقطع الثالث: تذكيرهم بما حل بقوم فرعون المنكرين.

تذكير المشركين بقوم فرعون، ليعتبروا بما حل بهم من العذاب نتيجة طغيانهم وإجرامهم وعن الآثار التي تركوها - بعد أن أهلكهم الله - من قصور وحدائق ومساكن وأنهار وعن ميراث المؤمنين لهم من بني إسرائيل.

المقطع الرابع: إثبات البعث.

إنكار المشركين للبعث، وإثباته لهم وتذكيرهم بقوم تبع ومن قبلهم من المكذبين والطغاة الذين أهلكهم الله، وإن سنن الله لا تختلف في إهلاك الطغاة والمنكرين.

المقطع الخامس: الترهيب من مصير الفجار والمنكرين.

تذكيرهم بأحوال يوم القيامة، وجزاء الكفار وترهيبهم مما يتعرض له العصاة والكفار في الآخرة.

المقطع السادس: الترغيب بما يلقاه المؤمنون.

ترغيبهم بما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في يوم القيامة، وفي الآخرة.

المقطع الأول: إعجاز القرآن وانزاله في ليلة مباركة.

قال تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكَتَبِ الْمُبِينِ ٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩﴾.

التفسير الإجمالي:

إن تصدير السورة بهذين الحرفين ﴿حَمَّ﴾ كسائر الحروف المقطعة في أوائل السور الأخرى بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها، وعلى خطورة ما يلقي من أحكام وهذا قول ابن كثير، ذكره في أول سورة البقرة في تفسير، ﴿آلَ﴾ وقال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته^(١). وهو قول أكثر المفسرين^(٢).

﴿وَالْكَتَبِ الْمُبِينِ ٢﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن الموضح لكل ما يحتاجه الإنسان في أمور دينه وديناه، الذي أنزله الله في ليلة مباركة هي ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المبارك من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، أو ابتداء نزوله فيها واستمر نزوله منجماً بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، ووصفت الليلة "بالبركة" لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب^(٣) لينذر به الخلق، وليستضيئوا بنوره، ويسيروا على هدايه، ويتعدوا عن الكفر والعصيان الذي يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة ولتقوم الحجة عليهم، كما قال تعالى

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ١/٥٩؛ وهو قول أكثر المفسرين. انظر: مواهب الرحمن: المدرس: ٧/٩٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/١٦، ١٢٦. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي: ٢/١٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/١٢٦. وانظر: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: للبرسوي: ٤/٤.

٢٦، والكشاف: للزمخشري: ٤/٢٧٤.

في سورة البقرة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وفي سورة القدر: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۗ ﴾ [القدر: الآية ١]. وفي هذه الليلة المباركة يفصل الله تعالى ويبين كل أمر محكم من أرزاق العباد وأجالهم وسائر أحوالهم من خير وشر وحياة وموت، وغير ذلك.

وهذا الأمر من رحمة الله بعباده ألا يتركهم دون تحذير من العقاب فأنزل القرآن وأرسل الرسل رعاية لمصالح العباد^(١) وهو أعلم بما يصلح لهم ويصلحهم. فالربوبية تقتضي الرحمة والسماح لأقوال البشر وما يصلح له.

فالله السميع العليم الذي أنزل القرآن: هو رب السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ومالكهما إن كنتم من أهل الإيمان واليقين لا رب غيره، ولا معبود سواه إلا هو، يحيي ويميت، فهو المستحق للعبادة دون غيره وهو خالق المخاطبين، وخالق من سبقهم من الأمم الماضية.

ثم ذكر الشاكرين اللاعبيين الذين لا يميزون بين الحق والباطل فبعد إقرارهم بأن الله خالقهم، أنكروا البعث والتوحيد فهم لا عبون لا جدية عندهم في الاعتقاد الصحيح، والسلوك السليم.

دروس وعبر:

* أقسم الله بالقرآن الكريم المنزل على نبيه محمد ﷺ في ليلة مباركة، رحمة بعباده ليعبدوه فهو الواحد القهار، رب السماوات والأرض.

* بين الله طبيعة الكافرين، وأنهم لا يوفون بعهدهم مع الله رغم التهديدات المتكررة التي تفرعهم لينزجروا ويتعدوا عن المعصية قبل حلول العذاب.

(١) البحر المحيط: أبو حيان، ٣٣ / ٨، وصفوة التفسير: الصابوني، ١٤٧، تفسير سورة الدخان.

المقطع الثاني: تهديد المشركين بالعذاب

قال تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَدُوهُمْ أَلَسَ لَهُمُ الْبُطْءَةُ أَيَّامًا يُدْعَوْنَ فِيهَا لِلْعَذَابِ ﴿١٣﴾ ثُمَّ نَبَّؤْنَا عَنْهُمُ أَنَّكُمْ إِذَا كَانُوا مُعْادِيَةً كَانُوا لِلْعَذَابِ قَلِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى في المقطع الأول وصف المشركين، وأنهم في شك من التوحيد والبعث وقدرة الله، التفت في هذا المقطع إلى رسوله ﷺ ليعتبر عذابهم يوم تأتي السماء بدخان كثيف واضح بين، وقد اختلف المفسرون بهذا الدخان إلى قولين:

الأول: أنه وقع فعلاً وذلك فيما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه^(١): «أن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ - دعا عليهم بسنين كسني يوسف عليه السلام، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. قال تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسقى الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى ﷺ لهم فاسقوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟... فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبُطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾... قال: يعني يوم بدر.

(١) رواه البخاري ومسلم، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به، وقد وافق جماعة من السلف ابن مسعود على هذا التفسير وأن الدخان قد مضى وهو اختيار ابن جرير وذكره صاحب الظلال، ٥/ ٣٢١٠، وذكره ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٢٢٣.

القول الثاني: إن الدخان لم يمض بعد، بل هو من أمارات الساعة كما ورد في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري - الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها والدخان، والدابة...". وروى ابن جرير بسنده عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة...". وقال ابن كثير: إسناده جيد^(١). وأورد أحاديث أخرى تدل على أن الدخان من الآيات المنتظرة يوم القيامة. وقال الرازي: لما وصف الله البطشة الكبرى بأنها «كبرى» وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك يوم القيامة^(٢). وقيل وهي دخان: أي هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها^(٣).

دروس وعبر من المقطع الثاني:

- * إن الله سبحانه بين لنبيه في هذا المقطع أن عذاب هؤلاء الكفار بعد أن دعى عليهم ﷺ بقوله: "اللهم اجعل سنيهم كسني يوسف، فارتفع المطر، أصيبوا بالمجاعة وأكلوا الجيف والكلاب وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان وفي الآخرة سيدخلهم النار، ومن علاماتها ظهور الدخان بسبب ضعف الطاقة الشمسية، يأخذ المؤمن منه كالزكام وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه.
- * يبين الله في هذا المقطع أن الكافر يلجأ إلى الله خاصة في وقت الشدة فإذا فرج الله عنه الضر عاد إلى المعصية وهذا تحليل دقيق لطبيعتهم، وما تنطوي عليه نفوسهم.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٢٣٣/٨. وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٢/ ١٢٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤/ ٢٤٥.

(٣) عمدة الحفاظ: السمين الحلبي: ١٧٤.

المقطع الثالث: تذكيرهم بقوم فرعون

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدْوَأَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرَأَوْفُوا لِي فَاغْرِبُوا لِي فَاغْرِبُوا لِي ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرَبْنَا بِمُؤَيَّدِي لَيْلًا إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنُوا ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْوَأُ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

التفسير الإجمالي:

بين الله تعالى في المقطع السابق إصرار المشركين على كفرهم وتكذيبهم محمد ﷺ وذكرهم في هذا المقطع أن كثيراً من المتقدمين كانوا مثلهم كذبوا رسله، وفي مقدمة هؤلاء قوم فرعون الذين كذبوا موسى ﷺ إذ أرسله إليهم رسولا كريما، ليحرر بني إسرائيل من عذاب فرعون وملئه، حيث كانوا يسومونهم سوء العذاب، وكانوا عبادا مخلصين لله، ظلموا بغير حق، وأيده الله بالمعجزات والآيات البينات. فطلب من فرعون وملئه قائلاً لهم: ﴿أَدْوَأَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾ المؤمنين من بني إسرائيل، أي أرسلوهم معي وأطلقوا سراحهم من العذاب والظلم والاستعباد ليعبدوا ربهم إني لكم رسول أمين على ما أرسلني به ربي، أدعوكم للإيمان به وعبادته، وقبول دعوتي: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تتكبروا عن اتباع ما أتيتكم به من البراهين والحجج التي لا تستطيعون إنكارها قال ابن كثير: «(وأن لا تعلقوا على الله...) أي لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد بحججه والإيمان ببراهينه... ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة»^(١). فهددوه بالرجم، فالتجأ إلى الله قائلاً: ﴿وَإِنِّي

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨.

عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ لَمْ تَصَدُقُوا بِمَا أُتَيْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَاتْرَكُونِي وَلَا تَوَدُونِي. فَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَهَمُوا بِقَتْلِهِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ عَلَيْهِمُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَكْذُبُونَ مَجْرُمُونَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ إِنَّهُمْ جِنْدٌ مَغْرُقُونَ. وَأَمْرُهُ أَنْ يُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا وَسِرًّا، وَأَنْ يَضْرِبَ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَمْرُونَ فِيهِ، وَأَخْبَرَهُ أَنْ فِرْعَوْنَ سَيَتَّبِعُهُ مِنْ نَفْسِ الطَّرِيقِ، فَلَا يَضْرِبُهُ بَعْصَاهُ حَتَّى يَمُرَّ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ، فَانجَى اللَّهُ قَوْمَ مُوسَى، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ. وَتَرَكَوْا مَا مَتَعُوا بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُورِثَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُسْتَعْبِدِينَ. وَكَذَلِكَ نَفَعَلُ بِكُلِّ مَنْ عَصَانَا. وَلَا نَكْتَرُ بِهِ وَلَا نَحْزَنُ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْزَنُ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَا كَانُوا مَهْلِينَ عَنِ الْعُقُوبَةِ.

ولقد امتن الله تعالى على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من عذاب فرعون، الذي ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم، إنه كان متعالياً وعنيداً، ومتكبراً متجبراً، مسرفاً في كفره بالله، وارتكابه للمعاصي وادعائه الألوهية والربوبية. قال القرطبي: ﴿عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي جباراً من المشركين وليس هذا علو مدح بل هو في الإسراف... وقيل: هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله^(١).

وقد اختار الله تعالى اصطفاً بني إسرائيل على العالمين في زمانهم لاستحقاقهم لذلك ولجهدهم في سبيل الله، ولاتباعهم لموسى الذي أعطاه الله المعجزات والآيات وخوارق العادات، وأنجاهم من الغرق، وأنزل عليهم المن والسلوى مناً عليهم وحجة عليهم على ما جاءهم به نبيهم موسى عَلَيْهِمُ، قال الرازي: (وآتيانهم من البيئات: مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم) ﴿بَلَكُوا مَيِّتٌ﴾ أي نعمة ظاهرة لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق من الزنديق^(٢)، فلما بدلوا الإيمان بالكفر، والصلاح بالفساد لعنهم وطردهم من رحمته.

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨ / ٩٣..

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤ / ٢٤٩، وانظر: صفوة التفاسير، سورة الدخان، ص ١٥٢.

دروس وعبر:

- * تذكير المشركين بقوم فرعون قبلهم كيف كذبوا موسى بعد أن دعاهم إلى عبادة الله واغتروا بما عندهم من جاه ومال وسلطان فأهلكهم الله، وهكذا يفعل بهم إن هم أصروا على تكذيب نبيهم محمد ﷺ، فقد أهلك من هم أشد منهم قوة وأكثر مالا وأعز سلطاناً.
- * إن العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين، والهلاك للطاغين العصاة، إذ لا يمكن التساوي بينهم.

المقطع الرابع: إنكار المشركين البعث

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَمْ حَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتُمْ إِنَّمَا كَانُوا تُحْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما تحدثت الآيات في المقطع الثالث عن قصة فرعون وملئه مع موسى ليتعظ المشركون من كفار قريش الذين أصروا على الكفر، ولم يؤمنوا، بين في هذا المقطع إنكار المشركين للبعث والنشور صراحة وأنها يقولون: إذا متنا فلا حياة بعد الموت ولا بعث وتحذوا الرسول ﷺ والمؤمنين - محتجين بآبائهم الأولين، الذين ذهبوا فلم يرجعوا- أن يأتوا بهم إن كان البعث حقاً كما يقولون.

قال القرطبي: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما يكون بعد الموت^(١). وقال الرازي: إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكناً فعملوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨ / ١٤٤.

يوم القيامة^(١).

وطلبهم هذا باطل لأن البعث والنشور لا يكون في الدنيا وإنما يكون يوم القيامة. وقد توعدهم الله وأنذرهم عقوبته التي لا ترد، فإن كانوا يظنون أنهم أقوياء وأشداء، فقد أهلكنا من هم أشد قوة وبأساً منهم، وأكثر أموالاً، وأعظم نعيماً وهم أهل سبأ ملوك اليمن، أهلكنا من سبقهم من الأمم الظالمة، كعاد ونحوهم، ودمرناهم بسبب كفرهم مع ما كانوا عليه من القوة والمنعة، وإهلاك هؤلاء أولى، وعلل سبب إهلاكهم بسبب إجرامهم وتكذيبهم، وهذا وعيد وتهديد لقريش فهم ليسوا بخير من قوم تبع^(٢). ثم ذكر الله سبحانه الدليل القاطع على البعث والقيامة فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِنَعْبِتَ ﴾^(٣)، قال الرازي: ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبادي لعباً وعبثاً^(٤)، والله تعالى ما خلق السموات والأرض إلا بالحق والعدل ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وتنزيه الله عن اللهو والعبث^(٤).

دروس وعبر:

- * إصرار الكفار على إنكار البعث والقيامة وتكذيب الرسول ﷺ، وهم في ذلك كقوم فرعون، سيهلكهم الله كما أهلك قوم فرعون.
- * الرد على حججهم الواهية التي يتذرعون بها في إنكارهم البعث يوم القيامة فإن الله لم يخلق السماوات والأرض عبثاً وإنما لإظهار الحق وتوحيد الله والتزام طاعته.
- * إن الله سبحانه خلق السماوات والأرض في دقة متناهية في كل شيء، وله قصد في تعميمه، ودعا سبحانه الخلق إلى التدبر في هذا الكون العجيب الدقيق فلا شيء فيه إلا وله غاية. وكذلك الإنسان، فالحكمة تقتضي أن يكون يوم القيامة هو يوم الفصل في أمر الخلائق.

(١) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤ / ٢٤٩.

(٢) روح المعاني: الألويسي، ١٤ / ١٩٩.

(٣) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤ / ٢٥١.

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني، سورة الدخان، ١٥٢.

المقطع الخامس: الترهيب من مصير الفجار والمنكرين

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ سَجْرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُؤْا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمِ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن أثبت الله تعالى في المقطع السابق الأدلة على البعث والقيامة ذكر في هذا المقطع ما يصيب الكافر من أهوال يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق فلا ينفع فيه أحدٌ أحدًا إلا من رحم الله من المؤمنين الذين يؤذن لهم، قال ابن كثير: «لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: «إلا من رحم الله» أي لا ينفع يومئذ إلا من رحمة الله عز وجل»^(١).

ثم ذكر وعيد الكفار وما أعد لهم من طعام من شجرة خلقها الله في جهنم طعامها يغلي في بطون الكافرين كالتحس المذاب، ويقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوا هذا الأثيم وجروه إلى وسط النار بقوة، ثم صبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة الذي يصهر ما في بطنه وجلده ويقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزز المكرم. وهذا العذاب الذي كنتم تشكون فيه حيث كنتم في الدنيا^(٢).

والأثيم هو أبو جهل الذي كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، إنما الشريد بالزبد والتمر، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخرية واستهزاء بكلام الله^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧ / ٢٤٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٥ / ٢٣٨.

(٣) السابق: ٢٥ / ٢٣٤.

دروس وعبر:

* إن يوم القيامة هو يوم الحساب الذي فيه يكون كل فرد مسؤول عن نفسه، وفيه يحاسب الله الخلائق على ما قدموا لأنفسهم، فيتميز المؤمن من الكافر، والمحسن من المسيء: ففريق إلى الجنة، وفريق إلى النار.

* ثم بين الله الإهانة والذل الذي سيصيب الكفار الفجار وأن طعامهم من شجرة الزقوم التي لا تحترق في النار، والتي يأكل منها الآثمون الفجار الذين يشكون ويستهزئون بالمؤمنين فإذا أكلوا منها تغلي في بطونهم وتستعر وهذا غاية في التهديد والوعيد.

المقطع السادس: الترغيب بما يلقاه المؤمنون

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنِكَهَةٍ آمِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِينَ رَبَّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير الإجمالي:

ذكر الله في المقطع السابق حال الكفار الأشقياء وما أعد لهم من عذاب، وأنهم أهل النار ثم أتبعه في هذا المقطع بحال المؤمنين الأبرار وما أعد لهم من النعيم، وأنهم أهل الجنة. وهم الأنقياء الذين اتقوا ربهم فامتثلوا أوامره واجتنبوا ما نهى عنه، هؤلاء لهم يوم القيامة مساكن آمنة من كل المنغصات والمكاره في جنات وبساتين ناضرة وعيون جارية لباسهم الحرير الرقيق وهو: السندس، والحرير السميك وهو: الإستبرق، يقابل بعضهم بعضاً ليأنس بعضهم ببعض على سرر متقابلين وكذلك يزوجهم ربهم بالهور العين، قال البيضاوي: أي قرناهم بالهور

العين، والحوراء: البيضاء، والعيناء: عظيمة العينين، ووصف تعالى نعيمهم بذلك؛ لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه من الغم، ثم ذكر الحور الحسنان؛ لأنهم بها اكتمال سعادة الإنسان^(١). ويطلبون في الجنة ما شاءوا من الفواكه والثمار، فهم آمنون من الأمراض والأوجاع، ومن التعب والموت، فلا يموتون في الآخرة، بعد مودة الدنيا التي انتهت بدخولهم الجنة، وحامهم الله من دخول النار وكل هذه النعم فضلاً من الله وإحساناً وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يعلوه فوز.

وفي ختام هذا المقطع جمع الله كل مقاطع السورة، وربط بين المقطع الأول: ﴿حَمَّ ۝١﴾ **وَأَلْكَتَبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴿ ذكر أن كل هذا ذكرناه وأنزلناه سهلاً واضحاً بيناً بلسانك العربي ولسان قومك؛ كي يتذكروا ويتعظوا ويعملوا بما فيه، وينزجروا عن المعاصي. قال البرسوي: «أي سهلناه بلغتك ولسانك»^(٢) الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه وتيسر معناه، (لعلهم يتذكرون)، ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه».

ومع هذا البيان وهذا الوضوح كفر بعض قومك وعاند وكذب، فانتظر يا محمد ما وعدناك به من النصر عليهم، وما سيحل بهم، إن استمروا على الكفر والتكذيب، فإنهم منتظرون هلاكك وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، ووعد بالنصر والظفر عليهم ووعد الكافرين.

دروس وعبر:

* في هذا المقطع حث للمؤمنين وللناس أجمعين على اتباع القرآن الكريم وما جاء به، وبين لهم الثواب الذي سينالونه إن اتبعوا ما أنزل، فذكر لهم النعم التي سينالونها بمسكنهم في الجنة، التي فيها من النعم الحسية والمعنوية ما ترنوا إليه نفوس البشر، من مسكن وملبس ومقابلة في المجالس ليأنسوا ببعضهم، وبالمأكول والمشرب، والأزواج المطهرة، هذه النعم

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي: سورة الدخان.

(٢) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: للبرسوي: ٤ / ٣٩، وانظر: الكشاف: للزنجشيري: ٤ / ٢٨٦..

التي يفيضها الله عليهم، نعم مستمرة دائمة لا تؤخذ منهم كما هو الحال في الدنيا. كل ذلك تفضلاً منه سبحانه وتعالى وتلك هي السعادة الحقيقية.

* وفي ختام هذا المقطع توجيه إلى جميع البشر في كل زمان ومكان أن لا نجاة للبشرية إلا باتباع القرآن الكريم الذي أنزله الله بلغة العرب بلسان النبي ﷺ ليتعظوا ويؤمنوا وهي لغة سهلة على كل من يقرأ القرآن ولو من غير العرب، وفيها كذلك تهديد للمخالفين المكذبين بالهلاك والدمار والعذاب، وأن النصر للمؤمنين.

الخاتمة :

إن السورة ربطت بين مقصد الإعجاز والتحدي ونزول القرآن في ليلة مباركة وبين أمر الوجدانية والبعث والنشور وتفنيذ مزاعم المشركين والرد عليها، فهي توضح حقيقة المشركين في زمن النبي ﷺ، وإصرارهم على الكفر وعدم إيمانهم. وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة، فأندرهم الله تعالى في هذه السورة وحذرهم رحمة بهم، ليعرفوا ربهم رب السماوات والأرض وما بينهما. فيسارعوا إلى الإيمان قبل أن يأتي العذاب الشديد الذي سيكون في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، حذرهم من العذاب الشديد الذي سينالونه إن لم يؤمنوا في يوم مخيف، يوم تأتي السماء بدخان لا ينكشف، وفي ذلك اليوم سوف يحاسبون على كفرهم وعنادهم.

كما ذكرهم في هذه السورة انتقامه من فرعون الذي علا وتكبر مع قومه، فلم يتبعوا موسى الذي دعاهم لعبادة الله ولم يسمعوا له فكانوا من المغرقين، وتركوا ما كان لديهم من جنان وعيون وزروع ومقام كريم.

كما ذكرهم بقوم ﴿ تَبِعَ ﴾ ومصرعهم، وما هم بخير منهم إن لم يؤمنوا وأصروا على كفرهم وقولهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ وختم الله السورة بمشهد العذاب الذي سيصيب الكافرين وأن طعامهم من شجرة الزقوم، ويصب من فوق رؤوسهم الحميم جزاء بما كانوا يكذبون.

وفي مقابل هذا مشهد النعيم الذي أعده الله للمؤمنين «وهكذا تطوف السورة في عوالم شتى بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وسنن الخلق ونواميس الوجود»^(١) لكي يقفوا على حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ وبينه القرآن الذي أنزله الله بلغتهم لعلهم يتذكرون.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٥ / ٣٢٠٧.

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون^(١)

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى «سورة الجاثية» عند أكثر العلماء، وذلك لأن الخلائق كلها تجثوا يوم القيامة على الركب للأهوال التي يلقونها، فزعا في انتظار الحساب. وأخذاً من الآية المذكورة فيها: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [٢٨]. والأظهر أن اسمها التوقيفي هو (حم الجاثية، كما ورد في الدر المنثور عن ابن عباس فيما أنزل بمكة، وما ذكر أنه أنزل بمكة^(٢)، وعنون الحاكم في مستدركه^(٣) اسم السورة (حم الجاثية).

وللسورة اسمان توفيقيان: هما: (سورة الشريعة) و(سورة الدهر)، لذكرهما فيها، وقد نسب القول الأول إلى عبد الله بن الزبير بل إلى أهل الحرمين عموماً، وذكر الاسم الثاني الآلوسي وابن عاشور^(٤) وقال: وسميت به لأنها انفردت بذكر الدهر دون سائر الـ (حم) الأخرى، ولكن هذا الاسم مدعاة للاشتباه مع ما ورد من اسم توقيفي باللفظ نفسه لسورة^(٥) ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

(١) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤ / ٢٥٧؛ وذكر الآلوسي أن آياتها سبع وثلاثون في الكوفي، وذكر الباقر أنها ست وثلاثون وسبب اختلافهم في (حم) هل هي آية مستقلة أو لا؛ روح المعاني: الآلوسي، ١٤ / ٢٢١. وانظر: الكشف: ٤ / ٢٨٨.

(٢) الدر المنثور: السيوطي: ٧ / ٤٢٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري: ٢ / ٤٩٠.

(٤) روح المعاني: الآلوسي: ١٤ / ٢١١؛ التحرير والتنوير: لابن عاشور، ٢٥ / ٣٢٣.

(٥) السور القرآنية: عبد الله الهنائي، ١٧١.

مناسبتها لما قبلها :

اختتمت سورة الدخان قبلها بأن الله تعالى أنزل القرآن عربياً بلسان النبي ﷺ ولسان قومه، فناسب ابتداء هذه السورة بأن نزول القرآن الكريم من الله تعالى للحث على اتباعه والإيمان به والسورتان تتشابهان في مطلعهما (حم) وفي الغايات الكبرى للقرآن الكريم: وهي اثبات وحدانية الله، وترسيخ عقيدة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله والإيمان بنبوته محمد ﷺ والإيمان باليوم الآخر، والبعث والجزاء^(١).

محور السورة :

هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية في ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة^(٢). وهي:

- ١- خلق السماوات والأرض.
- ٢- خلق الناس.
- ٣- خلق الدواب.
- ٤- اختلاف الليل والنهار.
- ٥- إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.
- ٦- تصريف الرياح.

مقاصد السورة :

- ١- ترسيخ الإيمان بالبعث والحساب من خلال مشاهد يوم القيامة.
- ٢- دعوة النبي ﷺ إلى الصبر على ما يلاقه من عناد قومه، والمصابرة على الدعوة إلى الإسلام

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، ١٨/٥٩، وانظر: التفسير المنير: الزحيلي، ٢٥/٢٤٦.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/٣٢٩.

من خلال ما يعرض عليه من سير الأنبياء السابقين وأممهم.

٣- التحدي والإعجاز من خلال الحروف المقطعة، ومعالجة قضايا العقيدة والإيمان من خلال عرض ما لاقته الدعوة الإسلامية من عناد واستكبار.

المقطع الأول: مصدر القرآن الكريم وإثبات وحدانية الله

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي حَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّهِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

التفسير الإجمالي:

افتتحت السورة كما افتتحت سابقتها (سورة الدخان) ببيان مصدر القرآن الكريم، وأنه من عند الله العزيز الحكيم. وكما في سائر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منزل من عند الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. قال ابن الجوزي: إن الغاية من هذه الحروف أن ينبه «بذلك على إعجازه فكأنه قال: هذه الحروف التي تؤلفون منه كلامكم فما بالكم تعجزون عن معارضته، فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد عليه الصلاة والسلام^(١). وفي هذا يقول سيد قطب في تفسير: «﴿حَمَّ﴾... من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف، وهم لا يقدرّون على شيء منه»^(٢).

ثم أخبر الله تعالى عن دلائل وحدانيته وقدرته، في السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما تتطويان عليه من فنون الآيات الكونية البديعة، والنجوم الزاهرة، واختلاف

(١) زاد المسير: ابن الجوزي: ٢١/١.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٣٢٢/٥.

الليل والنهار، والشمس والقمر، وما في الأرض من جبال وبحار وأنهار، هذه الآيات وهذه المشاهد التي يشاهدها الناس كل يوم من تعاقب الليل والنهار واختلافهما طولاً وقصراً، بنظام محكم دقيق وما أنزل من السماء من مطر به حياة البشر وهو سبب الرزق قال ابن كثير: سمي المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق^(١)، فبالمطر تحيا الأرض بعد أن تكون هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع وحياتها بإخراج أنواع الزروع والنبات والثمر، وكذلك في تقلب الرياح من حالة البرد الشديد إلى الحر الشديد، ومن الشمال إلى الجنوب، وتسيرها للسفن في عرض البحار، كل ذلك علامات باهرة، وبراهين ساطعة على وجود الله سبحانه المدبر لها، وهي دلائل لأصحاب العقول النيرة، وحجج وبراهين تدل على وحدانية الله، وحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله ففي كل شيء له آية، تدل على أنه الواحد المتفرد في ملكه، فإذا لم يؤمنوا بعد كل هذه البراهين الدالة على توحيد الله وعظمته وجلاله وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى^(٢). فبأي شيء يؤمنون ويصدقون! هذه الآيات وحدها كفيلاً إلى توجيههم للإيمان، والقرآن وجه قلوبهم إليها، ففي الكون وفي النفس علامات واضحة على وجود الله تعالى ووحدانيته، لقوم يعقلون والغرض استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وبراهينه^(٣).

وقال القرطبي: هذه حجج الله وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته لا باطل فيها ولا كذب فبأي حديث بعد حديث الله وآياته يؤمنون^(٤).

دروس وعبر من المقطع الأول:

* القرآن الكريم كلام الله المنزل على محمد ﷺ المعجزة الكبرى الذي به تحدى العرب أن يأتوا بمثله فهو مؤلف من نفس الحروف التي يتكلمون بها وقد ابتدأت السورة بـ ﴿حَم﴾

- (١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: سورة الجاثية: ٧/ ٢٤٥ النسخة المحققة.
- (٢) الكشف: للزخشري: ٤/ ٢٨٩. وانظر: أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/ ٣٢٩.
- (٣) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ١٥٧.
- (٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٤، وانظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧/ ٢٥٠.

وهذه إشارة أو رمز إلى تحدي العرب، من ناحية أن هذا القرآن المعجز مصوغ من مثل حروفهم وهم لا يقدرّون على شيء منه ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

* دعا المشركين إلى التأمل في كل ما حولهم في السماوات والأرض وما يشاهدونه من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وما حولهم من الأفلاك والعناصر، واختصاص كل عنصر بصفة معينة، وحركة خاصة، ومهمة ثابتة، دعاهم إلى التأمل في هذه الحقائق المشاهدة في آيات الكون، وفي أنفسهم، فكل ذلك لا بد أن يكون له صانع مدبر حكيم، فإذا لم يؤمنوا بعد كل هذه الآيات فبماذا يؤمنون؟ هذه الدلائل الموحية التي يمكن أن يصل الإنسان بعقله إلى معرفة صانعها وخالقها، ووجههم القرآن إليها لكي لا يكون للإنسان حجة بعد كل هذا الوضوح من بيان القرآن وإعجازه.

المقطع الثاني: جزاء المكذابين بآيات الله

﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنزلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ يَدْعَابُ إِلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُونًا أَوْ لَيْتًا لَّهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ يَنْ وِرَآيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ساق لهم في المقطع الأول الأدلة والبراهين على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فلم يؤمنوا، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، واستعظم تكذيبهم للقرآن، جاءهم في هذا المقطع بوعيد عظيم، وتهديد شديد فيه هلاك ودمار لكل من يسمع آيات الله تقرأ عليه، وهي في دلائلها ووضوحها ظاهرة بينة، ثم يستمر على كفره، ويتأدى في

غيه وضلاله وكفره، مستكبراً عن آيات ربه كأن لم يسمعها، بالعذاب الشديد الذي سيلحقه، قال الرازي: «وهذا وعيد عظيم، والأفأك الكذاب، والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام»^(١). وسماه بشارة تهكماً به، لأن البشارة هي للخبر السار^(٢)، والآية وإن نزلت في (النضر بن الحارث) الذي كان يشغل الناس بأحاديث الأعاجم عن استماع القرآن، وكان إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ، استهزأ بها وسخر منها. إلا أن الحكم عام في كل من يتصف بهذه الصفة، أولئك المستهزئون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة في الدنيا، وجهنم تنتظرهم يوم القيامة، ولا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من مال وولد أو جاه، ولا ما اتخذوا من دون الله من أصنام يطمعون أن تشفع لهم، وتدفع الضرر عنهم^(٣).

وقد أكد الله سبحانه في نهاية المقطع على وصف القرآن بهدى الله الذي يجب اتباعه فهو الحق والصواب والموجه إلى سعادة الدنيا والآخرة، والذين كفروا بآيات القرآن الكريم وجحدوا بها لهم أشد العذاب يوم القيامة.

دروس وعبر:

* في هذا المقطع وعيد شديد، وتهديد واضح في أول المقطع وآخره، لكل من استكبر عن اتباع الحق بعد ظهوره ووضوحه وتمادى في جحوده وكفره متعالياً عن اتباع القرآن والانقياد لطاعة الله تعالى، متحدياً قدرة الله، ومستهزئاً بآياته.

* تأكيد على أن القرآن الكريم هدى الله سبحانه فكل من لم يتدبر آياته ولم يتبع دلائله على وحدانية الله وقدرته، ويكفر بها، ويحيد عنها وعن منهج وعقيدة الإسلام، ويتخذ من دون الله أولياء فهؤلاء الكفرة والمعاندون لهم عقاب صارم شديد في الدنيا ومن ورائهم جهنم في الآخرة ولن تغني عنهم أولياؤهم في الدنيا شيئاً.

(١) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٣٦١.

(٢) صفوة التفاسير: الصابوني، ١٥٧.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ٤/ ٣٨، مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٢.

المقطع الثالث: التذكير بنعم الله على عباده

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتُنْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد التهديد والوعيد الشديد في المقطع السابق لكل من استكبر عن آيات القرآن والحث على اتباع ما جاء به، ذكر الله عباده في هذا المقطع بالنعم الجليلة الدالة على قدرته وحكمته ليشكروه ويوحده، فهو الذي ذلل البحر لكم لتسير السفن على سطحه بإرادته ومشيتته لمنافعكم دون أن تغوص في الماء في أعماق البحر، ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة والمكاسب الأخرى التي تستخرج من البحر بصيد اللؤلؤ والمرجان، وصيد الأسماك، ونقل التجارة بالسفن، كل ذلك من فعله وخلق، وتمام نعمته على عباده^(١). قال الرازي: خلق وجه الماء على الملامسة التي تجري عليها الفلك، وخلق الخشب على وجه تبقى طافية على وجه الماء دون أن تغوص فيه وذلك لا يقدر عليه واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله^(٢).

وكذلك خلق لكم كل ما في هذا الكون في السماوات والأرض من كواكب وجبال وبحار وأنهار، ونبات وأشجار، كل ذلك من فضله وإحسانه لتستدلوا على وحدانيته وقدرته، فهي دلائل واضحة وعبر وعظات لمن يتأمل في بدائع خلق الله.

ثم أتبع ذلك بتعليم فضائل الأخلاق ومحاسن الأفعال فطلب من النبي ﷺ أن يأمر المؤمنين بالصفح عن الكافرين، وأن يتجاوزوا عما يصدر منهم من الأذى، والأفعال الموحشة

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨ / ١٠٥.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤ / ٢٦٣. وانظر: روح المعاني: الآلوسي، ١٤ / ٢٢١.

والأقوال البذيئة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا بقاء الله تعالى. قال ابن كثير: أمر الله المسلمين أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفاً لهم، وبعد أن أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجهاد^(١) ليجازي الكفرة المجرمين بما ارتكبوه، واقرفوه من الإثم والإجرام والتنكير والتحقير، فعلى المؤمنين الصبر وتحمل الأذى ليكون ذلك سبباً لجزائهم فيجزى الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فالكل راجع إلى الله يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية خيراً على الخير وشرّاً على الشر^(٢). وهذا تهديد ووعد لهم وهو كقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ۗ إِنَّا لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَحِيمًا ۝١٢﴾ [المزمل: ١١-١٢] وكقوله تعالى: ﴿ فَذَرَهُمْ يَتُوسُّوْا وَيَلْعَبُوْا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُوْنَ ۝١٣﴾ [المعارج: ٤٢] فالأعمال لا تذهب سدى فمن عمل صالحاً انتفع به يوم القيامة، ومن عمل سوءاً فسئاله عقاب من الله شديد، فلا يغتر الكافر بالنعم التي نالها في الدنيا، فإنها وإن ساءت ما يناله المؤمن أو زادت عليها في الدنيا، فإن الآخرة خالصة للمؤمنين، وسيرى الكافرون ما أعد الله لهم من عذاب أليم.

دروس وعبر:

* يذكر الله في هذا المقطع الإنسان بالنعم التي أنعمها عليه من تسخير البحر وجريان السفن فيه، واستخدامه في التجارة والمنافع من اصطيد السمك واستخراج اللؤلؤ والمرجان وتسخير ما في السماوات والأرض من شمس وقمر ونجوم وكواكب هي من أسرار الحياة، وجبال وسهول وأنهار وزروع وغير ذلك مما ينتفع به الإنسان، كل ذلك ليوجه قلبه بهذه الدلائل الواضحة إلى عبادة الله وتوحيده. فهو المنفرد بهذه النعم، وليفكر ويتدبر في خالق هذه النعم، وأسرار هذا الوجود.

* يدعو الله الإنسان للتحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة، وهي العفو والصفح عن المسيء

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٢٥١.

(٢) روح المعاني، الألويسي: ١٤/ ٢٢٦، وانظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: المدرس، ٧/ ١٠٤.

من المشركين والمنافقين واليهود، ليكون ذلك سبباً في زيادة درجاتهم يوم القيامة، فالعمل الصالح ينفع صاحبه، والعمل السيء يضر بصاحبه فالجميع راجع إليه يوم القيامة. وفي هذا ترغيب منه سبحانه للعمل الصالح، والابتعاد عن العمل السيء.

المقطع الرابع: نعمه الخاصة ببني إسرائيل وانزال الشرائع

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٦﴾
 ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ بَيْنَ يَدَيْ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾ هَذَا بَصِّيرٌ لِلنَّاسِ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾

التفسير الإجمالي:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العامة في المقطع السابق على جميع الناس أتبعه في هذا المقطع بالنعم الخاصة على بني إسرائيل، وهذه النعم هي: إنزال التوراة التي فيها هدى ونور، وإرسال الرسل موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، وأعطاهم الفهم والفقهاء لفصل القضاء والخصومات بين الناس، ورزقهم من أنواع النعم من المأكول والمشرب والثمار، قال القرطبي: وهي الحلال من الأوقات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام وقيل المن والسلوى في التيه^(١). وفضلهم على سائر الناس في زمانهم. وذلك قبل ظهور أمة محمد ﷺ أما بعد ظهورها فقد صرح القرآن الكريم بأنها خير الأمم، في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال الشنقيطي: «وهذا واضح لأن ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به أحوال سابقة»^(٢).

ومع كل هذه النعم، وهذه الحجج والبراهين وبعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الحقيقة

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٠٧/٨.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي، ٣٥٢/٧.

اختلفوا في أمر الدين، وبغى بعضهم على بعض عناداً وحسداً وحباً للرئاسة، والله سيفصل بينهم بحكمه يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وبذلك انتهت قيادتهم، وبطل استخلافهم. وجعلت الخلافة لأمة محمد ﷺ وشريعة الإسلام، وبهذا أمر النبي ﷺ بأن يتمسك بالحق وإظهار الصدق وأن لا يكون له غرض سوى اتباع الشريعة التي أنزلها الله تعالى بالدلائل والبراهين، ولا يتبع أهواء المشركين الذين قالوا له وهو بمكة: اتبع ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك، فلو ملت إلى ما يريدون من اتباع أديانهم الباطلة، صرت مستحقاً للعذاب مثلهم، وهم لا يستطيعون دفع العذاب عنك، والظالمون لا مولى لهم، بل يتولى بعضهم بعضاً، وأما المتقون فمولاهم الله وناصرهم الله.

قال الرازي: والمقصود التعجب من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وهنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود طلب الرئاسة. وفي هذا زجر للمشركين أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية^(١) الظالمة. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ بأن هؤلاء أصروا على الكفر بعد أن من الله عليهم فلم يشكروا، فكذلك قومك.

ثم ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ ﴾ إلى ما في القرآن الكريم من دلائل واضحة، وهدى ونور ورحمة لمن اتبعه بإيمان. قال الألوسي: «كان ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب»^(٢).

دروس وعبر:

* أن القرآن الكريم يذكر النبي ﷺ في هذا المقطع والمؤمنين بأن القيادة كانت لبني إسرائيل، مكنتهم الله في الأرض ورزقهم من الطيبات وبعث فيهم الأنبياء، فلما فقدوا الإيمان

(١) روح المعاني: الألوسي، ٢٨٨/١٤.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ٢٦٦/١٤.

واختلفوا وتحاسدوا، وتنازعوا وظلموا وفشلوا انتهت قيادتهم، وكذلك قومك فقد اختارهم الله لقيادة الإنسانية وأمرهم بالطاعة، وشرع لهم شريعة مرتبطة به، فإن حادوا عنها وتحاسدوا، وتقاتلوا، وتباغضوا سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب.

* لا يجوز أن يتبع المؤمنون أهواء المضلين والظالمين ويجب عليهم أن ينتهوا ويحذروا منهم، فهؤلاء الظلمة المضلين في كل زمان ومكان يريدون من المؤمنين أن يتبعوا ضلالاتهم ويتعدوا عن بصائر الله التي بصر بها عباده ليعبدوه، ويعملوا بما أمرهم في شريعة الإسلام^(١).

المقطع الخامس: عدل الله في الحكم على المحسنين والمسيئين

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُحْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بين الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق أن الجزاء يوم القيامة منوط بالعمل وأن هناك فرقاً بين الظالمين والمتقين، وبين هنا أن من اقترف السيئات والمعاصي في الدنيا، وكفر بالله وعبد غيره وأشرك به لا يسوي بينه وبين المؤمنين، وابتدأ المقطع بالاستفهام الإنكاري على المشركين والكفار الذين يظنون أن الله يساوي بينهم وبين المؤمنين في الجزاء والثواب والرحمة، في المحيا والمات! ومنازل السعادات، وسبب ذلك أن ثلاثة من المشركين قالوا لثلاثة من المؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما إنا

(١) روح المعاني: الألويسي، ١٤/٣٥٢.

أفضل منكم حالاً في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام^(١)، فالمؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً. قال الرازي: كل يموت حسب ما عاش عليه^(٢). فساء ما ظنوا بعدل الله من المساواة بين الأبرار والفجار. فالله عادل وقد أتبع ذلك بالدلالة على عدله في خلق السماوات والأرض بالحق والعدل، ليجزي كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الدرجات، فمن أقبل على الدنيا وترك الإيمان، وعبد الهوى، يميل إلى طبعه ونفسه، وكأنه اتخذ إلهه هواه، وهو يعلم الحق، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فالأرواح البشرية إما أن تكون نورانية أو ظلمانية تميل إلى الشهوات، فكل واحد ينال ما يليق بجوهره. قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، وأضله الله وهو عالم بالحق غير جاهل به، فهو أقبح ممن يضل على جهل، وذلك لأنه يعرف الحق والهدى وينحرف عناداً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فطبع على سمعه وقلبه فلا يفكر في الوعيد والآيات، ولا يتأثر بالمواعظ فهو كالأعمى لا يبصر الرشد، ولا يرى الحق والنور الساطع الذي جاء به القرآن الكريم. فلا أحد يستطيع هدايته بعد أن أضله الله فاعتبروا أيها المؤمنون واتعظوا.

دروس وعبر:

إن الله سبحانه في هذا المقطع من السورة يبين مكانة المؤمنين عند الله يوم القيامة، واستنكار التسوية بين المحسنين والمسيئين سواء في الحياة أو في الممات كما يظن أهل الكتاب الذين ارتكبوا المنكرات، فالحق الذي تقوم عليه العدالة في شريعة الله عدم التسوية والتفرقة بين المسيئين والمحسنين، وحكمه عليهم يوم القيامة في مجازاة كل نفس بما كسبت وهذه قاعدة ثابتة من أصول الدين تتكرر في القرآن الكريم: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

(١) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤ / ٢٦٧.

(٢) السابق، ١٤ / ٢٦٨.

المقطع السادس: الرد على الدهريين

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهْنَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِرُ بِمَنْ يُشَاءُ لِيُخْسِرَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

في هذا المقطع يحكي الله سبحانه وتعالى قول الدهريين من الكفار ومن وافقهم من المشركين في إنكارهم ليوم القيامة^(١) وقولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، فلا حياة إلا هذه الحياة: نحيا ويموت بعضنا، ونموت ويحيا بعضنا^(٢)، وقولهم هذا مبني على التوهم والتخيل ليس له دليل عقلي أو نقلي، والمشركون يقولون أن ولادة الأشخاص بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق^(٣). وقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الدهر هو الفاعل لما أصابهم، فسبوه كدهر وإنما فاعلها الله تعالى، فكأنهم سبوا الله عز وجل^(٤). وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تسبوا الدهر، فإن الله تعالى هو الدهر"^(٥).

هؤلاء إذا قرأت عليهم آيات القرآن الواضحة في الدلالة على يوم البعث والنشور، طلبوا إحياء آبائهم الأولين! فقل لهم: الله خلقكم ابتداء حين كنتم نطفاً، وهو الذي يميتكم عند إنتهاء آجالكم، ثم يبعثكم بعد الموت للحساب والجزاء، كما أحياكم في الدنيا، ويوم القيامة لا شك فيه

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٢٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١١١.

(٣) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٧١.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٢٥٤.

(٥) صحيح البخاري، تفسير سورة الجاثية: ٦/ ١٦٦، وكتاب التوحيد، ٩/ ١٧٥. مسند الإمام أحمد:

ولا ارتياب، ولكنهم لا يعلمون الحق لجهلهم، ولقصور نظرهم: فالقادر على الخلق والإيجاد ابتداءً، وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء يوم القيامة، فهو سبحانه وتعالى مالك جميع الكائنات في السموات والأرض، والخسران المبين لمن ينكر يوم القيامة.

دروس وعبر:

في هذا المقطع إثبات للقدرة الإلهية على الحياة والموت، فهو المهيمن على كل ما في الوجود، وهو القادر على الإنشاء والإعادة، فقد رد على الدهريين الذين ينكرون الإعادة، ولا ينظرون ما حولهم ولذلك طالبوا أن يأتي الله بأبائهم، لكي يقتنعوا بقدرته سبحانه على إحياء الموتى، إنهم لو نظروا وتدبروا لوجدوا أن هذا الذي طلبوه يقع أمام أعينهم فالله يحيي ويميت، ولذلك هو قادر على جمع من أحياهم وأماتهم يوم القيامة، أما قبل هذا الموعد فلا، هكذا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى.

المقطع السابع: من مشاهد يوم القيامة

﴿ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ فَمَا سَتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوئِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ ءَاتَخْتُمُ ءَايَاتِ اللَّهِ هُرُوقًا وَعَرَّتْكُمْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

وفي هذا المقطع في ختام هذه السورة يعرض الله مشهداً من مشاهد يوم القيامة الذي ينكره الدهريون، ولا يصدقون به، بل يستهزئون ويشكون فيه، يصورهم في ذلك اليوم وكأنه

واقع يروونه رأي العين^(١)، وتجتثوا الأمم كلها على ركبها من شدة الهول والفرع، قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته^(٢). في انتظار الحساب أمام الواحد القهار، فيقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا. ويجدون كل شيء مكتوباً أمامهم فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من غير زيادة ولا نقصان. وقال السمان الحلبي: وترى كل أمة جاثية أي باركة على ركبها^(٣).

هذه الجموع الهائلة في هذا المشهد منذ أن خلق الله الخلق تنقسم إلى فريق المؤمنين وفريق الكافرين.

فأما الفريق الأول: الذين آمنوا وأطاعوا الله فحالمهم يسير، يرون ما أعد الله لهم من ثواب ورحمة وهي دخولهم الجنة مكان تنزل رحمة الله تعالى على عباده المؤمنين، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأما الفريق الثاني: وهم الكافرون المستكبرون الذين استكبروا عن عبادة الله، ولم يتبعوا الرسل، فيوبخهم ويقرعههم، ويقول لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم. فتكبرتم عن الإيمان، وأنكرتم لقاء يومكم هذا وقد قيل لكم: إن وعد الله حق وهو يوم القيامة، وإن الساعة لا شك فيها، فكذبتم وكنتم مغرقين في غيكم وضلالكم، غير مصدقين ولا مستيقنين من حدوثها، وخذعتكم الحياة الدنيا بزخارفها وأباطيلها ونسيتم لقاء يومكم هذا، فهذا هو قد ظهر لكم وأحاط بكم، كما أحاط بكم العذاب الذي كنتم تنكرون، وتستهزئون به، فاليوم ننساكم في النار كما نسيتم لقاء يومكم هذا، ونترككم تعذبون، وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب النار، بسبب كفركم، واستهزائكم بكلام الله في الدنيا، وعدم اتباعكم الرسل وإنكاركم للبعث والنشور، فجزاؤكم النار لا تخرجون منها، ولا يطلب منكم الطاعة لعدم نفعها في

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٥/ ٣٢٣١.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ابن كثير: ٧/ ٢٥٥.

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ٨٩.

الآخرة، وتوصد أبواب النار من خلفكم وينطلق أخيراً صوت الحمد لله رب العالمين، فلا يستحق الحمد سواه فهو المدبر للسموات والأرض وهو رب العالمين، له العظمة والعزة والكبرياء، وهو الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في صنعه وتدبيره^(١).

دروس وعبر:

* في هذا المقطع مشهد من المشاهد التي ستقع يوم القيامة يصورها الله تبارك وتعالى كما ستكون أمام المنكرين لها، وأمام المؤمنين بها ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ولينتبه الكافرون ويراجعوا أنفسهم قبل وقوعها، فيسارعوا إلى الإيمان. مشهد لهذا اليوم الذي يشكون فيه ولا دليل عندهم، فقد أرسل الله للناس الرسل ليرشدوهم إلى طريق الحق وعبادة الله، فقد خلقهم الله في هذه الحياة ليتلهم ويعطيهم فرصة للعمل، ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذي جعل الله له وقتاً معلوماً، فيحاسبوا على ما عملوا، وتظهر نتيجة هذا الابتلاء، ولكنهم أنكروا هذا البعث وهذا الحساب، وأنكروا وجود الله استكباراً وعلواً فيقول لهم ويذكرهم ويقرعههم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين. وفي هذا حث للإنسان في هذه الحياة أن يسارع إلى طاعة الله واتباع أوامره قبل فوات الفرصة.

* لا يستحق الحمد إلا الله تعالى فهو المتفضل على عباده بكل أنواع النعم فهو خالقهم ومالكهم ومالك الكون كله سمائه وأرضه المتفرد بالعظمة والجلال لا إله إلا هو له الكبرياء والعزة والحكمة المدبرة وهو العزيز الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: ٥ / ٣٢٣٤، وانظر: صفوة التفاسير/ سورة الجاثية: الصابوني: ١٦٢.

الختامة :

هذه السورة كسابقتها «سورة الدخان» توضح حقيقة المشركين في زمن النبي ﷺ وكيف وقفوا معاندين بوجه الدعوة الإسلامية، واتباعهم لأهوائهم وإصرارهم على الضلال مكابرين، منكرين للبعث والنشور صامتين آذانهم عن استماع القرآن الحق المنزل على النبي ﷺ وهم يحسبون أنهم متساوون مع المؤمنين. وهذا شأن الكافرين الذين كانوا قبلهم وهو شأن المنكرين إلى يوم الدين.

وهذه السورة أوضحت عدل الله تعالى وبينت لهم سوء حساباتهم، وبينت لهم الفرق بينهم وبين المؤمنين في الآخرة وصورت لهم كل الأمم في ذلك اليوم العظيم، وهي جاثية على ركبها تدعى إلى كتابها الذي ينطق بالحق الذي كان يعمل كل فرد، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، صورت لهم وقوع الآخرة لتستيقظ قلوبهم من غفوتها وليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، ويومئذ ينجر المنكرون للقرآن الذي تحدى قريش والعرب جميعاً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، الذي فيه تكون الأمم جاثية على ركبها، وهذا تهديد لمن لم يؤمن بعد كل هذه الأدلة لقريش ولمن يأتي بعدهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن التي حروفه من حروف كلامهم إن كانوا قادرين.

وأما المؤمنون فيدخلون في رحمة الله وجنته تذكروهم السورة بأنه من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها إن السورة كلها موضوع واحد من أولها إلى آخرها تعالج قضية الإيمان بالله وباليوم الآخر تبدأ بالقرآن الكريم المعجز وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، وتنتهي بحمد الله رب العالمين له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وفي سياق السورة عرض للمقاطع التي فصلناها في التفسير توضح المبادئ، وتخطب العقول والقلوب لتتطلع إلى حقائق القرآن الكريم، وإلى حقائق الكون، فهي تعالج قضايا العقيدة والإيمان من خلال ما لاقته الدعوة الإسلامية من عناد لترسيخ أمور الآخرة والبعث من خلال حجج عقلية، وتدعو المسلمين للتمسك بشرع الله الحق فلا مساومة في أمور الشريعة تدعوهم إلى الصبر والمصابرة كما صبر النبي ﷺ.

سورة الأحقاف

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

لأحقاف. والأحقاف (جمع حقف) وهو الجبل من الرمل^(١).

ب- فضائل السورة:

مرّ في أول سورة المؤمن (غافر) فضل الحواميم.

ج- السورة مكية.

قال القرطبي: في قول جميعهم^(٢). وذهب البعض إلى أن السورة مكية إلا آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية. وقوله سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الآية^(٣).

د- عدد آياتها:

ثلاثون وخمس آيات في الكوفي، وأربع في عدد الباقيين. والاختلاف في ﴿ حم ﴾؛ عدّها الكوفي، ولم يعدّها الباقيون^(٤).

هـ- محور السورة:

إثبات أصول العقيدة الإسلامية الثلاثة: وهي التوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء. وهذا مقصود القرآن كله^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٧٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٥/٩١).

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/٤٨٠).

(٥) قال فخر الدين الرازي - رحمه الله -: "ومن تأمل هذا البيان علم أن المقصود من كل القرآن تقرير =

و- المناسبات في السورة :**١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها :**

تهديد أهل الكفر بإهلاكهم، لشركهم وتكذيبهم كما أهلك الله سبحانه قوم هود. فقد دلّت تسميتها بالأحقاف، بما دلت عليه قصة قوم هود عليه السلام، من التوحيد، وإنذارهم بالعذاب دنیا وأخرى، ومن إهلاكهم، وعدم إغناء ما عبدوه عنهم، ودفنهم تحت أحقافهم، بما تحقق من إعراضهم وخلافهم^(١).

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :

بدأت السورة بالحديث عن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، عقبها مباشرة الأدلة من خلق الكون على التوحيد والحشر. وختمت بالتأكيد على قدرة الله على البعث، وتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر، وعدم الاستعجال لهم بالعذاب، فإنه آتيهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَعَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها :

وجه اتصال سورة الأحقاف بخاتمة الجاثية أنه تعالى لما ختم الجاثية بذكر التوحيد وذم أهل الشرك والوعيد، افتتح الأحقاف بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد^(٣).

= التوحيد، والنبوة، والمعاد. وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول. "مفاتيح الغيب، الرازي (٣٠ / ٢٨).

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢ / ٢٨٠-٢٨١).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٧ / ٢٦، ٩)، وانظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي (٧-٦ / ٢٦).

(٣) تفسير روح المعاني، الألويسي (٤ / ٢٦).

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها :

إن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، ونستطيع أن نقول: إن مضمون سورة الأحقاف هو نفس مضمون السورة التي قبلها - سورة الجاثية - فقد تناولت موضوع العقيدة: التوحيد، والرسالة (القرآن من عند الله)، ثم البعث والمسؤولية في الآخرة^(١).

المقطع الأول: القرآن حق من عند الله يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك

﴿ حَمَّ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَرَوْا مِنْ عَلِيمٍ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥ وَإِذَا حِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٦ وَإِذَا نُنَادَيْنَا يَبْتَسِرْنَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُؤْتَمِنٌ ٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٨ قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاءِ مَنْ أَرْسَلْتُ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَّ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ أُنزِلَ قَدِيمٌ ١١ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا يُسْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ ١٢ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٣ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤ ﴾

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (٣/٢٨)، وروح المعاني، الألوسي (٤/٢٦).

التفسير الإجمالي:

تقدم الكلام عن الأحرف المقطعة في أوائل السور. وقد افتتحت السورة بالحديث عن القرآن: ﴿ تَزِيلُ الْكَتَابَ مِنَ اللَّهِ ﴾، والانتقال من الأحرف العربية المقطعة في أول السورة إلى الكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف، على غير مثال من كلام البشر شهادة بأن تنزيل هذا القرآن من الله ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾. العزيز: المنيع الذي لا ينال ولا يغالب، والحكيم: في أقواله وأفعاله. يقال: أحكم الشيء؛ إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يزيد، فهو محكم، وحكيم على التكثر^(١). فالقرآن منزل من عند الله، ليس بكذب عليه.

وإيثار وصفي ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى، لإشعار وصف ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ بأن ما نزل منه مناسب لعزته، فهو كتاب عزيز، كما وصفه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١].

أي هو غالب لمعانديه؛ وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته؛ ولإشعار وصف ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة؛ ففي ذلك إيحاء إلى أن إعجازه من جانب بلاغته؛ إذا غلبت بلاغته بلاغة بلغائهم. ومن جانب معانيه؛ إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء. وقد تقدم مثل هذا في طالعة سورة الزمر، وقريب منه في طالعة سورة غافر^(٢)، ونفس المطلع في سورة الجاثية.

ولمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده وكتاب هذا الكون الذي نراه، والذي سخره الله لهذا الإنسان، والتي نلمسها في أوائل السورة السابقة: ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ٩].

نرى في هذه السورة ذكر كتاب الله المفتوح في هذا الكون ودلالته على الحق:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/٢٨٨)، (٢/١٣١).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/٢٢٥-٢٢٦).

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي للزوال والفناء، أو للحساب والجزاء، بالنسبة لمن سخرت لهم السماوات والأرض، ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني القيامة^(١)، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأِيَّاتٌ فَاصِّفِحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ ﴾ [الحجر: ٨٥].

ومع أن القرآن المنزل، وخلق السماوات والأرض يدل كل منهما على وحدانية الله وتفرد به بالخلق والإيجاد، وتفرد به بالألوهية، فله الطاعة التامة وحده، وله العبادة الخالصة وحده؛ مع هذا الخلق كله الذي يدل على الحكمة والتقرير والتدبير، فإن الذين كفروا لاهون عما يراد بهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾^(٢).

فالكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يتعدد، وأنه رب كل شيء ومالكة وسيده، بما أنه خالق كل شيء ومدبر كل شيء، ومقدر كل شيء. وكتاب الكون الحي ينطق بهذه الحقيقة ذاتها؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدر المدبر، الذي يصنع على علم، ويبدع على معرفة، وطابع الصنعة واحد في كل ما يصنع ويبدع، فأتى يتخذ الناس آلهة من دونه؟! وماذا صنع هؤلاء الآلهة، وماذا أوجدوا؟ وهذا هو الكون قائماً معروضاً على الأنظار والقلوب؛ فماذا لهم فيه، وأي قسم من أقسامه أنشؤوا؟^(٣)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادُوا خَلْقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمِ إِبْرَاهِيمَ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٤].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٣).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/١٠).

وهذا تلقين من الله لرسوله ﷺ للاستدلال على نفي صفة الإلهية عن أصنامهم ومعبوداتهم كلها، بمسالك الأدلة بأسرها:

فأولها المعقول ؛ وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾^(١). وهذا الدليل العقلي دليل تعجيز لهم ؛ فلن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات من دون الله - سواء كانت حجراً أم شجراً أم جنأً أم إنساً أم ملائكة أم غيرها - قد خلقت من الأرض شيئاً. ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها^(٢). فالفطرة لا تملك إلا أن تقر بالربوبية والألوهية والسيادة لله سبحانه.

وما تضمنته هذه الآية من أن من لم يخلق شيئاً ولم يكن له شرك في السماوات لا يصح أن يكون معبوداً بحال، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١]. وقوله: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْشَاقَلْ ذَرْقًا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة^(٣).

والاستدلال الثاني ؛ دلالة السمع، حيث قال تعالى: ﴿ أَتُتَوَفَّى بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنزَقُ مِنْ عَلِيمٍ أَمْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، فاستدعي منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة غير الله، أو بقية من علم مستيقن ثابت، تروونها عن أهل العلم السابقين، غير مسطورة في الكتب. والأثارة: البقية القديمة^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٢-١٨٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٠/٢٦).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي (٧/٢١٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٣)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٥/٩٢).

وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحداية الخالق المبدع المدبر، وتدعو إلى التحرر من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، وعبادته وحده سبحانه، فهي جميعاً كتب تحرير، وهدفها الأساس التوحيد (التحرير). وليس فيها من كتاب يقر الآلهة المتعددة، أو يقول بأن لها في الأرض خلقاً أو في السماوات شركاً، وليس هناك من علم ثابت يؤيد مثل هذا الزعم المثافت^(١).

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية في حقيقة هذه الآلهة المدعاة، مندداً بضلالهم في اتخاذها، وهي لا تستجيب لهم، ولا تشعر بدعائهم في الدنيا، ثم هي تخصمهم يوم القيامة، وتنكر دعواهم في عبادتها^(٢).

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة؛ إما لذاتها، وإما باعتبارها رموزاً ممثلة للمعبود خلفها من الملائكة أو الجن أو الصالحين أو غير ذلك. وبعضهم يعبد الأشجار، أو الفراعة والمتألمين من شياطين الإنس والجن، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان آلهة، وكل هذا واقع من المشركين قديماً وحديثاً. ومن يزور في هذا العصر غرب جبل سنجار - بين سورية والعراق - فسيرى عباد الشيطان يرمزون له بالطاوس، ويرى من يزور الهند عباد الأصنام وعباد البقر.

وكل هذه المعبودات من دون الله لا تستجيب لعبادها أصلاً، أو لا تستجيب لهم استجابة نافعة؛ فلا تقدم لهم خيراً ولا تدفع عنهم ضراً؛ فلا أحد أضلّ وأجهل ممن يدعوها ويعبدها من دون الله، وهي كلها بأنواعها غافلة عن دعاء عابديها، لا المعبودات من الجهاد والحيوان فقط بل المعبودات من شياطين الإنس والجن غافلة أيضاً في الدنيا عن عابديها، مشغولة بتحقيق أهدافها

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٤)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/١١).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/١١).

في التسلط على عابديها، لا بتحقيق مصالح عابديها، وإن ادعت ذلك. ولذلك جاءت الكنايات والضائير في هذه الآية عن المعبودات كما تجيء عمّن يعقل، كما وصفها بالغفلة لتغليب العقلاء أو لأن عابديها يعاملونها في العبادة معاملة من يعقل^(١).

هذا حالهم في الدنيا، وإذا حشر الناس للجزاء والحساب يوم القيامة كان المعبودين أعداء لعابديهم؛ فالملائكة أعداء للكفار، والجن وشياطينهم وشياطين الإنس يتبرؤون غداً من عبدتهم، ويلعن بعضهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنام أعداء للكفار الذين عبدوها، على تقدير خلق الحياة لها، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [٨١] ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١-٨٢]^(٢).

ثم يمضي السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاءهم به من الحق، بعدما تحدث عن واقعهم وتهاوت عقيدة الشرك (العبودية لغير الخالق)، ويقرر قضية الوحي كما قرر قضية التوحيد:

﴿ وَإِذَا تَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [٧]

ليس غريباً أن ينكر عبادة غير الله الحق الذي أوحاه الله إلى رسوله؛ لأنهم إذا أقروا به وأنه حق من عند الله لمهم اتباعه وطاعة الله فيما أنزل؛ لهذا نرى كثيراً من الكفار يقرون بأن الله هو الخالق، وهو رب السماوات والأرض ومن فيها، ثم ينكرون الوحي ويكذبون الرسل؛ ليتروا طاعة الله فيما أنزل، ويستمروا في طاعة ساداتهم وكبرائهم في معصية الله.

من أجل ذلك يأتي الحديث عن النبوة والوحي في أكثر السور، مكيها ومدنيها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٣)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٥/٩٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٣)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٥/٩٢-٩٣).

ونحن نرى هنا أن الله تعالى لما قرر الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى عدله بخلق السموات والأرض بالحق وإلى أجل مسمى، هو يوم القيامة، بنى على ذلك التفاريع الثلاثة:

الفرع الأول: الرد على عبدة الأصنام، وعبدة غير الله على الإطلاق فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

والفرع الثاني: إثبات نبوة محمد ﷺ على الإنس والجن، وتفنياد ادعاءاتهم في إنكار الوحي وتكذيب الرسول ﷺ. وهو هذه الآية وما بعدها.

والفرع الثالث والأخير الذي يتم ويتحقق به العمل الجاد بأمر الله والتحرر عن العبودية لغيره هو: إثبات البعث والحساب والجزاء، وإقامة الدليل على قدرة الله على إعادة الخلق. ويأتي ذلك في آخر السورة.

وتقرير هذه الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، هو المقصود من كل القرآن^(١).

يبدأ الحديث هنا عن قضية الوحي بترذيل مقولتهم عنه، واستنكار استقبالهم له، ويظهر عناد المشركين وتعتهم إذا تتلى عليهم آيات القرآن، فيها الدلائل واضحات على أنها الحق من عند الله سبحانه، قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين^(٢)، أي سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا. وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرق بين المرء وولده، وبينه وبين زوجته، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الأخرس^(٣).

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقوهم الظالم وادعائهم القبيح، الذي لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل.

ثم يرتقي في إنكار مقولتهم الأخرى (افتراء)، فلا يسوقها في صيغة الخبر، بل في صيغة

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/٤، ٢٩-٣٠).

(٢) تفسير بحر العلوم، السمرقندي (٣/٢٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٤)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٥/٩٣).

الاستفهام، كأن هذا القول لا يمكن أن يقال، وبعيد أن يقال (١):

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ ﴾ التقدير: أيقولون افتراه، أي تقوله محمد، وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في ﴿ أَمْ ﴾ الإنكار والتعجب؛ كأنه قال: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقتضي منه العجب. وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له، والحكيم سبحانه لا يصدق الكاذب، فلا يكون محمد ﷺ مفترياً (٢).

ويأمر الله رسوله أن يرد بأدب النبوة وقوة الدليل:

﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

يأمر الله سبحانه رسوله أن يقول ثلاثة أقوال في الرد عليهم رداً مفصلاً، ومن ثم تتكرر كلمة ﴿ قُلْ ﴾ ثلاث مرات في معرض الجواب:

الجواب الأول: هذه الآية، حيث أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم بجواب يقلع مقالتهم من جذورها، وجعل الافتراء مقروناً بحرف ﴿ إِنْ ﴾ الذي من شأنه أن يكون شرطه نادر الوقوع إشارة إلى أنه مفروض في مقام مشتمل على دلائل تقلع الشرط من أصله. والتقدير: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها. فقوله: ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ دليل على الجواب المقدر في الكلام بطريق الالتزام.

ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله: ﴿ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أن الله لا يقر أحداً على أن يُبلِّغ إلى الناس شيئاً لم يأمره بتبليغه، وقد دل القرآن على هذا في قوله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٣/٢٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٤).

تعالى: ﴿وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. ولعلَّ حكمته في ذلك أن تقول على الله يفضي إلى فساد عظيم يختلُّ به نظام الخلق، والله يغار على مخلوقاته، فلا يُمكن أحداً من الافتراء عليه، وادعاء أنه مرسل وهو كاذب، إذ لا بد أن يظهر كذبه للناس واضحاً جلياً، ويدمره الله في الدنيا قبل الآخرة^(١). ولا يقال: إن كثيرين تنتشر دعواهم الضالة وهم غير مستقيمين؛ فالكلام عمّن يدعي أنه رسول الله، والدعوات الضالة قد تنتشر فترة من الزمن، ثم يدفع الله الباطل ويزيله بالحق الذي ينزله مؤيداً بالأدلة والمعجزات.

وبعد نقض حججهم يترك النبي ﷺ أمرهم إلى الله بأسلوب فيه تهديد لهم ووعد أكيد وترهيب شديد. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(٢). والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي اندفعوا فيه. وقيل: المعنى تخوضون فيه من التكذيب، وهو سبحانه يجزيكم بما يعلمه من أمركم^(٣). قال النسفي: «ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم»^(٤). ثم ختم الآية بالترغيب لهم بالتوبة والإنابة: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين^(٥).

والجواب الثاني: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْمُرُ إِنِّي أُنَبِّئُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٦).

البِدْع: - بكسر الباء وسكون الدال - معناه البديع، ومنه الخِلُّ بمعنى الخليل، ومن أسماؤه سبحانه: «البديع»، أي خالق الأشياء ومخترعها. قال ابن عباس وغيره: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْمُرُ إِنِّي أُنَبِّئُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٦).

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/١٤-١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٤-١٨٥)، والمحزر الوجيز، ابن عطية (٥/٩٣).

(٤) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (٤/١٤٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٥)، والمحزر الوجيز، ابن عطية (٥/٩٣).

الرُّسُلِ ﴿ ما أنا بأول من أرسل، قد كان قبلي رسل ^(١). فالمعنى: لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرون وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ^(٢).

ومن ثم أتم الله الحجة أمراً رسوله أن يقول: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾، أي وما أعلم ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان، أي في الدنيا. عن الحسن البصري في هذه الآية قال: «أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا؛ أخرج كما أخرج الأنبياء من قبلي، أو أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم؛ أمتي المكذبة، أم أمتي المصدقة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً، أم مخسوف بها خسفاً» ^(٣).

وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير الطبري، وأنه لا يجوز غيره. ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة للآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة، هو ومن اتبعه. وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ^(٤). ومما يدل على أن المراد نفي علمه ﷺ في الدنيا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولذلك كان قوله: ﴿ إِنْ أُنْبِئُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ استئنافاً بيانياً، وإتماماً لما في قوله: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾، بأن قصارى ما يدره هو اتباع ما يُعلمه الله به ^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٤)، والمحزر الوجيز، ابن عطية (٥/٩٣).

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٢٦/٧-٨).

(٤) المرجع السابق (٨/٢٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٥)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٨٦).

(٥) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/١٧).

﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، أي مبين النذارة، لا مفترٍ، فأمرني ظاهر لكل ذي لب وعقل^(١). وقد أقام الله عليهم الحجة، وأيد رسوله بالمعجزات الدالة على صدقه.

والآن يأتي الجواب الثالث على زعمهم أن محمداً ﷺ افترى هذا القرآن: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ، فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١٠).

وجواب الشرط ﴿ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ هو: أستم ظالمين، أو فقد ظلمتم. دل عليه قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١٢). والمعنى: ما ظنكم أيها المشركون الكافرون بالقرآن أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جتكم به قد أنزله الله عليّ لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾، أي قد شهد بصدقه وصحة الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي؛ فقد بشرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به^(٣)، من التوحيد والوعد والوعيد، وغير ذلك، وبدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾^(١٣) أَوْلَىٰ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(١٧) [الشعراء: ١٩٦-١٩٧]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾^(١٨) صُفُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾^(١٩) [الأعلى: ١٨-١٩]. وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢٠) [الشورى: ٣] ^(٤).

وقد روى الطبري عن الحسن «بلفظ بلغني»، وعن عوف بن مالك الأشجعي، وعن غيرهما أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام ﷺ. وروى عن مسروق قال: «والله ما نزلت في عبد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٥).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٩/٢٨)، وروح المعاني، الألوسي (١٢/٢٦)، والمحرق الوجيز، ابن عطية (٥/٩٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٦).

(٤) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٤/٣٠٣).

الله بن سلام، ما نزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد بها قومه، قال: فنزلت: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ قال: فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد، فأمنوا بالتوراة وبرسولهم وكفرتهم». وروى الطبري مثل ذلك عن الشعبي.

ورجح الإمام الطبري قول مسروق؛ لأنه أشبه بظاهر التنزيل، فقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي مكة، واحتجاجاً عليهم لنبيه، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر، ولا انصرف الكلام عن أخبار المشركين إلى غيرهم^(١). ولا ترقى الروايات عن الحسن وغيره لدفع ظاهر النص القرآني وسياقه.

أما رواية البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحيّ يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ الآية»^(٢). فهذه الرواية، وإن كانت لا يشك في صحتها فإنها ليست نصاً في السببية، وكل ما تفيده أن عبد الله بن سلام داخل في مضمونها، شاهد على صدق القرآن.

ثم يمضي السياق في استعراض أقوال المشركين في اعتذارهم عن تكذيب الحق. هذه الأقوال التي يظهر منها إعجابهم بأنفسهم، وتعاليمهم واستكبارهم، وذلك بمناسبة ما جاء في الآية السابقة ﴿ فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾، حيث يقول سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ

(١) جامع البيان، الطبري (٩/٢٦، ١١-١٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٨١٢).

هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾.

قال قادة الكفر والشرك عن الذين آمنوا بالقرآن؛ لو كان خيراً أما سبقنا إليه هؤلاء، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم، وأشياهم وأضراهم، من المستضعفين والعبيد والإماء^(١).

والأمر ليس كذلك؛ فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكّون فيه، أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه، والخير الذي يحتويه، إنما هو الكبر عن الإذعان لمحمد، وللحق الذي أنزل على محمد ﷺ. إن الهوى وحب التسلط على الآخرين يجعل أهل الكبر لا يذعنون للحق، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا يسلمون للحجة. فهذا الذي يملئ عليهم العناد والإعراض، واختلاق المعاذير الباطلة؛ ويخشون - إن آمنوا - فقدان المراكز الاجتماعية، والمنافع الاقتصادية. فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت تلك الكبراء والأشراف من الإيمان بالحق^(٢).

ثم جاوز المكذبون نفي الخيرية عن القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾. إنهم استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن، فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقالوا: ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وبقي أن يقولوا: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

والإفك: الكذب، ووصفوه بالقدم بمعنى أنه في أمور متقدمة، ويحتمل أن يريدوا إفك قيل قديماً^(٣)، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنعام: ٢٥].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٦)، والمحرق الوجيز، ابن عطية (٥/٩٥)، وتفسير بحر العلوم، السمرقندي (٣/٢٧٢-٢٧٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/١٦).

(٣) المحرق الوجيز، ابن عطية (٥/٩٥).

وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «الكبر بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ»^(١).

ثم أتبع إبطال مزاعمهم الفاسدة في قضية الوحي والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى وهو التوراة، باعتبار أن كتاب عيسى عليها السلام تكملة وامتداد له، وأصل العقيدة والتشريع في التوراة، ومن ثم سُمِّي كتاب موسى إماماً، ووصفه بالرحمة، وفي كل كتاب أنزل من السماء رحمة لأهل الأرض، وتحرير حقيقي لهم عن العبودية لغير الخالق المالك:

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِرَبِّكَ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۗ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ففي قوله: ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ إبطال لإحالتهم أن يوحي الله إلى محمد ﷺ بأن الوحي سنة إلهية سابقة معلومة، أشهره كتاب موسى، أي التوراة، وقد بلغهم نبوءته من اليهود^(٢). فكتاب موسى قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، وهو رحمة لمن آمن به وعمل بما فيه من قوم موسى، وفيه البشارة ببعثة محمد ﷺ وصفات دعوته، وهذا القرآن كتاب مصدق لما بين يديه من الكتب. مصدق للأصل الأول الذي تقوم عليه الديانات كلها وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها، وللإتجاه الأصيل الذي توجه إليه البشرية، لتتصل برها الكريم^(٣)، وتتحرر عن العبودية للعبيد.

والتصديق يشعر بأن هذا القرآن حاكم على ما اختلف فيه من الكتب السابقة، وما حُرِّف فهمه أو نصه بها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۗ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وزاده ثناءً بكونه ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾، وهذا امتنان على العرب، وتذكير لهم بنعمة الله عليهم

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) في حديث أوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...» الحديث.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٢٤).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/١٧).

ورعايته لهم، وأدمج لفظ ﴿لِسَانًا﴾ للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه، لا عربية أخلاقه وتعاليمه؛ لأن أخلاق العرب يومئذ مختلطة من محاسن ومساوىء، فلما جاء الإسلام نفى عنها المساوىء، ولذا قال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿يُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الظالمون هم المشركون، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. فالقرآن مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين^(٢)، المطيعين لخالقهم المتحررين عن الخضوع والتبعية لسواه.

وتأتي الآيتان الأخيرتان في هذا المقطع لبيان وتوضيح حقيقة المحسنين، وما أعد الله لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٤).

مرّ نظير هاتين الآيتين في سورة فصلت (٣٠-٣١). غير أن الخطاب هناك بواسطة الملائكة، وهنا لا واسطة.

وروي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية: غيرك - قال: «قل آمنتم بالله ثم استقم»^(٥).

وروي عن أبي بكر الصديق ؓ ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾: لم يشركوا بالله شيئاً. وروي عن عمر ؓ

-
- (١) موطأ مالك في كتاب الجامع: باب ما جاء في حسن الخلق بإسناد منقطع عن مالك بن أنس، ومسند أحمد (٢/٣٨١). قال ابن الأثير: «ورواه أحمد والحاكم وغيرهما برجال الصحيح عن أبي هريرة وغيره».
- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري (٤/٤).
- (٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٦).
- (٣) صحيح مسلم برقم (٣٨).

أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، فقال: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يرغوا روغان الشعالب. وقال عثمان ؓ: ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي ؓ: ثم أدوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعنى هذه الأقوال. فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعللاً، وداوموا على ذلك ^(١).

قال صاحب الظلال عند هذه الآية: وقوله ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ليست كلمة تقال، بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير؛ إنما هي منهج كامل للحياة يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه، وكل حركة وكل خالجة؛ ويقيم ميزاناً للتفكير والشعور، وللناس والأشياء، وللأعمال والأحداث وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود.

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فله العبادة، وإليه الاتجاه. ومنه الخشية، وعليه الاعتماد.

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه.

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فكل نشاط وكل تفكير، وكل تقدير متجه إليه، منظور فيه إلى رضاه.

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فلا احتكام إلا إليه، ولا سلطان إلا لشرعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا، ونحن نلتقي به في صلتنا

بالله.

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ منهج كامل على هذا النحو، لا كلمة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة

عن واقعيات الحياة.

﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾. وهذه أخرى؛ فالاستقامة والاطراد والثبات على المنهج درجة بعد

اتخاذ المنهج. استقامة النفس، وطمأنينة القلب. استقامة المشاعر والخوارج، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات، وهي عفيفة ومتنوعة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/٣٥٨).

وكثيرة. واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار. وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك !

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾. منهج. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره. والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة. وهؤلاء ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(١)؛ فلا خوف عليهم فيما يستقبلون، ولا هم يحزنون على ما خلفوا.

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١١) أي الأعمال سبب لنيل الجنة وسبوغها عليهم، حيث يبدو واضحاً ارتباط الجزاء بالاعتقاد والعمل^(٢). فالعمل بلا اعتقاد غير مقبول؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له، والاعتقاد الذي لا ينتج عنه عمل هو اعتقاد ادعائي كاذب.

ويتهيء المقطع الأول من السورة بعد أن قرر محور السورة بأركانه الثلاثة. فقرر الوحي وإنزال القرآن من عند الله، ثم قرر أن خلق الكون وإنزال الوحي له هدف هو الحق؛ أي بإحقاق الحق الذي هو الحساب والجزاء يوم البعث والنشور.

وأنكر ما كان عليه القوم من الشرك، وندد بضلال من يدعو من دون الله من لا يستجيب له؛ فقرر التوحيد وندد بالشرك والعبودية لغير الخالق.

وبما أن للمشركين مزاعم لدفع الحق وتكذيب الوحي، من أجل أن يتركوا طاعة الله ويستمروا على شركهم، فقد جاء الرد الحاسم على مزاعمهم الباطلة؛ حيث وصموا القرآن بأنه سحر، وأنه مفترى، ولو كان خيراً ما سبقهم إلى الإيمان به الضعفاء والفقراء. وانتهى المقطع ببيان جزاء المؤمنين المستقيمين على أمر الله اعتقاداً وقولاً وعملاً.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٧/٢٦-١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٦).

المقطع الثاني: الفطرة في استقامتها وفي انحرافها

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِي لَكُمْ مَا تُعَدِّنَ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِخِثَانِ اللَّهَ وَإِنَّ اللَّهَ بَرٌّ أَمِينٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلْيَقُولْ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ فَسُوفُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير الإجمالي:

وجه الاتصال بما سبق أن هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين، وهو كلامهم في إنكار البعث وجداهم فيه، فإن ذلك من أصول كفرهم بمحل القصد.

وصيغ هذا في أسلوب قصة مناجاة ولد مؤمن شبَّ على الإيمان بربه وخالفه بعد معرفة حقوق والديه، وجدال بين والدين مؤمنين وولد كافر؛ لأن لذلك الأسلوب وقعاً في أنفس السامعين^(١).

فيبين هذا المقطع أن شكر الله وعبادته وحده، والتحرر عن العبودية لسواه هو مسلك الفطرة السليمة. والجحود وإنكار الحق هو انحراف عن الفطرة السليمة.

وتبدأ الآيات بالنموذج الأول الذي يوضح مسلك الفطرة السليمة: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٢٨).

تكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول ﷺ الوصية بالإحسان إلى الوالدين. وجاءت في هذه السورة بعد الحديث عن التوحيد وإخلاص العبادة لله والاستقامة على طاعته، كما تأتي الوصية مقرونة بتوحيد الله والتحرر من العبودية لسواه في غير ما آية من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال عز وجل: ﴿ وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ يُولَدِيهِ حَمَلَتُهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ، فِي عَامِينَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ۗ ﴾ [لقمان: ١٤]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

إنها وصية صادرة من خالق الإنسان لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته وهي وصية الإحسان إلى الوالدين مطلقة من كل شرط ومن كل قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أي صفة أخرى. وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً، فما يُعرف في عالم الطير أو الحيوان أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ فقط هو تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها.

ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة؛ ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مشير. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى الموت - فضلاً على الألم - بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون من ولا رغبة حتى في الشكران! ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ إنها صورة التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين^(١).

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ فقااست بسببه في حال حمل مشقة وتعباً من وحم وغثيان، وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما ينال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته^(٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٧).

ويتقدم علم الأجنة، فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة مؤثرة:

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للاتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصية أكالة. تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه لتحيا به وتنمو. والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكل! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير (الكالسيوم) من دم الأم فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير! وهذا كله قليل من كثير!

ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة؛ يتمزق فيها جدار الرحم عن المشيمة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة الربانية، ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة. ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش وتمتد، بينما هي تذوي وتموت!

ثم الرضاع والرعاية؛ حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا وذاك فرحة سعيدة رحيمة ودود. لا تملّ أبداً، ولا تكره تعب هذا الوليد. وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد.

فأنتى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية، مهما يفعل، وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد؟! (١)

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك».

قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك» (٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/٢١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٩٧١)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٤٨).

وقد استدل علي عليه السلام بقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، مع التي في لقمان: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَأُولَادَاتٌ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ووافقه على هذا الاستدلال عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهراً، لتطابق مختلف مدد الحمل؛ إذ قد يكون الحمل ستة أشهر، وسبعة أشهر، وثمانية أشهر، وهو نادر، وتسعة أشهر، وهو الغالب. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر فحولين كاملين^(١). وذلك أقصى أمد الإرضاع، فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهراً زائداً في الإرضاع، لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزاً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾. والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية، وهو جمع لم يسمع له مفرد^(٢). وبداية الأشد والاكتمال ثلاث وثلاثون سنة، وغايته الأربعون^(٣).

واعتبر الرازي رحمه الله مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

المرتبة الأولى: سن النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: سن الوقوف، وهو سن الشباب.

والمرتبة الثالثة: وهي الأخيرة؛ سن النقصان، وهو على قسمين: النقصان الخفي، وهو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٣٣).

(٣) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي (٤/١٤٣).

سن الكهولة، والنقصان الظاهر، وهو سن الشيخوخة (١).

وجعل الله سبحانه غاية الاكتمال بلوغ سن الأربعين ﴿وَيَلْغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، فجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه. وأعظم نعم الله على العبد الهداية إلى توحيده والتحرر من العبودية لسواه، ومن النعم بعد الهداية النعمة على الوالدين بالتحنن والشفقة حتى ربياً ولدهما صغيراً، ونعمة الصحة والعافية على الولد ووالديه، ونعمة الغنى والثروة على الولد وعلى والديه حتى تمكنا من الإنفاق عليه وغير ذلك من النعم كثير.

ومع الشكر على النعم يأتي طلب الثبات على العمل الصالح، إذ هو الشكر العملي ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أي في المستقبل من عمري، ﴿وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ (٢). وهذه دعوات ثلاث لصاحب القلب الشاعر بنعمة ربه عليه؛ فالأولى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾.

والثانية: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

والثالثة: ﴿وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، وهي رغبة قلب المؤمن أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح. وهي أثر عنده من الكنوز والذخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. وبالذرية الصالحة ترتاح النفس وتقر العين كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتِنَا مُبْرَأَةً لَنَا وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

وشفاعة العبد إلى ربه التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء هي التوبة والإسلام: ﴿إِنِّي تَوَّابٌ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣)، تبت إليك من كل ذنب، وإني من المستسلمين المتقادين لأمرك.

(١) التفسير الكبير، الرازي (١٦/٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٧).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/٢٢).

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾. وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ... ﴾ إلى آخرها مرسله نزلت على العموم، وهو قول الحسن البصري رحمه الله: «ومعنى ﴿ نَقَبَلُ عَنْهُمْ ﴾: نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات». قال زيد بن أسلم - ويحكيه مرفوعاً -: «إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم». ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي مع أصحاب الجنة^(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله، المنيون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَعَدَ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾^(٢)؛ فقد وعدهم الله ذلك في الدنيا بالكتب المنزلة، وعلى السنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم»^(٣).

فأما النموذج الآخر، فهو نموذج الانحراف عن الفطرة؛ إنه نموذج الفسوق والضلال:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَادِهِ إِفْئِكُمْ أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ... ﴾ الآيتين.

هذا الفريق مقصود من الآيات السابقة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ... ﴾ الآيات. وهذا الفريق الذي انحرف عن الفطرة فكفر بربه وأساء إلى والديه، وقد علم أن والديه كانا مؤمنين من قوله تعالى: ﴿ أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ... ﴾ الآية. وهو نموذج من نماذج المشركين في مكة يوم نزل الوحي، ومن المشركين في كل عصر، حين ينكر البعث ويكذب بالحق، ويصدر منه أقبح الأفعال، التي منها عقوق الوالدين وإيذاؤهما، وهما أقرب الناس إليه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٦).

فالآية عامة في كل من كان هذا حاله. ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها فقوله ضعيف بعيد عن الصحة؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها أسلم وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه^(١). وأنكرت عائشة رضي الله عنها نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر حين زعم مروان ذلك^(٢). وقال الحسن البصري وقتادة أيضاً: «هي نعت عبد كافر عاق لوالديه». وهذا هو الصحيح. قال الزجاج: «كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه، والله عز وجل يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْمٍ﴾، أي العذاب، ومن ضرورته عدم الإيذان، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين»^(٣).

وأف: اسم فعل بمعنى أتضجر. والتأفيف: صوت إذا صوّت به الإنسان علم أنه متضجر. وقوله: ﴿أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أبعث، ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾، أي مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسْتَفِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي يدعوان الله له بالهداية، أو يستغيثان بالله من كفره، ويقولان لولدتهما: (ويلك آمن) ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي صدق بالبعث إن وعد الله حق، ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤)، أي أحاديثهم وما سطره مما لا أصل له^(٥).

ويعاجل الله هذا الصنف بمصيره المحتوم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا

خَسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

(١) ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في ابن أبي بكر، وهي رواية ضعيفة واهية؛ لأن طريق العوفي عن ابن عباس سلسلة الضعفاء والمدلسين، وأشار ابن كثير إلى عدم صحتها. انظر تفسيره (٤/١٥٨-١٥٩).

(٢) انظر أخذ مروان البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية وردّ عبد الرحمن بن أبي بكر عليه في صحيح البخاري برقم (٤٨٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٥٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٨).

والقول الذي حق عليهم من الله هو العذاب الأبدى في جهنم، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا، ثم خسارة الرضوان والنعيم في الآخرة، ثم العذاب الذي يحق على الجاحدين المنحرفين؟!

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حده^(١):

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْمُونَ﴾^(١٩)، أي لكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين، من الجن والأنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً، ودرج أهل الجنة علواً»^(٢).

والتعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب؛ لأن الدرجة مرتبة في العلو، وهو علو اعتباري إنما يناسب مراتب الخير، وأما المرتبة السفلى فهي الدركة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والدرجات هي مراتب الجزاء التي تكون على حسب الأعمال، ومقادير ذلك لا يعلمها إلا الله، وهي تتفاوت بالكثرة وبالسبق وبالخصوص^(٣)، قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾^(١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ^(١١) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ^(١٢) [الواقعة: ١٠-١٢]، وقال بعد ذلك: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(٣٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ^(٣٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ^(٣٩) [الواقعة: ٢٧-٢٩].

ويختلف عقاب الدعاة إلى الكفر والقادة فيه عن الأتباع. ويختلف جزاء المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، عن الضالين، الذين لم يعرفوا الحق ولم يتبعوه، ويشير إلى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/١٩٩).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٤١).

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، وغيرها من الآيات، كالأية التي ذكرتها قبل قليل في المنافقين وأنهم في الدرك الأسفل من النار.

ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، أي قدرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنؤفقهم جزاء أعمالهم؛ فنجازيهم تماماً وافية لا غبن فيه.

وجملة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين، وهو الفريق المستحق للعقوبة، لئلا يُحسب أن التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشد مما تقتضيه أعمالهم^(١).

ثم يفهم وجهاً لوجه أمام مشهد شاخص لهم في يوم الحساب الذي كانوا يجحدون:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَهَبْتُمْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وتقدم عرض جهنم للكافرين في سورة الكهف: ﴿ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا

﴿ ١٠٠ ﴾، وتقدم عرض الكافرين على النار في سورة غافر: ﴿ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُورًا

وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا

آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٤٥-٤٦]، وهاتان الآيتان في عذاب القبر كما قاله جمهور

المفسرين، وكما يدل عليه السياق. وتقدم عرض الكافرين على النار أيضاً في سورة الشورى:

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّنْيَا لِيُنظَرُوا مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ ﴾ [٤٥].

ويقال لهم على وجه التوبيخ: ﴿ أَدَهَبْتُمْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾^(٢)، والمعنى استوفيتم

ما لكم من الطيبات، وتمتعتم بها في الدنيا باتباعكم الشهوات واللذات في معصية الله. وهو

(١) المرجع السابق (٢٦/٤١).

(٢) وقرئ «أأذهبتم» بهزتين مخففتين، وقرئ «أذهبتم» بهزة ممدودة على الاستفهام، وقرأ الجمهور بهزة

واحدة من غير مد على الخبر، وكلها لغات فصيحة، ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير

الاستفهام.

إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون، فرتب عليه قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِيَنَّ عَذَابَ الْهَوْنِ﴾، أي عذاب الخزي والفضيحة، والهون: الهوان^(١). ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَا كُنْتُمْ نَفْسُفُونَ﴾^(٢)، فعَلَّلَ ذلك العذاب بجرمين عظيمين: الأول؛ فعل القلب، وهو الاستكبار. الاستكبار على الحق وعدم اعتقاده، والاستكبار على الخلق بالتسلط عليهم والتجاوز على حقوقهم. وفعل القلب هذا يتبعه الجرم الثاني، وهو الفسق. والفسق ذنب الجوارح بارتكاب الآثام، ويكون ذلك بالخروج عن طاعة الله، وطاعة غيره في معصية^(٣).

وقدّم ذنب القلب على ذنب الجوارح؛ لأن أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب^(٤).

ويوضح هذه الآية ما جاء في قوله تعالى من وصف المؤمنين بضد هاتين الصفتين؛ فهم متواضعون لا يبغيون الاستكبار والاستعلاء. وهم لا يفسدون في الأرض، بل لا يبغيون الفساد بارتكاب المعاصي: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأُخْرَىٰ جَعَلْنَا لَهَا لِيَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: «فجوزوا من جنس عملهم؛ فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدرجات المفضطة، أجازنا الله سبحانه من ذلك كله»^(٥).

ولا دلالة في الآية على تحريم الطيبات على المؤمنين، حيث بين الله السبب بقوله: ﴿يَمَا

-
- (١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/٢٠٠)، وانظر القراءات ص ١٩٩.
 (٢) الباء في قوله: (بما كنتم تستكبرون في الأرض) للسببية، وهي متعلقة بفعل تجزون. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤٣/٢٦).
 (٣) التفسير الكبير، الرازي (٢٣/٢٨).
 (٤) روح المعاني، الألوسي (٢٣/٢٦).
 (٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٦٠).

كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٣٢﴾، وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

وما روي عن عمر بن الخطاب ؓ أنه تورع عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وكان ينتزه عنها ويقول: «إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾»، فإنما هو الورع، وخشية أن تشغله اللذائذ عن فقراء رعيته. وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم، فمررت بعمر بن الخطاب ؓ، فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ...﴾ الآية. فعمر ؓ لا يحرم اللحم، إنما هو عتاب منه له على التوسع بابتیاع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء؛ فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع، وتستمرؤها العادة، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات، حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمانة بالسوء؛ فأخذ عمر الأمر من أوله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله.

والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: «على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً^(١)، ولا يتكلف الطيب، ويتخذة عادة». وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله ديدناً. ومعيشة النبي ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته^(٢).

وهكذا ينتهي هذا المقطع من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما في النهاية

(١) القفار (بالفتح): الطعام بلا آدم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/٢٠٢).

وهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة، الخارجين عن منهج الله، المستكبرين عن طاعته. وهي لمسة للقلب البشري تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتداد الطريق الواصل المأمون^(١)؛ وهو طاعة الله والعبودية له وحده، والاستعداد ليوم الجزاء.

المقطع الثالث: خسران المكذبين، وهلاكهم في الدنيا عبرة لمن يعتبر

﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات. وهذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/٢٥).

في سور شتى. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة - أو حلقة من قصة - قد تكررت في صورة واحدة؛ من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار.

والحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضوع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ؛ وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياس، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزيق ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء^(١).

وهنا لما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا، واستغراقهم في استيفاء طبيباتها وشهواتها، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد ﷺ والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد، فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد عليه الصلاة والسلام، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته على الجن^(٢).

وقد سبقت قصة هود وقومه مساق الموعدة للمشركين الذين كذبوا بالقرآن، كما أخبر الله عنهم في أول هذه السورة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، مع ما أعقبت من الحجج المتقدمة من قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي يقابله قول هود: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ثم قوله: ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ أُرْسِلُ﴾ الذي يقابله قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. ذلك كله بالموعدة بحال هود مع قومه. وسبقت أيضاً مساق الحجّة على رسالة محمد ﷺ وعلى عناد قومه بذكر مثال لخالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم. ولها أيضاً موقع التسلية للرسول ﷺ على ما تلقاه به قومه من العناد والبهتان لتكون تسلية وموعدة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١/٦٣).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/٢٩).

معاً، يأخذ كل منها ما يليق به^(١).

وعاد أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح عليه السلام. يدل على ذلك تسلسل القصص عن هؤلاء الأقوام في سورة الأعراف، وفي سورة هود. كما سبق في سورة الأعراف قول هود لقومه: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأخو عاد هو هود عليه السلام، كان أخاهم في النسب لا في الدين. والأخ يراد به المشارك في نسب القبيلة، يقولون: يا أخا بني فلان، ويا أخ العرب. ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾، أي اذكر لهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها، أو هو أمر من الله لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن يتذكر في نفسه قصة هود ليقنتدي به، ويهون عليه تكذيب قومه له؛ وكلمة (اذكر) تصلح لمعنى الذكر اللساني، ولمعنى الذكر - بالضم - بأن يتذكر تلك الحالة في نفسه. والأحقاف ديار عاد، وهي الرمال العظام. والحقف: ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلاً. وقد كانت مساكنهم جنوب الجزيرة بين عمان وعدن، ويقال في حضر موت: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، أي قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده، وتفسرها قراءة ابن مسعود «من بين يديه ومن بعده». وقد أنذرهم هود بما أنذر به كل رسول قومه: ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢). وعبادة الله وحده والتحرر من العبودية لسواه هي دعوة الرسل جميعاً، وهي عقيدة في الضمير، ومنهج في الحياة؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة. فماذا كان جواب قومه؟

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣)

قالوا: أجيئنا لتصرفنا وتصدنا عن آلهتنا، واستعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/٢٠٣-٢٠٤). وجملة ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ معترضة بين جملة (أَنْذَرَ) وجملة (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) المفسرة بها، و(أَنْ) تفسيرية؛ لأن (أَنْذَرَ) فيها معنى القول دون حروفه. انظر التحرير والتنوير (٢٦/٤٥).

وقوعه، كقوله جلّت عظمته: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] (١).

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا بَجَاهِلُونَ﴾. فقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ردّ على قولهم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّنَا﴾؛ يريد بذلك أن الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فسيجعل ذلك بكم، وأمّا أنا فمن شأنى أن أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا بَجَاهِلُونَ﴾ فلا تعقلون ولا تفهمون، حيث تصرّون على طلب العذاب بهذه الوقاحة التامة؛ وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقاً، ولكن لم يظهر لكم كوني كاذباً، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم (٢).

وقال: ﴿قَوْمًا بَجَاهِلُونَ﴾، ولم يقتصر على ﴿بَجَاهِلُونَ﴾؛ للدلالة على تمكن الجهالة منهم، حتى صارت من مقومات قوميتهم، وللدلالة على أنها عمّت جميع القبيلة، كما قال لوط لقومه: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] (٣).

وكانوا قد أصابهم قحط شديد، يشير إلى ذلك قول هود عليه السلام: ﴿وَيَقُولُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْبَهُ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]. فاستقبلهم عذاب الله على هيئة عارض أي سحب معترض السماء:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) فرحوا واستبشروا خيراً برؤية السحاب وهو مستقبل أوديتهم، وقالوا هذا عارض ممطر لنا. فقال: بل هو ما استعجلتم من العذاب، ثم بين ماهيته فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم وصف عمل الريح فقال:

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٦٠).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/٢٤).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٤٨).

التدمير: الهلاك، وكذا الدمار، فهذه الريح تدمر كل شيء مّرت عليه من رجال عاد وأموالها. قال ابن عباس: أي كل شيء بُعثت إليه ^(١).

يقول سيد قطب: «والنص القرآني يصوّر الريح حيّة مدركة مأمورة بالتدمير ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾»، وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس. فهذا الوجود حيّ، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حق الإيمان، ويفتّح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب معها، وأن تتجاوب معه، تتجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك. ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق. والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأسرار، تدرّكها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدّت الريح ما أمرت به، فدمّرت كل شيء؛ ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ أما هم وأما أنعامهم، وأما أشياؤهم، وأما متاعهم، فلم يعد شيء منه يرى. إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا ديار فيها ولا نافخ نار. ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾. سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين ^(٢).

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب وتعتبر:

﴿ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/٢٠٥-٢٠٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/٢٨).

ولقد كانوا أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً، ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله، فكيف يكون حالكم. وقد فتحنا عليهم أبواب النعم؛ وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها بطرق تخالف منهج الفطرة الذي يأمر به الله، فلا جرم ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً.

ثم علل عدم إغناء السمع والأبصار والأفئدة عنهم شيئاً بسبب أنهم يجحدون بآيات الله؛ لأن لفظ «إِذْ» في قوله: ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ بمنزلة التعليل، فقد يأتي هذا اللفظ للتعليل.

وفي هذه الآية أشد التخويف لأهل الكفر في مكة؛ فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يستهزئون به، حيث كانوا يطلبون العذاب على سبيل التكذيب والاستهزاء، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يجذروا من عذاب الله ويخافوا^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى لهواته^(٢)، إنما كان يبتسم. قالت: وكان إذا رأى غيباً أو ريحاً عُرف في وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عُرف في وجهك الكراهية؟! فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(٣). وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرت بالصبا،

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/٢٥-٢٦).

(٢) لهواته جمع لهأة، وهي اللحم المشرقة على الخلق في أقصى الفم.

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

وأهلكت عاد بالدبور»^(١).

ويختتم هذا المقطع بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى، من عاد وغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولقد أهلكنا الأمم المكذبة بالرسل مما حول أهل مكة، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وسبأ وهم أهل اليمن ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وقوم لوط ومساكنهم تكتشف الآن تحت البحيرة التي تسمى البحر الميت؛ وكان أهل مكة يمرون عليهم في أسفارهم، في رحلتي الشتاء والصيف، وكانت أخبار هؤلاء المهلكين متواترة عندهم^(٢).

ولقد نوح الله سبحانه الآيات يعني الحجج والبراهين والدلالات، وأنواع البينات لأهل تلك القرى لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويتوبون عن شركهم فيتحررون من العبودية لغير الله، لكنهم مضوا في ضلالهم فأخذهم العذاب الأليم^(٣)، ألواناً وأنواعاً، تتحدث بها الأجيال من بعدهم، ويعرفها الخلف من ورائهم.

وهذا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة والنتيجة الحاسمة. لقد دمّر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم. فهلاً نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم وهلاً منعتهم من عذاب الله؛ إنهم لم ينصروهم، ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ وتركوهم وحدهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾، أي اتخذهم غير الله آلهة، وزعمهم

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٥)، وصحيح مسلم برقم (٩٠٠). وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠٦-٢٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠٩/١٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٦٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠٩/١٦).

أنها تقر بهم إلى الله هو كذبهم، وما كانوا يخلقونه^(١).

قال ابن عاشور: «والافتراء نوع من الكذب، وهو ابتكار الأخبار الكاذبة، ويرادف الاختلاق؛ لأنه مشتق من فري الجلد، فالافتراء الكذب الذي يقوله، فعطف ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ عطف الأخص على الأعم؛ فإن زعمهم الأصنام شركاء الله كذب مروى من قبل، فهو إفك. وأما زعمهم أنها تقر بهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه. وإقحام فعل ﴿كَانُوا﴾ للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أن افتراءهم متكرر»^(٢).

وهكذا أدت قصة عاد وإهلاكهم بالريح دورها في السورة؛ من تهديد المشركين في مكة وغيرها، لعلّ الترهيب ينفعهم ليأخذوا عبرة وعظة ممن سبقهم من ذوي العقول المتحجرة.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/٢٨٦)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢/٢٧٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٥٦-٥٧).

المقطع الرابع والأخير: الرسول محمد ﷺ

مصدق من عند الثقلين، ومعظم في العالمين؛ الإنس والجن

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِ مُنذَرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيبِ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوْلَتْهُرِوَا أَن اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقِهِنَّ يَغْدِرْ عَلَىٰ أَن يَخْتِىَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَعَلَّ بِهَذَا الْآلَاءِ الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد ذكر إهلاك الأقوام المكذبة من الإنس في المقطع السابق ذكر في هذا المقطع الأخير إيمان الجن بالله، وتصديقهم لمحمد ﷺ، وإيمانهم بما أنزل عليه من الوحي، وربطه بالحق المنزل سابقاً على موسى ﷺ، ثم ختم السورة بالدليل على قدرة الله على بعث الموتى، والتهديد بالعذاب الدائم يوم القيامة للمكذبين.

اذكر يا محمد لقومك قصة استماع الجن القرآن وإيمانهم به، لعلمهم يتنبهون لجهلهم وغلطهم، وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه، حيث إنهم كفروا به، وجاهلوا أو تجاهلوا أنه من عند الله تعالى، وهم أهل اللسان الذي نزل به، من جنس الرسول الذي جاء به؛ وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وآمنوا به، وهم ليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله. ففي ذكر هذه القصة توبيخ لكفار قريش والعرب، ووقوعها إثر قصة هود

وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى ؛ لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة، كما حكي عنهم في غير آية، والجن توصف بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ ﴾ [النمل: ٣٩]. ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسب ما قبلها لذلك. مع ما قيل: إن قصة عاد متضمنة ذكر الريح، وهذه متضمنة ذكر الجن وكلاهما من العالم الذي لا يُشاهد^(١).

وتشير رواية البخاري ومسلم من حديث ابن عباس أن الجن مرّوا برسول الله ﷺ وهو يقرأ فسمعوا القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغارها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرءَنَا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن: ١ - ٢]، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحى إليه قول الجن»^(٢).

ولا يبعد أن يكون الجن قد صُرفوا إلى النبي ﷺ، فجاءوه وفوداً أكثر من مرة، فأقرأهم القرآن، كما تدل على ذلك روايات، وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال: لا. ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، والتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة

(١) روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٣٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩).

بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أو فر ما يكون لحماً، وكل بكرة علف لدوابكم»^(١).

فقد استمعوا قراءته ﷺ، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً وقوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما وردت بذلك الأخبار^(٢).

ويظهر أدب الجن في الاستماع إلى القرآن عندما حضروه ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أي فرغ من تلاوته، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهَا فِي أَلْبَانِ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ لَاحِقٌ لَهُمْ جُزَاءٌ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقد استدلت بهذه الآية على أن في الجن نذر، وليس فيهم رسل، إذ لم يدل دليل على أن الله بعث من الجن رسولاً، بل قد دلت الآيات على أن الرسل من البشر المذكور، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فاما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿ يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ الَّذِي يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي أحدهما.

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم: ﴿ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَعَيْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾، ولم يذكر عيسى عليه السلام؛ لأن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة أجل الكتب قبل القرآن، وكان عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما فيه، أو بكله، ثم إن الإنجيل فيه مواضع

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠)، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٧/٣٨٧-٣٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٦٣)، وانظر ما حرره الثعالبي في تفسيره (٤/١٥٧).

وترقيات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ أول مرة فقال: «بخ، بخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً...»^(١).

وقد تضمن إنذار الجن أسس الاعتقاد الكامل: تصديق الوحي، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن. والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه القرآن، والإيمان بالآخرة؛ وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال. والإقرار بقوة الله وقدرته^(٢). ونستطيع أن نقسم إنذارهم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وصفوا فيه القرآن بثلاثة أوصاف:

الأول: إنه أنزل من بعد موسى، فهو يؤيد ما جاء من قبل في السورة: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرُوا﴾.

الوصف الثاني: إن هذا القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب التي أنزلها الله؛ فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل كما مرَّ.

الثالث: إن هذا القرآن ﴿يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يهدي إلى الحق في الاعتقاد والأخبار، ويهدي إلى طريق مستقيم في المنهج والأعمال؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين: خبر وطلب؛ فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وهكذا قالت الجن عن القرآن: ﴿يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في المنهج والأعمال^(٣).

والقسم الثاني من الإنذار: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما فيه من الجزاء: ﴿يَقَوْمًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٧٠)، وتفسير روح المعاني، الألوسي (٨/٩٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٣٢/٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٧٠).

أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾.

داعي الله هو محمد ﷺ، وهذا يدل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس. ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي بالداعي، ويكون الإيمان بالله الذي أرسله من باب أولى، أو آمنوا بالله واستجيبوا لرسوله، ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾. وهذا جزاء الإيمان بالله ورسوله يوم البعث والجزاء.

ولا دليل في هذه الآية لمن قال: إن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، فهناك نصوص أخرى تدل على دخولهم الجنة، منها قوله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ رِيكًا مَكِيدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧] وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. فلم يكن تعالى ليمنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل من باب أولى. وتما يدل على ذلك أيضاً عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقال تعالى مخاطباً الجن والإنس: ﴿يَلْمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾، إلى أن قال: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢] (١).

ويأتي القسم الثالث والأخير من الإنذار؛ وهو تهديد ووعيد بعدم الإفلات من قدرة الله:

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ ءَوْلِيَاءٌ ءَأُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢١٧-٢١٨).

المعجز: الذاهب في الأرض الذي يعجز طالبه، فلا يقدر عليه^(١). إن عدم الاستجابة للحق وخيم العاقبة، وإن الذي لا يستجيب لا يفلت من قدرة الله سبحانه، وكيف يفلت أحد والكون كله بيد الله، يصرّفه كيف يشاء، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

فقدرة الله شاملة ومحيطة بالكافرين، وعذابه نازل بهم، بل لا يجيرهم منه سبحانه أحد، هؤلاء الذين تلبسهم الضلال عن الحق ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

وإلى هنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ثم ذكر عقبيهما تقرير البعث والمعاد^(٣) وبمناسبة الحديث عن قدرة الله الشاملة، وأنه لا يفلت من عذابه أحد من الكفرة، يأتي المثل والاحتجاج على البعث؛ لأن المشركين قالوا: إن الأجساد لا يمكن أن تبعث، ولا تعاد؛ وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم^(٤):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

وهذا عود على بدء، فقد ابتدأت السورة بالإشارة إلى الدليل على البعث في الهدف من الخلق: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ الآية، ويتصل بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أَوْ لِكَمَا أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾، إلى قوله: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والرؤية هنا بمعنى العلم، ﴿وَلَمْ يَعْ﴾ أي لم يعجز عن ذلك. يقال: عي فلان بأمره إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه. قال الزجاج: عييت بالأمر، إذا لم تعرف وجهه، وأعييت إذا تعبت^(٥).

(١) تفسير الثعالبي (٤/١٥٨)، والمحمر الوجيز، ابن عطية (٥/١٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٧١)، وانظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٦٢).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/٣٠).

(٤) المحمر الوجيز، ابن عطية (٥/١٠٦).

(٥) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/٣٩١)، والمحمر الوجيز، ابن عطية (٥/١٠٦).

فالمقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادراً على البعث. والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول السورة على أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وذكرنا قبل قليل أن المشركين معترفون بذلك، ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً؛ لأن القادر على الأقوى والأكمل، لا بد أن يكون قادراً على الأقل والأضعف^(١)، كما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، ولذلك ختم الآية هنا بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٨﴾﴾^(٢).

وبعد أن أقام الله الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر يرسم مشهد الجزاء كأنه شاخص للأبصار، فيذكر بعض أحوال الكفار فيقول: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

واذكر يوم يُعرض كفار قريش وغيرهم ممن هو على شاكلتهم على النار، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، وهذا تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، في مثل قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الصفوات: ٥٩]. ولا يسعهم إلا الاعتراف حين لا يفيد الاعتراف، حيث يجيبون: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، فيقال لهم بأسلوب فيه الإهانة: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم^(٣).

ويأتي التفرغ على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد ﷺ، واستهزائهم به وبما جاء به من البعث والجزاء، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد؛ فيؤمر الرسول ﷺ بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، ويضرب له المثل بالرسول أولي العزم:

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٧١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/٢١٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٧١)، والتفسير

الكبير، الرازي (٢٨/٣٠).

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلُ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وأولو العزم: هم ذوو الحزم والصبر. والمراد من حفظت له مع قومه شدة ومجاهدة، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال ابن زيد: والرسول كلهم أولو العزم، وتكون ﴿ مِنْ ﴾ لبيان الجنس؛ لأن قوله: ﴿ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة، تعظيماً لهم. وقيل: هم الثانية عشر المذكورون في سورة الأنعام؛ لأنه قال بعقب ذكرهم: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهْدَتُهُمْ اقْتَدَتْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] (١).

والأشهر أن أولي العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ فقد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من الأحزاب والشورى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] (٢).

والعزم المحمود في الدين بالمعنى العام: هو الصبر على فعل المأمورات، والصبر على ترك المحظورات. وقوته: شدة المراقبة؛ بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبة نفسه، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ نَصَبُوا وَتَثَقَّوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] ويدخل في ذلك الصبر على قدر الله، وعدم الخروج عن حكم الشرع، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وأعقب سبحانه أمره بيبه بالصبر نبيه عن الاستعجال لهم بالعذاب أو الهلاك. وذلك

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٠٧/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١٧٢/٤).

تثبيتٌ له ﷺ، وتهديد للمشركين؛ فطريق الدعوة شاق يحتاج إلى الوعظ والتثبيت والأمر بالصبر، والافتداء بأولي الحزم والثبات من الأنبياء السابقين. والتهديد للمشركين كامن في نبيه ﷺ عن استعجال العذاب لهم؛ لأنه آتيهم لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلُمُ قَلِيلًا ۝١١ ﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمُ رُؤُوسُهُمْ ۝١٧ ﴾ [الطارق: ١٧].

فالعذاب منهم قريب، وهذه الدنيا إلى زوال، وهي متاع قليل بالنسبة للآخرة: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب، أو من الآخرة التي فيها عذابهم، ﴿ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ في جنب يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۝٤٦ ﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥] (١).

ثم يقول سبحانه: ﴿ بَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي هذا القرآن بلاغ، دليله قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَكِيدِينَ ۝١٠٦ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، والبلاغ بمعنى التبليغ، ولا يهلك إلا القوم الخارجون عن أمر الله وحكمه (٢).

وكما أن هذه الألفاظ وعيد محض، وإنذار بين للمشركين الكافرين، فهي رجاء للمؤمنين. حيث يقال: إن قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أرجى آية في كتاب الله للمؤمنين؛ وذلك أن الله عز وجل جعل الحسنه بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وغفر الغفور الرحيم الصغائر باجتناب الكبائر، فقال سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَخِيَاتِكُمْ وَتُدْخِلَنَّكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١ ﴾ [النساء: ٣١]، ووعد الغفران على التوبة فقال سبحانه: ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/١٧٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/٢٢٢).

(٢) المرجعين السابقين.

رَجِيمٌ ﴿٣٩﴾ [المائدة: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَن عَمَلَ مِنكُمْ سُوءًا لَّيْسَ لَهُ تَابٌ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فلن يهلك على الله إلا هالك^(١).

(١) تفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (٤/١٥٩). وانظر آخر الحديث «ولا يهلك على الله إلا هالك» في صحيح مسلم برقم (١٣١).

سورة محمد ﷺ

بين يدي السورة

يحسن بنا أن نقف بين يدي هذه السورة الكريمة لإلقاء الضوء على اسمها، وفضائلها ومكيتها أو مدنيتها، وعدد آياتها، ومحورها، والمناسبة بينها وبينه، والمناسبة بين افتتاحيتها وخاتمها، وبين افتتاحيتها وخاتمة ما قبلها، وبين مقاطعها ومحورها، وبين مضمونها ومضمون السورة التي قبلها، وبيان ذلك كله على النحو الآتي:

(أ) اسم السورة:

قال الزركشي: «ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، لأن العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقريظة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء»^(١).

وللسورة التي نفسرها موضوعيا في هذا المقام ثلاثة أسماء: أولها: سورة محمد، وثانيها: سورة القتال، وثالثها: سورة الذين كفروا مراعاة لمطلعها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾.

والأشهر الأول، ووجهه أن اسم النبي ﷺ قد ذكر في الآية الثانية منها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾^(٢) فعرفت به قبل سورة آل عمران التي ذكر فيها اسمه ﷺ في الآية الرابعة والأربعين بعد المائة، وسورة الأحزاب التي ذكر فيها اسمه ﷺ في الآية الأربعين، وسورة الفتح التي ذكر اسمه ﷺ

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٧٠.

في آيتها الأخيرة^(١).

ولهذا سميت هذه السورة في أكثر كتب السنة "سورة محمد" وكذلك ترجمت في صحيح البخاري، وفي أكثر التفاسير^(٢).

وأما تسميتها بسورة القتال في بعض كتب السنة وكتب التفسير؛ فلأن مشروعية القتال ذكرت فيها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٣).

كما أن لفظة القتال قد ذكرت في الآية العشرين منها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾.

فتكون تسميتها بسورة القتال تسمية قرآنية، وهو اسم حقيقي؛ لأن القتال موضوعها وهو العنصر البارز في صورها وإيقاعها وظلالها^(٤).

(ب) مكية السورة أو مدنيتهما:

للمفسرين في كون سورة محمد مكية أو مدنية ثلاثة أقوال^(٥):

(١) يلاحظ أن المرات التي ذكر فيها اسمه ﷺ في القرآن الكريم كانت في سور مدنية عنيت بالحديث عن مرحلة من الصراع المرير الذي نشب بينه ﷺ وبين الكافرين، إما بوصف حلقة من حلقات هذا الصراع، أو بالتنظير للأسس والمعالم التي يجب على المسلمين أن يحرصوا على تمثلها عمليا أو فكريا أو نفسيا عند دخولهم في ميادينه، ويلاحظ أن اسمه ﷺ قد اقترن في هذه المرات بوصف يدل على نبوته، وهذا يفيد أن غاية هذا الصراع كانت إثبات هذه الحقيقة في مواجهة قوم ينكرونها، ويصدون الناس عنها بكل الوسائل المتاحة لديهم.

(٢) انظر: سنن الترمذي ٥ / ٣٨٣، وصحيح البخاري ٤ / ١٨٢٨، وجامع البيان للطبري ٢٦ / ٣٨، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٧٨.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ١٩٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٣٩٥، والجامع =

أولها: أنها مدنية، قاله الأكثرون، ولم يذكروا استثناء، قيل: نزلت بعد يوم بدر، وقيل: نزلت في غزوة أحد.

وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن الكريم بجملته، والتاسعة حسب ترتيب نزول السور المدنية، ونزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

ثانيها: أنها مكية، قاله الضحاك والسدي وسعيد بن جبير والثعلبي.

ولعله وهم ناشئ بسبب ما روي عن ابن عباس من أن قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء، أي في الهجرة.

ثالثها: أنها مدنية ولكن فيها آية مكية، فعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت عليه ﷺ بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً ويقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(١) فنزل عليه ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾.

والقول الأول هو الأصح؛ ولهذا قرر ابن عطية الإجماع عليه، وقال عن الاستثناء الوارد في القول الثاني والثالث: "وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني؛ لأن المراعى في ذلك إنها هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها"^(٢).

ولهذا لم يذكر السيوطي هذه السورة ضمن السور التي منها آيات مستثناة، بل ذكر قولاً لابن عباس عن مجاهد بأنها مدنية، وقال: إن إسناده جيد رجاله كلهم ثقات، كما أضاف هذا القول إلى قتادة وعكرمة والحسن بن أبي الحسن وأبي الحسن بن الحصار، ودرجه الله تعالى ما

= لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل مكة ٥ / ٧٢٢ (٣٩٣٥) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والحاكم في المستدرک ٣ / ٨ (٤٢٧١) وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩.

حكاه النسفي بأنها مكية قولاً غريباً^(١).

(ج) عدد آيات السورة^(٢)؛

سورة محمد ثمان وثلاثون آية في الكوفي، وتسع وثلاثون آية في المدنيين والمكي والشامي، وأربعون آية في البصري، اختلافها في موضعين: الأول: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ لم يعده الكوفي آية، وعده الباقون، والثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَهُزُّ مِنْ حَمْرٍ لَذِقٌ لِّلشَّرِبِينَ﴾ عده البصري، ولم يعده الباقون.

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع سبعة مواضع ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابِ﴾ و﴿فَشُدُّوا أَلْوَتَاقَ﴾ و﴿لَأَنْصَرَّ مِنْهُمْ﴾ و﴿بِبَعْضٍ﴾ و﴿ءَافِقًا﴾ و﴿لَأَرْبِتَنَّكُمْ﴾ و﴿بِسِيمَتِهِ﴾ وعدد كلماتها خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وعدد حروفها ألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون.

(د) محور السورة:

الصراع بين المؤمنين والكافرين هو محور هذه السورة الكريمة، سواء أكان صراعاً مادياً ظاهراً يسعره الكافرون ويصل إلى درجته القصوى بالقتال، أم كان صراعاً خفياً يديره المنافقون من وراء ستار الإيثار الذي يتخفون وراءه، ولا يجد المؤمنون بداً من اقتحام ميادين هذا الصراع ليحولوا بين الكافرين وبين الصد عن سبيل الله عز وجل.

ومن هنا تعرض السورة الكريمة الملامح الفكرية والنفسية والسلوكية للشخصية الكافرة ثم المناقفة ليعرف المؤمنون عدوهم الذي يضطرمهم لخوض حروب نص الله عز وجل على كراهيتهم لها في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

كما نهاهم رسولهم ﷺ عن تمنيتها في قوله: " لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٣٧ - ٥٥.

(٢) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني ١ / ٢٢٨.

لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" (١).

وفي خضم ذكر السورة للملامح الشخصية الكافرة والمؤمنة تعرض الملامح الفكرية والنفسية والسلوكية لشخصية المؤمنين، وتقرر حقائق حول الصراع الدائر بينهم وبين الكفار والمنافقين وحكمة هذا الصراع ومقتضياته وثمراته.

(هـ) المناسبات في السورة:

هناك عدة مناسبات لا يمكن أن يكتمل تصورنا لسورة محمد ﷺ دونها، فأكثر لطائف السور القرآنية مودعة في الترتيبات والروابط، والمناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء (٢).

ويتجلى ذلك في بيان المناسبة بين اسم السورة ومحورها، والمناسبة بين مقاطعها ومحورها والمناسبة بين افتتاحيتها وخاتمته، والمناسبة بين مضمونها ومضمون ما قبلها.

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

هناك تناسب بين اسم سورة محمد ﷺ وبين محورها، فلولا مجيء محمد ﷺ برسالة الله تعالى وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين بهذه الرسالة ما قام هذا الصراع المرير الذي قاد ﷺ فيه المؤمنين وفق سياسة ربانية في مصدرها وغايتها، ولهذا كان الجهاد خلقه ﷺ إلى أن توفاه الله تعالى، فهو نبي الرحمة بالملحمة حسب وصف برهان الدين البقاعي (٣).

كما أن اسم سورة القتال يناسب محورها المتمثل في الصراع المادي الذي يصل إلى أقصى

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ٣ / ١٠٨٢ (٢٨٠٤) ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمنى لقاء العدو ٣ / ١٣٦٢ (١٧٤٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٣٥، ٣٦.

(٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨ / ١٩٤ - ١٩٥.

درجاته المتمثلة في القتال الذي يسعره الكافرون والمنافقون في مواجهة المؤمنين، حيث تقرر آياتها حقائق حول هذا الصراع وحكمته ومقتضياته وثمراته.

أما اسم سورة الذين كفروا فيناسب بدايتها، وحديثها المفصل عن الشخصية الكافرة في جوانبها الفكرية والنفسية والسلوكية، وهي الجوانب التي تسببت في الصراع الذي هو محور السورة.

ويمكن جمع هذه الأسماء الثلاثة في جملة واحدة تعطي تصوراً تاماً عن القضايا التي تعالجها السورة، وهي: محمد ﷺ يقاتل الكفار^(١).

(٢) المناسبة بين محور السورة ومقاطعها:

إذا كان الصراع بين المؤمنين والكافرين هو محور هذه السورة الكريمة، سواء أكان صراعاً مادياً ظاهراً يسعره الكافرون، أم كان صراعاً خفياً يديره المنافقون من وراء ستار الإيذان، فإن المقطع الأول يعنى بالتعريف بطرفي الصراع الواضحين مع حث الطرف المؤمن على قتال طرف الكفار.

وفي المقطع الثاني يحرض المؤمنين على نصرته عموماً إن أرادوا منه النصر والتثبيت لأنفسهم، والتعس والضلال للكافرين، فتلك هي سنته التي لا تتبدل في الدنيا حسب الشواهد الماثرة في الأرض، أما في الآخرة فالفارق بين متاعهم ومتاع الكافرين فارق أصيل، فمتاعهم متاع كريم لأنهم يتلقونه من يد الله تعالى، بينما عاقبة الكافرين العذاب رغم أن حظهم من الدنيا لم يزد على حظ الأنعام.

وفي المقطع الثالث ذكر لحال المنافقين - الطرف المتخفي من أطراف الصراع - وموقفهم إزاء ما يسمعون من رسول الله ﷺ ثم موقفهم من قضية الجهاد، ومن اليهود، وتأميرهم معهم سرا ضد الإسلام والمسلمين بحيث يأخذ المؤمنون حذرهم من الفريقين.

(١) انظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق لصالح الخالدي ص ٢٤٣.

وفي المقطع الرابع وعيد لهؤلاء المنافقين بكشف أمرهم في الدنيا، وإحباط أعمالهم مع أعمال الكافرين إن أصروا على كفرهم بالله تعالى وصددهم عن سبيله، ويدفع المؤمنين لتحمل تكاليف الإيمان المتمثلة في الجهاد والطاعة والصبر على طول الطريق ومكابدة الأعداء ومقاومة ضغط زينة الدنيا على النفوس، ويهددهم إن تولوا بأن يأتي بقوم آخرين لا يكونون مثلهم.

فهي إذا معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها يظل لها جو الصراع، وتتسم بطابعه في كل فقراتها، وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة، أو القرارات العسكرية الحاسمة ﴿أَعْمَلْتُمْ﴾ ﴿بَالِهْتُمْ﴾ ﴿أَمْتَلْتُمْ﴾ ﴿أَهْوَأْتُمْ﴾ ﴿أَمْعَاءَهُمْ﴾ وحتى حين تحف فإنها تشبه تلويع السيوف في الهواء: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ ﴿أَمْتَلَهَا﴾ ﴿أَفْقَالَهَا﴾ وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها، فالقتال أو القتل يقول عنه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ والتقتيل والأسر يصوره بشدة وقسوة تناسب قسوة الكافرين في المواجهة ﴿حَقًّا إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّوَابَ﴾ والدعاء عليهم يجيء في لفظ قاس ﴿فَنَعَسَاءَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلاً ولفظاً ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكَافِرِينَ أَمْتَلَهَا﴾ وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وحالة الجبن والفرع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ وهكذا يتناسب محور السورة مع مقاطعها بل ومع فواصلها وصورها تناسباً تاماً يجعل منها وحدة واحدة دون تكلف أو تعسف^(١).

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة سورة الأحقاف واضحة جلية، فهناك اتصال وتلاحم بينها بحيث لو سقطت من بين البسملة؛ لكانا متصلين واحداً لا تنافر فيه كآية الواحدة آخذاً

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٠.

بعضها بعنق بعض^(١).

فبعد أن ختم الله تعالى سورة الأحقاف بقوله: ﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ يمكن أن يقول قائل: كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال الله عز وجل في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾^(٢)؟ دفع الله تعالى تلك الشبهة في أول سورة محمد فقال: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾^(٣) أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك المذكور في الأحقاف^(٤).

ويمكن اعتبار أول جملة في سورة محمد بدل من آخر جملة في سورة الأحقاف، بحيث لو سقطت البسمة لاتصلا على النحو الآتي: ﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾^(٥).

(٤) المناسبة بين مضمون السورة ومضمون التي قبلها:

سورة الأحقاف تضمنت دلائل وحدانية الله تعالى، وحقية وحيه المنزل على نبيه ﷺ ونقض الشرك، ودحض شبهات المشركين، وعرضت المآل الذي يصير إليه الكافرون وهو الهلاك والبوار في الدنيا من خلال طرح صور لهلاك طوائف منهم، وأشارت إلى العذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة، وحثت الرسول ﷺ على الصبر حتى يتحقق موعود الله تعالى فيهم سواء أكان في العاجلة أم الآجلة.

أما سورة محمد ﷺ فتضمنت صفات هؤلاء الكافرين بالوحدانية وبالوحي الذي اتضحت دلائلها في سورة الأحقاف، وبينت حرصهم على الصد عن سبيله تعالى، وحثت على السير في الأرض لمعرفة المآل الذي صار إليه أمثالهم في الدنيا، وهو المآل الذي عرضت سورة

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٢.

الأحقاف صوراً منه، كما عرضت لعاقبتهم في الآخرة، ولا شك أن الوقوف على عاقبة الكفار من خلال السير في الأرض وخبر هذه السورة يعين على تحمل عبء الصبر الذي حثت عليه سورة الأحقاف.

على أن سورة محمد تدفع المؤمنين إلى تحمل مسؤولياتهم في تحقق سنة الله عز وجل في الكافرين، ولهذا ورد فيها الأمر بنصرة دين الله تعالى، وبمعاينة هؤلاء الكافرين على صدهم عن سبيله بالقتل أو الأسر.

(٥) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لما قرر الله تعالى في أول السورة أنه قد أضل أعمال الكفار، وأمر المؤمنين بالشدة عليهم في القتال وبين أنه لو شاء لانتصر منهم لكنه أراد أن يبلو بعضهم ببعض ليتميز الخبيث من الطيب، بين في آخر السورة أنه سيبتلي المؤمنين ليتبين المجاهدون والصابرون منهم، وأنه سيحبط أعمال الكافرين في الصد عن سبيله، وأمر المؤمنين بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ وحثهم على نبذ الوهن والدعوة إلى السلم، ودعاهم إلى تحمل مسؤوليتهم تجاه دينه لأنه تعالى غني عنهم قادر على الانتصار من الكفار بقوم آخرين، فرجع بذلك أول السورة إلى آخرها، وعلم أن معنى هذا الآخر وذلك الأول أنه سبحانه يذل الكافرين ويعز المؤمنين^(١).

سبب نزول السورة:

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: "نزلت سورة محمد آية في بني أمية"^(٢).

وأورده السيوطي في الدر المنثور بلفظ "سورة محمد آية فينا، وآية في بني أمية"^(٣).

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨ / ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(٣) انظر: الدر المنثور ٧ / ٤٥٦.

قال الآلوسي: « ولا أظن صحة الخبر، نعم لكفار بني أمية الحظ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار، كما أن لأهل البيت رضي الله تعالى عنهم المعلى والرقيب من عمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثر من هذا لا يقال، سوى أي أقول لعن الله تعالى من قطع الأرحام وآذى الآل»^(١).

المقطع الأول

تعريف موجز بطريفي الصراع وحث المؤمنين على القتال

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۗ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمِرُكُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِيمَا مَتَابَعِدْ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لَبَلَّوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۗ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۗ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۗ﴾

التفسير الإجمالي:

هذا عرض للصفات الأساسية لطرفي الصراع، وهي الصفات التي يترتب عليها فوز الطرف المؤمن وخسارة الطرف الكافر بكل معاني الفوز والخسارة، وهو توطئة لتحريض المؤمنين على قتال من غضب الله تعالى عليهم بسبب كفرهم وصددهم الناس عن دينه.

وبدأ بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويقاً لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيحاء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل

(١) روح المعاني للآلوسي ٢٦ / ٣٦.

كفرهم وصددهم أضل أعمالهم، وفي ذلك براعة استهلال للغرض المقصود^(١).

والآيات تعم كل من دخل تحت ألفاظها^(٢) وأضيف السبيل إلى الله تعالى لأنه الدين الذي ارتضاه لعباده، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ واستعير اسم السبيل للدين؛ لأنه يوصل إلى رضى الله عز وجل كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته وقد صد الكافرون أنفسهم عن سبيل الله تعالى ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل، كما صدوا غيرهم ومنعوه من ذلك.

ولهذا استحقوا أن يبطل ثواب أعمالهم الخيرة، أو يبطل ما عملوه من الكيد للإسلام ولرسوله ﷺ بنصره ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، ولعله أوفق بما بعده وكذا بما قيل أن الآية نزلت بيدر، واللفظ يعم هذا القول والذي حسب قول ابن عطية^(٣).

وفي مقابل الذين كفروا يذكر الذين آمنوا ويقرن الإيذان بالعمل الصالح؛ لأنه ثمرته الدالة على وجوده وحيويته وانبعائه، وفي مقابل إبطال عمل الكافرين ولو كان صالحا تغفر السيئة للمؤمنين، ومع تكفير السيئات يكون إصلاح بالهم أي أمرهم وشأنهم وحالهم، والكل متقارب^(٤).

وتحرير التفسير في لفظة البال أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٧.

وقد أخرج الحاكم رواية عن ابن عباس في أن الذين كفروا منهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ والذين آمنوا هم الأنصار أهل المدينة الذين آووه، وفي الطائفتين نزلت الآيتان، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. انظر: المستدرک للحاكم ٢ / ٤٩٦ (٣٧٠٣).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩١، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٧، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩.

(٤) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٣.

رأيه، والتوحيد هو أصل صلاح بال المؤمن، إذ منه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة، فكان اللفظة مشيرة الى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابع^(١).

وما ينال الفريقين أمر له أصله الثابت المرتبط بسنة ربانية قام عليها أمره تعالى ﴿ ذَلِكَ يَأْتِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنْبَعَا الْبُطْلِ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (٣)

والأمثال: جمع مثل وهو الحال التي تمثل صاحبها وتعرف به فلا يلتبس بنظائره، والمعنى: كهذا التبيين بين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم، محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود، لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم^(٢).

ومن شأن هذه البصيرة أن تهون شأن الكافرين في نفوس المؤمنين فيمثلوا أمر ربهم بالشدّة على المحاربين منهم في قوله: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ﴾.

فضرب الرقاب كناية مشهورة يعبر بها عن القتل، والتعبير به عنه تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وأوجه أعضائه، وأثمتموهم أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الشخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى تتحطم قوتهم وتتهاوى، فلا تعود بهم قدرة على العدوان، وعندئذ - لا قبله - يشد وثاقهم، وهو هنا كناية عن الأسر لأن الأسر يستلزم الوضع في القيد، وإنما أمر بشد الوثاق لئلا يفلتوا إلى أن يختار المؤمنون بحسب المصلحة بين أن يمنوا عليهم بإطلاق سراحهم أو يقبلوا منهم الفدية^(٣).

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٥ - ٧٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٧.

(٣) انظر: الكشف للزخشري ٤ / ٣٢٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٦، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٢.

وتقديم المن على الفداء ترجيح له ؛ لأنه أعون على امتلاك ضمير الممتنون عليه، وفيه إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ؛ لأن الغاية العظمى من قتال المؤمنين للكافرين أن تضع الحرب آلتها وأثقافها التي لا تقوم إلا بها ؛ وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرها فكأنها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكأنها وضعتها^(١).

وحتى تبقى الفاعلية المطلقة لله عز وجل وحده في حس المؤمنين، ويدركوا الغاية الحقيقية من أمرهم بقتال الكافرين، وهي تخلص نفوسهم له سبحانه بحيث لا تتطلع إلا إلى وجهه ولا تبغى إلا رضاه قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصِرْتُمْ وَلَكِنْ لِيَسْلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيُجْزِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْمَمِ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾﴾.

وهذا التطلع هو السبيل الوحيد لتحصيل ثمرات القتال والموت في سبيله سبحانه، حيث يتعهدهم بالهداية بعد الاستشهاد، وبإصلاح البال، ويهديهم عند حشرهم إلى طريق الجنة ثم يعلم كل أحد منزلته ودرجته فيها.

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها، وعن مقاتل إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله، ويمكن أن يكون عرفها بمعنى طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة^(٢).

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا»^(٣).

وعن المقدم بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «لشهيدي عند الله ست خصال يغفر

(١) انظر: الكشف للزمخشري ٤ / ٣٢٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٩، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨٢.

(٢) انظر: الكشف للزمخشري ٤ / ٣٢١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة ٥ / ٢٣٩٤ (٦١٧٠).

له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة، ويجاز من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه " (١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: الإيثار أساس قبول الأعمال:

الله عز وجل يبطل في الدنيا ما يعمله الكافرون من الكيد لدينه ولرسوله ﷺ بنصره ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، كما أن عمل الكافرين الحسن في الحياة الدنيا يبطل يوم القيامة ويضمحل، وسبب ذلك أن أعمالهم لم تقترن بالإيثار.

فلا بد من الإيثار ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها، وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه، ويكون له اطراده، وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يجعل لكل عمل وظيفة وأثر (٢).

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ١٣ ﴾ وقال في سورة هود ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ ١٥ ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٦ ﴾ وقال في سورة الشورى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ ﴾.

ويرى بعض العلماء أن الكفار يثابون على حسناتهم بنعم الدنيا فقط، وقال بعضهم إنه إذا أسلم تضاف إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام:

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد ٤ / ١٨٧ (١٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٠ - ٣٢٨١.

«أسلمت على ما سلف لك من خير»^(١).

فقوم قالوا: تأويله أسلمت على إن يعد لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه، وقالت فرقة: معناه أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير إذ قد ثبت عليه بنعم دنياك^(٢).

ثانيا: العمل الصالح قرين الإيمان:

الإيمان لا بد أن يقترن بالعمل الصالح ؛ لأنه ثمرته الدالة على وجوده وحيويته وانبعائه، فعمل بلا إيمان كجسم بلا روح، وإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

وتخصيص الإيمان بمحمد ﷺ بالذكر في آية ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾^(٣) مع أنه يندرج فيما قبله للتبويه بشأنه، وللتبنيه على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل، فهو من باب عطف الخاص على العام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته بالنسبة لكل من آمن بنبي سبقه، ولذلك أكد بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ بطريق حصر الحقية فيه، ومن حقيقته كونه ناسخا غير منسوخ، فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل^(٤).

ثالثا: إصلاح البال ثمرة الإيمان:

إصلاح بال المؤمنين نعمة كبرى تترتب على اتباعهم للحق، وهي نعمة تترتب على الإيمان وتليه في القدر والقيمة والأثر، وذكرها يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب شراء المملوك من الحربي ٢ / ٧٧٣ (٢١٠٧).

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٢.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣١٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٣، وإرشاد العقل

السليم لأبي السعود ٨ / ٩١.

إذ متى صلح البال ؛ استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام^(١).

ومن مقتضيات صلاح بال المؤمنين في الدنيا أنهم يقدمون على قتال الكفار وهم يحرصون على الموت في سبيل الله كما يحرص أعداؤهم على الحياة، فإن نالوا مرادهم كانت لهم في الآخرة درجة من إصلاح البال أجل وأعظم من التي ذاقوها في الدنيا ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٤) سَيِّدِيهِمْ وَيُصْطِحُّ بِالْمَمِّ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ ﴿

رابعاً: العاقبة للحق وأهله:

الباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود، ومن ثم فهو ذاهب هالك مع كل من يتبعه وكل ما يصدر عنه، بينما الحق ثابت ضارب بجذوره في أعماق هذا الكون، ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه.

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٧) وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١) ﴿

وهذا هو الأصل الثابت المرتبط بسنته تعالى التي عبر عنها بإيجاز التعقيب على عاقبة كل من المؤمنين والكافرين: ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (٣) ﴿

فلا ينبغي أبداً أن يدب اليأس إلى نفوس المؤمنين إن رأوا للباطل صولة ولأهله جولة، لأن الأمور بعواقبها، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴾ (١١٦) ﴿ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١١٧) ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨١.

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّائِمِينَ ﴿١١٨﴾

خامسا: إيجابية المؤمن وغايتها:

ما يفعله الله عز وجل للمؤمنين في أعدائهم يدفعهم إلى الفعل والإيجابية لا إلى الكسل والتواكل والسلبية، ولهذا يأمرهم بمجابهة الكافرين بما يستحقون عند اللقاء ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا فَضُدُّوا أَلْوَتَاكَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَتَاكُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۗ ﴾

ويؤكد لهم أنه لو شاء لانتصر من الكافرين جهرة كما انتصر من بعضهم عبر قرون بأسباب ظاهرة أو خفية، لكنه عز وجل يريد للمؤمنين الخير حين يحملهم مسؤولية مجاهدة هؤلاء الكافرين.

فمن شأن هذه المجاهدة أن تخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض الدنيا الفانية، ويعز عليهم الحق فلا يستطيعون الحياة بدونه، بل يجاهدون في سبيله وهم يتطلعون فقط إلى وجه الله تعالى ورضاه.

فقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ لفتة في غاية الأهمية بالنسبة للمؤمنين، وهي أنه لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الجهاد والموت في سبيل الله تعالى وحده، والنصرة له وحده، وإلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا^(١).

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله " ^(٢).

سادسا: القتال لإقرار السلم:

غاية تشريع القتال في الإسلام هي منع العدوان ابتداء ووقف الحرب إذا وقعت، بدليل أن الله تعالى أمر بضرب رقاب الكفار بعد ذكر صدهم عن سبيله، وجعل توقف الحرب غاية

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣ / ١٠٣٤ (٢٦٥٥).

لإنهاك الكفار.

فحتى في قوله ﴿ حَتَّى تَصَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ للتعليل، أي لأجل أن تضع الحرب أوزارها، أي ليكف المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ فَإِنْ أَعْتَزَلْتُمْ فَلَمْ يُقِنِّلُواكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَكِينًا ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، فإن امتناعهم عن قتالكم كاف في استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم، وأنتم أولى بالسلم منهم^(١).

بل إن هذا الكف يتيح لكم أن تبروهم وتحسنوا إليهم حسب قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنِّلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يَمُجِّرُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَنُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨)

وقد نص الرسول ﷺ على استعداده لقبول أية خطة من شأنها إقرار السلم حين قال يوم الحديبية: "والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها"^(٢).

قال ابن حجر: "قوله " لا يسألونني خطة " بضم الخاء المعجمة، أي خصلة " يعظمون فيها حرمة الله " أي من ترك القتال في الحرم، ووقع في رواية ابن إسحاق " يسألونني فيها صلة الرحم " وهي من جملة حرمة الله " إلا أعطيتهم إياها " أي أجبتهم إليها"^(٣).

ويوم فتح مكة أخذت الحياصة سعد بن عباد فقال: اليوم يوم الملحمة، أي يوم المقتلة العظمى، فدخل أبو سفيان على الرسول ﷺ فقال له: أمرت بقتل قومك؟ قال: «لا» فذكر له مقالة سعد بن عباد، فقال: «يا أبا سفيان، اليوم يوم الرحمة، اليوم يعز الله قريشا» وأرسل إلى سعد فأخذ منه الراية ودفعتها إلى ابنه قيس^(٤).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٥٣٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢ / ٩٧٤ - ٩٨٠ (٢٥٨١).

(٣) فتح الباري لابن حجر ٥ / ٣٣٦.

(٤) انظر: ما أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٤ / ١٥٥٩ (٤٠٣٠) =

وقد عقد ﷺ معاهدة مع اليهود إثر مقدمه المدينة، كما عقد معاهدة الحديبية مع كفار قريش إيثارا للسلم ورغبة في الصلح.

من هنا كان في تقييد إعداد المستطاع من القوة بقصد إرهاب الأعداء المجاهرين والمستخفين دليل على تفضيل جعله سبباً لمنع الحرب على جعله سبباً لإيقاد نارها، وهذا عين ما يسمى في عرف دول هذه الأيام بالسلم المسلح، بناء على أن الضعف يغري الأقوياء بالتعدي على الضعفاء، ويؤيد ذلك ورود آية الجنوح إلى السلم بعد آية إعداد المستطاع من القوة^(١).

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

سابعاً: أهم مقصد مصلحة الدعوة:

مصلحة الدعوة أهم مقصد في الإسلام وليس هناك اختلاف بين مدلول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنْخَسْتُهُمْ فَشُدُّوا لَوْلَاكَ فِيمَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَارَهَا﴾ ومدلول الآية التي عاتب الله فيها الرسول ﷺ والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر والتقتيل كان أولى.

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ آسْرَى حَتَّى يُنْخَسَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كَتَبْنَا مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ لأن الإنحان يكون أولاً لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته، وبعد ذلك يكون الأسر.

= وفتح الباري لابن حجر ٨ / ٩.

(١) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٠ / ٦٦.

والحكمة ظاهرة، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال، وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة، وكانت الكثرة للمشركين وكان قتل محارب يساوي شيئاً كبيراً في ميزان القوى حينذاك، والحكم ما يزال سارياً في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو وتعجيزه.

ثامناً: تحديد الحكم في الأسرى:

الحكم في الأسرى تحدده آية سورة محمد ﷺ فهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى، فإما أن يطلق سراحهم بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين، وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين، وليس في الآية حالة ثالثة كالاسترقاق أو القتل.

قال الألوسي: «وظاهر الآية على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم امتناع القتل بعد الأسر وبه قال الحسن»^(١).

وقال الحسن وعطاء: التخيير بين المن والفداء فقط دون قتل الأسير، فقتل الأسير يكون محظوراً، وظاهر هذه الآية يعضد ما ذهب إليه الحسن وعطاء كما قال ابن عاشور^(٢).

ولكن الذي حدث فعلاً أن رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى وقتلوا بعضهم، كما قتل عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتب شيئاً فلما ظهر على خيانتته وكتبانته قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل، وقال: "اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة"^(٣).

(١) روح المعاني للألوسي ٤٠ / ٢٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٣ - ٣٢٨٤، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرک ٢ / ٦٢

(٢٣٢٩) قال الهيثمي: ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ١٦٨ - ١٦٩.

وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر، فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء دعوته، وكذلك أبو عزة الشاعر، وأمر بقتل بن خطل لأنه كان مسلماً فبعثه ﷺ مصدقاً، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه، وكان مسلماً، فنزل منزلاً، فأمر المولى أن يذبح تيساً ويصنع له طعاماً، فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكانت له قيتتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وهكذا نجد في جميع الحالات أسباباً معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية بالمن أو الفداء^(١).

والخلاصة أن هذا النص القرآني هو الوحيد الذي يتضمن حكم الأسرى، وأنه هو الأصل الدائم للمسألة، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر، وما وقع بالفعل خارجاً عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية.

ولهذا لما أتى الحجاج بن يوسف بأسارى فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً ليقتله، قال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا، قال الله عز وجل: ﴿ حَقٌّ إِذَا أَنْتُمْ مُمْرَرُونَ فُشِدُوا الْوَيْثَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً ﴾^(٢).

ويكفي ما ثبت في صحيح البخاري من قوله ﷺ في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء التني لتركتهم له»^(٣).

لأن الإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعاً لمكان العصمة وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه لا ينفي جوازه شرعاً^(٤).

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٤ / ٦٠ - ٦٢، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٤.

(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدر ٤ / ١٤٧٥ (٣٧٩٩).

(٤) انظر: روح المعاني للآلوسي ٢٦ / ٤١.

تاسعا: تحديد الموقف من الرق:

الاسترقاق كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة، وتقاليد في الحرب عامة، ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام ﴿ فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسروهم من المسلمين.

ومن ثم طبقه الرسول ﷺ في بعض الحالات، فأطلق بعض الأسارى منا، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين، وفادى بعضهم بالمال، وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء، فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي ﴿ فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق، فليس الاسترقاق حتمياً، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام^(١).

عاشرا: الإعلام سلاح نافذ:

الإعلام سلاح نافذ التأثير ولذلك يجب أن تكون للمسلمين آلة إعلامية تتبنى خطاباً مضاداً للحملات التي يشنها أعداؤهم للنيل من إرادتهم وتوهين عزيمتهم.

وهذا ما أفهمه من قول قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد فشلت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: اعل هبل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، وقال المشركون: يوم بيوم بدر والحرب سجال، فقال النبي ﷺ: «قولوا لا سواء، قتلنا أحياء عند ربهم يرزقون، وقتلناكم في النار يعذبون» فقال المشركون: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم^(٢).

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٤ / ١٠٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٩، وقد رواه الإمام

إن مجرد نزول الآية مع حرص الرسول ﷺ على الرد على خطاب المشركين الإعلامي بخطاب إعلامي آخر له أهداف وآثار تتجاوز المواجهة الآنية لآثار وأهداف الخطاب الإعلامي للمشركين إلى بناء منظومة إعلامية مهمتها الحفاظ على اعتزاز الأمة بهويتها، وزيادة ارتباطها بالله تعالى وبوحيه، ومواجهة الرسائل الإعلامية المضادة من موقع المهاجم لا المدافع.

المقطع الثاني

سنة الله التي لا تتبدل في المؤمنين والكافرين

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَأْضَلُ ءَعْمَلُهُمْ ۗ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ءَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ ءَعْمَلَهُمْ ۗ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ءَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ ءَمْتَلُهَا ۗ ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۗ ۝١١ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ءَأَنْهَارٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ءَأَنْعَامٌ ءَالنَّارِ مَثْوًى لَهُمْ ۗ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيِكَ ءَأَلَّتِي أَخْرَجْنَاكَ ءَأَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۗ ۝١٣ أَفَن كَانَ عَلَىٰ بِيْنَتٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ءَوَ تَبْعُوا ءَأَهْوَاءَهُمْ ۗ ۝١٤ مَثَلُ الْجَنَّةِ ءَأَلَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَأَسِينِ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَدِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۗ ۝١٥ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

بعد أن عرف في المقطع السابق بطرفي الصراع وحث الطرف المؤمن على قتال الكفار يجرى المؤمنين هنا على نصرته عموماً إن أرادوا منه النصر والتثبيت لأنفسهم، والتعس والضلال للكافرين، فتلك هي سنته التي لا تتبدل في الدنيا حسب الشواهد التي يمكن معاينتها بالسير

أحمد في مسنده ١ / ٤٦٣، قال الهيثمي: وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

في الأرض للنظر في عواقب السابقين.

ولن يقف التمايز بين الطرفين عند حد هذه الحياة، ولكنه سيمتد إلى الآخرة حيث الفارق الأصيل بين متاع المؤمنين ومتاع الكافرين.

فمتاع المؤمنين كريم علوي رفيع؛ لأنهم يتلقونه من يد الله عز وجل، بينما عاقبة الكافرين العذاب في عالم الخلود مع أن حظهم من الحياة الدنيا لم يزد على حظ الأنعام.

التفسير الإجمالي:

هذا المقطع نص صريح الدلالة على أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم وثبت أقدامهم أي عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد افتتح تحريض المؤمنين على نصره بندائهم بصلة الإيمان اهتماماً بالكلام وإيحاء إلى أن الإيمان يقتضي منهم ذلك، ويقصد بنصره عز وجل: نصرهم لدينه وكتاباه وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا وأن تقام حدوده، وتمثل أوامره وتجتنب نواهيه^(١).

أما نصره تعالى لمن نصره فيكون بخلق القوة والجرأة فيه، وتثبيت الأقدام على الإسلام وفي موطن الحرب وعقب النصر.

فتأخير تثبيت الأقدام عن النصر يوحي بأن المقصود معنى التثبيت على النصر وتكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، لأن كثيراً من الناس يثبت على المحنة والبلاء ولا يثبت على النصر والنعماء^(٢).

و لأن الكافرين كرهوا ما أنزل الله تعالى من قرآن وشريعة ومنهج كان الحزن والشقاء والهلاك والحياة حقا لهم عنده تعالى وفق سنته التي لا تتبدل، وفي ذلك تقوية لقلوب المؤمنين

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٣٢، وفي ظلال

القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٩.

حتى لا يتوهم أحد منهم أن الكافر أيضا يثبت فيدوم القتال، وفي ذلك مشقة عظيمة^(١).
وسنة الله تعالى في الكافرين لها آثار دمار وخراب واضحة لمن سار في الأرض ونظر في
أحوال السابقين، وهي سنة مرتبطة بقانون قائم يرتاع منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع
في كل زمان ومكان.

هذا القانون هو ﴿وَالْكَافِرِينَ أَهْمًا﴾ وقد وقع ذلك لأول من خوطبوا بهذا القانون، حيث
استأصل صناديدهم يوم بدر ويوم حنين بالسيف، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم،
وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه
وهو نصر الرسول ﷺ بل جعل الله تعالى ما نصر به رسوله ﷺ أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي
المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو^(٢).

وهذا الفارق بين عاقبة طرفي الصراع محكوم بقاعدة أصيلة دائمة، وهي أن الله تعالى مولى
الذين آمنوا أي وليهم وناصرهم، أما الكافرون فلا مولى لهم^(٣).

ولذلك يدخل سبحانه المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، بينما الكافرون يتقلبون في
النار، لأنهم كانوا يأكلون في الدنيا أكلا مجردا من الفكر والنظر، غافلين عن عواقبهم ومنتهى

(١) أكثر الأقوال في معنى تعسا ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك، وقال في حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد
لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حق الكافرين بصيغة الدعاء وهي أبلغ من صيغة الإخبار من
الله. انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٣٢ -
٢٣٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٤.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٤، والتحرير والتنوير
للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨٨.

يقال دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك ما يختص به، فدمر عليه أبلغ من دمره، وجاءت المبالغة من حذف
المفعول وجعله نسيا منسيا بكلمة الاستعلاء لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه. انظر:
روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٥.

(٣) وفي قراءة ابن مسعود «ولي الذين آمنوا» انظر: الكشاف للزنجشري ٤ / ٣٢٢.

أمورهم، فمثلهم مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١).

وتعترض سلسلة الموازنات بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين لفتة إلى القرية التي أخرجت الرسول وموازنة بينها وبين القرى الهالكة مع أنها كانت أشد قوة منها.

وقوله تعالى ﴿فَلَا فَاصِرَ لَهُمْ﴾ بيان لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، وهذا تعريض بتأييس المشركين من إلقاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين قطعاً لما قد يخالج نفوسهم أنهم لا يغلبون لتظاهر غيرهم معهم^(٢).

ثم يشير سبحانه إلى علة هذا التمايز الواضح بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، وهي أن المؤمنين كانوا على بينة من ربهم^(٣).

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٤٧، والتفسير الكبير للفيخر الرازي ٢٨ / ٤٥، والمحرم الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٦، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد ٥ / ٢٠٦١ (٥٠٧٨).

وقد اختلف في معناه، فقيل: ليس المراد به ظاهره وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا والكافر وحرصه عليها، فكأن المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معي واحد والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، وقيل: المعنى أن المؤمن يأكل الحلال والكافر يأكل الحرام، وقيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرتة صفة الكافر، وحقيقة العدد ليست مرادة، فتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، ولا يلزم اطراد هذا في كل مؤمن وكافر. انظر: فتح الباري لابن حجر ٩ / ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩١.

(٣) البينة هي القرآن أو الدين أو البصيرة واليقين والحجة، والذي على بينة من ربه هو الرسول أو المؤمن عموماً، والأولى حمل اللفظ على العموم لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر، لأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه.

ومعنى وصف البينة بأنها من الله تعالى: أنه أرشدهم إليها وحرك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجة حجة في نفسها، وكونها من عند الله تركية لها وكشف للتردد فيها وإتمام لدلالاتها، كما يظهر الفرق بين =

أما الكافرون فزين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم، ثم يعرض صورة أخرى من صور التمايز بين المؤمنين والكافرين في المصير بعد الصورة السابقة في الفرق بين الجانبين في الاهتداء والضلال.

فكل من اتقى الشرك، وعمل الصالحات واجتنب السيئات له في الجنة أنهار من ماء ولبن غير متغير ولا فاسد، وأنهار من خمر لذيفة لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وأنهار من عسل لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها^(١).

وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينقصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها^(٢).

= أخذ العلم عن متضلع فيه وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيباً، وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق، فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأن الله يسر لهم أسبابه، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق وأنهم صائرون إلى إحدى الحسينين فقويت شجاعتهم، وإن سالموا عنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الأمة والدين فلم يألوا جهداً في حسن أعمالهم، وذلك من آثار أن الله تعالى أصلح بالهم وهداهم. انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٠، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٥ / ١٩١، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٣.

(١) عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: "إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد" أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة ٤ / ٦٩٩ (٢٥٧١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٥، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٤، ومعالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٢.

وإطلاق الأنهار على أنهار الماء حقيقة، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي ماثلة للأنهار، فيجوز أن تكون الماثلة تامة في أنها كالأنهار مستبحرة في أخايد من أرض الجنة فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج، ويجوز أن تكون ماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٦.

ولهم فيها مع ذلك كله أصناف من جميع أجناس الثمرات مما علموه في الدنيا ومما لم يعلموه، بالإضافة إلى تجاوز ربهم عنهم، فلهم أن يعملوا ما شاءوا بلا تكليف عليهم على نحو معنى قوله ﷺ: «لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١) وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم، بينما الكافرون محرومون من هذا الرضوان ومن جميع ما ذكر من المشروبات، وليسوا بذائقين إلا السخط والماء الحار الذي يقطع أمعاءهم^(٢).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: تكاليف النصر:

نصر الله عز وجل ليس هبة تمنح دون مقابل، بل لابد من تقديم تكاليف هذا النصر والتي تتمثل في نصره دينه تعالى وكتابه، والسعي في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده، وتمثل أوامره وتجتنب نواهيه.

وهذا المعنى واضح في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَلْيَنْصُرِكُ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وقد أشار ابن القيم إلى هذه الحقيقة في تعليقه على قول الله عز وجل في سورة النساء:

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ٤ / ١٩٤١ (٢٤٩٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٧.

عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿وَسَمِعْنَا مِنْ مَاءٍ صَكِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ قال: "يقرب إليه فيتكبره، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز وجل ﴿وَشَقُوا مَاءَ جِيمًا فَفَطَعُ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلِنْ يَسْتَفِيثُوا يُعَاثُوا مَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. أخرجه الحاكم في مستدرکه ٢ / ٤٩٦ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حيث قال: «انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فال مؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً»^(١).

ولذلك عهد عمر بن عبدالعزيز إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة وأبلغ المكيدة وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم^(٢).

ثانياً: التنوع في مجال الوعظ:

ينبغي أن نستفيد في مجال الدعوة إلى الله تعالى من النسق القرآني الذي ينوع في مجال الوعظ، حيث يتم الانتقال من أجواء عقاب الكافرين في الدنيا إلى أجواء عذابهم في الآخرة، ثم يعود مرة ثانية إلى صور العقاب الدنيوي بحيث تجذب الطبائع المختلفة ما يشدها إلى الإيمان ويخلعها من الكفر.

إن الإطناب في الوعيد مطلوب لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب مراعاة لطبيعة المنحرفين، فمفاد آية ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣﴾ مؤكد لمفاد آية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝١٠﴾ فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات

(١) انظر: إغاثة اللفهان لابن القيم ٢ / ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٥ / ٣٠٣.

القرى والمدن بعد أن شمل قوله ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من كان من أهل القرى.

وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هين على الله عز وجل، فإنه لما كان التهديد السابق تهديداً بعداب السيف من قوله ﴿فَإِذَا لَقِيْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ قد يلقي في نفوسهم غروراً بسبب المنعة التي تتمتع بها قريتهم مكة بسبب تظاهر قبائل العرب معها، أعلمهم الله تعالى أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم أهلكتهم الله فلم يجدوا نصيراً^(١).

ولا يقف الأمر عند حد التنوع في مجال الترهيب فقط بل لا بد من الترغيب مع الترهيب لأن الرجاء والخوف يختلطان بالكيان البشري ويصوغان أفكار الإنسان ومشاعره، وبالتالي أهدافه وسلوكه، فعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو، وعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف تتحد الأهداف ويصاغ منهج الحياة.

ومن هنا ذكرت السورة إلى جانب الترهيب بعاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة الترغيب ببيان عاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة.

الثالث: لكل مقام مقال:

لكل مقام مقال ولذلك يجب أن نتخير الظرف الملائم والخطاب المناسب في التخفيف عن كل من يتعرض للابتلاء على طريق الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا واضح من نزول آية ﴿وَكَايِنٍ مِنْ قَرِيْبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ أَلْقَى أَخْرَجَكَ أَهْلَكَ كُنْتُمْ فَلَا تَأْصِرْ لَهُمْ ۝١٣﴾ في أثناء رحلة الخروج والهجرة، تسلياً للرسول ﷺ وتسرية عنه، وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا في وجه الدعوة، وأدوا أصحابها، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم^(٢).

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩١.

(٢) انظر: الدر المشور للسيوطي ٧ / ٤٦٣.

ولو أننا تتبعنا معظم الآيات التي نزلت في وعد المؤمنين بالنصر وبيان عاقبة السوء التي تنتظر الكافرين لوجدنا أنها قد تنزلت في مناسبات تعرض فيها الرسول ﷺ والمؤمنون للون من ألوان الأذى أو الاضطهاد أو حتى توهم الانكسار.

ومن أوضح الشواهد على ذلك كل آيات سورة آل عمران التي تنزلت للتعقيب على أحداث غزوة أحد، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَزَعٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَزَعٌ مِثْلُهُ. وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَيَمْحَقُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقُ الْكُفْرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبًا مُوجِبًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

رابعا: سلاح الإعلام باق في كل الأحوال:

يجب أن تبقى للمسلمين حملاتهم الإعلامية حتى بعد أن يتحقق النصر ؛ لأن هذا يقوي صفهم ويخلخل نفوس خصومهم.

وهذا واضح من المقابلة بين المبدأ الذي عليه المؤمنون والمبدأ الذي عليه الكافرون في ثنايا الحديث عن تحقق النصر للمؤمنين في الدنيا والفوز بالنعيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُوِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾.

والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه، والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين، فقوله ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ فرق فارق وقوله ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله عز وجل تكون أقوى وأظهر، فتكون أعلى وأبهر، وكذلك قوله عز وجل ﴿كَمْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فرق فارق وقوله ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(١).

المقطع الثالث

التعريف بالمنافقين والموازنة بينهم وبين المؤمنين

﴿ وَمَنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ ۗ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۗ ۝١٨ ۗ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۗ ۝١٩ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۗ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ ۗ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۗ ۝٢٤ إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَأَ لَهُمْ ۗ ۝٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۗ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ ۗ ۝٢٧ ذَلِكَ

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٦.

يَأْتُهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَتَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْبَتْنَكُمْ فَلَعَفَنَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴿

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق :

لما بين الله تعالى في المقطعين السابقين حال الكافر وعاقبته موازنة بحال المؤمن وعاقبته ذكر هنا حال المنافق وعاقبته، ووازنها بحال المؤمن وعاقبته، فهذه الجولة مع المنافقين وموقفهم إزاء شخص رسول الله ﷺ وإزاء القرآن الكريم، ثم موقفهم من قضية الجهاد ومن اليهود وتأميرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين.

فذكر المنافقين هنا باعتبار أنهم فرقة من الكافرين الذين دار الحديث عنهم قبل ذلك، أو باعتبار أنهم - في الظاهر - طائفة من المسلمين الذين دار الحديث عنهم في الآيات السابقة حيث إنهم متظاهرون بالإسلام معهم، وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم حسب المنهج الإسلامي في معاملة الناس.

التفسير الإجمالي :

حركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود في مكة، لأن المسلمين فيها كانوا في موقف المضطهد الذي لا يحتاج أحد أن ينافقه، فلما أعزهم الله تعالى اضطر ناس ممن كرهوا الإسلام إلى التظاهر بالإيمان وهم يضمرون الحقد والبغضاء ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية واقتصادية وتنظيمية مع كراهيتهم للإسلام وأتباعه مشجعا للمنافقين على التحالف معهم.

وقد كان هؤلاء يستمعون إلى خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة أو قوله على عموم الأوقات

استماعاً بالغاً جيداً؛ لأنهم يستمعون ثم يستعيدون بعد خروجهم من علماء الصحابة^(١) استهزاء بما سمعوه كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أو لأنهم لا يفهمون بسبب طبع الله تعالى على قلوبهم، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ ومنهم من كان يقول ذلك جهالة ونسياناً؛ لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه وفي كفره، فكان القول يمر صفحا، فإذا خرج قال: ماذا قال آنفا، أي الساعة الماضية القريبة منا، ويضاف إلى ذلك أنهم اتبعوا أهواءهم أي فلا فهم صحيح ولا قصد قويم^(٢).

وفي مقابل نهج المنافق نرى المؤمن المهتدي يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم؛ ولهذا يؤتبه الله عز وجل ثواب تقواه أو توفيق العمل، وهذا يقطع عذر المنافقين ويبين كونهم مذمومي الطريقة، فإنهم لو قالوا: ما فهمنا قول الرسول ﷺ لغموضه وكونه معمى؛ يرد عليهم بأن الأمر ليس كما تزعمون، بدليل أن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه وازدادوا بما سمعوه هدى فذلك منكم أيها المنافقون لعلماء القلوب لا لخفاء المطلوب^(٣).

ولذلك لا يتوقع منهم الإيذان إلا عند قيام الساعة رغم أن علاماتها قد اتضحت، مما استدعى أن يهزم هزة في غاية القوة ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ ذِكْرُهُمْ ﴾.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيذان، والمعنى فأنى لهم الخلاص أو النجاة إذ جاءهم الذكرى بما كانوا يكذبون به في الدنيا وجاءهم العذاب مع ذلك، أو فأنى

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس رضي الله عنهما: ماذا قال آنفا؟ فيقول: كذا وكذا. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٤٦٦ / ٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٠١، وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٥، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٥١ / ٢٨، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥١

لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة، وفيه حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذکر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذکر حينئذ كقوله عز وجل في سورة الفجر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم^(١).

ويوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ومن معه ليثبتوا على طريق العلم بحقيقة التوحيد التي يقوم عليها أمر الدين، ويستغفروا لذنوبهم استغفاراً ينبئ عن الشعور برقابة الله عز وجل وعلمه الشامل المحيط بهم في كل متقلب وفي كل إقامة، بحيث لا تشغلهم عن هذا النهج أية شواغل^(٢).

ويعرض تطلع المؤمنين وشوقهم إلى سورة من القرآن لتفصل في قضية من قضايا القتال كانت تشغل بالهم، فإذا أنزلت سورة فاصلة بينة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال ولا يرد عليها النسخ إذا بمن ملاً النفاق والشك قلوبهم يفقدون تماسكهم، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف بنظرهم إلى الرسول ﷺ نظر المعشبي عليه من الموت^(٣).

وكان الأجدر بهم أن يستسلموا لأمر الله عز وجل عن طمأنينة، ويقولوا قولاً ينبئ عن نظافة الحس واستقامة القلب وطهارة الضمير، وأن يصدقوا ويخلصوا إذا جد الجديقاتلوا بنية الجهاد، لأنهم لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا خير العزة والكرامة وفي الآخرة خير الجنة، ويمكن أن يكون فأولى لهم مستعملاً في التهديد والوعيد كما في قوله

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٦، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٧، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٢٥٥.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٦.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٥.

وإنما قال وذكر فيها القتال؛ لأن السورة الكريمة ليست كلها متمحضة لذكر القتال، فإن سور القرآن ذوات أغراض شتى، قال قتادة: كل سورة أنزل فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٩٦.

تعالى في سورة القيامة: ﴿أُولَٰئِكَ لَٰك فَاوْكَأٰتٍ ۝٣٤﴾ وهو ما اقتصر عليه الزمخشري^(١).

وهل يتوقع من هؤلاء وأمثالهم من المعرضين عن الإسلام إلا أن يفسدوا في الأرض بأن يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض فتقطع الأواصر والأرحام، أو إن تولوا الحكم في بلد من البلاد إلا أن يفسدوا فيها بالجور والظلم فتحل عليهم لعنة الله تعالى فإذا هم صم الآذان، عمي الأعين والأبصار^(٢).

وليتهم يدركون هذه الحقيقة فيقبلوا على علاج أدوائهم بالتدبر والتفهم في آيات القرآن الكريم، فهذا التدبر وحده هو الذي يزيل غشاوة الأبصار، ويفتح نوافذ الآذان، ويسكب النور في القلب، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، لكن قلوب هؤلاء المنافقين مقللة لا يتوصل إليها ذكر من الله عز وجل.

عن خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما فذلك قوله ﴿أَمْ عَلٰٓى قُلُوْبٍ أَقْفَالٌهَا ۝٣٥﴾^(٣).

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٥، والكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١١٠ - ١١١.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٧، وفتح الباري لابن حجر ٨ / ٥٨١. وفي قوله ﴿فَأَصْمَمُوْهُ وَأَعَمَّوْهُ أَبْصَرُوْهُمُ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم وقال وأعمى أبصارهم ولم يقل أعماهم وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والآذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام، فقال أصمهم من غير ذكر الآذن وقال أعمى أبصارهم مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدراً لما جمع، فلم يذكر الآذن إذ لا مدخل لها في الإصمام والعين لها مدخل في الرؤية، بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الآذن سهاها وقرأ، كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿كَأَنَّ فِيَّ أذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ والوقر دون الصم وكذلك الطرش. انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٦.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٥٧.

فأم في ﴿أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بمعنى بل، وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بذلك، وقال على قلوب لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة، والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها^(١).

وبسبب هذه الأقفال ارتد قوم على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وهم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ومعرفة بالعلامات الموجودة في كتبهم، فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١٨) وقال بعض العلماء نزلت الآية المذكورة في المنافقين، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر^(٢).

وقد سول الشيطان لهم هذه الردة أي سهلها وزينها وحسنها لهم، كما مناهم بطول الأعمار، لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي، كما قال الله عز وجل في سورة النساء: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوًا﴾^(١٣) ويمكن أن يرجع ضمير الفاعل في وأمل لهم إلى الله تعالى، والمعنى: الشيطان سول لهم، والله جل وعلا أمل لهم أي أمهلهم إمهال استدراج^(٣).

(١) انظر الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٨، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٧٩.

(٣) انظر: المحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٠.

والتسويل: تسهيل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضرر، وتزيين ما ليس بحسن، والإملاء: المد =

وقد نتج التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر من قولهم للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، والله عز وجل مطلع على سرائرهم، ولذلك يفضح سرهم ويسلط عليهم الملائكة عند الموت يضربون وجوههم وأدبارهم.

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وسبب كل هذا البلاء أنهم اتبعوا ما أغضب الله تعالى من الكفر به وطاعة الكفار الكارهين لما نزله، ولما كان اتباع ما أسخطه تعالى مقتضياً للتوجه ناسب ضرب الوجه، وكرهه رضوانه سبحانه مقتضياً للأعراض ناسب ضرب الدبر، ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر وأضاف إلى ذلك إحباط أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لاتنفعوا بها^(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: كل يأخذ من القرآن:

القرآن الكريم يعطي لكل إنسان بحسب استعداده، فالؤمن المهتدي يستمع إليه فيفهم آياته ويعمل بها فيزداد إيماناً مع إيمانه، بينما يزداد الذين في قلوبهم مرض بنفس الآيات كفرةً وعصياناً.

= والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيراً. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٦ / ٢٦.

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٥٩ / ٢٨، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠٠، وروح المعاني للألوسي ٧٦ / ٢٦.

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً مِنْهُمْ مِنْ يَقُولُ آيَاتِكُمْ زَادَتْهُ هُدًى وَإِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكُونَ فِي كُلِّ عَاوِ مَرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع^(١).

وقرأ الحسن قول الله تعالى في سورة ص: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ فقال: وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، فما يرى له القرآن في خلق ولا عمل^(٢).

فتدبر القرآن وتفهمه والعمل به أمر لا بد منه لكل من له قدرة على ذلك، لأن الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

ولو أن القرآن لا يجوز أن يتفح بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به ليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً، ومن المعلوم أيضاً أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حث

(١) صحيح مسلم ١ / ٥٦٣.

(٢) انظر: فهم القرآن للحارث المحاسبي ص ٢٧٥.

جميع الناس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصى^(١).

ثانيا: علم الساعة عند الله:

ليس هناك دليل يخول للبعض حسم القول في المتبقي من عمر الدنيا، وكل ما يمكن قوله أن أمارات الساعة وعلاماتها قد اتضحت، ومنها بعثة نبينا محمد ﷺ فقد قال: «عثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى»^(٢).

وقال ﷺ: « إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج »^(٣) وقال ﷺ: « والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وحتى يخون الأمين ويؤتمن الخائن »^(٤).

وأشراط الساعة منها صغار، وقد مضى أكثرها، ومنها كبار ستأتي، وهي التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم، ومنها الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها كالحامل المتم، ونزول عيسى بن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح التي تهب بعد موت عيسى فتقبض أرواح المؤمنين^(٥).

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ٥ / ٢٣٨٥ (٦١٣٨) - ٦١٤٠) ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢ / ٥٩٢ (٨٦٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ظهور الفتن ٦ / ٢٥٩٠ (٦٦٥٣ - ٦٦٥٦) ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤ / ٢٠٥٦ (٢٦٧٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤ / ٥٥٨ (٨٥٦٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٣ / ٨٥، ونص الحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذاكرون ؟ " قالوا: نذكر الساعة، قال: " إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف بالخسوف بالشرق وخسوف بالمغرب وخسوف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ". أخرجه مسلم في، باب في الآيات التي تكون قبل =

ومن وقف على الكتب المؤلفة في هذا الشأن وأطلع على أحوال الأزمان رأي أن أكثر علامات الساعة قد برزت للعيان، وامتألت منها البلدان، ومع هذا فأمرها مجهول، ورداء الحفاء عليه مسدول، وقصارى ما يمكن قوله: أن ما بقي من عمر الدنيا أقل قليل بالنسبة إلى ما مضى^(١).

ثالثاً: العلم أساس العمل والإقرار بالإيمان كاف:

قول الله تعالى ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ دليل على وجوب تقدم العلم على العمل، ولهذا بوب البخاري رحمه الله العلم قبل القول والعمل استناداً إلى هذه الآية الكريمة^(٢).

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذان بمزيد شرفه؛ فإنه أساس الطاعات ونبراس العبادات، ومن اعتقد جازماً بحقائق الإيمان فقد صح إيمانه من غير إثم، لحصول المقصود، بدليل اكتفاء النبي ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من العوام بمجرد الإقرار بلا إله إلا الله محمد رسول الله الدال بحسب ظاهر حالهم على أنهم يعتقدون مضمون ذلك ويدعون له، ولو كان الاستدلال فرضاً لأمروا به بعد النطق بالكلمتين، أو علموا الدليل ولقنوه، ولو وقع ذلك لنقل إلينا، فإنه من أهم مهمات الدين، ولم ينقل أنهم أمروا أحدا منهم أسلم بترديد نظر، ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر، فلو كان النظر واجباً على الأعيان ولو إجمالياً لما اكتفى النبي ﷺ من أولئك العوام والأجلاف بمجرد الإقرار لأنه وأصحابه لا يقرون أحداً على ترك فرض العين من غير عذر، فلا يكون تاركة آثماً فضلاً عن أن يكون بتركة غير صحيح الإيمان بل قد يقال إن ظاهر كثير من الآيات والأخبار يدل على أن كثيراً من المشركين في عهده ﷺ لم يكونوا عالمين بأدلة التوحيد مطلقاً^(٣).

= الساعة ٤ / ٢٢٢٥ (٢٩٠١)

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٥٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري ١ / ٣٧.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٦٢.

رابعاً: عصمة الرسول ﷺ من الذنوب والآثام:

عصمة الرسول ﷺ من الذنوب والآثام حق لا ريب فيه، ويقصد بذنبه في ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإرشاداً له ﷺ إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل، وقيل: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك من الذنوب، وقد ذكروا أن لبنينا ﷺ في كل لحظة عروجاً إلى مقام أعلى مما كان فيه، فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنباً بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه، وفي هذه الآية لطيفة وهي أنه ﷺ له أحوال ثلاثة: حال مع الله، وحال مع نفسه، وحال مع غيره، فأما مع الله وحده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك^(١) واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم^(٢).

خامساً: اهتمام المؤمن بأمر أخيه:

في قوله ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على وجوب الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

(١) في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يدعو اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطاياي وعمدي وكل ذلك عندي. أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت / ٥ / ٢٣٥٠ (٦٠٣٦). وفي الصحيح أيضاً أنه كان يقول في آخر الصلاة: " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير " أخرجه البخاري في الدعوات باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت / ٥ / ٢٣٥٠ (٦٠٣٥). وفي الحديث " أني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة " أخرجه الحاكم في المستدرک ٢ / ٤٩٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٦، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٢، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٥٥.

وهذا الوجوب يحمل في طياته دلالة على مزيد اهتمام المؤمن بأمر أخيه الديني والديني في الحديث: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"^(١).

سادسا: لا تتعجل قدر الله تعالى:

لا ينبغي للإنسان أن يتعجل شيئا لم يحققه الله تعالى، بل عليه أن يسأله سبحانه أن يرضيه بقضائه، وأن يبارك له في قدره حتى لا يحب تعجيل ما أخر ولا تأخير ما عجل.

وقد بين الله عز وجل أن المؤمنين تمنوا في وقت من الأوقات أن يشرع لهم الجهاد فلما فرضه وأمر به نكل عنه كثير من الناس.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿الرَّحَرَّ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيَّدِيكُمْ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

وفي سورة محمد قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ﴿٢٠﴾﴾.

سابعا: الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد:

الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد؛ لأنه دين التوحيد والبر والصلة والصلاح فعن عمرو بن عبسة قال أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» قلت: وما النبي؟ قال: «رسول الله» قلت: بم أرسلك؟ قال:

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤ / ١٩٩٩ (٢٥٨٦).

«بأن يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام بالبر والصلة»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم^(٢): هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك، قال رسول الله ﷺ اقرأوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾»^(٣).

والرحم على وجهين: عامة وخاصة؛ فالعامة رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم والنصيحة وترك مضارهم والعدل بينهم والنصفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى وحقوق الموتى، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم، وأما الرحم الخاصة فهي القرابة من طرق الرجل أبيه وأمه، فنجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة كالنفقة وتفقد أحوالهم وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضرورتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة حتى إذا تزاممت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب^(٤).

ثامنا: لا يجوز لعن المعين:

الجمهور على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقاً كان أو ذمياً حياً أو ميتاً ولم يعلم موته على الكفر؛ لاحتمال أن يختم له بالإسلام، بخلاف من علم موته على الكفر كفرعون وأبي جهل^(٥).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤ / ١٦٥ (٧٢٤٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) يحتمل أن يكون كلام الرحم على سبيل الحقيقة؛ لأن الأعراس يجوز أن تتجسد وتتكلم بإذن الله تعالى، ويجوز أن يكون على حذف، أي قام ملك فتكلم على لسانها، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها وبيان فضل واصلها وإثم قاطعها. انظر: فتح الباري لابن حجر ٥٨٠ / ٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من وصل من وصله الله ٥ / ٢٢٣٢ (٥٦٤١).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٥) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٢.

ثم إن اللعن في حق غير المعين زجر عن تعاطي الفعل الذي لعن بسببه، وفي حق المعين أدى له وسب، وقد ثبت النهي عن أدى المسلم، فيجمع بين المصلحتين؛ لأن لعن المعين والدعاء عليه قد يحملة على التهادي أو يقنطه من قبول التوبة، بخلاف ما إذا صرف ذلك إلى المتصف فإن فيه زجراً وردعاً عن ارتكاب ذلك، وباعثاً لفاعله على الإقلاع عنه، قال الغزالي: وفي معنى اللعن الدعاء على الإنسان بالسوء حتى على الظالم مثل لا أصح الله جسمه، وكل ذلك مذموم والأولى حمل كلام الغزالي على الأول^(١).

تاسعاً: أمر الإنسان بيده:

مفتاح سلطان الشيطان على الإنسان بيد الإنسان نفسه، فإذا أقفل قلبه أمام الهدايا الربانية فتحت نوافذ هذا القلب للتسويات الشيطانية، ويبقى الإنسان مع ذلك ممسكاً بزمام الأمور، بحيث يكون في وسعه عدم الانصياع لهذه الوسوس إن بقيت بينه وبين وحي الله تعالى أدني صلة.

وهذا ما فهمته من مجيء الردة عن الهدى بعد الآية التي تستنكر عدم تدبر القرآن بسبب الأقفال التي على القلب، وبسبب اتباع ما يسخط الله تعالى.

ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

عاشراً: ردة صريحة:

كل من أطاع من كره ما نزل الله وعاونه وآزره في مقتضيات هذه الكراهية وفيما يترتب عليها مرتد عن الهدى كافر بالله إن لم تكن لديه شبهة جهل أو اضطرار.

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢ / ٧٦.

ولهذا قال الله تعالى فيمن كان كذلك ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُ الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ
وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ
﴿٢٨﴾

فالذي يطيع من كرهه ما نزل الله يكون كارها رضوانه تعالى ؛ لأن رضوانه ليس إلا في
العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه ؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع
كارهه فهو ككارهه^(١).

حادي عاشر: لكل مقام مقال:

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴾ يصربون وجوههم
وأستاهم ولكن الله سبحانه كريم يكنى^(٢).

فيجب أن نتأدب في مثل هذا ونكني عن قبيح الأسماء، ونستعمل المجاز والألفاظ التي
تحصل الغرض ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه.

وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَا
رِ الْرَفَثِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابِسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَابِسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بِنِسْوَتِهِنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ
الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوا بِهِ وَلَا تَكْفُونَ
فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿١٧٧﴾

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٣.

(٢) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره،
قال الألوسي: والكلام على الحقيقة عنده، ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك
إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٦.

وقوله في سورة النساء: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ سَبِّدَ آلَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا مَثْبُوتٌ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

وقوله في سورة البقرة: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَأَعْرَضُوا عَنِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٣٣٣﴾﴾.

فإن وجدت مصلحة راجحة وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك جاز استعمال صريح الاسم^(١).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما أتى معاوية بن مالك النبي ﷺ قال له: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت» قال: لا يا رسول الله، قال: «أنكتها» لا يكني، قال فعند ذلك أمر ﷺ برجمه^(٢).

وعند ابن حبان فقال رسول الله ﷺ له: «أنكتها» فقال: نعم، فقال: «هل غاب ذلك منك فيها كما يغيب المروءة في المكحلة والرشاء في البئر؟» فقال: نعم، فقال: «فهل تدري ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: «فما تريد بهذا القول» قال: أريد أن تطهرني، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرحم فرجم^(٣).

وإنما ذكر ﷺ هذا اللفظ صريحاً بعد ذكر الجماع؛ لأن الجماع قد يحمل على مجرد الاجتماع فلم يكتف بإقرار المقر بالزنا، بل استفهمه بلفظ لا أصرح منه في المطلوب، وهو لفظ النيك الذي كان ﷺ يتحاشى عن التكلم به في جميع حالاته، ولم يسمع منه إلا في هذا الموطن، ثم لم

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المحارِبين، هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ٦ / ٢٥٠٢ (٦٤٣٨)

(٣) صحيح ابن حبان ١٠ / ٢٤٥ (٤٣٩٩).

يكتف **ﷺ** بذلك بل صورته تصويراً حسيّاً، ولا شك أن تصوير الشيء بأمر محسوس أبلغ في الاستفصال من تسميته بأصريح أسمائه وأدله عليه، فدل جميع ما ذكر على أنه يجب الاستفصال والتبين، وأنه يندب تلقين ما يسقط الحد، وأن الإقرار لا بد فيه من اللفظ الصريح الذي لا يجتمل غير الواقعة^(١).

المقطع الرابع

تهديد الضالين ودفع المؤمنين لتحمل تكاليف الإيمان

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلَنُعَرِّفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ بِأَخْبَارِكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَسَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ﴿٣٢﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْتَلِكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ بِهَا فَأَخْلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

لما بين في المقطع السابق حال المنافقين وعاقبتهم وموقفهم إزاء شخص رسول الله **ﷺ** وإزاء

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢/١٢٤، وسبل السلام للصنعاني ٧/٤، ونيل الأوطار للشوكاني

القرآن الكريم، ثم موقفهم من قضية الجهاد وتآمرهم مع اليهود توعددهم هنا بكشف أمرهم وإحباط أعمالهم مع أعمال الكافرين، وأمر المؤمنين بتحمل تكاليف الإيمان المتمثلة في الابتلاء بالجهاد والطاعة والصبر على طول الطريق ومكابدة الأعداء ومقاومة ضغط زينة الدنيا على النفوس، وهددهم إن هم تولوا بأن يأتي بقوم آخرين لا يكونون مثلهم في التفريط في هذه التكاليف.

التفسير الإجمالي :

بعد أن قدر الله تعالى أنه يعلم أسرار الكافرين والمنافقين استهجن تصورهم أنه لن يبرز أحقادهم وأمراضهم^(١) وبين أنه لو شاء لكشف لرسوله ﷺ عنهم بذواتهم وأشخاصهم أو بعلامة على وجوههم^(٢) ولكنه أخر ذلك لمحض المشيئة إبقاء عليهم وعلى قرباتهم، وإن كانوا قد عرفوا بلحن القول^(٣) وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أبي الجلد بن قيس وغيرهم ممن دونهم في الشهرة، ومع ذلك فإن لهجتهم، ونبرات صوتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم في الخطاب سيدل الرسول ﷺ على نفاقهم، فليعلم المنافقون أن الله تعالى محيط بأعمالهم، وليطمئن المؤمنون إلى علمه تعالى بأعمالهم التي يتميزون بها عن هؤلاء المنافقين، وبالتالي فلن يضيع ثوابهم عليها، فالآيات إذا فيها وعد ووعد^(٤).

(١) استعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة؛ لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي، والإخراج أطلق هنا على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة، لأن الإخراج استلال شيء من مكنه فاستعير للإعلام بخبر خفي. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١٢٠.

(٢) قال أنس: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٧.

(٣) قال الكلبي في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٣.

(٤) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٩ - ٣٣٠، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٠ - ١٢١، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٨.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه يكشف لهم بعض حقائق علمه، حيث يتليهم بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف التي تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها، بحيث يتعلق علمه بها في حالتها الظاهرة التي يراها الناس عليها، وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم^(١).

ويعود للحديث عن الكفار عامة ليصرح بأنهم أضال وأضعف من أن يضرروا دين الله أو منهجة أو يحدثوا حدثا في نواميسه وسننه، ولو قدروا على إيذاء بعض المسلمين، فإن هذا بلاء وقتي يقع بإذن الله لحكمة يريد بها، وسيحبط مكائدهم فلا يصلون بها إلى ما كانوا ييغون، ولا تثمر لهم إلا الخراب والدمار^(٢).

ويحذر المؤمن من هذا المصير، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حتى لا تبطل أعمالهم بالمعاصي والكبائر^(٣) أو النفاق والرياء والسمعة أو المن أو الردة^(٤) كما يوجههم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي؛ لأن الله معهم برعايته وحفظه وكلاءته، ولن ينقصهم شيئا من ثواب أعمالهم^(٥).

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٦٠ - ٦٢، ومعالم التنزيل لليضاوي ٥ / ١٩٦، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٤.
وأخبارهم التي يبلوها: قولهم آمنا، أو إخبارهم من عدم توليتهم الأديار عند اللقاء، أو أنه كانت للمؤمن أخبار صادقة مسموعة من النبي ﷺ وللمنافق أخبار أراجيف، فعند تحقق الإيخاف يتبين الصدق من الإرجاف.

(٢) انظر: المحزر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠١.

(٣) قال قتادة: من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا عمله بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها. انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٦٢.

(٤) ويدل على الردة قوله تعالى عقب ولا تبطلوا أعمالكم: ﴿لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣١).

(٥) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٢.

ويحذرهم من أن يحملهم حب لذائد العيش على الزهادة في مقابلة العدو^(١) لأن الحياة الدنيا ما هي إلا لعب وهو، واللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ولم يشتغل به الإنسان عن أشغاله المهمة، فإن شغله ودهشه عن مهاته فهو هو، فالمطلوب منهم هو الإيثار والتقوى إن رغبوا حقاً في أجر الله عز وجل^(٢).

والإيثار والتقوى لا يستلزمان إنفاق الأموال كلها في سبيل الله؛ لأنه عز وجل لا يسألكم ذلك بحيث يخل أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نذر يسير، كما أن نبيه ﷺ لا يسألكم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي، وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٣) وقيل: لا يسألكم أموالكم لنفسه أو لحاجة منه إليها، إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم، وقيل: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها^(٤).

ولو أنه سألكم أموالكم كلها لبخلتكم ولضاقت صدوركم لذلك وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، ودليل ذلك أنكم تدعون إلى الإنفاق في سبيله تعالى فمنكم

-
- (١) اختلف العلماء في قوله ﴿ فَلَا تَهْتَفُوا بِذَعْوَىٰ السَّلَافِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١) لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح، وقيل: إنها منسوخة بآية الأنفال، وقيل: هي محكمة والآيات نزلتا في وقتين مختلفي الحال، وقيل، إن قوله ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمُ ﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم والأخرى عامة فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجز المسلمون عن مقاومتهم لضعف في العدد أو العدة. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٦.
- (٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٦٤.
- ومعلوم أن في الحياة الدنيا ما ليس بلعب ولا هو وهو الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه، لكن الآية تتحدث عن واقع أغلب الناس في الأخذ من الدنيا.
- (٣) انظر: معالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٧، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠٢.

من يبخل، ومن يبخل فبخله عن نفسه ولا يتعداه ضرر بخله، لأن الله تعالى هو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكنه يدعوكم لحاجتكم وفقركم إلى الثواب، وإن لا تنهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإنه تعالى يجرمكم كرامة حملها، ويستبدل قوما غيركم يعرفون قدرها وينهضون بتكاليفها، وهو تهديد عنيف مخيف يعالج حالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي يمتلئ بها واقعهم، والتي يعجز القلم أحيانا عن تصويرها^(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: الابتلاء سنة ربانية:

سنة الله تعالى أن يختبر الناس بالضراء والسراء ليميز لهم بذلك صادقهم من كاذبهم وينكشف ما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٤٤) وفي سورة التوبة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١١) وفي سورة العنكبوت: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَأَمْنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ (٣).

وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٦٥ - ٦٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤١٤ - ٤١٧، والكشاف

للزخشي ٤ / ٣٣٢ - ٣٣٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٣.

فيحفكم أي يجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه إذا استأصله، قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. انظر:

الكشاف للزخشي ٤ / ٣٣٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٣.

عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة^(١).

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله عز وجل وامتحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته، فإذا أصابه بلاء صبر له واستسلم لمشيئة الله تعالى وهو واثق من حكمته، متطلع إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء.

وقد روي عن الفضيل بن عياض أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا^(٢).

ثانياً: قول القائل وفعله يدل على نيته:

أنزل الله تعالى سورة براءة، فبين فيها أقوال ومسالك وأفكار المنافقين ولهذا كانت تسمى الفاضحة.

وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين^(٣) ولكنه تعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمر على ظاهر السلامة، وردًا للسرائر إلى عالمها، وإبقاء على سنته تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنها سنة ناشئة عن الحكمة، فلما أراد سبحانه تكريم رسوله ﷺ بإطلاعه على دخائل المنافقين سلك في ذلك مسلك الرمز اكتفاءً بأن قول القائل وفعله يدل

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٤ - ٣٨٦.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣٠.

وفي الحديث الذي سبق تخريجه: « لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ».

(٣) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: " إن منكم منافقين فمن سميت فليقم " ثم قال: " قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان " حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً، ثم قال: " إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله " قال: فمر عمر رضي الله عنه برجل من سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: مالك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بعدا لك سائر اليوم. أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٢٧٣.

على نيته، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه^(١).

ثالثاً: الكبائر لا تبطل الأعمال الصالحة:

ليس هناك دليل على أن الكبائر تبطل الأعمال الصالحة، بل هما متعادلان بدليل قول الله عز وجل في سورة الزلزلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

ففي ذلك حجة بالغة على أن الكبائر لا تبطل صالحات الأعمال، فإن قصد من يقول إنها تبطلها أن عقاب الكبيرة قد يكبر حتى لا يعادله صغار الحسنات فهذا صحيح، وأما الكبيرة التي تحتص بذلك العمل كالعجب ونحو المن والأذى بعد التصديق فهي محبطة لا محالة اتفاقاً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٠﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ عَفِيفٌ حَلِيمٌ ﴿١١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾﴾ وعلى هذا القول يحمل ما نقل من الآثار^(٢).

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨١.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٣ / ٦٤ - ٧٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣١٩ - ٣٢٠، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٩ - ٨٠، وفتح الباري لابن حجر ٣ / ٢٧٧. قال القرطبي: «احتج علماءنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع صلاة كان أو صوما بعد التلبس به لا يجوز؛ لأن فيه إبطال العمل، وقد نهى الله عنه، وقال من أجاز ذلك وهو الإمام الشافعي وغيره: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلا فلا؛ لأنه ليس واجبا عليه، فإن زعموا أن اللفظ عام، فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع والتطوع يقتضي تخييرا». الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٥.

رابعاً: لا تفريط في عزة المؤمن:

لا يجوز للمؤمنين أن يهنوا ويدعو محاربيهم إلى الصلح والمهادنة طلباً للدعة، ورغبةً في ملذات الحياة، وهرباً من تبعات الصراع.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَهْشُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

فالوهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة، ومعناه: النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبت في نفسه رويداً رويداً حتى تتمكن منها، فتصبح ملكة وسجية، فالمعنى: ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهره، وأولها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي^(١).

خامساً: التكاليف الشرعية إنسانية:

تكاليف هذا الدين تراعي الفطرة الإنسانية بكل استعداداتها وطاقاتها وأحوالها، فلا مبالغة في فرائضه وتكاليفه بصورة تضيق الصدور وتظهر الأضغان.

وللنفس الإنسانية مع كل تكليف ترغيب وترهيب يدفعها إلى امتثالها، فمثلاً لا يكلف الله تعالى الناس أن يبدلوا كل أموالهم في سبيله، وما يكلفهم ببذله ما هو إلا رصيد لهم يجدونه يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وفي سورة الزمل: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَجْدُوهُ عِنْدَ

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١٣٠

اللَّهُ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَعْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

سادساً: عقوبة الاستبدال:

اختيار الله تعالى أمة من الأمم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء، فإذا لم تحرص هذه الأمة على أن تكون أهلاً لهذا الفضل، وإذا لم تنهض بتكاليف هذه المكانة، فإن الله يسترد منها ما وهب، ويختار غيرها ممن يقدر هذا الفضل ويقوم بتبعاته.

وتلك عقوبة رهيبه، فما يطيق الحياة إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ويترد من الكنف، وتوصد دونه الأبواب، بل إن الحياة لتغدو جحيماً لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب، قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره^(١).

قال الله عز وجل للمؤمنين في سورة محمد: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿ يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٦٥، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٣٠٣ - ٣٣٠٤.

سورة الفتح

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسمها:

اشتهرت هذه السورة بسورة (الفتح)، ووجه تسميتها لافتتاحها يبشرى الفتح المبين. كما تكرر لفظ الفتح فيها ثلاثاً. ولا يعرف لها اسم غير اسمها الذي سُمِّيَتْ به. وبذلك كُتِبَتْ في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وجاءت تسميتها في كلام الصحابة رضوان الله عليهم.

ب. فضائل السورة:

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك! نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري حتى كنت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، قال: فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، قال فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾^(١).

وعن أنس بن مالك ؓ حدثهم قال: (لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ) إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مرجعه من الحديدية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديدية، فقال: لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعاً^(٢).

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الفتح، رقم الحديث: ٤٦٢٦. ومعنى: نزلت.. لا يجيبك، أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحاً أدبك بسكوته عن جوابك. ومعنى ما نشبت: ما لبثت، وما تعلق بشيء غيره، ولا اشتغلت بسواه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٤٠/٥، و٥٢/٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديدية، رقم الحديث: ٣٨٩٥، وصحيح مسلم: كتاب =

وعن أنس بن مالك ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (١) قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قال شعبة: فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس وأما ﴿هَيْنَأَ مَرِيئًا﴾ فعن عكرمة^(١).

وقد قرأها النبي ﷺ يوم الحديبية: فعن حبيب بن أبي ثابت قال: حدثني أبو وائل، قال: كنا بصفين، فقام سهل بن حنيف فقال: (أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإننا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: بلى، فقال: أليس قتلنا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً، فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قال: نعم^(٢).

كما قرأها ﷺ أيضاً يوم فتح مكة: فعن عبد الله بن مغفل ؓ يقول: (رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يُرْجَعُ، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجعت). وفي رواية: (رأيت النبي ﷺ يقرأ وهو على ناقته أو جملة وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة لينة، يقرأ وهو يرجع^(٣)).

= الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم الحديث: ١٧٨٦.

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث: ٣٨٥٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث: ٢٩٤٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية، رقم الحديث: ٣٩٤٥، وكتاب فضائل القرآن، باب الترجيع، رقم الحديث: ٤٦٥٩. والترجيع: تديد الصوت بالقراءة، ومنه ترجيع الأذان، وقيل: هو تقارب ضروب الحركات في الصوت. قال الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة: معنى الترجيع تحسين التلاوة، لا ترجيع الغناء، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. وقد =

ج- مرحلة النزول:

هي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة، وقد نزلت ليلاً فهي من القرآن الليلي، ونزلها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبي ﷺ من الحديبية، وقبل غزوة خيبر، في موضع يقال له: (كراع الغميم) بين مكة والمدينة^(١).

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نُسُكِنَا، فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾، فقال رسول الله ﷺ: (لقد أنزلت علي آية هي أحبُّ إلي من الدنيا وما فيها). وفي رواية: (من أولها إلى آخرها)^(٢).

د- أسباب نزولها:

تعددت أسباب النزول لعدد من الآيات، وسيشار إلى كل سبب في موضعه من المقطع الخاص به.

= استدلل العلماء بهذا الحديث على سُنِّيَّة قراءة القرآن على الدابة، وأصل هذه السُنِّيَّة قوله تعالى: ﴿لِاسْتَوْرَاءِ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ۝١٣﴾ [الزخرف ١٣]. وكذا ملازمته ﷺ للعبادة، لأن حال ركوبه الناقة لم يترك العبادة بالتلاوة، وفي جهره بذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون في بعض المواضع أفضل من الإسرار، وهو عند التعليم، وإيقاظ النائم، ونحو ذلك. انظر: فتح الباري، العسقلاني: ٧١٠ / ٨، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٢٠٢ / ٢.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٤١ / ٢٦.

(٢) حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. أخرجه الحاكم في المستدرک: كتاب التفسير، (سورة الفتح)، رقم الحديث: ٣٧١٠.

هـ- عدد آياتها :

تسع وعشرون آية في جميع العدد، ليس فيه اختلاف، خالية من النسخ^(١).

و- محور السورة :

اعتنت هذه السورة بجانب التشريع، شأنُ سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات والعبادات والأخلاق..

تحدثت السورة عن وعد الرسول ﷺ بالفتح والغفران، وإنزال السكينة على أهل الإيمان، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم، ووعد المؤمنين بنعيم الجنان، والثناء على سيد المرسلين، وذكر العهد، وبيعة الرضوان، وذكر ما للمخالفين من الخذلان، وبيان عذر المعذورين، والمنة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذوي الطغيان، وصدق رؤيا سيد المرسلين ﷺ على حقيقة الرسالة، وشهادة الملك الديان، وتمثيل حال النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم بالزرع والزرع في البهجة والنضارة وحسن الشأن^(٢).

ز- المناسبات في سورة (الفتح) :**١- المناسبة بين السورة ومحورها :**

تناولت السورة أحداث (صلح الحديبية)، الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية لفتح مكة الأعظم. وتحدثت عن جهاد المؤمنين، وعن بيعة الرضوان. وعن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب والمنافقين. كما تحدثت عن صدق الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه، وهي دخوله ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة، فدخلوها معتمرين مطمئنين. وختمت بالثناء على

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣٠٦، والبيان في عدّ آي القرآن، الداني: ص: ٢٢٩، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ١/ ٤٣٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ١/ ٤٣٢.

الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار^(١).

٢. المناسبة في افتتاحية السورة :

تكونت السورة من مقطعين؛ كل منهما مبدوء بقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾، في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، وإذا كانت السورة تبين كيف ينزل نصر الله على العصبة المؤمنة، فإنها في الوقت نفسه تذكر الصفات التي يجب أن تتوافر في العصبة المؤمنة، كما تذكر لنا أنواعاً من الناس يسقطون بين يدي النصر، وتبين لنا كيف ينبغي أن يُعامل هؤلاء فيما بعد^(٢).

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :

لقد فصلت السورة في قضايا تتعلق بالإيمان والتقوى وأخلاق الجماعة المؤمنة، وفصلت في الكفر وأخلاقه ودوافع أهله، وفصلت في النفاق وأخلاق أهله ودوافعهم، وفصلت في كيفية تعامل الجماعة المسلمة مع المنافقين، وفصلت في سنن الله في عملية الصراع بين الإيمان والكفر وفيما ينبغي أن يلاحظه المسلمون في عملية الصراع، ومن أهم ذلك حماية أرواح المؤمنين المخالطين للكافرين، كما فصلت في خصائص الجماعة الإسلامية في تعاطفها مع بعضها، وفي شدتها على الكافرين، وفي إقبالها على الله بالعبادة، وإخلاصها له في النية، كما فصلت فيما تقتضيه عملية الإيمان من نصره لرسول الله ﷺ وتعظيمه.

ومما ينبغي تذكره أنه لا يكفي أن يقول قائل آمنت بالله ورسوله، بل لا بد أن يرافق ذلك نصره لرسول الله ﷺ بنصرة شخصه في حياته، ونصرة شريعته ودينه، وأن يرافق ذلك توقيراً وتعظيماً لشخص رسول الله ﷺ في حياته ومماته، وأن يرافق ذلك تنزيهه لله عز وجل، وأن يضم المسلمين فيما بينهم صف واحد يمتاز بالرحمة فيما بينه، والشدة على العدو الكافر، ويمتاز بالصلاة والعبادة، والترقي والإيمان والعمل الصالح، والصراع المتواصل لنشر الإسلام حتى

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٢١٦/٣.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥٣٦١/٩.

يَعَمُّ الإسلام العالم^(١).

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (الفتح) وخاتمة ما قبلها:

يتمثل وجه مناسبتها لما قبلها فيما يلي:

١ - إنه لما تقدم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ الآية، وهي خطاب لكفار قريش أخبر سبحانه رسوله ﷺ بالفتح العظيم، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وأمن كل مَنْ كان بها وصارت مكة دار إيمان.

٢ - المراد بالفتح هو النصر مرتب على القتال.

٣ - إن في كل منهما ذكراً وبياناً لأوصاف المؤمنين والمخلصين والمنافقين والمشركين.

٤ - إن في السورة السالفة أمراً للنبي ﷺ بالاستغفار، وافتتحت هذه السورة بذكر وقوع المغفرة.

٥ - ذُكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف، وكُنِيَ عنها هنا بلفظ: (كلمة التقوى)، بناء على أشهر الأقوال فيه^(٢).

٥. المناسبة بين افتتاحية سورة (الفتح) وافتتاحية سابقتها:

الملاحظ أن سورة (القتال) السابقة على سورة (الفتح) ذكرت شيئاً عن المسألة والمصالحة، وأنها جائزة في بعض الحالات، وقد جاءت سورة الفتح لتعرض علينا نموذجاً على أن الهدنة والصلح قد يترتب عليهما من المنافع والمصالح للمسلمين أضعافاً مضاعفة، بل قد لا يكون في لحظة من اللحظات أية مصالح في الحرب. ومن هذه الصلة بين السورتين ندرك كيف أن السور

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥٣٩١/٩.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٤٨٢/٩، وتفسير روح المعاني، الألوسي: ٨٤/٢٦، ونظم الدرر، البقاعي: ٢٧٧/١٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ١٤٢/٢٦، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥٣٩٠/٩.

القرآنية في القسم الواحد منه يكمل بعضها بعضاً^(١).

٦. المناسبة بين سورة (الفتح) وما بعدها:

لقد جالت سورة (الفتح) جولات في واجبات المرسل إليهم، وجاءت سورة (الحجرات) تكمل سورة (الفتح) في تبيان واجبات المرسل إليهم، لذا ابتدأت بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

وتنتهي سورة (الفتح) بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وتأتي سورة (الحجرات) لتذكر أدب العلاقة بين المؤمنين ورسولهم، وبين المؤمنين مع بعضهم، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ﴿لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ ﴿أَجْتَنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾. وهذا مظهر آخر من مظاهر تكامل سورة (الحجرات) مع سورة (الفتح). وعلى ذلك فسورة (الحجرات) تتكامل مع مجموعتها وتكملها، فسورة (الجاثية) عمقت معنى الاهتداء بكتاب الله، وسورة (الأحقاف) عمقت معنى التوحيد، وسورة (القتال) بيّنت أن الأصل هو القتال بين أهل الفسوق وأهل الإيثار، وسورة (الفتح) بيّنت أن معارك المسلمين منصوره، وسورة (الحجرات) بيّنت أدب السير، وأدب الجماعة المسلمة في حركتها نحو الهدف^(٢).

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥٣٥٠/٩.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥٣٩٦/٩.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (صلح الحديبية وآثاره) الآيات: (٧.١)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۝٤ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٥ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٦ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۝٧ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ۝٨ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُرْبًا أَلْسُوهُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٠ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

جاء هذا المقطع بمثابة مدخل ومقدمة للسورة، فقد ذكر الله تعالى فيه عنايته وفضله على نبيه ﷺ وبأنه ينصر رسوله، كما أبان بعض أفضاله على المؤمنين من أصحابه وبعض أسباب النصر وهو تثبيت أقدام المؤمنين، واطمئنان قلوبهم في ميادين المعارك، وأردفه ببيان سنته في تسليط بعض جنوده على بعض، ثم رفع معنويات الجند المؤمنين بوعدهم بالخلود في الجنان، وإبعاد الكافرين والمنافقين المعادين للمؤمنين بالعذاب الشديد، والغضب عليهم وطردهم من رحمته، وذلك بين يدي المقطع الذي يبدأ بتبيان مهمات الرسول ﷺ، وواجبات المؤمنين تجاهه^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تفتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.. إنها جزء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه. والاستسلام الراضي لإيحاءه وإشارته. والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية.

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/٥٣٥١، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/١٥٥.

والثقة العميقة بالرعاية الحانية.. يرى الرؤيا فيتحرك بوحياها. وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خلأت القصواء. فيقول: (ما خلأت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها). ويسأله عمر بن الخطاب في حمية: فلم نعطي الدينية في ديننا؟ فيجيبه: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيئعني). ذلك وحين يشاع أن عثمان قُتل، يقول ﷺ: (لا نبرح حتى نناجز القوم). ويدعو الناس إلى البيعة، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا. وكان هذا هو الفتح؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة: كان فتحاً في الدعوة.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك الستين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة في قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف. وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

وكان فتحاً في الأرض. فقد أمن المسلمون شر قريش، فاتجه رسول الله ﷺ إلى تخلص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خيبر القوية التي تهدد طريق الشام. وقد فتحها الله على المسلمين وغنموا منها غنائم ضخمة، جعلها الرسول ﷺ فيمن حضر الحديبية دون سواهم.

وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه: (سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن

الكريم):

« ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق. بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها. فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتها وكيانها، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلح لضعفهم وقتلهم إزاء الغزاة. ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرّون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون. بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح، وبعده مداه.

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ﷺ فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه؛ إذ قووا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً، وشأنهم ضالكة، وإذ صار العرب يقدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام، وإذ فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها، يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر الله وفتحته، ودخل الناس في دين الله أفواجا^(١).

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك إلى جانب هذا كله فتح آخر. فتح في النفوس والقلوب، تصوره بيعة الرضوان، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن. ورسوم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

(١) سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم: ٣٥٢/٢.

فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حساب، وله دلالاته، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ.

ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة. فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه. فرح بالفتح المبين. وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم. وفرح بالنصر العزيز الكريم. وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل. وقال في رواية: (نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها). وفي رواية: (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس).

وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته. فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟) ذلك الافتتاح كان نصيب النبي ﷺ خاصة.

ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح، ومس يده لقلوبهم بالسكينة وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ۝ ﴾

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال؛ والسكينة حين ينزلها الله في قلب، تكون طمأنينة وراحة، و يقيناً وثقة، ووقاراً وثباتاً، واستسلاماً ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة. كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام؛ ثم مواجهة موقف قريش، وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام، وبعد إشعار

الهدى وتقليده. كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب. وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج، فكان مما قال له غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث: (أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)؟ قال أبو بكر الموصول القلب بقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بلى). فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به). فتركه عمر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له فيما قال: (أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال صلى الله عليه وسلم: بلى). فأخبرتك أنا تأتيه العام؟ قال: لا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإنك آتية ومطوف به). فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب..

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى، من رد من يُسلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه. ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم. وفي رد صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روي أن علياً رضي الله عنه أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها، فمحاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وهو يقول: (اللهم إنك تعلم أني رسولك).

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع. فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق، حتى قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً. وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالاً. كالذي حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفي. ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل هذا بنفسه، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول، وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ!

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة، لا ينوون قتالاً، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً. ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان، وبارسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة. فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم. ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له. وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات. وهم ألف وأربعمئة وقريش في

دارها، ومن خلفهم الأعراب والمشركون.

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.. ويدوق طعم اللفظ وطعم العبارة، ويتصور الموقف يومئذ، ويعيش فيه مع هذه النصوص، ويحس برَد السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيثار، والحمية الإيثارية لا لأنفسهم، ولا لجاهلية فيهم. فقد تفضل عليهم بهذه السكينة: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ والطمأنينة درجة بعد الحمية والحجاسة، فيها الثقة التي لا تقلق، وفيها الرضى المطمئن باليقين.

ومن ثم يُلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أَراده المؤمنون، فإن الله جنوداً لا تحصى ولا تغلب تدرك النصر وتحقق الغلب وقتها يشاء: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.. فهي حكمته وهو علمه، تسير الأمور وفقها كما يريد.

وعن العلم والحكمة: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾. ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾..

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً، فهو فوز عظيم! فوز عظيم في حقيقته، وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدرراً بتقديره، موزوناً بميزانه.. ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم؛ وكانوا قد تطلعوا بعدما سمعوا افتتاح السورة، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله. تطلعوا إلى نصيبهم هم، وسألوا عنه، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين.

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنَّ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾..

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين. وفي أنهم جميعاً ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾^(١) فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتقع بهم. وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعده لهم من سوء المصير.. ذلك أن النفاق صفة مردولة لا تقل عن الشرك سوءاً، بل إنها أخطأ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذلك في مظهره ونوعه.

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً. يتوقع منه الخير في السراء والضراء. ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين. وسرُّ ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً. فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتدوَّق.

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله. ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، وينون عليها أحكامهم. ويتوقعون

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (السُّوء) بضم السين، من السُّوء بمعنى الهزيمة والشر، وقرأها الباقون: (السُّوء) بالفتح، من ساءه يسوءه سوءاً ومساءة، نقيض سره مسرة. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦٥.

الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدبيره الخفي اللطيف.

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع؛ وبين حالهم عنده، وما أعده لهم في النهاية. ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته:

﴿وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا ۝٧﴾ ..

فلا يعيبه من أمرهم شيء، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء، وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم^(١).

دروس وعبر من المقطع الأول:

١- جمهور أهل العلم على أن المراد بالفتح هو صلح الحديبية، وإنما سُمِّيَ فتحاً لأنه كان سبب فتح مكة.

قال الفراء: كان فتح وفيه قتال قليل مرامة بالحجارة، فالفتح قد يكون صلحاً، ويكون أخذ الشيء عنوة.

واستدل العلماء بلفظ الماضي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾، على أن ذلك الفتح قد مضى، سيما وقد نزلت السورة في شأن الحديبية، في حين أن سورة (النصر) دلت على الاستقبال لا على الماضي في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١].

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها^(٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/٣٣١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/٢٦١، وروح المعاني، الألويسي: ٢٦/٨٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/٣٣، وأضواء البيان، الشنقيطي: ٧/٦٠٣، ومعاني القرآن، الفراء: ٣/٦٤.

٢- تمثلت فضائل الفتح وثماره في حق النبي ﷺ بأربعة أمور:

أولها: البراءة المطلقة للنبي ﷺ بمغفرة ذنوبه المتقدمة والمتأخرة التي تعدُّ بمثابة خلاف الأولى، والأفضل بالنظر لمقامه الشريف ﷺ.

ثانيها: إتمام النعمة عليه ﷺ بالجمع بين النبوة والملك، وبين سعادة الدنيا والآخرة، بعد أن كانت له النبوة وحدها.

ثالثها: الإرشاد والهداية إلى الطريق المستقيم في تبليغ الرسالة، والثبات على الحق، وإقامة مراسم الرئاسة.

رابعها: النصر المؤزر العزيز المنيع الذي لا ذلَّ بعده، ورهبة الجانب، ونفاذ الكلمة.

٣- وتمثلت فضائل الفتح وثماره في حق المؤمنين بأربعة أمور:

أولها: الطمأنينة والسكينة، وثانيها: زيادة الإيمان، وثالثها: دخول الجنة، ورابعها: تكفير السيئات.

٤- وتمثلت فضائل الفتح وثماره في حق الكفار والمنافقين بأربعة أمور:

أولها: العذاب الأليم، وثانيها: غضب الله تعالى، وثالثها: اللعنة والطرده من رحمة الله تعالى، ورابعها: دخول جهنم.

٥- تمثل الفتح المبين في معان جليلة، منها: أن نزول السورة كان مؤنساً للمؤمنين مما استوحشوه من ردِّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة، فنزلت السورة مؤنسةً للمؤمنين في صدهم عن البيت، ومذهبةً ما كان في قلوبهم، ومنه حديث عمر الشهرير، وما قاله للنبي ﷺ ولأبي بكر وظهرت على يديه ﷺ آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع سهمه، وثاب الماء حتى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرضوان، وهي الفتح الأعظم، وبلغ هديه محله، واستقبل فتح خيبر، وامتلات أيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتتحها إلا أهل الحديبية، لم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الفرس والروم وظهرت فيها الروم فكانت من جملة

الفتح على رسول الله ﷺ، وسرَّ بها هو والمسلمون لظهور أهل الكتاب على المجوس، وانخضاد الشوكة العظمى من الكفر، ثم عظمَ الله تعالى أمر نبيه ﷺ وشرفه بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(١).

٦- الذنب المقصود بمغفرته في حق النبي ﷺ هو جميع ما فرط منه من هفوات مما يصح أن يُسمَّى ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف ﷺ، وإن كان لا يعدُّ ذنباً في حق غيره، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والمراد من غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها. عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ (كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً، فلما كثر لحمه صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ، ثم ركع)^(٢).

٧- يرشد عقد صلح الحديبية إلى معاني جليلة ونتائج طيبة، منها: معرفة قوة العدو ومقدار كفايته وحدَّها، ومعرفة المؤمنين الصادقين من المنافقين الذين تخلفوا، واختلاط المسلمين بالمشركين حبَّب الإسلام إلى قلوب كثير منهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وتحقق سيادة الدولة الإسلامية واستقلالها، وظهوره ﷺ حاكماً وإماماً إلى جانب كونه نبياً، كما تحقق له عزُّ الدنيا والآخرة، وثباته على الحق، ونشره في أرجاء الدنيا.

كذلك اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية، والإقرار بسيادتها واستقلالها^(٣).

(١) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ٤٢٩/١٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، رقم الحديث: ٤٤٦٠.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ١٥٩، ١٥٣/٢٦.

المقطع الثاني: (مهام النبي ﷺ ومغزى بيعة الرضوان)

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَا يَكْفُرُ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ فَاعِلُ الْبَلَاءِ ۝١٠﴾ (الآيات: ٨-١٠)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان فضائل الفتح - صلح الحديبية - على النبي ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين، أعقبه بيان خصائصهما، فذكر وظائف الرسول ﷺ الثلاث، (وفي الأحزاب: الخمس) ومدحه، وأبان فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة، فذكر بيعة الرضوان بين النبي ﷺ والمؤمنين، وأشاد بإخلاص المبايعين ونصرة دين الله تعالى، وأوضح جزاء ناقض العهد، ومن أوفى بالعهد^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوهاً بوظيفته مبيناً للغاية منها، موجهاً للمؤمنين إلى واجبه مع ربه بعد تبليغهم رسالته، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة، وعقد العقدة معه جلَّ جلاله، وذلك حين يبایعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه. وفي ذلك تشریف لبيعة الرسول، وتكريم واضح لهذا التعاقد:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَا يَكْفُرُ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ فَاعِلُ الْبَلَاءِ ۝١٠﴾ (١)

فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها، يشهد أنه بلغها ما أمر به، وأنها

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/١٦١.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه) بالياء في الأربعة، وقرأهن الباقون بالتاء. انظر: جامع البيان، الداني: ٤/١٥٩٤.

استقبلته بما استقبلته، وأنه كان منها المؤمنون، ومنها الكافرون، ومنها المنافقون. وكان منها المصلحون ومنها المفسدون. فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة. وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى، وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين، ونذير بسوء المنقلب والغضب. واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين..

هذه وظيفة الرسول. ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة. إنها الإيمان بالله ورسوله، ثم النهوض بتكاليف الإيمان، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته، ويقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل، وهي كناية عن اليوم كله، لأن طرفي النهار يضآن ما بينهما من آونة. والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن. فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً.

وقد جاء ﷺ ليصلهم بالله، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ﷺ عنهم. فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً، فإنما يبائع عن الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.. وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده، أن يد الله فوق أيديهم.

فالله حاضر البيعة. والله صاحبها. والله أخذها. ويده فوق أيدي المتبايعين.. ومن؟ الله! يا للهول! يا للروع! يا للجلال!

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة، مهما غاب شخص رسول الله ﷺ، فالله حاضر لا يغيب. والله آخذٌ في هذه البيعة ومعطٍ، وهو عليها رقيب.

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.. فهو الخاسر في كل جانب. هو الخاسر في الرجوع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى. وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين. وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء ويجب الأوفياء.

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(١) .. هكذا على إطلاقه: ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .. لا يفصله ولا يحدده. فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم. عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون!)^(٢).

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١- حددت الآيات مهام النبي ﷺ في ثلاث:

أولها: الشهادة على الخلق وعلى أمته بالبلاغ، وثانيها: تبشير من أطاعه بالجنة، وثالثها: إنذار من عصاه بالنار.

٢- تناولت الآيات لفظ: ﴿ يَدُ اللَّهِ ﴾ واللفظ من التشابهات التي لأهل السنة والجماعة فيها مذهبان؛

مذهب السلف: التسليم، والسكوت عن التأويل، والإيمان بظاهر النص، والتفويض إلى الله تعالى في معرفة الحقيقة، وإمرار آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ المتعلقة بالصفات كما جاءت، مع الإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا صرف عن الظاهر،

(١) قرأ حفص: (عليه) بضم الهاء وتفخيم لفظ الجلالة، وقرأ الجمهور: بكسر الهاء وترقيق لفظ الجلالة، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: (فَسَيِّئَتِهِ) بالنون، وقرأ الباقر بالباء. قيل في وجه الضم إنها هاء هي مضمومة، فاستصحب ذلك كما في: له وضربه، ووجه الكسر رعاية الياء، وكذا في: إليه وفيه، وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو: به، ومررت بغلامه، لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد، وإبقائه وعدم نقضه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨٠، والأساس في التفسير: سعيد حوى: ٥٢٦٠/٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٠.

وهو الحق.

ومذهب الخلف: التأويل بالقدرة والقوة والنصرة والنعمة على طريق الاستعارة بالكناية.

قال الرازي: وذلك محتمل وجوهاً، لأن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ففيه وجهان؛

أحدهما: يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق أجسامهم، كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْنٌ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]،

وثانيهما: نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي: الغلبة والنصرة والقوة، وإن قلنا إنها بمعنيين فنقول: اليد في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، فيكون المعنى: يد الله فوق أيديهم بالحفظ. وهذا هو مذهب أهل التأويل والكلام^(١).

٣- كانت بيعة الرضوان على الثبات وعدم الفرار، وعلى الموت في سبيل الله تعالى، لذا كان الشقي الخاسر من نقض العهد والبيعة، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب، ومن أوفى بعهده مع الله في بيعته فهو الرايح الفائز، وسيعطيه الله ثواباً عظيماً وهو الجنة، وفي هذا تفخيم لشأن البيعة، وتعظيم لأمرها. عن يزيد بن أبي عبيد قال: (قلت لسلمة: على أي شيء يبايعتم النبي ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت)^(٢).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٨٧/٢٨، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٤٠/٩، وتفسير المحرر الوجيز،

ابن عطية: ٤٤٢/١٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ١٦٥/٢٦.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم الحديث: ٦٦٦٦.

المقطع الثالث: (أحوال المتخلفين عن الحديبية)

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الآيات: ١١ - ١٧)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان حال المؤمنين، بين الله تعالى حال المنافقين، وهم قوم من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، لظنهم أنه يهزم، وقد ذكر تعالى أحوالاً ثلاثاً لهم:

هي الاعتذار عن التخلف عن الحديبية بانشغالهم في الأموال والأهل، وطلب المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد، ثم استثنى تعالى أصحاب الأعدار لترك الجهاد^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وعندما يصل إلى حقيقة البيعة، وإلى خاطر النكث

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ١٦٩/٢٦.

وخاطر الوفاء، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين.. يلتفت إليهم لينبئ الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه، وقد هادنته قريش ولم تقاتله، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مهما كان شروطها - التراجع من قريش، واعتبار محمد ﷺ نداءً لها تهادنه وتتقي خصومته.

ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين. كما ينبئه بما فيه البشري له وللخارجين معه؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغنم قريبة ميسورة، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة. ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم. فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية.

إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد. فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ، حيث يقسم الله لهم بما يريد. فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد.

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهو اجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها. ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك.

فالمخلفون من الأعراب وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم: ﴿سَخَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾.. وليس هذا بعذر. فللناس دائماً أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها، وسيقولون ﴿فَأَسْتَفْرِرْنَا﴾. وهم ليسوا صادقين في طلب

الاستغفار كما ينبئ الله رسوله ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف، ولا يغيره إقدام؛ وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس، وتتصرف في أقدارهم كما تشاء. وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾^(١).. وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ. فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضرراً، ولا يؤخر نفعاً. وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله. ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط. وهو توجيه تربوي في وقته، وفي جوّه، وفي مناسبه على طريقة القرآن.

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبَّتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا أَلْسُوهُ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾^(٢).. وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من سوء. وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهلهم بالمدينة؛ وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! يشيرون إلى أحد والأحزاب ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده.

كما أنهم بطبيعة تصورهم للأمر، وخلق قلوبهم من حرارة العقيدة، لم يقدرُوا أن الواجب هو الواجب، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت؛ وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون

(١) قرأ حزة والكسائي: (ضراً) بضم الضاد، وهو اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال أي: أمراً يضركم، وقرأ الجمهور: بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضراً، والمصدر يؤدي عن المرة وأكثر، والحجة في الفتح أنه حمل على الضر الذي هو خلاف النفع، بدليل ما أتى بعده من نقيضه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٤، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/٢٨١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/٢٦٨.

بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية، فهي واجب مفروض، يؤدي دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا في سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موح. فالأرض البور ميتة جرداء. وكذلك قلوبهم. وكذلك هم بكل كيانهم. بور. لا حياة ولا خصب ولا إثارة. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بوراً. ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة. الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله. البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة. هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال؛ وأن المؤمنين قلة في العدد، أو قلة في العدة، أو قلة في المكان والجاه والمال. هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلون إلى أهليهم أبداً إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة. ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة؛ ويتوقعون في كل لحظة أن يُستأصلوا، وأن تنتهي دعوتهم فيأخذونهم بالأحوط، ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدييره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية. الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية، فيخفض به قوماً، ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين!

إن الميزان هو ميزان الإيمان. ومن ثمَّ يردُّ الله أولئك الأعراب إليه؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله ورحمته:

﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ .. لقد كانوا يعتذرون

بأموالهم وأهليهم. فماذا تنفعهم أموالهم وأهلهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنها كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين. فإن الله الذي يوعدهم هذا الإيعاد، هو مالك السماوات والأرض وحده. فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء.

والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر في القلوب. غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة.

ومغفرة الله ورحمته أقرب. فليغتنمها من يريد، قبل أن تَحَقَّ كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين. ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين، مخالفاً لظن المخلفين. بأسلوب يوحي بأنه قريب:

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر، وقد يكون هذا، ولكن النص يظل له إيجاز ولو لم يكن نصاً في خيبر. فهو يوحي بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير. وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا فيقولون ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾.

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية. إذ كانت في المحرم من سنة سبع. بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية. وأنها كانت وافرة الغنائم. وكانت حصون خيبر آخر ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية. وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل.

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغنم خيبر لهم لا يشرکہم فيها أحد. ولم أجد في هذا نصاً. ولعلمهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً. فقد جعلها

رسول الله ﷺ في أصحاب الحديدية. ولم يأخذ معه أحداً غيرهم.

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم المسيرة القريبة. وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله. وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾. فتمنعونا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة. ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره. فجزاء المتخلفين الطامعين أن يجرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يختصوا بالمنعم حين يقدره الله، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد.

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء. يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَعُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آوَلَىٰ بِأَسِ سَدِيدٍ يُقْتَلُونَ أَوْ يُسَلَّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾﴾. وتختلف الأقوال كذلك في مَنْ هم القوم أولو البأس الشديد. وهل كانوا على عهد رسول الله ﷺ أم على عهد خلفائه. والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله ﷺ ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة.

والمهم أن نلاحظ طريقة التربية القرآنية، وطريقة علاج النفوس والقلوب، بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية.

وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم.

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع، فقد بين الله أصحاب الأعداء الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد، بلا حرج ولا عقاب:

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٧) .. (١).

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ. والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان. هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية. فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه.

ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره. ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه، وبين راحة القعود وما وراءه.. ثم يختار! (٢).

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١- المتخلفون عن الحديبية خمس قبائل: جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم، وفي تعيين القوم أولي البأس الشديد ثلاثة أقوال: أنهم فارس والروم، أو بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب، أو هوازن وغطفان يوم حنين. وفي قول الله تعالى: ﴿ نَفَقْنَا لَهُمْ أَنْ يَكْفُلُوا عَنْهُمْ ﴾ دلالة على أنهم باليامة لا بفارس ولا بالروم، لأن الذي تعين عليه القتال حتى يسلم من غير قبول الجزية هم العرب في أصح الأقوال والمتردون، فأما فارس والروم فلا يقاتلون حتى يسلموا، بل إن بذلوا الجزية قبلت منهم، وقد جاءت هذه الآية معجزة للنبي ﷺ وإخباراً بالغيب، كما دلت على صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فأبو بكر ﷺ دعا إلى قتال بني حنيفة، واستخلف عمر ﷺ، وعمر ﷺ الذي دعا إلى قتال فارس والروم، وخرج عليّ تحت لوائه، وقد ألزم الله المؤمنين طاعة مَنْ يدعوهم إليه، وأوعدهم على التخلف عن دعاهم إلى قتالهم، مما يدل على

(١) قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، قال أهل الزمان: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾. وقد قرأ نافع وابن عامر: (ندخله ونعذبه) بالنون جميعاً، وقرأهما الباقر بالياء. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٧٣/١٦، وجامع البيان، الداني: ١٥٩٤/٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/٣٣٢١.

صحة إمامتهما، إذ كان المتولي عن طاعتها مستحقاً للعذاب الشديد^(١).

٢- استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ نَقْضِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ على حكم مَنْ لا تؤخذ منهم الجزية، وهم مشركو العرب والمتردون، فمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنهم مقيدون بأمرين: إما المقاتلة، وإما الإسلام، لا ثالث لهما. وتقبل ممن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس. ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى: لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. قال الزجاج: التقدير: أو هم يسلمون^(٢).

٣- ذكرت الآية عذر أهل الأعذار من العمى والعرج والمرضى جملة، ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يجزب حازب في حضرة ما، فالغرض متوجه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج، فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف، لأن الأعرج أحرى بالبصر وألا يفرّ.

وقد غزا عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية^(٣).

٤- اقتصر النص القرآني على أصحاب الأعذار الثلاثة، لأن العذر إما بسبب اختلال القوة، أو إخلال في عضو، فيقاس عليهما ما في معناهما؛ كالفقر الذي يمنع من إحضار السلاح حال التطوع بالجهاد ودون تقديمه من الدولة، والاشتغال بذوي الحاجة والضعف كطفل ومريض، ونحو ذلك مما يعرف في الفقه.

وقد ضبط الفقهاء الأعذار المانعة من الجهاد بأن المانع إما عجز حسي؛ كالصغر والجنون والأنوثة والمرضى المانع من الركوب للقتال، والعرج البين، وفقد الصبر، وعدم وجدان السلاح

(١) أحكام القرآن، ابن العربي: ٤/ ١٣٥، وأحكام القرآن، الجصاص: ٣/ ٣٩٣، والجامع لأحكام القرآن،

القرطبي: ١٦/ ٢٧٢، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٨.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٠، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٣٤٠، وفتح البيان، صديق حسن

خان: ٩/ ٤٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٨.

(٣) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٥٢.

وآلات القتال، أو عجز حكمي؛ كالرقِّ والدِّين الحالُّ بلا إذن ربِّ الدِّين، وعدم إذن أحد الأبوين المسلمين^(١).

٥- في الآيات حث على الجهاد، والترهيب من ترك القتال، حيث ثواب الجنة مرهون بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإنما شرع الجهاد لدرح العدوان وطرده المعتدين، وهو طريق العزة والكرامة، وحماية حرمة البلاد والأوطان، ولولاه لذابت الأمم، وزالت الأديان والقيم، لذا جعله الله فريضة على المسلمين، وإن كان مكروهاً على النفس، امتحاناً للصديقين في إيمانهم، واختباراً لأعمال الناس، وهو ذروة سنام الإسلام، وسبيل إلى جنان الخلد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون^(٢).

المقطع الرابع: (بيعة الرضوان وأثارها الخيرة)

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَدُكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ فَتَنَّاكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الآيات: ١٨ - ٢٤)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن بين الله تعالى حال المخلفين عام الحديبية، عاد إلى بيان حال الذين بايعوا تحت

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ١٧٩/٢٦.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ١٧٩/٢٦.

الشجرة، وذكروا فيما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، فأبان جزاءهم في الدنيا والآخرة، وهو الظفر بغنائم كثيرة من خيبر، وأخبر الله عن رضاه عن أهل تلك البيعة في الآخرة، لصدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وإنزال السكينة (الطمأنينة) عليهم وتثبيت قلوبهم وأقدامهم. والخلاصة: لما ذكر تعالى حال مَنْ تخلف عن السفر مع الرسول ﷺ ذكر حال المؤمنين الخُلص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضی الله تعالى عنهم ولذا سميت بيعة الرضوان.

وبعد أن وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، أردفه بذكر نعم كثيرة أخرى:
 أولها: أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها، والله سبحانه كان عالماً بها.
 وثانيها: وعدهم بغنائم هوازن وفارس والروم وغيرها من البلاد التي ستفتح.
 وثالثها: الوعد بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وتلك سنة الله القديمة.
 ورابعها: امتنان الله على عباده المؤمنين بكف أيدي المشركين عنهم في الحديبية^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين. أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بأذانهم، أنهم هم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم. لقد رضي عنهم. ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/١٨٢، ١٨٧.

الرضي: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ .. يسمعون هذا من نبهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل..

يا لله! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية، وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت.

أنت بذاتك. يبلغك الله. لقد رضي عنك. وأنت تبايع. تحت الشجرة! وعلم ما في نفسك. فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقراً أو يسمع ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيسعد. يقول في نفسه: ألسنت أطمع أن أكون داخلياً في هذا العموم؟ وقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيطمئن. يقول في نفسه: ألسنت أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون. واحداً واحداً. أن الله يقصده بعينه وبذاته. ويبلغه: لقد رضي عنه! وعلم ما في نفسه. ورضي عما في نفسه! يا لله! إنه أمر مهول!

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ .. علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم. وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم. وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين.

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ .. بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هيئة وهدوء ووقار تضيء على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً.

﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .. هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحاً، وجعلته بدء فتوح كثيرة. قد يكون فتح خيبر واحداً منها. وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين^(١).

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها =

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ .. إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر. وإما تالياً له، إن كان الفتح هو هذا الصلح، الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .. وهو تعقيب مناسب للآيات قبله. ففي الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير. وبها يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم.

وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم. الحديث عن هذا الصلح، أو عن هذا الفتح، الذي تلقوه صابرين مستسلمين:

﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ نَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ .. وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها، وعلموا أن الله أعد لهم مغنم كثيرة، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف. وهنا يقول لهم: إنه قد عَجَّلَ لهم هذه. وهذه قد تكون صلح الحديبية - كما روي عن ابن عباس - لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم. وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ﷺ، ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار. كما أنها قد تكون فتح خيبر - كما روي عن مجاهد - باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية. والأول أقرب وأرجح.

ويمنُّ اللهُ عليهم بأنه كفَّ أيدي الناس عنهم. وقد كفَّ اللهُ عنهم أيدي المشركين من قريش كما كفَّ أيدي سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر. وهم قلة على كل حال، والناس كثرة. ولكنهم وفوا ببيعتهم، ونهضوا بتكاليفهم، فكفَّ اللهُ أيدي الناس عنهم، وأمنَّهم.

= الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فأنزل الله: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥٠.

﴿وَلَيَكُونَنَّ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .. هذه الواقعة التي كرهوها في أول الأمر، وثقلت على نفوسهم. فالله ينبتهم أنها ستكون آية لهم، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم. وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم. مما ثبت في نفوسهم أنها شيء عظيم، وخير جليل، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين.

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ .. جزاء طاعتكم وامثالكم وصدق سريرتكم. وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها. فيتم لهم الخير من كل جانب. في كل جانب. في الأمر الذي كرهوه واستعظموه. وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار؛ ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامثال.

كذلك يمن عليهم ويشرهم بأخرى غير هذه. لم يقدرُوا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره:

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .. وتختلف الروايات في هذه الأخرى. أهي فتح مكة؟ أهي فتح خيبر؟ أهي فتوح مملكتي كسرى وقيصر؟ أهي فتوح المسلمين التي تلت هذه الواقعة جميعاً؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة. بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح. الذي لم يدم سوى عامين، ثم نقضه المشركون، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً. وهي التي استعصت عليهم من قبل، وهاجرتهم في عقر دارهم، وردتهم عام الحديبية. ثم أحاط الله بها، وسلمها لهم بلا قتال.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .. فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله. أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار.

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التي قد أحاط الله بها، وهم في

انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف. أو لأن المشركين أقوياء. ولكنه تم لحكمة يريد بها. ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا. فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة:

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ لَا يَجِدُوا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣ ﴾ .. وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل. فأية سكينه؟ وأية ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم؟ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سنته الجارية في هذا الوجود؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل. ولكنها قد تتأخر إلى أجل. ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم. أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره. أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله. ولكن السنة لا تتخلف. والله أصدق القائلين: ﴿ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ...

كذلك يمن عليهم بكف أيدي المشركين عنهم، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على من هاجوهم. مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين. فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ:

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ ﴾^(١). وهو حادث وقع، يعرفه السامعون^(٢)؛ والله يذكره لهم في هذا الأسلوب،

(١) قرأ أبو عمرو: (وكان الله بما يعملون بصيراً) بالياء، وقرأها الباقون بالتاء. انظر: جامع البيان، الداني: ١٥٩٥/٤.

(٢) عن أنس أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الفتح، رقم الحديث: ٣١٨٧، وأسباب النزول، الواحدي: ص: ٢٧٢، ولباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥٠.

ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر؛ وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه، وهي تدبر لهم كل شيء، وتقود خطاهم، كما تقود خواطرهم، ليسلموا أنفسهم كلها لله، بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا في السلم كافة، بكل مشاعرهم وخواطرهم، واتجاههم ونشاطهم؛ موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخيرة ما اختاره الله، وأنهم مسيرون بقدره ومشيتته فيما يختارون وفيما يرفضون. وأنه يريد بهم الخير.

فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق. وهو بصير بهم، ظاهرهم وخافهم فهو يختار لهم عن علم وعن بصر. ولن يضيعهم، ولن يضيع عليهم شيئاً يستحقونه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرًا﴾^(١).

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١- جازى الله تعالى أهل بيعة الرضوان بجزأين: مادي ومعنوي.

أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم بسبب ما علمه في نفوسهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي: فهو فتح خيبر أو فتح مكة، وغنائم خيبر وأموالها، فقسمها عليهم وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة، أو غنائم فارس والروم^(٢).

٢- وعد الله عباده المؤمنين مغنم وفتوحات أخرى إلى يوم القيامة؛ منها: غنائم هوازن، وغنائم فارس والروم، وذلك قبل حدوثها، ولم يكونوا يرجونها، حتى أخبرهم الله بها، وهذا من الإخبار عن المغيبات، وهو دال على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ صادق في نبوته^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/٣٣٢٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/١٨٤.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/١٩٠.

٣- تمثّل كفُّ أيدي المشركين عن المسلمين في التنبه إلى غدرهم قبل وقوعه، وكفُّ أيدي المسلمين حين أمر رسول الله ﷺ بالعفو عنهم وإطلاقهم. ويُعدُّ الكفُّ عن القتال الذي وقع يوم الحديبية منّةً قد يسّرهُ الله تعالى رفقاً بالمسلمين، وإبقاءً على قوتهم في وقت حاجتهم إلى ذلك بعد وقعة بدر وأحد، وفي حادثة إطلاق سراح النفر الثمانين تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يُبصر عمله أصلحه، وفيه إشارة إلى أن الإسلام حريص على حقن الدماء وصيانة الأنفس، وقد فعل النبي ﷺ ذلك تجنباً لما يعكر صفو الصلح^(١).

٤- جمهور المفسرين حملوا (بطن مكة) في الآية على الحديبية من إطلاق البطن أسفل المكان، والمراد بالظفر في الآية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ صلح الحديبية لا فتح مكة. والصحيح أن الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، ولهذا استشهد أبو حنيفة رحمه الله تعالى بالآية على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً^(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٨٤/٢٦، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ٤٥٩/١٣.
 (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٨٢/١٦، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٤٩٥/٩، والكشاف، الزمخشري: ٣٤٤/٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٥٣/٩، والتفسير المنير، الزحيلي: ١٨٩/٢٦.

المقطع الخامس: (أسباب وآثار صلح الحديبية)

قال الله تعالى: ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُم فَتَضَيَّبِكُمْ فَتَنْهَرُوا بَعْضَهُمْ بِعَظِيمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَو تَزَلَّوْا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ (الآيات: ٢٥-٢٦)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى امتنانه العظيم على المؤمنين إذ كف عنهم أيدي الكافرين من قريش، وكف أيدي المؤمنين على الكافرين، وأبرم بينهم ميثاق صلح الحديبية، أبان تعالى أسباب هذا الكف المتبادل، وأوضح حكمة المصالحة بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ حفاظاً عليهم، ومن أجل نشر دين الإسلام ودخول الناس فيه، وتبديد آثار الأنفة والحمية الجاهلية التي لا تستند إلى برهان معقول، وإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، وإلزامهم الوفاء بالعهود.

وقد ورد في بعض روايات صلح الحديبية: أنه لما همَّ رسول الله ﷺ بقتال كفار قريش، بعثوا سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، ليسألوه أن يرجع إلى عامه، على أن تحل قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام، فأجابهم، وكتبوا بينهم كتاباً، على النحو المذكور آنفاً^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ثم يحدثهم عن خصومهم، من هم في ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصددهم للمؤمنين عن بيته الحرام. وكيف ينظر إليهم هم عكس ما

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ١٩٣/٢٦.

ينظر إلى خصومهم المعتدين:

هم في ميزان الله واعتباره، الكافرون حقاً، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .. يسجله عليهم كأنهم متفردون به، عريقون في النسبة إليه، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر، وهو صددهم للمؤمنين عن المسجد الحرام، وصد الهدى وتركه محبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع: ﴿وَصَدُّوكُمُ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾. وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام. كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم. كريمة في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين.. فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقياً عليهم لأن جرمهم صغير. كلا! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ بِكُمُ الْكُفْرَانُ وَلَئِنَّكُمْ لَفِي غَافِلَاتٍ﴾.

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين. ولو دارت الحرب، وهاجم المسلمون مكة، وهم لا يعرفون أشخاصهم، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم. فيقال: إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون..

ثم هنالك حكمة أخرى، وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام، من قسمت له الهداية، ومن قدر له الله الدخول في رحمته، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته^(١)؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال، ولعذب الكافرين العذاب الأليم:

(١) أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبيع قال: قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاثة رجال وسبع نساء، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥١.

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَو تَزَلَّوْا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .. وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره. ويمضي في وصف الذين كفروا. وصف نفوسهم من الداخل. بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ .. حمية لا لعقيدة ولا لمنهج. إنها هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت. الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويمسسون الهدى الذي ساقوه، أن يبلغ محله الذي ينحر فيه. مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة. كي لا تقول العرب، إنه دخلها عليهم عنوة. ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريمة في كل عرف ودين؛ ويتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته؛ ويتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا لإسلام! وهي الحمية التي بدت في تجيهمهم لكل من أشار عليهم أول الأمر بخطة مسالمة، وعاب عليهم صدّ محمد ومَن معه عن بيت الله الحرام.

وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم، ولصفة رسول الله ﷺ في أثناء الكتابة. وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق.

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له. فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية. وأحل محلها السكينة والتقوى:

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

والسكينة الوقورة الهادئة، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة. المطمئن بما فيه من ثقة. المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يتبطر ولا يطغى؛ ولا يغضب لذاته، إنها يغضب لربه ودينه. فإذا أمر أن يسكن ويهدأ

خشع وأطاع، في رضى وطمأنينة.

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها. وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم. إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينه، وما أودع فيها من تقوى.

فهم قد استحقوها في ميزان الله، وبشهادته؛ وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

دروس وعبر من المقطع الخامس:

١- استدلل العلماء على وجوب مراعاة حرمة المؤمن والامتناع من قتله إذا اختلط بالكفار، إلا لمصلحة، ويشترط لهذه المصلحة أن تكون قطعية الحصول بقتل الترس، كلية؛ أي تفيد كل الأمة، ضرورة؛ فلا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ولا خلاف في اعتبار قيود هذه المصلحة، فالمفترض أن الترس مقتول قطعاً، إما بأيدي العدو، فتحصل المفسدة العظيمة باستيلاء العدو على المسلمين، أو بأيدي المسلمين، فيهلك العدو وينجو المسلمون.

كما لا خلاف في أنه لا يجوز تعمد المسلمين المتترس بهم بالقتل.

وهل تجب الدية والكفارة؟ فيه خلاف: قال الحنفية: لا دية ولا كفارة، وقال الشافعية والمالكية: تجب الدية والكفارة. وقال الثوري: فيه الكفارة ولا دية له، بل منع مالك حرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسرى مسلمون، لأن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز، ولا سيما بروح المسلم^(٢).

٢- في الآية لطائف معنوية؛ وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن. باين بين الفاعلين، إذ فاعلُ جعل هو الكافر، وفاعلُ أنزل هو الله تعالى؛ وبين المفعولين، إذ تلك حمية،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي: ٤/ ١٣٨، وأحكام القرآن، الجصاص: ٣/ ٣٩٤، والتفسير المنير، الزحيلي:

وهذه سكينته؛ وبين الإضافتين، أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى نفسه. وبين الفعل جعل وأنزل؛ فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها. والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى. والعطف في أنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة، تقول: أكرمني فأكرمته، فدللت على المجازاة للمقابلة، ولذلك جعل فأنزل.

ولما كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح، وكان المؤمنون عازمين على القتال، وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر، وأبوا إلا أن يكتبوا: محمد رسول الله ﷺ وباسم الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولما سكن هو ﷺ للصلح، سكن المؤمنون، فقال: ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. ولما كان المؤمنون عند الله تعالى، ألزموا تلك الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣].^(١)

٣- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ودفع الكفار عنهم، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية، إذ كان سبباً لامتزاج العرب وإسلام كثير منهم، وعلو كلمة الإسلام، وأمن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وانقاد إلى الإسلام كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدة أضعاف ما كان من قبل، فكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمئة، وبعد ذلك بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف فارس^(٢).

٤- تمثلت حمية المشركين الموسومة بحمية الجاهلية بأنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، والاستفتاح بيسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من دخول مكة، وكانت حمية جاهلية لأنها بغير

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٤٩٨/٩، ومفاتيح الغيب، الرازي: ١٠٢/٢٨.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٤٩٨/٩، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ٤٦٧/١٣.

حجة، وفي غير موضعها، وكان ذلك محض تعصب، لأنه إنما جاء ﷺ البيت معظمًا للبيت لا يريد حرباً^(١).

المقطع السادس: (تحقيق رؤيا النبي ﷺ وأوصافه وأصحابه)

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّطُوا بِيَدِهِمْ رُكْعًا سُجَّدًا يُبْتِغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزِحٍ أُخْرِجَ شَطَكُهُ فَنَازَرَهُ فَأَسْتَعَاظَ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الآيات: ٢٧-٢٩)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان كون النبي ﷺ مرسلًا بالهدى ودين الحق، بين حال الرسول والمرسل إليهم، فأكد الشهادة في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ثم وصف صحابته بأوصاف عجيبة: هي الشدة على الأعداء، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة العبادة، والحرص على الثواب والرضى من الله، والتميز بالنور والضيء في الدنيا والآخرة، وبيان صفاتهم في كل من التوراة والإنجيل، والانتقال من الضعف إلى القوة والكثرة، وكونهم موعودين من الله بالمغفرة والجنة^(٢).

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٤٩٨/٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٨٨/١٦.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦٠/٢٦٠.

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ولقد مرَّ بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ﷺ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام. فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا، وينبئهم أنها منه، وأنها واقعة ولا بدَّ. وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضاً:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾..

فأما البشري الأولى. بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين، وتحليقتهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة، لا يخافون.. فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد. ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية. إذ تم لهم فتح مكة، وغلبة دين الله عليها.

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان؛ وهو يقول لهم: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.. فالدخول واقع حتم، لأن الله أخبر به. ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدتها شيء، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية. والقرآن يتكئ على هذا المعنى، ويقرر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله. ووعد الله لا يخلف. ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور.

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع - أي العام التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية.

فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى - كما أحرم وساق الهدى في العام قبله - وسار أصحابه يلبئون.

فلما كان ﷺ قريباً من مَرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة. فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمرِّ الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قُرْبِهَا كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى ياجج» فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء!

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاثين يوماً ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه. فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبئون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام الناقة يقودها. وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ﷺ، وتحقق وعد الله^(١).

ثم كان الفتح في العام الذي يليه. وظهر دين الله في مكة. ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد. ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۚ ﴾

(١) أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أرى النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلّين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدى بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول: السيوطي: ص: ٢٥١.

﴿٢٨﴾ .. فلقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان. ظهر في إمبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا).. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس، ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها، وبخاصة في أوروبا وجزر البحر الأبيض. وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان. أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، من حيث هو دين.

فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة، ومع نوااميس الوجود الأصيلة؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب!

وما من صاحب دين غير الإسلام، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة..

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ .. فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة؛ وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهلهم

يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب!

والآن نجيء إلى ختام السورة. ختامها بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ، وبذلك الشناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها، وبلغها رضاه فرداً فرداً:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْكُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾ ﴾ . إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار، ومع أنفسهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ولقطة تصور هيتهم في عبادتهم: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ .. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويحيش بها: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ .. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحتهم وسياتهم: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ .. ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ وهذه صفتهم فيها.. ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل.. ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْكُهُ ﴾ ﴿ فَتَازَرَهُ ﴾ ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ ﴿ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ ..

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد ﷺ، صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ .. ثم ترسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيل في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة..

وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها.

التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم: ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾.. أشداء على الكفار، وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً. رحماء بينهم، وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله، والرحمة لله. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود، وحالة العبادة: ﴿تَرْتَهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.. والتعبير يوحي كأنها هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حينما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم؛ فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمّر في ملامحهم، ونضحها على سياتهم: ﴿سَيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.. سياهم في وجوههم من الوضوء والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السياه في النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء

والفراهة. ويجل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاعة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاعة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة. إنها هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثمّ فهي قديمة، جاء ذكرها في التوراة:

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾.. ووصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾.. ووصفتهم في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه، أنهم: ﴿كَرَّعَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾^(١). فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه، من قوته وخصوبته. ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده. ﴿فَأَزَّرَهُ﴾^(٢). أو أن العود آزر فرخه فشده.. ﴿فَأَسْتَغْلَظَ﴾ الزرع وضخمت ساقه وامتلات. ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ﴾^(٣) لا معوجاً ومحنياً. ولكن مستقيماً قوياً سويماً.. هذه صورته في ذاته.

فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالنامي منه والذابل. المثمر منه والباثر. فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾. وفي قراءة يعجب (الزارع)^(٤).. وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج..

وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس. فهو وقع الغيظ والكمند: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر: (سَطَطَهُ) بفتح الطاء والهمزة، وقرأها الباقون بسكون الطاء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٤، وجامع البيان، الداني: ٤/١٥٩٤.

(٢) قرأ ابن عامر: (فَأَزَّرَهُ) مقصورة الهمزة مفتوحة، وقرأها الباقون بالمد. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٥، وجامع البيان، الداني: ٤/١٥٩٤.

(٣) قرأ ابن كثير: (سَوْقَهُ) بهمز الواو، وقرأها الباقون بواو مدية غير مهموزة. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٥، وجامع البيان، الداني: ٤/١٥٩٦.

(٤) لم أقف على سند لهذه القراءة فيما اطلعت عليه من كتب القراءات المتواترة أو الشاذة.

الْكَفَّارَ ۞ .. وتعمد إغاطة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله. أو زرعة رسوله ﷺ، وأنهم ستار للقدرة، وأداة لإغاطة أعداء الله!

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض. ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يحيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة.. صحابة رسول الله ﷺ.. فثبتت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود. وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقيق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.

مغفرة وأجر عظيم.. وذلك التكريم وحده حسبهم. وذلك الرضى وحده أجر عظيم. ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم. وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم. وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله.

وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم. وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماهم. وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه.. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه. إلا من بعيد؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم: فيقرب

له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!!^(١).

دروس وعبر من المقطع السادس:

١- أثبتت الآيات صفة النبوة والرسالة للنبي محمد ﷺ، كما وصفت أصحابه بثماني صفات، هي:

الأولى: الشدة والصلابة على الكفار.

الثانية: الرحمة والرأفة بالمؤمنين.

الثالثة: كثرة الأعمال الصالحة، وأهمها الصلاة.

الرابعة: الإخلاص في العبادة، وابتغاء الأجر والثواب.

الخامسة: يتميزون بعلامة النور والضياء والسمت الحسن.

السادسة: أوصافهم مسطرة في التوراة والإنجيل.

السابعة: كثرة الخير والبركة والنماء فيهم.

الثامنة: وعدهم الله بالمغفرة والثواب الدائم في الجنة.

٢- الصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياءه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه

ورسله. هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شذمة

لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم. ومنهم من فرَّق

بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت

فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث.

وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله

عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم، ووعدهم بالجنة بقوله تعالى:

﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٩.

علمهم بكثير من الفتن والأمر الجارية عليهم بعد نبهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب^(١).

٣- استنبط الإمام مالك من الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم يبغضونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر. ووافقه كثير من العلماء، والظاهر أنهم فسّاق. وقد ذكر عنده رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية، وقال: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية. قال بعض العلماء عن خلافات الصحابة والاقتيال الذي حدث بينهم: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٩٧/١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١٩٨/٤، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٥٠٣/٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٩٧/١٦، وروح المعاني، الألوسي: ١٢٨/٢٦، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢١٠/٢٦.

سورة الحجرات

بين يدي السورة

اسم السورة:

لم أقف لهذه السورة على اسم غير الذي اشتهرت به، وهو سورة الحجرات.

مرحلة نزول السورة

سورة الحجرات مدنية، نزلت عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، يدل على ذلك سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - وهذا يعني أنها نزلت على مجتمع يغلب الإيمان عليه، ولذا نجد السور المدنية تتعاهد الغرس الإياني الذي بذر في قلوب المؤمنين في الفترة المكية، من فتنظم حياة الناس، مهذبة كثيراً من شؤون حياتهم، بغية النهوض بهم؛ لإقامة مجتمع تسوده المحبة والإخاء.

لقد أراد القرآن من خلال سوره الكثيرة، ومنها هذه السورة، أن ينشئ مجتمعاً متحاباً متآخياً مترابطاً، ولذا وضع أساساً لهذا المجتمع من أهمها: الإيمان، والأخوة، والعدل، والمساواة... وقد عنيت هذه السورة الكريمة - على وجازتها بهذه الأسس أيما عناية، وإننا لنلمس من تأخر نزول السورة، أن من أفراد المجتمع من قد ارتقى في سلم الإيمان، حتى صار رفع الصوت بحضرة النبي ﷺ يوجب التنبيه عليه، والنهي عنه...، كما أن هناك من قد يخل بمقتضيات الأخوة، فيسخر ويلمز ويتنازب ويغتاب... وإننا لنجد فئة من المجتمع حديثة عهد بالإسلام، لا تزال بحاجة إلى مزيد من الرعاية والتوجيه، حتى في القضايا المتعلقة بالإيمان وهناك فساق في المجتمع، ينبغي الحذر في التعامل معهم... وبذا تحدد هذه السورة منهجاً للتعامل مع فئات المجتمع المتعددة.

عدد آيات السورة

عدد آيات سورة الحجرات ثمان عشرة في عد الجميع بلا خلاف.^(١)

محور السورة

يدور محور السورة حول بناء المجتمع، وذلك من خلال الأسس الربانية التي تضمنتها هذه السورة الكريمة، هذه الأسس التي من شأنها أن تقيم مجتمعاً متحاباً متآخياً متماسكاً. تبدأ السورة في بيان ما ينبغي على المجتمع أن يفعله إزاء قاداته، وهذا بيان ضمنى بأن المجتمعات لا بد لها من قيادة تسوسها، وإلا عمت الفوضى أرجاءه، هذه القيادة ينبغي أن يسمع لها الأتباع، لا أن تكون آراؤهم قبلها، فضلاً عن أن تخالفها... ثم بينت أنه ينبغي الأدب معها.

بعدها كان الحديث عن نموذج لتجاوز الأدب، فجاء التنبيه والتوجيه.

ولخطورة الشائعات وأثرها في هدم كيان المجتمع، يأتي ما يوضح منهج التعامل مع نبا الفاسق، وفي الوقت نفسه، تنبه المصلحين لعدم اليأس، فلن ينصلح أمر المجتمع كله، بل سيبقى فيه فساق...

ولأن الاقتتال قد يقع، بسبب نبا الفاسق، أو لأي سبب آخر، فقد بين القرآن كيفية التعامل مع هذه المشكلة، للوصول إلى الصلح، فذكر بالعدل، لكونه من أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، العدل مع الفئة الباغية التي رفضت الانصياع لنداءات الصلح، واستمرت حتى أطلق عليها وصف الفئة الباغية، ومع ذلك يأمر القرآن بالعدل معها، ثم يؤكد هذا الأمر بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، المقسطين في أمورهم كلها، الذين يجعلون العدل أساساً لتعاملاتهم. ولتأكيد هذا العموم، نجد أن الآيات التي نهت عن صور من الانتقاص

(١) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، ابن الجوزي/١٤١، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي/١/٤٣٥.

التي تحصل بين أفراد المجتمع قد ختمت بـ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

ثم يقرر بعدها قاعدة عظيمة، وهي الأخوة؛ لكونها أساساً لبناء المجتمع، وكونها أيضاً مما يصونه ويحميه من الاقتتال، ويحمي من يتدب للإصلاح، فالكل أخوة، وعلى هذا الأساس أصلحوا بين أخويكم، وعلى هذا الأساس ينبغي أن لا تجوروا، ولتكن التقوى دافعكم، لعلكم ترحمون.

ثم تتوالى الآيات لتقتلع أسباب الخصام، الذي قد يؤدي إلى الاقتتال، وهي أمور لا يمكن أن تكون صفات لمجتمع متماسك ينشد الرقي والتحضر، ﴿ لَا يَسَخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾، ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾، ثم تفتح باباً للأمل وهو التوبة، والتوبة عامل مهم لإصلاح المجتمع، فلولاها لأصر الباغي على بغيه، وانتشر الظالمون، وخيم الفساد، ولتأثر بهم بعض أفراد المجتمع.

لقد أكدت هذه السورة الكريمة أهمية التوبة في مواضع شتى، أولها مع الذين رفعوا أصواتهم، ثم عادوا وامتثلوا الأمر الرباني، فجزوا بـ ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾، ثم للذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، بشرى وأمل ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، بل إن الآيات التي تضمنت منهيات كثيرة، بشر مرتكبوها - إن هم اتقوا الله بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾، وأخيراً الأعراب الذين قالوا آمنا، مدعين لأنفسهم هذا المنزلة، وُعدوا إن هم أطاعوا الله ورسوله بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إن هؤلاء الذين حادوا عن الجادة، هم لبنات ضعيفة، فإذا ما أهملت، أوجبته بالرفض من بقية أفراد المجتمع، فإنهم سيكونون معاول هدم في بقية اللبنة، وخصوصاً إذا علموا أن لا مكان لهم في العودة إلى المجتمع من جديد، فكان المنهج الرباني فريداً في التعامل معهم، وهذا كله من رحمة الله، فلكونه رحيماً تاب وغفر. ولكن السورة في الوقت نفسه، حذرت من إهمال التوبة تحذيراً شديداً، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾، فكانه لا ظالم إلا هم.

وللغبية أثرها السيء في إثارة الكراهية بين أفراد المجتمع، ولذا كان لها نصيب من التوجيهات، لكي يسلم المجتمع منها ومن ويلاتها.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾؛ لبيان أن الناس جميعاً مخلوقون من ذكر وأنثى، فلا مجال للتفاخر، الذي هو مدعاة للسخرية... وقد هدم الإسلام التفاخر بالأنساب؛ لكون غيرها من أنواع التفاخر، كالمال والجمال دونها....

ثم تذكر السورة الجانب الإياني الذي هو أعظم أسس بناء المجتمع، يعرضه أمراً واقعاً، من خلال وفد ادعى لنفسه منزلة الإياني، وهو لما يصل إليها بعد، فجاءت الآيات الكرييات لتوضح حقيقة الإياني، لترتقي بمن شاء لهذا السمو، فبينت أموراً لا بد من توافرها ليصبح المرء كامل الإياني.

وينتظم السورة أمر مهم جداً، هو الرقابة الداخلية، فابتداء بالافتتاحية ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مروراً بـ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وغيرها، وانتهاء بـ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، كل ذلك يأتي ليغرس في الفرد، هذه الرقابة، التي لا تتأثر بوجود أجهزة للمراقبة، أو انعدامها، فهي توقن أن الله يرى مكانها، ويسمع كلامها، ويعلم نواياها.

ولذا فإن تحقيق بناء المجتمع، يتم بعاملين: خارجي، وداخلي، وعليها يتم البناء.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبة بين محور السورة ومرحلة نزولها^(١).

تبدو المناسبة شديدة الترابط بين محور السورة ومرحلة نزولها، فالمحور هو بناء المجتمع

(١) قد تقرر أن من وسائل التعرف على محور السورة الوقوف على المرحلة الزمنية التي نزلت فيها. انظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم/ ٤١-٤٢. وقد رأيت أن مرحلة نزول السورة ألصق بالمحور الذي اخترته من اسمها.

والمرحلة مدنية متأخرة، وكما هو معلوم فإن السور المكية قد عنيت بغرس الإيمان في القلوب وبيان أصول الإخلاق الفاضلة، وما أن تكونت الدولة الإسلامية في المدينة، حتى شرعت الآيات الكريمة تبني هذا المجتمع؛ لتسمو به في مدارج الرقي، حتى تصل به إلى الإحسان فخطت للفرد من الأسس، ما يهذب قلبه وجسده، بصورة متناسقة متأخية، لا يطغى جانب على جانب. لينشأ النقي التقي القوي، وليتكون من هذا الفرد لبنة تُضم لباقي اللبنة، فتعلي صرح مجتمع قوي متماسك، متعلق بأقوى العرى.

كما أنها حفلت بالكثير من التوجيهات التي تقي هذا المجتمع من التصدع، فحذرت من تلقي أخبار الفساق بالقبول المطلق، مبينة المنهج الذي ينبغي أن يتبع، كما أنها نبهت إلى خطورة ما قد يتهاون فيه من السخرية واللمز... فبالإضافة إلى كونها توهي بناء الفرد، من حيث كون ما يفعله يزعزع إيمانه ويضعف خلقه، ومن ثم ينقله إلى زمرة الفساق ﴿يَسْأَلُكُمْ اللَّهُ عَنِ الْإِيمَانِ﴾، فإنها تخلخل بناء المجتمع، إذ هو مجموع هذه اللبنة.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، مبينة أن الله عز وجل سميع عليم، كما نهت عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ، والجهر له بالقول كما يجهر بعضنا لبعض ثم بينت جزاء من يمثل أمر الله عز وجل فيغض صوته عند رسول الله ﷺ، بأنهم قد امتحن الله تعالى قلوبهم للتقوى، ولا شك أن علم ما في القلوب غيبي، فكان أن ختمت السورة ببيان سعة علم الله عز وجل، وأنه يعلم غيب السموات والأرض، وأن كل ما نعمله فإن الله تعالى يبصره، فوجب على العاقل الامتثال لأوامر الله عز وجل، ومعلوم أن العلم بالشيء يقتضي المجازاة عليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يضاف إلى هذا أن السورة ابتدأت بأن الله سميع عليم، وختمت بتأكيد علم الله وأنه ﴿يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبأنه ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة الفتح بقول الله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزِجٍ أَخْرَجَ شَطَنَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَقَلَّدَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يَعِجِبُ الزَّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وافتتحت سورة الحجرات بما سبق ذكره.

وقد ذكر العلماء أكثر من مناسبة فيما بين السورتين، نذكر منها:

قال أبو حيان: « ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم قال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه، فقال تعالى: ﴿ رَجِيئٌ ﴾^(١).

ومنها: « أن الله تعالى لما بين محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته، بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿ رَجِيئٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال: لا تركوا من احترامه شيئاً، لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

[ومنها] أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء [على الكفار] ورحماء فيما بينهم، راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الشاء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة: لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا^(٢).

لما ختمت سورة الفتح باسم محمد ﷺ، ومُدِّح الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لأجله،

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/١٠٥.

(٢) التفسير الكبير، الرازي ٢٨/١١٠، وزيد ما بين المعقوفين.

افتتحت هذه السورة بعدم التقدم عليه، واشترط الأدب معه في القول والفعل، للعد من حزبه والفوز بقربه. (١)

ورد في خاتمة سورة الفتح ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفي سورة الحجرات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَسْوَأَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾﴾، فكان هذه الآية تبين أن غض الصوت بحضرة النبي ﷺ من مقتضيات الإيثار، كما أنه جزء من العمل الصالح.

رابعاً، المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

ذكر الله تعالى في بداية سورة الفتح رفعة منزلة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أراد له المنزلة العالية، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ وفي افتتاحية سورة الحجرات ما يؤكد هذا المعنى، فنبه الصحابة إلى توقير النبي ﷺ فنهى عن التقدم بين يديه... فعطف النهي عن التقدم بين يدي رسول الله ﷺ على التقدم بين يدي الله عز وجل، ولا شك أن في ذلك تشريفاً ورفعة، كما أنه ﷺ وُصف بالرسول دون ذكر اسمه المجرد، وأضيف إلى المولى عز وجل إضافة تشريف، كما ذم رفع الصوت بحضرة وعند مخاطبته، وكل ذلك تشريف له ﷺ، وانظر إلى ما ورد في سورة الفتح من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾؛ لتدرك ما بينهما من ارتباط، ثم عرّج على ما نص عليه في سورة الحجرات ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾....

تحدثت السورتان عن الصحابة رضي الله عنهم، ففي سورة الفتح: هم المؤمنون الذين أنزل الله في قلوبهم السكينة ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم...، وهم الذين سيدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار...، وهم الذين بايعوا الرسول ﷺ، وهم بهذه البيعة إنما يبايعون الله عز وجل...، وهم الذين رضي الله عنهم؛ لبيعتهم رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم... وهم الذين أنزل الله سكينته على رسوله وعليهم، يوم جعل الذين كفروا

(١) انظر نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٢٠.

في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها...، وهم من وصفهم ربهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في..

هذا مما ورد في سورة الفتح، فماذا في سورة الحجرات:

إن هؤلاء الصحابة مهما بلغوا من المنزلة فهم غير معصومين، وهم ليسوا فوق النقد ومن ثم تأتي التوجيهات الربانية؛ لتبين كيف ينبغي على هؤلاء الصحابة الكرام الذين بلغوا هذه المنزلة العظيمة أن يتعاملوا مع نبيهم ﷺ، وقد كان التوجيه لأفضل الصحابة على الإطلاق.

ثم يأتي الثناء على الغاضين، ويدخل فيهم من نزلت الآيات بشأنه، فقد ورد في السنة ما يبين أنهم امتثلوا للأوامر الربانية، ففي صحيح البخاري بعد ذكر سبب النزول الذي سيأتي ذكره^(١): «قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ^(٢)» ولذا وصفوا بأنهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، فهم قد اختبر الله تعالى قلوبهم، فاصطفاها وأخلصها للتقوى،^(٣) وبأن لهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها، وأجرأ عظيماً، وهو الجنة. وقارن بما بيناه في سورة الفتح، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

نجد بعد ذلك الإشارة إلى تشریف الصحابة رضي الله عنهم، فقد اختارهم العليم الخبير لصحبة نبيه ﷺ، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ﴾ قال البقاعي: «أي: على وجه الاختصاص لكم

(١) عند المعنى الإجمالي للافتتاحية.

(٢) صحيح البخاري، رقم/٤٨٤٥، أما ما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار. فقد قال الهيثمي: «رواه البزار، وفيه حصين بن عمر الأحمسي، وهو متروك. وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد ٧/١٠٨.

(٣) انظر جامع البيان، الطبري ١١/٣٨١.

ويا له من شرف». (١) ثم التصريح بأن الله حب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم وصفوا بأنهم الكاملون في الرشاد، وأن هذا تفضل من الله ونعمة، والله عليم بمن يستحق هذا الفضل والإنعام، حكيم يضع الأمر فيمن يستحقه.

ثم لو نظرنا لمحور سورة الحجرات الذي اخترناه، لتبين أن السورة كما أسلفنا تريد أن تسمو بهذا الصحب الكريم إلى آفاق عالية، بفضل التوجيهات الربانية التي وردت في أثناء هذه السورة الكريمة، لتبني بهم مجتمعاً يكون قدوة للمجتمعات من بعده.

ومن المناسبات بين السورتين ما نجده من ذكر الأعراب، وهذا واضح بين، فقد شغل حيزاً في السورتين، وبقليل من التأمل يظهر المقصود بإذن الله تعالى. إلى غير ذلك. والله تعالى أعلم.

افتتاحية السورة

يقول الله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ رِسَالَاتِهِمْ فِي الْحَقِّ وَلِيُنْذِرَهُمْ وَأَعْلَمَهُمُ الْحَقَّ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَنَّ الْعَظِيمُ﴾ (١) يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ رِسَالَاتِهِمْ فِي الْحَقِّ وَلَا يُجَاهِدُونَ اللَّهَ وَالْقَوْلُ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾.

المعنى الإجمالي

بالتأمل في محور السورة نستطيع أن نتبين أن افتتاحية السورة قد أخذت منها حيزاً كبيراً، فهي تريد أن تنشئ مجتمعاً على هدي من الوحي، ولذا فقد تقدمت عملية بناء المجتمع افتتاحية، تضمنت بيان أن هذا المجتمع الذي يراد بناؤه، لا بد له من قيادة، وهذه القيادة يلزم المنقادين

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٢٨.

لها المؤمنین بشرعتها التقيد بأمره، ينبغي أن يسلموا بها قبل البدء ببيان كيف يكون البناء، وإلا كان الحديث بعد ذلك لا طائل من ورائه.

ابتدأت الافتتاحية بقول الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْقَضُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾، ولهذا الآية سبب نزول يحسن إيراده هنا؛ ليتضح المعنى، فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن الزبير أخبرهم أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد بن زرارة. قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. قال عمر: ما أردت خلافاً. فتمازياً حتى ارتفعت أصواتهما. فنزل في ذلك ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا﴾ حتى انقضت. (١)

يخاطب الله تعالى من آمن به، وأقر بوحدانيته، بأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله ويتحرر من كلام العلماء أن التقدم على نوعين:

الأول: السبق في القول والعمل، وإن لم يكن فيه مخالفة، وفي هذا يقول ابن كثير: «لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور». (٢)
الثاني: أن لا يقولوا ما يخالف الكتاب والسنة (٣).

وبناء على هذا التقسيم، ومن دراسة سبب النزول نعلم أن مافعله الشيخان، لا يعدو أن يكون اقتراحاً أبدوه، لكنهم تقدموا، أي: سبقوا باقتراحهما قول رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بيد أنهما لم يخالفاه - وحاشاهما - أضف إلى ذلك أنه لم يكن ثمة نهي قد نزل بهذا الشأن، فنزلت هذه الآيات؛ تعليماً لها، وللأمة ما الذي ينبغي عند مخاطبة النبي ﷺ. والله تعالى أعلم.

(١) صحيح البخاري برقم/٤٣٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٦٠.

(٣) هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، انظر جامع البيان ١١/٣٧٧.

وقد جمع الإمام الطبري بين القولين فقال: «لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله». (١) ومما ينبغي أن يعلم أن النهي يشمل.

والنهي عن التقدم عام، يشمل الأقوال والأفعال، وسواء قدم المرء قوله أو قول غيره وسواء قدم عقله أو عقل غيره... (٢).

ثم أمرهم عز وجل بأن يخافوا الله تعالى في كل ما يأتون وما يذرون من أمورهم، فلا يبدر منهم ما لم يأذن به الله عز وجل أو رسوله ﷺ، كما يأمرهم أن يراقبوه عز وجل؛ لأنه سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم وأحوالهم. (٣)

ثم نهى الله عز وجل من آمن بالله تعالى وصدق رسوله ﷺ، أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، وإن لم يكن هناك تقدم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.

ونعود إلى معنى الآية، فبعد أن نهت عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، نهتهم أن يحدثوه كما يحدث بعضهم بعضاً إذا كلموه، بل لا بد أن يخفصوا أصواتهم، وإن ينادوه ب: يا رسول الله، أو يا نبي الله، فتبين أن قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ فيما إذا تُحَدَّثُ بحضرة، و﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ إذا كان الحديث معه ﷺ، ولعل ما يؤيد هذا أن ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ وما قبلها، نزلت بشأن الشيخين رضي الله عنهما، وقد كانت أصواتها قد ارتفعت بحضرة النبي ﷺ، أما ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ فهي تمهيد لما حصل من الأعراب الذين نادوه ﷺ، فرفعوا أصواتهم، ونادوه باسمه ﷺ، وستأتي الآية المصرحة بذلك. فيعلم بذلك، أن التأدب معه ﷺ يكون في الأحوال كلها.

(١) جامع البيان ١١/٣٧٧.

(٢) انظر لما سبق جامع البيان ١١/١٧٧-١٧٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٠، وبدائع التفسير، ابن القيم ٤/١٧٧.

(٣) انظر جامع البيان ١١/٣٧٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٠، وأضواء البيان، الشنقيطي ٧/٤٠٧.

ثم يأتي التحذير من مغبة المخالفة ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: «إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده؛ خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري». (١) وقد ناقش بعض العلماء هذه القضية، وهي أن رفع الصوت من غير علم يحبط العمل، فبينوا أن المراد أن «عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ، يعود النفس بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيء إلى أشد منه، حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه، وذلك كفر». (٢)

وبعد هذا الترهيب الشديد، امتدح الله تعالى من يغض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن هؤلاء قد تبوؤوا منزلة عالية، فهم قد اختبر الله تعالى قلوبهم، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها ويبطل خبيثها. (٣)، ثم بين عز وجل جزاءهم: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، «عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه عنها لهم، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جزيل، وهو الجنة». (٤)

هدايات الافتتاحية

- * في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تشریف وتكريم لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله ومدحهم بذلك، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧] (٥).
- * وجوب كون المسلم تابعاً للكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، فالواجب هو الاتباع لا التقدم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في هذا

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/٢٢١.

(٣) انظر جامع البيان ١١/٣٨١.

(٤) جامع البيان ١١/٣٨١.

(٥) حول تفسير سورة الحجرات، الشيخ عبد الله سراج الدين / ١١. بتصرف يسير.

كل تقدم، سواء أكان بالأقوال أو الأفعال أو..، وسواء كان التقديم لآرائنا أم لآراء غيرنا، فمن يقدم شرعاً وضعياً على شرع الله تعالى ورسوله، فقد شمله النهي الوارد فيها. يقول الشنقيطي: « ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله. »^(١)

* في قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ما يؤدي إلى توحيد مصدر التلقي، وهو وحي رب العالمين، ولقد بين القرآن التفاوت بين من هذا حاله، وبين من تعددت مصادر تلقيه، يقول عز وجل: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]، وهذا الأمر يعصم الفرد من الحيرة والتمزق اللذين يفسدان حياته،^(٢) كما أنه عامل مهم في تجانس أفراد المجتمع.^(٣)

* عظم منزلة النبي ﷺ، ولذا ينبغي أن لا يسبق بقول أو فعل أو عقل، كما أنه لا ينبغي أن ترفع الأصوات بحضرته، وهنا نبين أن على المسلم أن يتأدب بهذا الأدب عند زيارته للنبي ﷺ، كما أن عليه أن يراعيه مع سنته من بعده. فلا يرفع من صوته إذا قرئت. ولا يتقدم عليها إذا ما ثبتت.

* مما ينبغي أيضاً عند الحديث عن النبي ﷺ ألا يذكر اسمه مجرداً، بل لا بد أن يسبق اسمه الشريف بالنبي أو الرسول. وأن يقرن بالصلاة والسلام عليه.

* مما يدخل تحت التقدم بين يدي الله وسوله، ما يفعله بعض الناس من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهي أشد أنواع التقدم، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك فقال: (... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ

(١) أضواء البيان/٧/٤٠٧.

(٢) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، محسن عبد الحميد/٤٤

(٣) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، عبد المجيد مسعود/٨٠.

ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُتِّي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالتَّوَجِدِ).^(١)

فالدین قد اکتمل، ولا مجال للعقول أن تستدرك على الشرع.^(٢)

* ما يفعله بعض المتصدرين للفتوى من تسرع، لا شك أنه داخل تحت قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فينبغي عدم التسرع والعجلة؛ لأنهم موقعون عن رب العالمين، وقد نهوا عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، كما ينبغي عدم إعمال الرأي فيما لا مجال للعقل فيه.^(٣)

* في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤). دليل على علو منزلة النبي ﷺ ورفعة مقامه عند الله عز وجل، فقد جعل الله تعالى للذين يعضون أصواتهم عنده، ويلتزمون الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها.^(٥) ووعدوا على ذلك مغفرة وأجراً عظيماً.^(٥)

* لا أحد من البشر يستغني عن التذكير، فالشيخان الجليلان: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قد نهيا.

* عناية الله تعالى بتهديب عباده؛ للوصول بهم إلى درجات الكمال.

* خطورة اللسان، وأنه ينبغي الاحتراز منه ومن آفاته «إن الإسلام ينظر إلى الكلام على أنه عمل، وسوف يحاسب صاحبه على أعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(٦).

* روعة المنهج القرآني في التنبيه على الأخطاء، فالقرآن الكريم لم يصرح باسم من صدر عنه

(١) أخرجه أبو داود، برقم/ ٤٦٠٧، والترمذي، برقم ٢٦٧٦. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر تفسير القرآن الكريم، (سورة الحجرات...)، ابن عثيمين ٨-١١.

(٣) انظر المصدر السابق / ١١.

(٤) انظر حول تفسير سورة الحجرات / ٤١.

(٥) انظر المصدر السابق / ٥٤.

(٦) بناء الأجيال، عبد الكريم بكار / ٥٠.

هذا الأمر، كما أنه قدمه بذكر وصف محب، وهو الإيمان، ولا شك أن عدم ذكر الأسماء أدعى للامثال.

* ارتباط اللسان بالقلب، يتضح هذا من قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾.

* في قوله تعالى: ﴿آمَتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ «إشارة إلى أن قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله، قد أعدها الله تعالى، وأرادها لتكون مستقراً ومستودعاً للنقوى، وهذا هو السر في تعدي الفعل ﴿آمَتَحَنَ﴾ باللام، في قوله تعالى: ﴿لِلنَّقْوَى﴾، مع أن الأصل في فعل الامتحان أن يعدى بالباء... وفي هذا ما يشير إلى أن تلك القلوب.. قد امتحنت فعلاً بالنقوى، وقد نجحت في هذا الامتحان، فأصبحت قابلة للنقوى متجاوبة معها...»^(١).

* عظم منزلة الصحابة عز وجل، وبخاصة الشيخان الذين امتثلا أمر الله تعالى في هذا الأمر، وقد مر ذكر ذلك. فقد كان الرسول ﷺ يسألهم عن أمور يعلمونها حق العلم، فيخرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم،^(٢) أخرج البخاري بسنده عن أبي بكره قال: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بغير اسمه، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بغير اسمه. فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بغير اسمه، قَالَ: أَلَيْسَتْ بِالْبَلَدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى...»^(٣). فأعظم بهذا الأدب وأكبر بهذا الامثال.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/٤٣٦.

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٣٣٨.

(٣) صحيح البخاري، برقم/ ١٧٣٩ وصحيح مسلم، برقم/ ١٦٧٩.

- * مراقبة الله تعالى في السر والعلن، فالله تعالى يسمع أقوالنا ويعلم نوايانا، وفي هذا غرس للرقابة الذاتية الداخلية، التي تخلو منها التشريعات الوضعية.
- * ينبغي أن لا يستهين الإنسان في أي شيء يفعله، خيراً كان أو شراً، فقد ورد التهديد الشديد على من يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، وعلى الذي يجهر له بالقول... وتوعد على ذلك بحبوط العمل، ووعد من يغض صوته عند رسول الله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم.
- * فيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إن الله تعالى يعلم الكلليات ولا يعلم الجزئيات، فالحديث الذي دار بين الشيخين رضي الله عنهما في شأن تأمير شخص على وفد بني تميم، لا شك أنه من الجزئيات.
- * ينبغي احترام العلماء، وعدم رفع الصوت بحضرتهم، وكذا عند مخاطبتهم، بل ينادون بما يُشعر بتوقيرهم.
- * في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ما يبرز التوبة كأساس من الأسس المهمة في بناء المجتمع ذلك أن أمر التوبة وإن كان يبدو أنه أمر بين العبد وربّه، لكنه ذو تأثير معنوي في الأفراد، ومن ثم المجتمع، فالفرد لا يخلو من أن يقع في بعض الذنوب، ومن أن يساوره اليأس من الغفران، والطمع حيناً في العفو، وليس هذا وذاك مما تستقر عليه النفوس، وتهدأ به الحياة وإذا استولى القلق النفسي على الأفراد، فصاروا إلى خوف مسرف أو يأس مفرط، فإن المجتمع يصيبه من ذلك نوع من الشلل أو الخلل، فكان من الحكمة أن يبين هذا الأمر حتى يعلم العاصي أن له رباً رحيماً، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

المقطع الأول: بناء المجتمع، أسس ومحاذير

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلِكُمْ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَنِيدِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَرِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءُ مِنْ يَسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبْنَا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

المناسبات بين المقطع الأول وافتتاحية السورة

تضمنت الافتتاحية النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله،.. ثم ذكرت الأدب مع الرسول ﷺ، وابتدأ المقطع الأول بأمر قد حدث، أعراب يرفعون أصواتهم، طالبين خروج رسول الله ﷺ إليهم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

ثم أعقبتها الآيات التي تؤكد على أنه لا ينبغي التقدم بين يدي الله ورسوله، ما دام الرسول ﷺ فيهم، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾، معللة بأن النبي ﷺ لو أطاعهم في كثير من الأمور، لأصابتهم المشقة، التي قد تفضي للهلاك. ثم أعقب ذلك بيان منة الله تعالى عليهم، إذ حجب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم... فعليهم أن يجعلوا هذه الآداب نصب أعينهم؛ لأنها من

مستلزمات الإيمان.

ثم بعد ذلك أخذ المقطع في بيان ما شرعه الله تعالى من آداب وأسس، من شأنها أن تسهم في صياغة المجتمع الذي يود الإسلام بناءه، وهو ما يجب أن يلتزم به ولا يُتقدم عليه...

التفسير الإجمالي

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ ذكر العلماء ههنا سبباً للنزول « عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: جاء ناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً، فنحن أسعد الناس به، وإن كان ملكاً عشنا في جناحه، فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا، ثم جاؤوا إلى حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادون: يا محمد يا محمد، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني وقال: لقد صدق الله قولك يا زيد». ^(١) يخاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبين له أن الذين يرفعون أصواتهم لتقبل عليهم، وينادونك بغير اللائق بك، أكثرهم لا يحسنون الأدب، ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصنع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أي: انتظروا حتى تخرج أنت إليهم، لا أن يخرجوك هم ^(٢)، فيزعجوك، لكان هذا الصبر خيراً لهم في الدنيا ^(٣) والآخرة. ثم دعاهم عز وجل للتوبة فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١١/٣٨٢، والواحدي في أسباب النزول / ٢٦٦، والطبراني في المعجم الكبير، برقم/ ٥١٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٠٨: « وفيه داود بن راشد الطفاوي، وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات». قال الشيخ إبراهيم محمد العلي في صحيح أسباب النزول / ٢٠٢-٢٠٣: « والحديث حسن لشواهده، ولذا حسنه السيوطي في لباب النقول / ٩٥». وكذا قال د. حسن البلوط في رسالته (أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان) ٣/ ١٠١٥] وقد ترددت في ذكر هذا السبب لما تقدم من كلام بعض العلماء عليه، لكنني لما رأيت تحسين من تقدم له، أثرت إيراده، والعلم عند الله. ولا يخفى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب].

(٢) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٢٥.

(٣) ذكر أن الخير الدنيوي فداء جميع أسراهم، وكانوا قد جاءوا لطلبهم، بيد أن سند الرواية ضعيف، ومتنها=

فمن رحمته فتح لكم باب التوبة.

بعد هذه الآية الكريمة التي تعرض نموذجاً لعدم مراعاة حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، وهو القدوة للمجتمع المسلم، وقائده، يبين الله عز وجل المنهج الذي ينبغي أن يسلكه المجتمع المسلم في التعامل مع الأنبياء، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(١)، فيأمر عز وجل المؤمنين بالثبوت والتبين مما يأتي به الفاسق من أنباء، والنبا، هو: خبر ذو فائدة عظيمة...»^(٢)، والأمر بذلك؛ ليحتاط له؛ حتى لا يحكم بقوله،^(٣) وهنا نلاحظ منهجاً محكماً، فلم يوص بإهماله وعدم الالتفات لخبره، ولم يدع للمسارعة لقبوله، فهو نهج وسط، إذ يدعو للترث؛ للتأكد من صحته، قال الراغب: «... إذا كان الخبر شيئاً عظيماً له قدر فحقه أن يتوقف فيه، وإن علم وغلب صحته على الظن، حتى يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبين». ^(٤)، ثم يبين عز وجل سبب هذا التوجيه فيقول: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينًا﴾، أي: خشية أن تصيبوا قوماً بسبب جهلكم بحقيقة حالهم، «فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به،

= أضعف، وقد أحسن الشيخ عبد الله سراج الدين حين قال: «وهذه الرواية ضعيفة بل مردودة، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أكرم من أن يؤاخذهم أو يعاقبهم بذلك لسوء أدهم معه، وقد قال الله تعالى له: ﴿خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ حول تفسير سورة الحجرات / ١٤.

(١) أورد كثير من المفسرين سبباً لنزول هذه الآية، وهي روايات ضعفها العلماء، انظر العواصم من القواصم، ابن العربي/ ٩٨-٩٠، وتعليق محب الدين الخطيب، بهامش العواصم، ولكتاب هذه السطور بحث محكم حول هذا السبب، بين فيه ضعف هذه الروايات سنداً وامتناً، وقد نشر في مجلة الباحث الجامعي التي تصدر في جامعة إب باليمن، في العدد الأول، سنة ١٤١٨ هـ الموافق ١٩٩٨ م، بعنوان (سبب نزول الآية السادسة من سورة الحجرات، دراسة ونقد). وعليه فلم أشر لهذا السبب في المتن، وقد أحسن الشيخان الفاضلان: مقبل الوداعي، وصالح العلي، إذ لم يذكرهما في كتابيهما المتعلقين بأسباب النزول.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (نبا).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم / ٤ / ٢٦٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (نبا).

ثم تستديمونه». (١)

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، والصحابة عز وجل يعلمون هذا، ولكنه لفت للنظر إلى ما يمكن أن يغيب عن الأذهان، بسبب الإلف والعادة، وبخاصة ونحن نعلم ما كان عليه الرسول ﷺ من التواضع، مما قد يذهل عن هذه الحقيقة، فلتستحضرُوا هذا الأمر دائماً، فهو رسول الله، ولا ينبغي التسرع في القول بين يديه، وهو فيكم، والرجوع إليه أمر ميسور، ونلاحظ أن قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾، وتقديمها ﴿فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ تتضمن تشريراً^(٢) فقد اختصكم الله عز وجل بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفاً، بما يوجبه وجود هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم، وهو ما تؤكد هذه السورة بعض حقوقه على أمته. «فَعِظْمُوهُ وَوَقَرُوهُ، وَتَادَبُوا مَعَهُ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ، وَأَشْفَقَ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ، وَرَأَى فِيكُمْ أَتَمَّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَوَّلَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]»^(٣).

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾، يعني: «لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بأرائكم ويقبل منكم ما تقولون له فيطيعكم ﴿لَعَنْتُمْ﴾ يقول: لناكم عنت، يعني: الشدة والمشقة في كثير من الأمور، بطاعته إياكم لو أطاعكم؛ لأنه كان يخطئ في أفعاله... ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ﴾ بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسول الله، وتأتون به، فيقيكم الله بذلك من العنت... قوله: ﴿وَرَزَيْنَهُمْ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يقول: وحسن الإيابة في قلوبكم فأمتمم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ بالله ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ يعني: الكذب، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ يعني: ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسول الله ﷺ، وتضييع ما أمر الله به.... ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾... السالكون طريق الحق». (٤) مع تصلب وثبات. (٥)

(١) التفسير الكبير، الرازي ٢٨/١٢١.

(٢) نظم الدرر ٧/٢٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٦.

(٤) جامع البيان ١١/٣٨٥، بحذف يسير.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/٦٥.

﴿ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۗ ﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾ عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره. ^(١) لا يضع هدايته إلا لمن يستحقها.

ثم بين القرآن الكريم النهج الذي ينبغي أن يتبع فيما لو حصل اقتتال بين المؤمنين، والإسلام لا يريد من معتقيه أن يتقاتلوا، ولكن وقوعه أمر ممكن، وبخاصة أن النفوس قد جبلت على الاختلاف، وهو مظنة التنازع، بيد أن القرآن يورده في سياق يجعل وقوع الاقتتال أمراً نادراً، أو قليل الوقوع، فيقول عز وجل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾، وقد ذكرت عقب التحذير من الاستعجال في تصديق خبر الفاسق، لتفادي ما قد يحصل. ^(٢)

أخرج البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي فَاظَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَاظَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ، وَهِيَ أَرْضٌ سَبْخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لِحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ. فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِّنْ قَوْمِهِ، فَسْتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ. فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنَّعَالِ. فَلَبَغْنَا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٣).

هذه الآية الكريمة تبين أنه إذا أرادت طائفتان من المؤمنين الاقتتال، بأن بدرت بوادره

(١) تفسير القرآن العظيم/ ٤/ ٢٦٧.

(٢) انظر التفسير الكبير/ ٢٨/ ١٢٦.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٢٦٩١، ومسلم برقم/ ١٧٩٩. قال ابن عاشور: «ويناكد هذا أن تلك الوقعة كانت في أول أيام قدوم رسول الله ﷺ المدينة. وهذه السورة نزلت سنة تسع من الهجرة وأن أنس بن مالك لم يجزم بتزولها في ذلك لقوله: فلغنا أن نزلت فيهم ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾. اللهم أن تكون هذه الآية ألحقت بهذه السورة بعد نزول الآية بمدة طويلة. التحرير والتنوير ٢٣٨/ ٢٦.

أو حصل الاقتتال، فعلى المسلمين أن يسعوا ويبادروا إلى الصلح بينهم، وذلك بدعوتهم إلى حكم الله عز وجل، فإن حصل التعدي بعد ذلك من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، وأجابت الأخرى، كان على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت عن بغيتها، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدّي ما يجب عليها للأخرى. ففي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله، انصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره^(١) ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتلتين فقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: واعدلوا وأزيلوا الجور، إن الله يحب من كانت هذه صفته، ومحبه لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. ^(٢) كما أن فيه وعيداً شديداً لمن لا يعدل، إذ يعني بغض الله تعالى له، وما يستلزمه من مجازاتهم بأسوأ الجزاء.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وهذه الآية «تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، فالجملة موقعها موقع العلة، وقد بُني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة. وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين»^(٣)، والمراد أخوة الدين. ^(٤) قال القرطبي: «أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»^(٥). وهذا ما أكدّه الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا

(١) صحيح البخاري برقم / ٦٩٥٢.

(٢) انظر فتح القدير ٥/ ٦٧-٦٨، بتصرف يسير. وانظر جامع البيان ١١/ ٣٨٧. والتفسير الكبير ٢٨/ ١٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٣.

(٤) انظر جامع البيان ١١/ ٣٨٩، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٢-٣٢٣.

يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (١) والأحاديث كثيرة في هذا المعنى، وهي تبين واجبات الأخوة الإسلامية، ومن أجمعها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ). (٢) بل إن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وصف حال المسلمين بوصف بليغ، ينبغي على كل من يريد إقامة مجتمع متين أن يعيه ويمثل ما يرشد إليه، داعياً الآخرين إلى ذلك. يقول صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى). (٣)

وهذا يعني أن رابطة الأخوة تقتضي التعاون والتحاب والتناصح، لا التباغض والتنافر والتناقض، كما أنها تستدعي التدخل لفض ما قد يحصل من خصومات بينهم، فهم أخوة والافتتال بين الأخوة مفسدته عظيمة...، ثم هم أخوتكم أنتم أيها المصلحون.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، يعني بـ ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. (٤) وقال بعض العلماء: أي بين الفئتين. ولا تعارض بين القولين، كما مر.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يخاطب المولى عز وجل «جميع المؤمنين، فيشمل الطائفتين الباغية والمبغية عليها، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينها ومقاتلة الباغية، فتقوى كل بالوقوف عند ما أمر الله به كلاً بما يخصه. ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾: تُرْجَى لَكُمْ الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ، فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة

(١) صحيح البخاري برقم/ ٢٤٤٢. وصحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٠.

(٢) صحيح البخاري برقم/ ١٢٤٠، ومسلم برقم/ ٢١٦٢.

(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٦.

(٤) فتح القدير ٥/ ٦٨. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٣، والبحر المحیط ٨/ ١١١.

بين المؤمنين وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها». (١) ولا شك أن الآية أطلقت الرحمة، فتشمل رحمة الله تعالى للمتقين في الدنيا والآخرة، وهو ترغيب، لكنه يتضمن تهديداً: أن من انسلخ من هذا الوصف فإن رحمة الله عز وجل بمنأى عنه.

ثم حذر القرآن مما يورث العداوة ومن ثم الاقتتال، فقلع أسبابه من جذورها، يقول عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَّ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَو أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَو أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فبدأ بالنهي عن السخرية، وهي: احتقار الناس والاستهزاء بهم... إذ قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له (٢)؛ «لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات». (٣) وقد نهى الله تعالى الرجال والنساء جميعاً للعللة نفسها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: الاغتياب وتتبع المعاب. (٤) ولذا قال الطبري: «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيها المؤمنون، ولا يطعن بعضكم على بعض». (٥) وعلى هذا يحمل ما سيأتي من النهي عن الغيبة من باب ذكر الخاص بعد العام، إذا كان اللمز يشمل المغتاب والعتاب، لكن هناك من ذهب إلى أن اللماز هو العياب (٦) قال ابن عاشور: «اللمز: ذكر ما يعده الذاكر عيباً لأحد مواجهةً، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلاً فهو وقاحة وكذب، وكان شائعاً بين العرب في جاهليتهم» (٧)،

(١) التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٤٥ بحذف يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢٦٨ بتصرف يسير.

(٣) الكشف، الزمخشري ٤ / ٣٧١، وانظر البحر المحيط ٨ / ١١٢.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (لمز).

(٥) جامع البيان ١١ / ٣٩١.

(٦) ذكر ابن فارس ذلك فقال: «... اللمز وهو العيب... ورجل لماز ولمزة، أي: عياب» معجم مقاييس اللغة

(لمز). وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٣٢٩. والبحر المحيط ٨ / ١١٢، وإرشاد العقل السليم ٦ / ١١٧.

(٧) التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٤٨. ثم قال بعدها: «وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز

وهذا الذي ذكرته هو المتخول من ذلك».

فالله أعلم بمراده. وفي التعبير بـ ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ سر لطيف، وهو أن المسلمين كنفس واحدة، فالذي يطعن أخاه كأنه طعن نفسه، « فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، والمعنى: ولا يقتل بعضكم بعضاً.^(١)»

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، أخرج الطبري بسنده عن أبي جبريرة بن الضحاك، قال: كان أهل الجاهلية يسمون الرجل بالأسماء، فدعا النبي ﷺ رجلاً باسم من تلك الأسماء، فقالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.^(٢) والمراد النهي عن « دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة»^(٣) وقد استثنى العلماء من ذلك ما يقال لشهرة هذا اللقب على صاحبه، حتى لا يعرف إذا أطلق سواه، ولا يكون على سبيل التنقص. كالأعمش والأعرج ونحوهما،

ثم ذم الله تعالى التنابز المذموم بقوله: ﴿بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ وللعلماء فيها قولان:

الأول: بئس رجوعك للفسق بعد أن آمنت.

الثاني: بئس وصفك أخاك بالفسق بعد أن آمن.^(٤)

ولعل الأول هو الأرجح؛ لما فيه من التهديد الشديد لمن يفعل ذلك، وإن كان القول الثاني مراداً، فإنه يقبح بالمسلم أن يصف أخاه بالفسق أو الكفر بعد أن تاب وأقبح.

ثم ذكر القرآن أن ما يحصل من هذه الأخلاق الرديئة التي قد لا يلتفت لقبحها، إثم يجب على من فعله التوبة، فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هم الظالمون لا غيرهم،

(١) انظر جامع البيان ١١/٣٩٠.

(٢) جامع البيان ١١/٣٩١، قال د. حسن شبالة في رسالته: أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان (جمعاً وتخريجاً ودراسة) ٣/١٠٢٨: «إسناده صحيح».

(٣) المصدر السابق ١١/٣٩٣.

(٤) انظر التفسير الكبير ٢٨/١٣٣.

فقد ظلموا الآخرين بالاعتداء عليهم، وظلموا أنفسهم حين ارتضوا لها هذه المنزلة التي يسفل بها حال العاقل، فضلاً عن المسلم الذي ارتوى من معين القرآن والسنة، وظلموها إذ انشغلوا بعيوب الآخرين عن الانشغال بتفقد عيوبهم، والانصراف لما يصلح أحوالهم، ثم ظلموها في الآخرة حين ارتضوا لها عقاب الله تعالى. (١)

ثم تتوالى الآيات الكريمة وهي تبني المجتمع على الأسس الفاضلة، فتعالج ما يضره، يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آبَتْينُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّك بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، يعود النداء ليؤكد أن المخاطبين قد ارتضوا هذا الدين، فعليهم أن يرتقوا لقمته، والمطلب رفيع ﴿آبَتْينُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي: كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا الظن في جانب بعيد عنكم (٢) والمراد بالظن: «التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله». (٣)

والنهي عن الظن أمر بعدم التهادي فيه، ثم تحقيق موجبه، وإلا فالظن الذي يهجم على الإنسان اضطراراً دون اختيار لا يؤاخذ عليه.

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ إخراج للظنون التي عليها تبني الخيرات قال الله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين فالظن فيه غير مجتنب. مثاله: حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود. إلى غير ذلك. (٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّك بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، قد يشير إلى أن أكثر الظن ليس بإثم، بناء على أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، وظن السوء على نوعين: ما قامت قرينة على وجوده، وما لم تقم، ولا شك أن الأول ليس بإثم، (٥) وبذا يتحقق المراد من الآية

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٦/٢٥٠.

(٢) نظم الدرر ٧/٢٣٤ بتصرف يسير.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٩.

(٤) التفسير الكبير ٢٨/١٣٤ بتصرف يسير.

(٥) انظر تفسير القرآن الكريم (الحجرات....)، ابن عثيمين/ ٥٠.

الكريمة، فلقد نهى القرآن عن كثير من الظن، من باب الاحتياط - كما مر -.

ولما كان الاسترسال في الظن قد يدعو صاحبه ليتحقق من الأمر، نهى الله عز وجل عن التجسس، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ «ولا يتتبع بعضهم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره؛ يتبغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره»^(١) وفي الحديث: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا...)^(٢).

ثم نهى الله عز وجل عن الغيبة فقال: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وقد بين رسول الله ﷺ معنى الغيبة فقال: (أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: لله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبت به. وإن لم يكن فيه، فقد بهته).^(٣) وهذا الحديث الشريف جامع لكل ما قد يتساهل فيه بعض الناس مما لا يعدونه غيبة، فكل ذكر لأخيك في غيبته بما يكره فهو غيبة، سواء أكان ذلك مما له تعلق به أو بغيره، من ولد أو مال أو زوجة أو غير ذلك، فهو بيان من أوتي جوامع الكلم ﷺ، وبهذا يتبين مدى تساهل الناس في هذا الأمر، ولننظر في وصف الله تعالى للمغتاب، لقد وصف بصفات ينفر عنها كل ذي نفس كريمة ﴿أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ولقد أجاد الزمخشري هنا في بيان ما تضمنته من التنفير فقال: «منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. [فلم يقل الله تعالى: أيتحمل، أو نحوها] ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً ومنها

(١) جامع البيان ١١/٣٩٤.

(٢) صحيح البخاري برقم/٥١٤٣. وصحيح مسلم برقم/٢٥٦٣.

(٣) صحيح مسلم برقم/٢٥٨٩.

أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً. (١)

وقد أكد النبي ﷺ التحذير من خطورة الغيبة، فتوعد المغتابين المتتبعين عورات المسلمين فقال: (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ) (٢)

وقد استثنيت من حرمة الغيبة أمور، ذكرها الإمام النووي، ولأهميتها، وكثرة السؤال عنها، نوردها بتمامها - سوى حذف يسير -:

«اعلم أن الغيبة تباح لغرضٍ صحيحٍ شرعي، لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب: الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلانٌ بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلانٌ يعمل كذا، فازجره عنه. ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلانٌ بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائزٌ للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك، فالتعيين جائزٌ...

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجرحين من الرواة والشهود، وذلك جائزٌ بإجماع المسلمين، بل واجبٌ للحاجة.

(١) الكشف/٤/٣٧٦. وزيد ما بين المعقوفين.

(٢) مسند أحمد برقم/١٨٩٤٠.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساويء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقاً يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفق بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحةٌ فليتفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولايةٌ لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولايةٌ عامةٌ ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس وأخذ المكس؛ وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به؛ ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سببٌ آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب؛ كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك؛ ويحرم إطلاقه على جهة التنقص؛ ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمعٌ عليه؛ دلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورةٌ...»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنْقُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ « فحافظوا عقوبته بانتهاكم عما نهاكم عنه من ظنٍّ أحدكم بأخيه المؤمن ظنَّ السوء، وتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه،

(١) رياض الصالحين، النووي/ ٤٥٠-٤٥١، بحذف يسير.

تريدون به شينه وعييه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم». (١) ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن رحمته قبل توبتكم ورجوعكم من هذا الذنب العظيم، وهذه دعوة من رب رحيم للإقلاع عن هذا الداء الذي ابتلي به كثيرون.

وقد ذكر العلماء ما ينبغي على المغتاب إذا أراد التوبة، قال ابن كثير: «قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع. وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك». (٢)

«وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات، حول كرامتهم وحرمتهم وحرمانهم، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه... بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق» (٣) فيخاطبهم ربهم الذي خلقهم بهذا النداء العام ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ نَارٍ وَتُرابٍ﴾، وأصلكم واحد ﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، وقد يتساءل فلم جعلوا شعوباً وقبائل؟ هنا يبين خالقهم سبب ذلك فيقول عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ «ليعرف بعضهم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده». (٤)

«والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون،

(١) جامع البيان ١١/٣٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٧٤.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٨..

(٤) جامع البيان ١١/٣٩٨.

والعشيرة متعارفون من عائلات، إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العماير، والعماير مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها. فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً لربط أو اصرهم دون مشقة ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم يبت عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم^(١).

وقد ورد عن النبي ﷺ الحث على هذا التعارف، ففي الحديث: (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر).^(٢)

فبم إذن يتمايز الناس ويكرمون، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُمْ﴾ هذا هو معيار التفاضل والتكريم عند العليم الخبير الذي خلق الناس، وبهذا التقرير يضع القرآن المبدأ الذي لم يكن العالم قد تنبّه له بعد، أن الناس جميعاً متساوون في الخلق، لا فرق بين رجل وامرأة في هذه النسبة وفي هذه الأصالة، ولا فرق بين مشرق ومغرب، ولا بين أبيض وأسود وأحمر... ولا يمكن أن يسعد مجتمع تمزق نسيجه العنصرية الجنسية، أو القبلية، أو الطائفية، أو اعتبار اللون...^(٣).

وقد أكدت الأحاديث النبوية هذا المبدأ قولاً، وحققه رسولنا الكريم ﷺ سلوكاً عملياً، لا شعارات مجردة من مضمونها، تشدق بها بعض المجتمعات التي تدعي التحضر، ثم هي تجمل للون أو العرق وزناً، (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ...)^(٤)،

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥٩-٢٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي برقم/ ١٩٧٩، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه. ومعنى قوله: (منسأة في الأثر) يعني: زيادة في العمر» إهـ. وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي. المستدرک ١/ ١٦٦.

(٣) انظر المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء، محمد محمد المدني/ ٢٤.

(٤) صحيح البخاري برقم/ ٤٦٨٩.

وقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ).^(١)

تؤسس هذه الآية الكريمة مبدأ العالمية، ليحتضن الإسلام كل الأجناس، وكل الأعراق، وكل الألوان، وكل اللغات... يغمرهم الإسلام بنوره ويشملهم عدله، ويكون التفاضل لشيء واحد، هو التقوى، وهي عند الله، فقد نذرني أناساً ونسخر منهم، وهم خير عند الله ممن رفعناهم وأكرمناهم، وإذن حتى هذا الأمر الذي به يكون التفاضل، لم يجعل أمره للبشر، إذ هم محجوبون عما تكنه القلوب، التي هي محل التقوى، وكما قال ﷺ، وهو يشير إلى صدره: (التقوى ههنا)^(٢) فلا مطمع إذن لمعرفة الأكرم، فليتسابق الناس في تحصيلها، وليطلبوها من واهبها [فضلاً من الله ونعمة].

ثم تحتتم هذه الآية الكريمة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عليم بظواهركم خبير ببواطنكم، لا تخفى عليه أسراركم.^(٣)

هدايات المقطع الأول

* اشتملت سورة الحجرات على أهم الأسس التي تبنى عليها أرقى المجتمعات، ولو تدبرنا هذا المقطع، فسنجد أنه قد حوى الكثير من هذه الأسس، من أهمها: (الإيمان، والأخوة والعدالة، والمساواة، والتوبة، وتعميق معنى الرقابة الذاتية، وهو ما يعبر عنها بالضمير أو الوازع الداخلي، من خلال ترسيخ العقيدة في الله تعالى وأسمائه وصفاته، بكونه علماً سميعاً بصيراً. إلى غير ذلك.

* يحسن بالمرء أن يتخلق بالخلق الحسن، إذ فيه كمال عقله، فهو لاء الأعراب لما رفعوا أصواتهم عند مناداة النبي ﷺ، ولم يتحلوا بالصبر، وصفوا بـ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١) صحيح مسلم برقم / ٢٥٦٤.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم / ٢٥٦٤.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٨ / ، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦ / ١١٩.

- * ينبغي الدقة في إصدار الأحكام على الآخرين، فالله تعالى يقول ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فلم يعمم «لأن منهم من لم يناد النبي ﷺ مثل ندائهم...»^(١) ولعل فيهم من كرهه ولم يصرح؛ لخلج أو خوف.... وكم سمعنا ذم أهل بلد بأكملها، لإساءة حصلت من شخص أو اثنين، فما أحوجنا إلى ضبط ألسنتنا.
- * لو أردنا تعميم هذا المبدأ في حياتنا، أعني: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ لأحرزنا نتائج باهرة، فالصبر على القراءة الجادة المفيدة، والصبر على العمل المثمر الشاق بغية الوصول للإبداع،^(٢) والصبر على تربية الأبناء والطلاب، بل والمجتمع، كلها تدخل في مجال الصبر الذي يعقبه خير كثير.
- * يتفرع من هذا الأمر، خلق ينبغي على أفراد المجتمع أن يتحلوا به، وهو خلق يحبه الله تعالى كما قال النبي ﷺ لِلأَشْجِجِ أَشْجَجُ عَبْدِ الْقَيْسِ: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ).^(٣) وقد ورد في هذه السورة الكريمة ما يدل على هذا الخلق الكريم أكثر من مرة، فالتقدم بين يدي الله ورسوله، ضرب من التعجل، ولو أن الأعراب الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات تأنوا لكان خيراً لهم، كما أن خبر الفاسق مما ينبغي أن يتأنى فيه، وأحسب أن الذين ادعوا منزلة الإيمان، تعجلوا الأمر، إذ إن هذه المنزلة تحتاج إلى بذل وصبر طويل.
- * رحمة الله الواسعة، فمع ما فعله هؤلاء الأعراب مع الرسول الكريم ﷺ، لكن الله تعالى لم ييأسهم، بل هو من يدعوهم إلى التوبة، بل يغريهم بها ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، وهي دعوة للدعاة الذين اتخذوا من مشرط الجراح وسيلة وحيدة للدعوة إلى الله تعالى، أن يكون المنهج القرآني رائدهم، لا التشنج والهوى.
- * ينبغي على الناس أن لا يقتحموا على العلماء والدعاة أوقات راحتهم، بل يصبروا حتى

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٢٥.

(٢) انظر بناء الأجيال، أ. د عبد الكريم بكار/ ٤٢.

(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥.

يخرجوا إليهم، فهم كغيرهم يحتاجون للراحة، وللخلوة بالأهل والأولاد، وليقضوا مصالحهم، ومصالح الآخرين.

* في قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ﴾ بيان لخطورة الإشاعة، التي أصبحت في وقتنا الحاضر سلاحاً فتاكاً، بعد هيمنة وسائل الإعلام على عقول الناس باعتبارها سلاحاً نفسياً، وفي التاريخ الإسلامي نماذج لهذا السلاح، منها: إشاعة مقتل النبي ﷺ في غزوة أحد، ومنها ما وقع بشأن حادثة الإفك، ومنها الشائعات الكاذبة التي صنعت ضد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ؓ، والتي لم تقتصر آثارها السيئة على المجتمع في ذلك الوقت فحسب، بل على الأمة حتى وقتنا هذا.^(١)، ولذا فإن هذه الآية تعد منهجاً يقتدى؛ للثبوت من الشائعات وعدم الإنجرار وراءها.

* المنهج المحكم الذي دعت إليه الآية الكريمة ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ﴾، فلم تدع إلى إهمال خبر الفاسق وعدم الالتفات له، ولم تحث على المسارعة لقبوله، بل اختطت منهجاً وسطاً، يدعو للترث؛ ليتبين، ويتثبت في أمره.

* " الواجب على المؤمن الثبوت في الأمور، والتبين في صحة الأخبار التي تبلغه، وما ينقل إليه من كلام أو يسمعه من الوشاة، فكم أورث عدم التبين والثبوت فيها فساداً كبيراً، وشرأ مستطيراً، وعداوات وشحناء... ".^(٢) وهذه أمور من شأنها أن تفسد المجتمع.

* مما تدل عليه هذه الآية الكريمة، الثبوت مما ينسب إلى بعض العلماء من أقوال، فكم ألصقت بهم تهم وهم منها براء،^(٣) ومرد ذلك كله خطأ في النقل، أو سوء فهم لكلامه. أو

(١) انظر الإشاعة وأثرها على الفرد والمجتمع مقال على النت لعبد الله خليفة، موقع شبكة المشكاة الإسلامية، وللتوسع انظر: الحرب النفسية والشائعات، د. معتز سيد عبد الله / ١٥٧ وما بعدها، ٣٣٩ وما بعدها فيه بيان للتصور الإسلامي لمواجهة الشائعات.

(٢) حول تفسير سورة الحجرات / ٧٣.

(٣) انظر سورة الحجرات، دراسة تحليلية وموضوعية، د. ناصر العمر / ٢١٣.

إشاعة مغرضة.

* يدل قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ﴾، على أن المجتمع المسلم مهما بلغ من التقى - وقد مر أن هذه السورة نزلت في السنة التاسعة من الهجرة - فإنه لا يخلو من وجود بعض الفاسقين، وإن كان هذا ينبغي أن يكون نادراً، كما يشير التعبير إليه بـ ﴿إِنْ﴾ دون إذا.

* مع علم المؤمنين بأن الله تعالى حكيم، فإننا نجد أن كثيراً من الأوامر والنواهي القرآنية معللة، يقول تعالى بعد أن أمر بالتثبت من نبأ الفاسق ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾، وهي دعوة للمربين من آباء ومعلمين ومصلحين وحكام، إلى سلوك هذا السبيل، ففيه الخير الكثير، فهو يجعل المتلقي يعي أهمية ما يفعل، كما أنها وقفة للذين يأنفون من بيان علة ما يطلبون.

* تتضح من قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ منة الله تعالى على الناس، إذ اختار من جنسهم من يكون واسطة لوحي الله تعالى، وليكون فيهم؛ لينقلهم هذه النقلة العظيمة، وليبني بهم مجتمعاً يعرف خالقه، ويمسح عبادته، كما يحسن العلاقة مع الآخرين، ولم يتركهم نهياً لتصورات ونظريات أرضية، أحص صفتها الجهل والنقص والهوى.

* في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ما يشير إلى تواضع الرسول ﷺ، فهو الذي تسبب في هذا التنبيه، وإلا فلو عرف عنه ﷺ التميز عنهم، وفرض رأيه دون الرجوع إليهم لما غابت عنهم صفته. بيد أن هذا الإلف وهذا التعود، ينبغي أن لا ينسيهم هذه الحقيقة العظيمة، التي توجب عدم التقدم بين يديه، وعدم رفع الصوت بحضرتة.

* شرف الصحابة وفضلهم العظيم، فهم من اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ وحمل الشريعة، ثم نقلها لمن بعدهم، يتضح هذا من قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فهو فيهم خاصة لا في غيرهم. كما يتضح من قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَبَّنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ فالعليم الحكيم بمن يستحق هذا الفضل وذلك الإنعام

هو الذي حُبب إليهم الإيمان.... وفي هذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله نظرَ في قلوب العباد، فوجد قلبَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم خيرَ قلوب العباد، فأضطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظرَ في قلوب العباد بعد قلب مُحَمَّدٍ، فوجد قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وُزراءَ نبيِّه يُقاتلونَ على دينه..."^(١)

* في قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ ما يدل على أن ما ورد في الشرع الخفيف من أوامر ونواه، هي خير لنا من اختيارنا لأنفسنا، فلو أن الشرع أطاعنا فيما نقترحه ونحبه لأصابنا العنت والمشقة، وهو ما يعني أن تنفيذ أوامر الشرع هي الخير المحض.

* في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ما يدل على أن الله تعالى هو الذي بيده هذه الأمور، فوجب على المسلم التطلع إليها وطلبها من واهبها. قال ابن القيم: "لم تكن محبتكم للإيمان، وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فأثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حُبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان فلولا أني حبيته إليكم وزينته في قلوبكم وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم".^(٢)

* الأصل في المجتمع الذي يريد الإسلام بناءه أن يعيش أفراده بسلام، ولكن قد يقع القتال بين المؤمنين - وهو ما لا يرضاه - ولذلك، يدعو المسلمين جميعاً إلى إطفاء هذه النار، قبل

(١) قال الهيثمي: «رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير ورجاله موثقون». مجمع الزوائد/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح العلي ١/ ٣٥٠-٣٥١.

أن تتسع ويصعب إخمادها. يقول تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾. (١)

* استدل الإمام البخاري بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ على أن المسلم لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت؛ فقال: «باب ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ فَسَأَلَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ» (٢)، مع أنهم قد اقتتلوا. وفيه رد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم. (٣)

* «العدل من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع الصالح، وكل مجتمع لا يقوم على أساس من العدل، هو مجتمع فاسد صائر إلى الانحلال ثم الزوال» (٤) وهذا الأمر قد أكدته سورة الحجرات، ودعت إلى إقامته، حتى مع الفئة الباغية التي نُصحت وما انتصحت، وما فاءت إلا بعد قتال جرّ - في الغالب - قتلاً وخراباً، ومع هذا كله يقول عز وجل: ﴿ فَإِن بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلَا أَلَيْ تَبغى حَقَّ تَفحىء إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ والعدل في الإسلام قيمة مطلقة، يطبق حتى على الأعداء، يقول عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وهذا بخلاف كثير من النظريات الأرضية التي تذهب إلى نسبية الأخلاق، ولذا فإن العدل عندهم متأرجح غير مستقر.

* ما تقدم يبين أهمية إشاعة العدل في حياة الناس، ليتنظم أمور حياتهم كلها، فالعدل مع النفس، والعدل مع الأبناء، والعدل مع الزوجات، والعدل مع الطلاب، والعدل مع

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣/٤٤٥.

(٢) هذه ترجمة لحديث برقم /٣١.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٧.

(٤) المجتمع المثالي /٧١.

الرعية.... ومتى سرى العدل في كيان المجتمع، أمكن أن يقال عنه أنه مجتمع معافي، وإلا فإنه ينقص من عافيته بمقدار ما انتقص فيه من عدل، ولا غرو أن كان الظلم من أسباب هلاك الأمم السابقة.

- * قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هذا الأساس من أهم الأسس التي حرص الإسلام على غرسها في المجتمع، ولقد عدت الأخوة من النعم التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين، يقول تعالى: ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقد ضعف هذا الأمر في نفوس كثير من المسلمين، بعد أن جرفهم تيار المدنية، فضعت صلة الأرحام، وبات الجار لا يعرف جاره،... فالهداية هنا أن نستشعر معنى الأخوة، ونعمل بما توجهه.
- * في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ما يدل على «أن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد»^(١).

- * «من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات، استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظراً ساخراً، فإن ذلك من شأنه أن يغري هؤلاء المستخفين المستهزئين بمن استخفوا بهم، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخف بها، المستصغر لشأنها على أن تدافع عن نفسها، وأن ترد هذه السخرية وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء ممن سخروا منهم وهزئوا بهم، وهذا أول قدح لشرارة الحرب...»^(٢).

- * في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ ﴾، إشارة لآفة تهدد كيان المجتمع

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٤٤٨.

وهي شيوع استخفاف الأفراد بأنفسهم، وذلك من خلال استخفافهم بالآخرين، ذلك أن الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء، لا يسوؤه كثيراً أن يعيبه الناس، وهذا - والله أعلم - هو بعض ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بإيقاع الفعل عليهم، فكأنهم إذ يلمزون غيرهم يلمزون أنفسهم ضمناً^(١).

* في قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ "تأديب عظيم يطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهمة الباطلة، وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاعتقالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً"^(٢).

* قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ "يستوقف السامع ليتطلب البيان، فأعلموا أن بعض الظن جرم، وهذا كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون؛ ليعرضوا ما تفضي إليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم. على أن هذا البيان الاستثنائي يقتصر على التخويف من الوقوع في الإثم. وليس هذا البيان توضيحاً لأنواع الكثير من الظن المأمور باجتنابه؛ لأنها أنواع كثيرة، فنبه على عاقبتها وترك التفصيل لأن في إبهامه بعضاً على مزيد الاحتياط.^(٣) ويقول الرازي عن هذا: «كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين، إلا إذا تعين فتسلكه مع رफقة، كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ»^(٤).

* «معنى كون الظن إثماً أنه: إما أن ينشأ عليه عمل أو مجرد اعتقاد، فإن كان قد ينشأ عليه عمل من قول أو فعل، كالاعتياب والتجسس وغير ذلك، فليقدّر الظان أن ظنه كاذب ثم لينظر بعد في عمله الذي بناه عليه، فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٣/٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥١.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥١.

(٤) التفسير الكبير ٢٨/١٣٤.

اتهامه بالباطل، فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم، وقد قال العلماء: إن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز. وإن لم ينشأ عليه إلا مجرد اعتقاد دون عمل، فليقدر أن ظنه كان مخطئاً، يجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس به، فإن كان اعتقاداً في صفات الله، فقد افتري على الله، وإن كان اعتقاداً في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضاراً، أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك». (١)

* «الظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس قد يصير علماً راسخاً في النفس، فتترتب عليه الآثار بسهولة، فتصادف من هو حقيق بضدها». (٢)

* في قوله تعالى: ﴿أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ما يدل دلالة واضحة على مدى قبح الغيبة، وازدراء عظيم لأهلها، إنهم أسوأ من كثير من الحيوانات، التي تعاف أن تأكل لحم حيوانات من جنسها، وليس هذا وحسب، بل إنهم يأكلون هذا اللحم ميتاً وكثير من الحيوانات تعاف أكل الميتة ولو ماتت جوعاً. (٣) بل إن هذا المغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً. ولا أشنع من هذا الوصف، وبالرغم من هذا، فإنك تجد الكثير من الناس قد وقعوا في هذا المحذور.

* يستدل من قوله تعالى ﴿يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، على أن من سئل عن شخص في مقام تجوز فيه الغيبة، فإنه ينبغي عليه أن يجيب عن ذلك بقدر، كما يتناول المضطر من لحم الميتة بمعنى أن لا يطنب في مقام يكفي فيه الإيجاز. وإذا استطاع، يدفع ذلك من غير غيبة، فعليه أن يفعل. (٤)

* عظمة الإسلام في تحضر المجتمع ونقلهم من كونهم يعدون القوة أقرب الوسائل تناولاً لحل

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥١، بتصرف سير ٢٥٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٢.

(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٤٥٠.

(٤) انظر التفسير الكبير ٢٨/ ١٣٥.

مشكلاتهم، إلى أن صاروا يتوقون قول كلمة قد تحسب عليهم غيبة أو تحقيراً لمسلم. (١).

* ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ دعوة مؤكدة من رحيم، لكل من انحرف عن الجادة، بالرجوع إليها، وضم جهوده لبناء المجتمع. وهذا الأساس، أعني التوبة من الأسس المهمة في بناء المجتمع، وقد تكرر وروده في هذه السورة، ليرد من شذوا عن الصف إليه، وهو من الأسس التي ينبغي على المربين أن يراعوها، فليس هناك أسوأ من اليأس، وما قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بمن قُتله المائة (٢) إلا دليل صادق لما نحن بصدد.

* قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ تضع أساساً مهماً من أسس بناء المجتمع وهو المساواة، فخالق الناس واحد، وقد بين عز وجل أنه خلقهم من ذكر وأنثى، إذن فلا مزية لأحد على آخر، ثم زاد الأمر توضيحاً ببيان علة جعل الناس شعوباً وقبائل، وأنه تعالى هو من جعل الناس كذلك، وأخيراً ذكر الأساس الذي به يسمو من أراد الارتقاء وأن ذلك الأساس هو التقوى، فعلى الناس أن يجتهدوا في تحصيل هذا المقام، وأن لا ينشغلوا عنه بأمور ليست من كدهم.

* إن هذه المساواة التي أسسها الإسلام قبل خمسة عشر قرناً، لم تأت بعد مطالبات وإعتصامات وإضرابات، بل جاءت من عند الخالق الحكيم، ولم تفرق بين الناس على أساس اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الوطن، أو أي انتفاء أرضي، إذ إن هذه كلها ليست من عمل الناس، وليس بمقدورهم في الغالب تغييرها إن هم أرادوا ذلك، بيد أن الله تعالى، جعل ميدان التفاضل مقدوراً عليه لأي إنسان، بتوفيق الله تعالى، وبيد الأسباب، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولذا فإننا نقول: إن هذه المساواة لم يبلغها أيُّ تشريع أرضي، وأنى له ذلك؟.

(١) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة، أ. د عبد الكريم بكار/ ٢٧١.

(٢) الحديث في صحيح البخاري، برقم (٣٤٧٠)، وفي صحيح مسلم، برقم ٢٧٦٦.

* في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، ما يدل على أنه ينبغي على الإنسان أن لا يفتخر بالأنساب، ذلك أن الجعل هو: «إضافة جديدة تدخل على أصل الشيء، فهو من متعلقات الموجودات، وليس له هو وجود ذاتي، فتوزع الناس إلى شعوب وقبائل، ليس أمراً ذاتياً، تتغير به حقيقة الإنسانية في الناس...»^(١).

* ينبغي أن تحقق العلة التي أرادها الخالق عز وجل من جعل الناس شعوباً وقبائل، وهي التعارف، لا أن يكون مدعاة للتفاخر والتناكر والتخالف، التي هي مدعاة للسخرية واللمز... ثم اقتتال أفراد المجتمع.

* في قوله عز وجل ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، مع تصدير الآية الكريمة بـ ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ﴾، دعوة للانفتاح المنضبط على الآخرين، إن في الناس حاجة ليتعرفوا على ما عند المسلمين من خير، وعلينا لزاماً أن نعرفهم بديننا، وأقول ماذا لو انغلق المسلمون على أنفسهم في الشعب؟، أو في دار الأرقم؟، ألم يذهب النبي ﷺ إلى الطائف؟، ألم يعرض نفسه على القبائل؟ لقد ازداد عدد الداخلين في الإسلام، وذاع صيته بعد صلح الحديبية، ثم أن بنا نحن حاجة لتتعرف على الآخر، كيف يفكر... كيف تقدم...؟ وأنا هنا أدعو العلماء إلى تحديد مفهوم التعارف الذي تنشده الآية الكريمة، ومن ثمَّ اتخاذ منهجية لحسن التواصل مع الآخرين. لقد أصبح العالم قرية صغيرة، فما لم نحسن التواصل مع الآخر، لا أقول فسُنغزى في بيوتنا، إذ إن هذا قد حصل، ونحن - للأسف - لم نعد للأمر عدته.

* كل مجتمع يضع مقاييس للتفاضل غير المقياس الذي حدده الإسلام وهو التقوى «لا بد أن يشقى وأن يضطرب عليه أمره، وأن يعوق عن بلوغ غاياته، وإصابة أهدافه»^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ دعوة للارتقاء في سلم التقوى لنيل الأكرمية، فالعليم الخبير هو الله،

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٣٥٤.

(٢) المجتمع المثالي / ٢٤.

وفيه دعوة لتركية النوايا في ما يأتي الإنسان ويدع. (١)

* ذهب بعض العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ ﴾، وبالأحاديث التي وردت بهذا المعنى وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه. (٢)

المقطع الثاني: الأساس الإيماني، نموذج وإرشاد

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لَمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُ بِلِ اللَّهِ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لا شك أن موضوع الإيمان ينساب بين ثنايا هذه السورة، وذلك إذا استحضرتنا الخطابات الخمسة التي نادى الله تعالى بها عباده ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وبهذا تظهر مدى أهمية الإيمان في بناء المجتمع، فلولا الإيمان لما التزم الناس بالأخلاق، بل إننا بحاجة - حينها - لمن يحدد ماهية هذه الأخلاق وعلام تقوم؟ لقد وجدت نظريات تجعل المنفعة هي الأساس، (٣) وأخرى تقول: الغاية تبرر الوسيلة، ولأصبح الناس نهياً لنظريات أرضية مرقعة مهلهلة، لكن الإيمان يجعل الخالق هو الذي له الأمر ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَلْمَرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ليس هو الذي خلق

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٦٣.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٧.

(٣) انظر مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، / ٨٢-٨٣.

الناس؟ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ وإذا كان هذا الأمر حقيقة لم يدع أحد خلافتها، فليكن الأمر، كل الأمر لله عز وجل، ومن أخطر تلك الأمور بناء المجتمعات.

وإذن فإذا كان المقطع الأول قد ابنتى المجتمع الأخلاقي، وحماه من التصدع، فالمقطع الثاني يشده برباط الإيمان، وذلك بعرض مثال لمن دخل في الإسلام حديثاً، ولما يدخل الإيمان في قلبه بعد، فهو بحاجة إلى معرفة حقيقته، فجاء هذا الإرشاد الرباني؛ توجيهاً للأفراد كي يحققوا هذا المعنى، وللمجتمعات كي يشيع فيها الإيمان. ولا شيء غير الإيمان يبني المجتمعات.

كما أن هذا المقطع الذي ختم بالنهي عن التفاخر، بدأ بنموذج من التفاخر المذموم ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا﴾ ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُمْ﴾.

بين المقطع الأول أن الهداية بيد الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾، وفي المقطع الثاني: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلإِيمَانِ﴾.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا﴾^(١)، يذكر القرآن ما حصل من هؤلاء الأعراب، حين ادعو منزلة أعلى من منزلتهم، وذلك أنهم قالوا آمنا، ولما يتمكن الإيمان في قلوبهم. فأنكر الله تعالى عليهم هذا القول، مبيناً لهم حقيقة حالهم ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾، بصيغة جازمة، وبدون كنيات، ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يقال: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، مبيناً لهم أنهم لما وصلوا إلى هذا المقام بعد،^(٢) وهنا قد يُظن أنهم منافقون، وعلى هذا فأعمالهم الصالحة ستذهب سدى، فأخبروا بأن إسلامهم هذا كاف لتحسب لهم أعمالهم الصالحة، ولا

(١) لم أذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا...﴾، لأنني لم أجده من الروايات ما يمكن الاطمئنان إليه، وقد تشدد العلماء في أسباب انزول، كما هو معلوم، بيد أن أكثر المفسرين ذكروا أنها نزلت في بني أسد. والعلم عند الله، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٨.

تضيق. ^(١) فقال عز وجل: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قال الطبري: «إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، ﴿لَا يَلْتَكُرُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ يقول: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً». ^(٢) ثم طمأنهم على ما سبق أن فرط منهم من ادعاء الإيمان، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فإذا هم أطاعوا الله ورسوله، تحقق لهم الأمران: نيل أجورهم كاملة، وغفران ما أسلفوا من ذنوب.

وماذا على المرء لو تطلع إلى منازل المؤمنين؛ ليسلك السبيل إليها، فلتبين لهم إذن «صفات المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم». ^(٣) ليرتق إليه من علم الله صدق عزمه وإخلاص قلبه، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكَمَلُ الراسخون في الإيمان ^(٤) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إيماناً صحيحاً خالصاً، عن مواطاة القلب واللسان ^(٥) ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: «لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض» ^(٦) وهنا لا بد من وقفة «تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة - تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة - من ارتياب ومن اضطراب، وإن النفس المؤمنة لتضطدم في الحياة بشدائد تزلزل ونوازل تزعزع. والتي تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله. والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزلق الطريق، وأخطار الرحلة؛ لتعزم

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٨. وما ذكر من أنهم لم يكونوا منافقين رجحه ابن القيم، انظر بدائع التفسير ٤/١٨٣، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٤/٢٧٨ بأدلة تنظر هناك، وهو الصواب، كما مر من توجيه الآية. والله أعلم.

(٢) جامع البيان ١١/٤٠١.

(٣) فتح القدير ٥/٧٣.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/٢٧٨، ونظم الدرر ٧/٢٣٨.

(٥) فتح القدير ٥/٧٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٧٨.

أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدهم الأفق، ويظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح». (١)

ويتواصل التوجيه الرباني ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، تمكن الإيمان في قلوبهم، وظهرت ثمرة ذلك عليهم، فانطلقوا ينشرونه، باذلين أموالهم وأرواحهم، في سبيل الله تعالى، لا يريدون إلا رضوانه. ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ « في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون» (٢) «حيث طبقت ألسنتهم عقائد» (٣)، وفيه تعريض بهؤلاء الأعراب. كأنه تعالى يقول لهم: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ لا أنتم.

﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي: «أتخبرونه بما في ضمائركم». (٤) «وفي ذلك تجهيل لهم، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى. ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض» (٥) فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ «والله الذي تعلمونه أنكم مؤمنون، علام جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمان، وهو لا يخفى عليه خافية، في سماء ولا أرض، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين. ﴿ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴾ يقول: والله بكل ما كان، وما هو كائن، وبما يكون ذو علم». (٦)

ولما كان قولهم: آمنا، فيه معنى المنة، قال تعالى مستحضراً قولهم: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ والمنة: «النعمة الثقيلة، ويقال ذلك على وجهين:

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٠، وانظر نظم الدرر ٧/ ٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٨.

(٣) البحر المحیط ٨/ ١١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٨.

(٥) البحر المحیط ٨/ ١١٧.

(٦) جامع البيان ١١/ ٤٠٣.

(٧) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٤١.

أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال: مَنْ فلان على فلان: إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]... وذلك على الحقيقة لا يكون إلا الله تعالى.

والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس، إلا عند كفران النعمة، ولقبح ذلك قيل: المنّة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنّة.

وقوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فالمنّة منهم بالقول، ومنّة الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم كما ذكر^(١).

﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ «وهم قالوا للنبي ﷺ: آمناً كما حكاها الله أنفأ، وسماه هنا إسلاماً لقوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، أي: أن الذي منّوا به عليك إسلام لا إيمان، وأثبت بحرف ﴿بَلِ﴾ أن ما منّوا به إن كان إسلاماً حقاً موافقاً للإيمان، فالمنّة لله لأن هداهم إليه، فأسلموا عن طواعية. وسماه الآن إيماناً مجازة لزعمتهم؛ لأن المقام مقام كون المنّة لله، فمناسبة مسابرة زعمهم أنهم آمنوا، أي: لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإن إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: «إن كنتم صادقين في قولكم آمنا»^(٣).

هدايات المقطع الثاني

* استفاد من قوله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه

(١) مفردات ألفاظ القرآن (منن) بحذف يسير.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦٩-٢٧٠.

(٣) جامع البيان ١١/٤٠٤.

السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان،^(١) فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.^(٢)

* منهج القرآن الرائع في معالجة النفوس، إذ إن قول الأعراب ﴿ءَأَمَّنَّا﴾، لاحقيقة له، إذن كيف يعالج هذا الأمر؟ هل بالسكوت عنهم؛ لكونهم حديثي عهد بإسلام، ولكن هذا يعني إقرارهم، أم بالرد عليهم بفضاضة وإغلاظ، لأنهم تجرؤوا وادعوا مقاماً سامياً، سار في الرجال أزمنة طويلة، وبدلوا فيه النفس والنفيس، ثم تنهال عليهم الخطب الرنانة موبخة مثبطة، القرآن يجيب عن ذلك، ويبين المنهج الأسمى والأوفق والأرفق.

* الذي ينبغي في إنكار المنكر، أن تبينه أولاً، فقد ينكر على شخص دون أن يدري علام هو جرم، والآية ذكرت ما أنكر عليهم بإيجاز ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾، ثم لا بد من بيان ما ينبغي عليهم أن يفعلوا ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ثم زادت الأمر توضيحاً، مجيبة عما قد يدور بخلدكم: لم لا نقول آمنا؟ فيأتي الجواب: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

* لا بد من إشاعة ثقافة النقد عند الناس، وذلك من خلال التشجيع على نقد السلوكيات الخاطئة والتصرفات غير اللائقة.^(٣) بيد أن هذا النقد ينبغي أن يكون بناءً وبرفق.

* الإيمان ليس كلمة تقال، أو مقاماً يزعم «إنه عقيدة، وعمل يقوم في ظل هذه العقيدة وهدىها».^(٤) ولا يصار إليه إلا بعد مجاهدة.

* يستدل من قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أهمية طاعة الله ورسوله، فعليهما يترتب الجزاء.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري برقم/ ٥٠، وصحيح مسلم برقم/ ٨.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم/ ٤/ ٢٧٧.

(٣) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة/ ٢٥٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٤٥٦.

* أهمية السنة، وفيه رد على من ادعى الاكتفاء بالقرآن، مستنداً على حجج واهية، فيقال له: هذا القرآن الذي أردت الاكتفاء به يدعوك لاتباع السنة، ﴿وَلَنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، والمقام هنا مقام بيان لهؤلاء الأعراب لما يجب عليهم فعله. بل إن المقام توضيح لمنزلة الإيذان.

* أهمية طاعة القيادة في بناء المجتمع، وهو ما سبق بيانه في الافتتاحية من وجوب عدم التقدم بين يديها، وقيادة المجتمع الإسلامي تستمد شرعيتها من طاعتها لله عز وجل ورسوله ﷺ وتنفيذ ما جاء به.

* كرم الله تعالى، فإذا حقق المرء ما عليه، منحه ربه الجزاء الأوفى، وغفر له ذنبه.

* ما سبق أن بين مراراً من ضرورة إيجاد السبل لعودة من ندد من أفراد المجتمع، وذلك من خلال إشاعة ما قد يسمى بثقافة التوبة، وبث الأمل في نفوس العصاة، فرحة الله واسعة، وفي الحديث (لَللَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا) (١)، يتضح هذا من خلال قول الله تعالى لهؤلاء الأعراب، مؤكداً لهم وعده ﴿وَلَنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلْتَكُرُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

* الإسلام وهو يعالج الأخطاء التي يقع فيها المجتمع، يأخذ بأيديهم للكمال، وهو بذلك يحفز القوى الكامنة فيهم، فهو خالقهم، وبهم عليهم، فمع أنه عز وجل أنكر عليهم إدعاء منزلة الإيذان، لكنه بين لهم صفات كاملي الإيذان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾.

* القرآن الكريم وهو يعرض صفات كاملي الإيذان، فإنه يسلك في ذلك أسلوباً غير مباشر ليرقى إليه كل من تاقته نفسه لتلك المدارج، في كل زمان ومكان. وهو لا شك أسلوب محبب، وأدعى للقبول.

* يستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أن المؤمن من فعل الإيذان لا من قاله

(١) صحيح مسلم برقم/ ٢٦٧٥.

بلسانه فقط، والمقصود بالفعل: فعل القلب واللسان والجوارح.

* في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَأِبُوا﴾ ما يبين أهمية الثبات للمؤمنين، وفيه إشارة إلى أن في هذا الطريق عقبات وفتن ومحن، وعلى المؤمن التيقظ لها، ودعاء الله تعالى بأن يوفقه لتجاوزها.

* عدم فهم كثير من الناس في وقتنا الحاضر لدينهم، وضمور الجانب الإيماني في حياتهم، هو الذي أصاب مجتمعات المسلمين بالتمزق والتيه. ^(١)

* لكل حق حقيقة، فحقيقة الإيمان أن يجاهد المؤمن بباله ونفسه، أما من ادعى هذا المقام ثم بخل بهما، أو أراد أن يكون ما ادعاه من الإيمان مغنماً، فلا أقل من أن يقال: إنه لم يفهم حقيقة الإيمان.

* يحتاج المجتمع لبذل المال والنفس كي يحافظ عليه، فإذا بخل أفراده بأموالهم وأنفسهم في بنائه والدفاع عنه، فما أسرع أن تمتد إليه أيد، هُمُّها هدم هذا الدين، وتقويض كيان المجتمع، وهم بالرغم من كفرهم، يبذلون في سبيله المال والنفس، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأَنْفَال: ٣٦]، فإذا كان هذا حال الذين كفروا في تعاملهم مع المال - ومعلوم أنهم قد خرجوا للقتال بأنفسهم - فكيف ينبغي أن يكون حال الذين آمنوا.

* في تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، ما يبين أهمية هذا الأمر، وبخاصة من لم يستطع الجمع بينهما. وفي الحديث (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَّفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا) ^(٢).

(١) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة / ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري برقم / ٢٨٤٣، وصحيح مسلم برقم / ١٨٩٥.

- * في قوله عز وجل: ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾ إثبات للملكية، نستنتج ذلك من نسبة الأموال للناس^(١) لكن الإسلام نهج وسط، فقد أوردتها في سياق البذل، فالإسلام وهو يقرها، يوصي أن لا تشغل المسلم عن الهدف الذي من أجله خلق، بل عليه أن يبذلها؛ صيانة للدين ونشراً للخير.
- * ﴿وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ تظهر النفوس من معاني الأثرة والأنانية والجشع والحرص.... التي هي من أخطر عوامل تخريب المجتمعات. وتمنحها حباً وشفاء وإخاء.
- * ﴿وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ توظيف للمال في الخير، وما لم يوظف في ذلك، فإنه سيكون عامل تخريب اجتماعي، حيث يستخدم لاستفزاز الفقراء، وإشاعة نفسية التسلق الاجتماعي، ولذا لا بد من النهوض بأرباب الأموال نحو بث روح تحمل المسؤولية، والتوجه إلى نفع الناس، وإيجاد آليات للتواصل والتراحم والتعاون.^(٢)
- * يبين قول الله عز وجل: ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾ أهمية المال في رفق المجتمع بما يحتاجه من أنشطة أهمها الجهاد في سبيل الله، وإلا فلا وجود لمجتمع يتسول لمشاريعه ممن يخالفونه العقيدة. وعليه فلا معنى للزهد في المال، وقد قال تعالى:... ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، فلم يمنع صلاح الرجل من أن يكون له مال، ولذا فلا بد من تأهيل أفراد في المجتمع ممن يحسنون إدارة المال.
- * الدين هو أنفس شيء للمسلم، فهو يجاهد بهاله ونفسه في سبيل الله عز وجل لإعلائه.
- * أهمية الجهاد في سبيل الله لإعلاء هذا الدين، وأنه من أدلة صدق الإيمان.
- * أهمية الإخلاص في قبول الأعمال، ولذا قيدت الآية فعل الصادقين بأنه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾،

(١) انظر النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه وأهدافه، د. أحمد العسال، د. فتحي أحمد عبد الكريم/ ٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة/ ٢٤٧.

فوجب الانتباه لهذا، والحذر من حظوظ النفس، لسد منافذ الشرك الخفي، الذي هو أخوف ما يتخوف منه.

* التلازم الشديد بين الإيمان والصدق، وهما بلا شك عاملان أساسيان من عوامل بناء المجتمع، فمتى شاعا، دل ذلك على صفاء هذا المجتمع ونقائه، والصدق يحقق الاطمئنان بين أفراد المجتمع، فتشيع الثقة بين الناس، إذ يسري الصدق في كل تعاملاتهم: الاقتصادية، فلا غش ولا غرر... والاجتماعية، فيقضي على النفاق الاجتماعي الذي يهدم كثيراً من المجتمعات. والثقافية، ووو.

* الصدق لا يكون باللسان وحده، بل لا بد من صدق في النية وفي العمل.

* المنة لله وحده فيما يُوفى له العبد من الطاعات، ولذا فينبغي على المسلم أن يستشعر هذا المعنى، فلا يبغي أن يُدَلَّ بعمله ويعجب، بل يحمد الله عز وجل على أن وفقه لطاعته ومنحه الصحة لأدائها، داعياً الله تعالى أن يقبلها.

الخاتمة

الخاتمة - والله أعلم - هي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨).

مناسبة خاتمة السورة لما قبلها

افتتحت سورة الحجرات ببيان الآداب التي تقدم ذكرها، ويُن هنا أن الله سميع عليم، فجاءت الخاتمة تؤكد هذا الأمر، وتذكر إحاطة علم الله تعالى، بما غاب في السموات والأرض، وأن ما يعمله الناس فإن الله يراه، فليكونوا على حذر، وهذا يستلزم التقوى مرتقياً بالإنسان إلى الإحسان، فافتتحت بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، واختتمت بـ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم نجد المقطع الأول يتحدث عن مجيء الأعراب في الهيئة التي سبق ذكرها، وقد علم الله فعلتهم، ولعلمه بأن ذلك لم يكن عن سوء قصد، فقد غفر لهم ورحمهم، وعليهم أن يتأدبوا

بالأدب الذي علموه...

ثم يأتي الحديث عن مجيء الفاسق، وكيفية التعامل مع خبره، بعلم لا بجهالة، وفيه تحوير للفاسق بأن الله يسمع أقوالهم، ويبصر تحركاتهم، فليحذروا من إشاعة الأخبار الكاذبة..

وعلى الطائفتين المؤمنتين أن يتقيا الله تعالى، فما بالاقتتال أمروا، فهم أخوة، وإن حصل فليحذروا البغي، وليرجعوا إلى أمر الله تعالى...، كما أن الله عالم وبصير بنواياهم، وبنوايا من يتولى الصلح، فينبغي توخي العدل وإزالة الجور.

وعلى المؤمنين أن يتذكروا أوامر الله تعالى ونواهيه، وليبتعدوا عن السخرية والظن في إخوانهم ونبزهم بالألقاب التي يكرهونها، وليكن ظنهم بإخوانهم الظن الحسن، فإن ما نهوا عنه يعكر صفو الأخوة، ولا ينبغي للأخ أن يأكل لحم أخيه، بل الظن به أن يوفر لحمه،....

ثم علام هذه السخرية، وخالقهم العليم بهم سوى بينهم في الخلق، إذ خلقهم جميعاً من ذكر وأنثى... فعليهم بالتقوى، فالله بصير بما تعملون، فلن يغيب عن الله تعالى ما تعملونه وستحاسبون عليه.

أما المقطع الثاني، فالمناسبة فيه ظاهرة، فعندما قالت الأعراب ﴿ءَأَمَّنَّا﴾، فقد علم الله منهم ذلك، وعلى المسلم أن لا يدعي منزلة أعلى من منزلته، متناً وافتخاراً، فالله يعلم غيب السموات والأرض، ومن ذلك ما تكنه قلوبهم، ولكن عليهم أن يرتقوا بإسلامهم ليصلوا إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، بعد أن يوقنوا أن الله بصير بما يعملون. قال الرازي: «وآخر السورة مع التثامه بما قبله، فيه تقرير ما في أول السورة، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَأَنْتُمْ أَلَّهُ الْحَجْرَات / ١، فإنه لا يخفى عليه سر، فلا تتركوا خوفه في السر، ولا يخفى عليه علن، فلا تأمنوه في العلانية». (١) والله أعلم.

(١) التفسير الكبير ٢٨ / ١٤٤.

التفسير الإجمالي للخاتمة

تؤكد الآية الكريمة بتصديرها لفظة ﴿إِنَّ﴾ على أن علم الله بغيب السموات والأرض أمر مؤكد، وقد جيء به مع أن السورة مدنية، والمؤمنون يعلمون ذلك؛ لبيان أهمية استحضار هذا الأمر وعدم الغفلة عنه، ثم زادت الأمر توضيحاً، بجعل كل ما يُعمل تحت نظر الله تعالى. يقول الطبري: «... إن الله يعلم ما تكنه ضمائر صدوركم، وتحدثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: والله ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها، أجهرأ تعملون أم سراً، طاعة تعملون أو معصية؟ وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(١).

هدايات الخاتمة

* مراقبة الله تعالى في السر والعلن، أساس متين لحفظ المجتمع، وذلك بإحساس المسلم بأن الله تعالى يعلم غيب السموات والأرض، ويبصر كل ما يفعله، وبهذا تستقيم المجتمعات ويأمن الأفراد على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وهذا أجدى من وضع أجهزة للمراقبة، وإشعار الآخرين بها؛ للحد من تجاوزاتهم، فسرعان ما يُكتشف ما يبطل عملها لأنها مهما بلغت من الدقة فهي من صنع إنسان. إن الإسلام برفع الإنسان إلى مقام الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٢) ليزرع في نفوس أتباعه رقابة ذاتية، وضميراً يقظاً، يتأبى على النزول من هذا الأفق الوضيء للذة عابرة، وهو يوقن بأن الله يراه وأن عليه كراماً كاتين. وإذا ما سقط فإن التوبة تتلقفه؛ لترفع من كبوته، وتلحقه بركب المحسنين.

* في تقديم لفظ الجلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ما يدل على أن علم الغيب لله وحده، فلا ينبغي أن يطلب من غيره، وقد ابتليت كثير من المجتمعات بمن يدعى زوراً أن عنده علماً من

(١) جامع البيان ١١ / ٤٠٤.

(٢) هو حديث جبريل عز وجل، وقد مرّ تحريجه.

الغيب، ومما يؤسف له أن بعض الناس يسمع لهم، بل يذهب إليهم باذلاً المال والجهد، وبعض وسائل الإعلام تفسح المجال لهم.

* في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ الذي يقتضي تجدد علم الله تعالى بكل ما يحصل فيهما، رد على الفلاسفة الذين يقولون إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وفي قوله عز وجل ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ما يؤكد هذا.

* في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - وهذا يعني ما ظهر من باب أولى -^(١) ما يستدعى أن يطامن من غرور الإنسان فيما يتعلق بما حصل عليه من علم، يقال هذا لأن كثيراً من الناس بهروا بما وصل إليه الغرب من علوم، ولو أن المسلم سلك طريقاً إلى ربه، لعلمه....

* في هذه الآية الكريمة ذكر لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ ثلاث مرات، وماذاك - والله أعلم - إلا لإدخال المهابة في نفوس المؤمنين، ليأخذوا الأمر على ما تقتضيه الهيبة من إحسان العمل والبعد عن الإساءة.

* في هذه الآية الكريمة صفة من صفات الله تعالى وهي البصر، كما مر في أثناء السورة صفات أخرى، والذي ينبغي تأكيده، أنه مع أهمية بيان المنهج الأسلم والأعلم والأحكم في هذه المسألة، فإنه ينبغي أن لا تغفل أثر هذه الصفات على الفرد والمجتمع. فالطالب في كثير من المعاهد والجامعات ينفق الوقت الكثير في بحث المسألة نظرياً، دون أن ينبه على أهمية أن يغير من سلوكياته الخاطئة وفقاً لهذا المعتقد.

* ختمت هذه السورة الكريمة بقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وكأنها - وقد حثت على الارتقاء إلى الإيثار - ها هي تدعو إلى مرتبة الإحسان.

* ونحن في خاتمة هذا الموضوع، بناء المجتمع، يستحسن أن يقال: إن هناك نوعاً من القطيعة

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٩).

بين الدعوة وبين العلوم الإجتماعية، بحجة أنها علوم غربية، مع أن سنن الله تبارك وتعالى في الإجتماع كسننه في الفيزياء والفلك، يجدها من يبحث عنها، ولا نستطيع أن نزعم أننا أكثر جدية من القوم في البحث عنها، مع أن عمل الدعوة كله عبارة عن تغيير المجتمع وتوجيهه الوجهة النافعة. ^(١)

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، أ. د عبد الكريم بكار/ ٣٦-٣٧، بتصرف يسير.

سورة ق

بين يدي السورة

اسم السورة

جاء على السنة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم تسمية هذه السورة بـ (ق)، و﴿قَ﴾
وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾، وسيأتي في فضائل هذه السورة دليل ذلك. وذكر السيوطي أنها تسمى
سورة الباسقات، ولم يعزه. ^(١)

مرحلة نزول السورة

قال الفيروز آبادي: «السورة مكية بالاتفاق» ^(٢)، وهي السورة الرابعة والثلاثون
في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المرسلات، وقبل سورة ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ
﴿١﴾﴾. ^(٣)

ومعلوم أن السور المكية عنيت بمعالجة فساد العقيدة في أمر الألوهية، وإنكار البعث،
ومسألة الرسالة، فكانت هذه السورة شوطاً في ذلك الدرب الطويل الذي سلكه القرآن الكريم

(١) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/٢٧٣، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/١٢١.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ١/٤٣٧. وقد استثنى بعض العلماء قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا...﴾
الآية، معتمدين على رواية لابن عباس رضي الله عنهما في المستدرک، وفيها «لما كان يوم السبت لم يكن
فيه خلق فقالت اليهود فيه ما قالت، فأنزل الله عز وجل تكذيبها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّا مِنْ لُجُوبِ ﴿٣٨﴾﴾ «المستدرک ك/ التفسير، باب/ تفسير سورة
حم الدخان. وفي سننه أبو سعد البقال، قال ابن حجر: «ضعيف مدلس» تقريب التهذيب ١/٢١٢.
وقال الذهبي: «رواه عبد الرزاق عن ابن عيينة عن أبي سعيد مرسلًا، لم يذكر ابن عباس» تلخيص
المستدرک ٢/٤٥٠ - ٤٥١.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/٢٨١، والتحرير والتنوير ٢٦/٢٧٤. أما في الإتقان فهي
الثالثة والثلاثون، ويظهر أنها سقطت من الناسخ، فبتبع ما أورده السيوطي يتضح أنه تابع الزركشي في
كل ما ذكره، إلا في هذه السورة، فهي غير موجودة البتة في المكي، ولا في المدني.

وهو يقتلع جذور هذه العقيدة الفاسدة، وذلك بإيراد شبهتهم في البعث، والرد عليها بالحجج والبراهين البينة الدامغة.

فضائل السورة

وردت عدة أحاديث تبين مدى حرص النبي ﷺ على قراءة (سورة ق) في المجمع العامة، كالجمع والأعياد، وقد ذكر ابن كثير علة ذلك فقال: «لاشتاها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب»^(١) ومما ورد في فضلها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه^(٢) عَنْ أُمِّ هِشَامِ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ التُّعْمَانَ قَالَتْ: لَقَدْ كَانَ تَنْوَرُنَا وَتَنْوَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا سِتِّينَ أَوْ سِنَّةً وَيَعْضُ سِنَّةً، وَمَا أَخَذْتُ ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقْرُوهَا كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ عَلَى الْمُنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ) وفي رواية له عنها رضي الله عنها (ما حفظت ق...)^(٣).

و«عَنْ قُطَيْبَةَ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: صَلَّيْتُ وَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ حَتَّى قَرَأَ ﴿وَالْتَخَلَّ بِاسِقِنِي﴾ قَالَ فَجَعَلْتُ أُرِدُّهَا وَلَا أَذْرِي مَا قَالَ»^(٤).

وفي صحيح مسلم - أيضاً -^(٥) أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبا واقد الليثي ﷺ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، و«أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ»^(٦).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٨٠.

(٢) برقم (٨٧٣).

(٣) بالرقم السابق نفسه.

(٤) صحيح مسلم، برقم (٤٥٧).

(٥) برقم (٨٩١).

عدد آيات السورة

عدد آيات (سورة ق) خمس وأربعون آية. (١)

محور السورة

احتوت (سورة ق)، على براهين البعث التي ذكرها العلماء، وهي: العلم والقدرة والحكمة، وبالتأمل في آياتها، نجد هذه البراهين واضحة جلية، فلقد افتتحت السورة بالقسم بالقرآن، وفي ذلك إرشاد للمصدر الأصيل لتلقي هذه البراهين، ثم وصف هذا القرآن بالمجيد الذي يعني: السعة في الكرم والجلال... لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية (٢)، ثم يزداد المحور اتساحاً حين يذكر القرآن مصدر تعجبهم، ﴿بَلْ يَجْمَعُونَ أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ إذن تعجبوا من أمرين، الأول: الإنذار، وهذا يقتضي إنكار البعث، إذ إن المنذر هو: المخبر بما فيه تخويف (٣)، والأمر الآخر: كون هذا المنذر من البشر، وتقديم ﴿مُنْذِرٌ﴾ «ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه، وأن كونه منهم إنما قوّى الاستبعاد والتعجب....» (٤) بدليل قولهم عقب هذا ﴿أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾. ثم يضرب المولى عز وجل عن كلامهم؛ ليبين سبب إنكارهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فهم لم يُعملوا عقولهم في ما جاءهم، بل بادروا بالتكذيب، ولذا شرع القرآن ببيان براهين البعث، لحثهم على التعقل والتأمل والتفكير، فقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَيْنَاهَا﴾ ومن هنا يبدأ المقطع الأول.. ثم يأتي المقطع الثاني: ليبدأ البرهان من خلال الإنسان نفسه، وليزاوج بين الدليل العقلي والعاطفي ترغيباً وترهيباً، وليربط القدرة بالعلم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾، ويستمر الحديث عن العلم، بتوثيق

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ١/٤٣٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (مجد).

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن (نذر).

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٩.

المعلوم، ليذكر برهاناً من براهين البعث، وهو الحكمة، فليس من الحكمة أن يخلق الله عز وجل الإنسان هذا الخلق العجيب، ثم يتركه سدى، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فكل ما يصدر منه فإنه محصى ومسجل، ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾، ثم يأتي الحديث عن البعث بصيغة الماضي، وكأنه قد حصل، مبتدئاً بالموت الذي هو النقلة لدار الجزاء الذي ينكرونه، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾، أي: « جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل^(١) »، ثم تستمر الرحلة ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ ﴾... ثم مآل هذا الكافر، وهو أنه يؤمر به فيلقى في جهنم...، فما كنتم تنكرونه، ترونه الآن عياناً، وفي المقابل هناك أناس آمنوا بالبعث واستعدوا له، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ وهي موجودة الآن بل هي قريبة، ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾، ويأتي قبيل نهاية المقطعين تذكير بنهاية المكذبين لرسولهم، وقد حق ما أوعدهم الله به في الدنيا، وقد بلغت قريشاً أخبار تلك الأمم، قال عز وجل: ﴿ وَإِن كَرِهْنَا لَمَا كَفَرُوا وَصَدَّقُوا بِأَعْيُنِنَا غِيظًا لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وفيه تذكير بمصارع الأمم السابقة، ففي المقطع الأول {كذبت قبلهم... فحق وعيد}، وفي المقطع الثاني: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيسٍ ﴿٣٦﴾ ﴾، ثم تأتي الخاتمة، وفيها تسلية للرسول ﷺ ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ومن جملة ما قالوه، ما ذكر في افتتاحية السورة ﴿ أَوَدَّا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، لقد سمع النبي ﷺ مقالتهن، وساء ذلك، وقد علم الله عز وجل أن بعضهم لن يؤمن، على الرغم من وضوح البراهين التي سيقن لهم، ولذا تقدم الخاتمة بيان أن هذه البراهين لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهي لمن يخاف وعيد الله عز وجل، ثم تتوالى الآيات موجهة النبي ﷺ لما ينبغي أن يفعله، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

(١) التفسير الكامل، ابن تيمية/ ٢٨٣.

الشَّمْسِ ﴿ حتى تختم بها بدأت به ﴿ فذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ ﴾ فالقرآن المجيد هو مصدر البراهين، ومن جملته هذه السورة العظيمة.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

للعلماء في المراد بالحروف المقطعة - التي منها ما افتتحت به (سورة ق) - أقوال، لعل أرجحها أنها للتحدي والإعجاز، مثبتة بذلك أن هذا القرآن المجيد من عند الله تعالى، ولما كان الأمر كذلك، فينبغي على الجميع الإصغاء إليه وتلقي ما فيه، إذ هو كلام الخالق عز وجل، ومن ضمن ما فيه، ما ذكرته هذه السورة من براهين البعث.

وما دام الأمر متعلقاً بالتحدي، فعليهم أن يقبلوا هذا التحدي، فهم أهل اللسان، ولهم في التفنن فيه صولات وجولات، فإذا ما ثبت عجزهم، وجب عليهم أن يُقبلوا على ما فيه، وحينئذ ينفعهم التذكير بآياته وعظاته وبراهينه.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بين افتتاحية السورة وخاتمتها مناسبات عدة، منها:

التنويه بشأن القرآن، فلقد ابتدأت بالقسم به ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ وختمت به ﴿ فذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ ﴾. (١)

ذكرت الافتتاحية قول الكافرين وتعجبهم ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَأْبُ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾، وختمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على ما يقولون ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، كما توعدهم عز وجل على قولهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾، ففيه تهديد للكافرين، وتسلية للنبي ﷺ.

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي، ١٩٢/٢٨.

في الافتتاحية استبعد الكافرون البعث، وفيه - والعياذ بالله - إثبات العجز لله عز وجل وذلك في قولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، فكانت الخاتمة ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

ختمت سورة الحجرات ببيان إحاطة علم الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ إِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٨]، وجاء في افتتاحية سورة ق قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق: ٤]. ومناسبة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لقوله عز وجل: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾﴾، واضحة، فالذي يعلم غيب السماوات والأرض، يعلم ما غاب من أجسادهم. والعلم كما لا يخفى أحد براهين البعث التي تضمنتها سورة ق. كما أنه قادر على إعادة ذلك خلقاً جديداً، وهو البرهان الثاني. وقد علم أن إثبات العلم في آية الحجرات التي مر ذكرها، مراد منه ما يترتب على هذا العلم، وهو الجزاء، وهو البرهان الثالث، أعني: الحكمة، التي تقتضي مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

قد مر أن محور سورة الحجرات هو (أسس بناء المجتمع)، ولا يخفى أن أعظم هذه الأسس، هو الأساس الإيماني، فكان بيناً أن على من يتولون الإصلاح وعملية البناء، أن يراعوا مجتمعاتهم، فإذا كانت سورة الحجرات قد تناولت المجتمع المدني، فسورة ق تعالج مجتمعاً مكيّاً، ولكل مجتمع ما يناسبه. والله أعلم.

يقول سعيد حوى: «فإذا كانت سورة الفتح قد بينت من جملة ما بينت خصائص الجماعة المسلمة، ووعدت بانتصارها، وجاءت سورة الحجرات لتبني هذه الجماعة بما يكافئ مهمتها، فإن سورة ق عاجلت العقبتين الرئيسيتين اللتين يصادفهما صاحب الدعوة، وهما التكذيب،

والعجب من مضمون الرسالة». (١)

حذرت سورة الحجرات من أمور كثيرة تتعلق باللسان، منها التقدم بين يدي الله ورسوله...، ومنها رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول...، ومنها نبأ الفاسق، ومنها السخرية واللمز والتنازع بالألقاب، والغيبة، بل يدخل فيها ما قاله الأعراب ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا...﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي سورة ق، تحذير شديد من عدم التنبه للأقوال ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨).

مر في سورة الحجرات الوصية بالصبر، والحث على التآني في مواضع كثيرة، منها: عند قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا لَا نَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا التقدم سببه عدم التآني وانتظار ما يراه الرسول ﷺ، وفي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥]، والدعوة للصبر هنا واضحة، وفي قوله عز وجل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِمْ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، أمر بالتبين وعدم التعجل، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تَزْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، دعوة للتآني، وعدم ادعاء منزلة لما يصلوا إليها بعد، هذا ما ورد في سورة الحجرات، أما في سورة ق، فإن سبب تكذيب الكافرين، هو: «أنهم بادروا بالتكذيب، دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق، بل كذبوا به من أول وهلة». (٢)

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. وهنا نلاحظ التعجل، على الرغم من أهمية ما يُعرض عليهم، وأن فيه سعادة أو شقاء الدارين. والله تعالى أعلم.

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٩/٩٤٧٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٢٨٤، وانظر البحر المحیط، أبو حيان ٨/١٢١.

عرض مقاطع السورة

افتتاحية السورة

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْنَا وَكَأَنزَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ ﴾

المعنى الإجمالي

سورة (ق) إحدى السور التي افتتحت بها سمي بالحروف المقطعة، وقد تعددت أقوال العلماء في المراد بذلك، وفيما يأتي أبرز هذه الأقوال:

الأول: أنها للتحدي والإعجاز، وكان الله عز وجل يقول للمشركين: هذه هي حروف لغتكم، التي قد نبغتم فيها، ولكم فيها القصائد الجياد والخطب الرائقة، وقد جاءت على لسان واحد منكم، ولم يدع قبل ذلك نبوغاً في الشعر أو النثر، ثم هو لم ينسبه لنفسه، بل نسبه لله عز وجل، وأنتم قد اصطلحتم على تسميته قبل أن يقول ذلك بالصادق الأمين، فإن كنتم مع هذا كله تكذبونه، فأتوا بسورة مثله.

الثاني: أن هذه الحروف للتنبية، ذلكم أن المشركين قد تواصلوا فيما بينهم على التشويش واللغو عندما يتلى القرآن الكريم، لئلا يؤثر فيمن يسمعه، وعدوا ذلك نوعاً من الغلب، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِرِ لَهُمْ لَعَلُّهُمْ يُعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فجاءت هذه الحروف على خلاف المألوف من كلامهم بغية استنصاتهم.

الثالث: الله أعلم بمراده.

ولدى التمعن في هذه الأقوال، لا نجد تعارضاً بينها، أما الأول والثاني، فالمطلوب من المشركين اسماع آيات هذا القرآن المجيد؛ لتحداهم، وليقفوا على مجده وعظمته، وليتوصلوا إلى أنه من عند الله عز وجل، وأما القول الثالث، فالجميع متفقون على أن أقوالهم محض اجتهاد،

أما العلم بالمراد فعند الله تعالى.

بعد ذكر هذا الحرف، يقسم الله عز وجل بالقرآن، «والقسم به كناية عن التنويه بشأنه؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم»^(١)، ثم يصفه سبحانه عز وجل بالمجيد، وهو: «الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»^(٢). والمراد بهذا التأكيد: التشويق لما سيأتي؛ لأن القسم لا يكون إلا لأمر مهم، «وجواب القسم محذوف؛ لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام، فيدل عليه ابتداء السورة بحرف ﴿ق﴾ المشعر بالنداء على عجزهم عن معارضة القرآن بعد تحديهم بذلك، أو يدل عليه الإضراب في قوله: ﴿بَلْ يَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾. والتقدير: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرح به في قوله: ﴿يَسْ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤﴾ [يس: ١-٤]. أو يقدر الجواب: إنه لتنزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُنِينِ ٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: ١-٣]، ونحو ذلك. والإضراب الانتقالي يقتضي كلاماً منتقلاً منه والقسم بدون جواب لا يعتبر كلاماً تاماً، فتعين أن يقدر السامع جواباً تتم به الفائدة، يدل عليه الكلام^(٣)، وتعدّد هذه الأقوال يمنح وفرة من المعاني. ثم يضرب المولى عز وجل عن ما تقدم ليين أمراً عجباً، ذلكم أنه مع كون القرآن مجيداً حاز الكرم والشرف في مبناه ومعناه، إلا أنهم - وهم أهل الفصاحة الذين كان ينبغي أن يهشوا لاستقباله - كذبوه، ولم يصدقوا أنه من رب العالمين، ف﴿عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، قال الراغب الأصفهاني: «العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء... يقال عجبت عجباً، ويقال للشيء الذي يتعجب منه: عجب، ولما لم يعهد مثله عجيب، قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨١.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٧.

[يونس: ٢]، تنبيهاً أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله، وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ﴾^(١)، وقد عجبوا من أمرين، الأول: مجيء منذر، يخبرهم بيوم للبعث والجزاء، والثاني: من كونه بشراً وليس ملكاً، كما صرحت بذلك آيات، منها قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَشَرًّا لَإِن يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ [الأنعام: ٨]، ثم لم يكتفوا بالتعجب، بل أعلنوا ذلك وتفوهوا به، وهذا أقبح، ﴿ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾، ولذا صرح القرآن بوصفهم بالكفر، وأنه سبب قولهم هذا،^(٢) وقد كان عجبهم من الأول أشد، ولذا بينوا وجهه^(٣) ﴿ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي: «إذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب»^(٤)، فأنكروا علم الله تعالى وقدرته، فقالوا: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣] «أي: مستبعد في الأوهام والفكر»^(٥) وقد بين الله عز وجل في مواضع من كتابه المجيد، أن تعجبهم هو ما ينبغي أن يتعجب منه فقال عز وجل: ﴿ وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ [الرعد: ٥]، ثم رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق: ٤]، إن علمنا بما تاكل الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم وما تفرق من ذلك واختلط بالتراب، محقق وثابت، وهو مثبت في كتاب حافظ لذلك كله.^(٦) «وسماه الله تعالى حفيظاً؛ لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا يتغير ولا يتبدل»^(٧)، ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس

(١) مفردات ألفاظ القرآن (عجب).

(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١-٢٨٢.

(٧) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٧.

ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والمعنى «أنهم بادروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق، بل كذبوا به من أول وهلة»^(١)، ولذا ﴿فَهَرَّ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ «في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله»^(٢)، ولذلك نخبطوا في وصف القرآن المجيد، فمرة يقولون: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، ومرة يقولون: ﴿أَسْطِيزُ الْأُولَيْنِ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وثالثة: قول شاعر، وأحياناً: قول كاهن، وقد رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤٢]، وقالوا: هذيان مجنون. وقد قال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: ٢٩]، وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم، فلم يتقنوا التكذيب، ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به.^(٣)

الهدايات المستفادة من افتتاحية السورة

* وصف الله عز وجل القرآن بما وصف به نفسه، فقال: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾، ذلكم أن القرآن كلام الله عز وجل، وصفة من صفاته.^(٤)، وفسر المجيد بالكريم^(٥)، وهذا يدل على كثرة عطاءاته، ومن هنا وجب علينا أن نتدبره وأن نعمل به؛ ليغمرنا بكرمه، ولا غرو أن كان خلق النبي ﷺ القرآن.

* إقسام الله تعالى بالقرآن؛ ليلفتنا لعظمته، كما أن فيه تنبيهاً على أهمية ما يأتي بعده، والذي استدعى أن يؤكد. كما أن فيه تشويقاً. ومع هذا كله لم تع القلوب المغلقة هذا الأمر، فلم يعرفوا قدره، بل راحوا يتساءلون متعجبين من مجيئه من رجل منهم.^(٦)

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٨٤، وانظر البحر المحيط ٨/ ١٢١.

(٢) جامع البيان ١١/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٨٥، ونظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٤٩.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢٦/ ٤٦٤.

(٥) جامع البيان ١١/ ٤٠٥، وذكر أنه قول سعيد بن جبير.

(٦) انظر التفسير القرآني للقرآن ٢٦/ ٤٦٥.

* وبال الكفر عظيم، فهؤلاء لم يلتفتوا لعظمة القرآن، بل لم يتدبروه، فلو أنهم نظروا في القرآن لتبينوا أنه من عند الله، ولآمنوا بما جاءهم به من الإخبار عن يوم القيامة. لكنهم أنكروا مجيئه على يد واحد منهم، وقاسوا الله عز وجل على خلقه، فاستبعدوا البعث، وهذه حجب كثيفة، ومما يؤكد سخف عقولهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً، في حين ارتضوا أن يكون الإله حجراً.^(١)

* علة كثير من الانحرافات في كل زمان ومكان: تقديم ما تمليه عليهم عقولهم المريضة على الوحي الرباني، فهؤلاء المشركون لم تحتمل عقولهم إمكانية البعث، فأنكروه بالرغم من مجيئه على لسان الصادق الأمين. وعلى الرغم من أن العقل السليم لا يحيل ذلك... بل يثبت. وعندما يقال: تقديم العقل فإنها يُعنى به عقولهم القاصرة، وهذه السورة قد تكفلت ببيان البراهين التي تبين للعقل السليم إمكانية ما استبعدوه.

* الكفار ما قدروا الله حق قدره عندما تعجبوا من البعث، وذلك لأنه يعني العجز، وما داموا قد آمنوا بربوبيته عز وجل وأنه الخالق الرازق... فكيف إذن يثبتون عجزه عن إعادة ما قد خلق.

* علم الله تعالى شامل لكل شيء، ومنه ما تفرق من أجساد الموتى، واختلط بتراب الأرض....

* في التعبير بـ ﴿ مَا نَقْضُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ ﴾ ما يدل على أن الميت لا يعدم بالكلية، بل يبقى منه شيء،^(٢) وقد أكد الحديث الشريف هذا، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ

(١) نظم الدرر ٧/٢٤٧.

(٢) ذكر هذا ابن عاشور، انظر التحرير والتنوير ٢٦/٢٨٢-٢٨٣.

يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١) ثم يأتي العلم الحديث ليؤكد ما سبق يقول الدكتور زغلول النجار، متحدثاً عن هذه الآية وأن فيها: «الإشارة إلى فضلة تبقى من رفات الأموات بعد تحللها (عجب الذنب)، وهذا ما أثبتته الدراسات العلمية أخيراً»^(٢).

* من الآفات التي ابتلي بها كثير من الناس: العجلة، فهم لا يتأنون في إصدار أحكامهم على الأشياء، وهذا أمر معيب، وبخاصة الأمور الخطيرة، التي تخشى عواقبها في الدنيا والآخرة، وهذا ما فعله الكفار، فهم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ دون أن يعملوا عقولهم، ليروا وضوح أدلته وقوة براهينه على ما يدعو إليه.

* « قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم، وكذا قال قتادة، وزاد: والتبس عليهم دينهم»^(٣)، وهذه هداية عظيمة من هذين الإمامين الجليلين. فوجب على المسلمين التمسك بالحق، والدعوة إليه.

* أدب الحوار، يتجلى هذا في ذكر حجة الكافرين، ومن ثم الرد عليها، بيان منشأ الشبهة، مع أسلوب يعتمد على عدم تجريح القائل، بل الرد على شبهته، وبهدوء. فمع أنهم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، مرتكبين قبائح شتى، إلا أنك لا تجد كلمة نابية في توجيههم، وما أحوجنا إلى مثل هذا الأدب في تعاملنا مع المخالفين.

(١) متفق عليه صحيح البخاري برقم / ٤٩٣٥، وصحيح مسلم برقم / ٢٩٥٥.

(٢) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار. ويقول أيضاً: «إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته ﷺ. فقد أوضح علم الأجنة الحديث، أن الإنسان يتكون، وينشأ من عجب الذنب هذا (يدعونه الشريط الأولى Primitive Streak)، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام، والتخصص، والتمايز، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية (الميزاب العصبي، ثم الأنبوب العصبي ثم الجهاز العصبي بأكمله) ثم بقية الأعضاء، ويندثر هذا الشريط الأولى إلا جزءاً يسيراً منه يبقى في المنطقة العصبية التي يتكون فيها عظم الذنب (عظم العصعص)، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ».

(٣) انظر نظم الدرر / ٧ / ٢٤٨.

المقطع الأول: التأمل في الآفاق

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَهُ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَزَلَّلْنَا مِنْ
السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا
لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ
وَقِرْعُونُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّبْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ
بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لافتتاحية السورة

ذكر المولى عز وجل في افتتاحية السورة شبهة الكافرين في تكذيب الحق، وهي: ﴿ أَيْدَا
مَتَنَا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، ولما كان منشأ هذه الشبهة، هو الشك في قدرة الله وفي علمه،
رد عليهم بشمول علمه، فقال عز وجل: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ
﴿٤﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الافتتاحية قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾، ثم بين مآل
الأمم المكذبة ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَقِرْعُونُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ
الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ فليعتبروا بالأمم السابقة، ليأخذوا العبرة والعظة
منهم.

لما كان منشأ تكذبيهم استبعاد ذلك، وهذا يعني تحاكمهم إلى العقل، وإذن فليعملوا
عقولهم، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ﴾.

استبعد المشركون البعث، فقالوا: ﴿ ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ ﴾، وقال تعالى في هذا المقطع: ﴿ أَفَعَيَّبْنَا
بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾، يتبدأ هذا المقطع بسؤال لهؤلاء الذين أنكروا قدرة الله تعالى على البعث، يطلب منهم الإقرار؛ لأنهم لا يستطيعون التفلت من الإجابة، وأنهم قد نظروا، وهذه السماء فوقهم، أفلم يتأملوا كيف بنيناها، فسوّيناها سقفاً محفوظاً، وفي التعبير بـ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ دلالة على سهولة ذلك عليهم، إذ لا يكلفهم سوى رفع رؤوسهم. ^(١) ﴿وَزَيَّنَّهَا﴾ بالنجوم، ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني: «وما لها من صدوع وفتوق» ^(٢)، وهي على اتساعها لا يرى لها أعمدة، وليس لها تصدع منذ خلقها الله تعالى، ثم ينتقل إلى دليل يكتنفهم ويتقلبون عليه، وهي الأرض، فيقول عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، أي: بسطانها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُؤْسًا﴾ وهي «الجال؛ لثلاثميد بأهلها وتضطرب» ^(٣)، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض أصنافاً من النباتات، حسنة كريمة تسر الناظر إليها. ^(٤) ﴿تَبَصَّرَةٌ﴾ يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس، نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء، ﴿وَذَكَّرْنَا﴾ وتذكيراً من الله عظمتة وسلطانه، وتنبهها على وحدانيته ^(٥) وحذف متعلق ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَّرْنَا﴾؛ ليُعمَّ كل ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث،... ^(٦) ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ لكل عبد خاضع لمولاه، منيب «راجع إلى الحق بطاعة الله، فإذا انحرف أو شغله شاغل، ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال، فلا يفارقه حال الطاعة، وإذا فارقه قليلاً آب إليه وأتاب». ^(٧)

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٦/٢٨٦.

(٢) جامع البيان ١١/٤٠٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٢.

(٤) انظر جامع البيان ١١/٤٠٩، ومعالم التنزيل، البغوي ٧/٣٥٧.

(٥) جامع البيان ١١/٤٠٩.

(٦) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٠.

(٧) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩١. وانظر المفردات (نوب).

ثم انتقل الحديث إلى أمر طالما شاهده المشركون، ماء ينزل من السماء، بعد طول انتظار، فيسقي أرضاً قد أجدبت، فإذا بها تهتز وتربو، أليس الذي أحيا موات هذه الأرض قادراً على إحياء موتاكم؟ ﴿ وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾، ونزلنا من السحاب ماء كثير المنافع^(١) فأنبتنا بعظمتنا بسبب ذلك الماء بساتين كثيرة عظيمة، تحوي الأشجار ونحوها، ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾، وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره كالقمح والشعير. ^(٢) ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾، أي: وأنبتنا بهذا الماء النخل الطوال، ﴿ هَذَا طَلْعٌ ﴾ الطلع: « ثمر وحمل، سمي بذلك لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشق، ﴿ نَقِيدٌ ﴾، متراكب متراكم منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد»^(٣).

وقد « خص النَّخْلُ بالذكر مع تناول جنات له؛ لأنه أهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه مما يثير تذكير بديع قوامه، وأنيق جماله». ^(٤)

ثم قال تعالى: ﴿ زَرْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ أي: لنرزق العباد، وهذا فضلاً عن كونه إثباتاً لقدرة الله عز وجل فهو امتنان يمتنُّ الله عز وجل به على عباده، وقوله: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾، أي: وأحيينا بهذا الماء، بلدة قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت. ^(٥) ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها، بما ينزل عليها من الماء». ^(٦)

بعد ذكر هذه الأدلة التي لا يسع أحد إنكارها، انتقل إلى الحديث عن تكذيبهم الذي

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني ٥/٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٢. بتصرف يسير.

(٣) معالم التنزيل ٧/٣٥٧، وانظر فتح القدير ٧/٧٨.

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٢.

(٥) انظر جامع البيان ١١/٤١٢.

(٦) جامع البيان ١١/٤١٢. وانظر تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٢.

ورد في افتتاحية السورة في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ق/ ٥، فبين الله عز وجل أنهم ليسوا أول من كذب رسوله، بل هناك أمم كثيرة فعلوا مثل فعلهم، ولكن عليهم أن ينظروا في عاقبة ذلك التكذيب، يقول الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ (١٣) « وقد ذكر منهم أشهرهم في العالم، وأشهرهم بين العرب، فقوم نوح أول قوم كذبوا رسولهم، وفرعون كذب موسى، وقوم لوط كذبوه، وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب، وأما أصحاب الرِّسِّ وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع، فهم من العرب» (١) ومن هؤلاء من يرون آثارهم عياناً كثمود في الحِجْر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل، وهم قوم لوط عليه السلام، يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرأ منهم، ورسلمهم ليسوا خيراً من محمد صلى الله عليه وسلم. (٢)

ثم يقول عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرت قصة قوم نوح مع نبيهم عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وما واجهوه به، ثم ما أصابهم لما كذبوه، وأما أصحاب الرس فقد اختلف العلماء في المراد بهم، وقد رجح الطبري أنهم «قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرِّسِّ في كلام العرب: كلٌّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك... ولا أعلم قوماً كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود» (٣) وقد قال الإمام ابن كثير عقب إيراده هذا القول وغيره: «فالله أعلم». (٤) وبها قال نقول؛ إذ لم يرد في القرآن، ولا في السنة

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ابن سعدي/ ٥٣١. بتصرف يسير.

(٣) جامع البيان ٩/ ٣٩٠، وينبغي الإشارة إلى أن الطبري لم يجزم بهذا الرأي، وإن قاله عقيب قوله: «والصواب من القول في ذلك» لأنه قال بعد ذلك: «فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ فإننا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبراً، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رسوا نبيهم في حفرة...» أوردت هذا الإيضاح؛ لأن بعض الذين ذكروا ترجيح الطبري لم يшиروا إليه.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٢٢.

ما يفصل في المسألة. ثم ذكر الله تعالى بقية الأقسام المعذنين، فثمود قوم صالح عليه السلام، كذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ۝٧٧ كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّا نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَثْمٍ ۝٧٨﴾ [هود: ٦٧-٦٨]، وقال عنهم أيضاً ﴿ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥١]، وأما عاد، فهم قوم هود عليه السلام وقد قص الله عز وجل نبأهم في أكثر من موضع، منها ما ورد في سورة الأحقاف، قال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُحْرَىٰ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١١﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٦]، وذكر عاقبتهم أيضاً في آيات كثيرة منها قوله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا أَهْلَكُوهَا فِي يَوْمٍ إِثْمَنِ ۝١٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ زَيْلٍ ۝١٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝١٨﴾ [الحاقة: ٨٦]. وقد ذكر الله ما أصاب إخوان لوط لما انحرفوا عن الفطرة السوية، وكذبوا رسولهم، فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ۝٨٢﴾ [هود: ٨٢]، وأما أصحاب الأيكة، فهم قوم شعيب عليه السلام (١)، وهؤلاء أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ۝١١﴾ [الأعراف: ٩١]، وسماها تعالى في موطن آخر الصيحة، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ۝١٢﴾ [هود: ٩٤]، وكان عذاباً عظيماً كما وصفه الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وأما قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمٌ بُعِثَ ﴾، فـ (تبع هو الحميري، وقد كان رجلاً صالحاً، وقد ذم الله قومه ولم يذمه) (٢) «وقال كعب: ذم الله قومه ولم يذمه، وضرب بهم لقريش مثلاً؛ لقريش من دارهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٣.

(٢) ورد هذا في أثر عن عائشة رضي الله عنها، أخرجه الحاكم ك/ التفسير، باب/ تفسير سورة حم الدخان، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في الصحيحة.

وعظمتهم في نفوسهم، فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم - لأنهم كانوا مجرمين - كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك^(١) هؤلاء كلهم اشتركوا في أمر واحد، واستحقوا وعيداً واحداً، ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ هُنَّ وَعِيدٌ﴾، « فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا جل ثناؤه ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين للرسول؛ ترهيباً منه بذلك مشركي قريش، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، أنه محلّ بهم من العذاب، مثل الذي أحلّ بهم». ^(٢)

﴿ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ قال الطبري: «ثم استدل عليهم بدليل عقلي، فقال عز وجل مستفهماً عن شيء لا يسعهم في الجواب عنه إلا الإقرار، تقرير من الله لمشركي قريش الذين قالوا: ﴿أَيُّذَا مِنَّا وَكُنَّا نَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(٣) يقول لهم جل ثناؤه: أفعيننا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئاً، فنعياً بإعادتهم خلقاً جديداً بعد ثلاثهم في التراب، وبعد فنائهم؟ يقول: ليس يعيننا ذلك، بل نحن عليه قادرون». ^(٤)، ومعنى ﴿أَفَعَيَّنَا﴾: أفعجزنا. ^(٥)، وقد ذكر الله عز وجل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٦) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٧) [يس: ٧٨-٧٩]، و﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه، أي: بل ما عيننا بالخلق الأول، أي: «وهم يعلمون ذلك، ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات، ولكن تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه»^(٨)، وإذن فهم في شك وحيرة من قدرة الله تعالى على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/١٤٦.

(٢) جامع البيان ١١/٤١٣-٤١٤.

(٣) جامع البيان ١١/٤١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٣.

(٥) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٨.

خلقهم خلقاً جديداً بعد صيرورتهم تراباً. فالتبس عليهم، واختلط ما ألفوه واعتادوه على الحقيقة التي يقر بها العقل السليم، فهم إذا سئلوا من خلقهم؟ أجابوا: الله، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، ثم بعد ذلك يقولون: ﴿أءَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾﴾، ثم يسألون: فمن خلق السموات والأرض؟، فيجيبون الله! قال عز وجل: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، وحقاً كيف يصرفون عن هذه الحقيقة الواضحة. بل إن خلق هذين الجرمين العظيمين أكبر من خلق الناس، فكيف إذن يستبعدون البعث، يقول عز وجل: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، وفي تسمية البعث بالخلق في قوله عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾ تحميق لهم من إحالتهم البعث، أي اجعلوه خلقاً جديداً كالخلق الأول، وأي فارق بينها. (١)

مناسبة المقطع الأول لمحور السورة

مناسبة هذا المقطع للمحور واضحة، فهو يدور حول براهين البعث، فلما استبعد الكفار البعث، أمروا أن يُعملوا عقولهم بالنظر في السموات والأرض والجبال... ثم إحياء موات الأرض، فبإمكان العقل أن يتوصل عن طريق التأمل في خلق الله لمعرفة شيء من قدرته عز وجل، ثم لم يُتركوا حتى نص على هذه القدرة من خلال استفهام يطلب منهم الإقرار بالحقيقة التي التبس عليهم أمرها ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ والإجابة لا بد أن تكون بالنفي، إذن فلا بد أن يصلوا إلى بدهية تقرها عقولهم، إن تخلت عن تلك الحجب والموانع الكثيفة التي تعيق تفكيرهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول

* أدلة القرآن الكريم واضحة بينة لا التباس فيها ولا غموض، ولفت الأنظار لأمر متاحة للجميع، سموات وأرض وجبال، ونبات...، ومن عظمة هذه الأدلة أن الأمي يفهمها،

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٨. بتصرف يسير.

وتبهر في الوقت ذاته العالم، فمن فلك، إلى علم طبقات الأرض، إلى علم النبات، إلى علم الأجنة....

* المشركون لم يعملوا عقولهم حينما أنكروا البعث، فخلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، وهم يقرون أن الله خالقهم وخالقها ابتداء من عدم، فلم إذن يتعجبون من إعادة الإنسان.

* ينبغي الاستفادة من براهين البعث التي ذكرت في هذه السورة- وفي غيرها- في زيادة الإيـان، فهي وإن ذُكرت للمشركين المنكرين، إلا أن تأمل ذلك له الأثر العظيم فيما ذكرنا، فلتدبر بخشوع قول الله عز وجل ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾. قال الزمخشري: «وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها، واعتباراً بموردها». (١)

* الإسلام دين العقل، فهو إذ ثبت لك أمراً من صميم العقيدة، يريد منك أن تستخدم عقلك كي تصدق به، وقد لفت أنظار الكفار للنظر في الآفاق، فإذا لم يتعظوا بالكتاب المقروء المجيد، فليتعظوا بالكتاب المنظور وهو الكون. وهي في الوقت نفسه دعوة للمسلمين أن يلتفتوا للكون ليتكشفوا أسراره، فقد طالت غيبتهم عن المشهد الحضاري.

* من الأمور التي تعرضت لها هذه السورة الزينة، وهي أمر لافت للنظر، مبهج للنفس، فحري أن يتأمل ويتدبر، وقد ذكرت في هذا المقطع في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾، وفي قوله عز وجل ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، بل إنك لتدرك ذلك في ثنايا ﴿وَأَلْقَلْنَا فِيهَا سِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾. وعلى من يتصدى لبيان قدرة الله عز وجل أن لا يغفل بيان هذه

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٠٨.

الجواب. (١)

* الإعجاز العلمي في هذه السورة الكريمة، يتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْتَهَا...﴾ قال د. زغلزل النجار: «استخدام تعبير مد الأرض لوصف كرويتها؛ لأن المد بلا نهاية هو قمة التكوير»^(٢)، وهناك إعجاز علمي - أيضاً - في قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وأحيل في بيان الإشارة العلمية لـ ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ إلى ما كتبه الدكتور فوزي الشربيني، لطوله ونفاسته^(٣) أما وصف الجبال بالرواسي فيقول د. زغلزل النجار: «وصف الجبال بأنها رواسي للأرض وللألواح غلافها الصخري، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن العشرين»^(٤).

* لعل في قوله تعالى: ﴿مُنِيبٍ﴾ ما يرغب من انحراف عن الصراط المستقيم، وابتعد عن الحق، أن يرجع إليه.

(١) يقول محمد العبدية: «فإذا كانت غاية الخلق العبودية التامة لله تعالى، فإن من كمال التربية انسجام الوسائل والغايات، فقيام العقل بوظيفته المقدرة له وسيلة، والتناغم مع الطبيعة المُسَخَّرَة للإنسان وما فيها من إبداع وجمال وسيلة أيضاً، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالنظر في آيات الأنفس والآفاق... كما نبه القرآن إلى هذا الكون وما فيه من جمال ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ﴾ (٥٦) الحجر/ ١٦، ﴿وَاللَّهُمَّ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) ﴿لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُنزَلُونَ﴾ (٦) النحل/ ٥-٦. ﴿وَالْحَيْلَ وَالْيَمَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَمَخْلُقًا مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) النحل/ ٨.

وجاء العلم الحديث ليكشف أن الجمال من تركيبية هذا الكون، وأن ما قاله علماء القرن التاسع عشر من أن المادة ليس لها إلا خواص كمية كالوزن والحجم والعدد ليس صحيحاً، وجاء العلم الحديث ليقول: إن أي نظرية أو فرضية نرى فيها الجمال فإننا نتأكد أنها أقرب للصواب لأنها جزء من الكون. فالجمال في النظرة الجديدة: وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية... مجلة البيان، العدد/ ٩٠، ص/ ٢٦.

(٢) الموقع الرسمي للدكتور زغلزل النجار.

(٣) في كتابه: الظواهر الجغرافية في القرآن الكريم/ ٤٥.

(٤) الموقع الرسمي للدكتور زغلزل النجار.

* ذكر الله تعالى لإنبات الجنات والحب والحصيد والنخل الباسقات علتين، الأولى: ﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى ﴾، والأخرى: ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾، وفي تقديم التذكر والاستبصار، دلالة على أن اللائق بالعباد أن يكون انتفاعه بذلك أهم من تمتعه به من حيث كونه رزقاً. (١). ولذلك فإن العقلاء هم من يحققون هذا، ولعل في تقييد التبصرة والتذكرة بالعباد المنيب، وإطلاقه في الرزق ما يشير لذلك.

المقطع الثاني: التأمل في الأنفس: خلقاً وما لا

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَيْدٌ ۝ (١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ۝ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۝ (٢٣) أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَابِدٍ ۝ (٢٤) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝ (٢٦) * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ. وَلَكِنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ۝ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ۝ (٣١) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ (٣٢) مَنْ حَشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيسٍ ۝ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝ (٣٨) ﴾

(١) انظر إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/١٢٤، وروح المعاني، الألوسي ١٣/٣٢٧.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

ورد في ختام المقطع الأول قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾، وابتدأ هذا المقطع بقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾، فبعد أن أُلزم القرآن المشركين بالإقرار بأن الله عز وجل لم يعي بالخلق الأول، ابتداءً ههنا بذكر الخلق الأول، وفي هذا يقول ابن عاشور: «هذا تفصيل لبعض الخلق الأول، بذكر خلق الإنسان وهو أهم في هذا المقام؛ للتنبية على أنه المراد من الخلق الأول»^(١).

نلاحظ في كثير من آيات القرآن الكريم أن الحديث عن خلق الإنسان يسبقه ذكر ما أعد الله عز وجل له من مقومات حياته، ولذا نجد المقطع الأول يتحدث عن خلق السموات والأرض... ثم إنزال الماء من السماء رزقاً للعباد...، أوجد الله عز وجل هذه الأمور وغيرها للإنسان قبل أن يوجد، وضمن له مقومات حياته المادية والمعنوية والروحية، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواء، والروحية بالمنهج والقرآن.^(٢) وقد وردت الإشارة للمنهج في قوله عز وجل: ﴿ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴾ وقدم ذكره لأهميته.

كان المقطع الأول في الاستدلال على البعث بالآفاق، وابتدأ هذا المقطع بالحديث عن الأنفس، وقد قال تعالى ﴿ سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ذكر المقطع الأول برهاني العلم والقدرة، ثم افتتح المقطع الثاني، ببيان خلق الإنسان، الذي يتضمن برهاني القدرة والعلم، ثم أفرد الحديث بعدها عن برهان الحكمة، إذ ليس من الحكمة في شيء أن يُخلق الخلق، ويمدون بكل ما يحتاجونه لأبدانهم، ولا يغذوهم ربهم بما يسعدهم في الدنيا والآخرة، ثم يجازي بعد ذلك من امثل وسار على هدي هذا المنهج، ومن

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٩.

(٢) انظر تفسير الشعراوي ٢٠/١٢٤٤١/١٢٤٤٢ [عند سورة فاطر].

تنكبه، فجاء هذا المقطع لنقلنا إلى دار الجزاء، فإذا كان الكافرون قد عجبوا من البعث، فالقرآن يصوره وقد جاء بالفعل، ويبدأ بالموت، فهو أول مراحل الآخرة، وهم لا يشكون فيه.

بيد أن برهان العلم لا يزال يتلى، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، قال ابن عاشور: «وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان؛ التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم». (١) وبرهان العلم يقتضي محاسبة الناس على ما يصدر منهم، وهذا من الحكمة، وكل هذا يستلزم القدرة وإلا فمن يقدر على الإحاطة بكل الأقوال والأفعال وإحصائها؟ ﴿أَخَصَّنَا اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. وإذن فهو علم وحكمة وقدرة.

ورد في المقطع الأول إجمال في قوله عز وجل ﴿حَقٌّ وَعِيدٌ﴾، وفصل في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾. (٢)

التفسير الإجمالي

صُدِّرَ هذا المقطع بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المقدر، واللام، وقد؛ وذلك لأهمية ما يأتي بعدها من بيان قدرة الله عز وجل، ولتنزيل من ينكر البعث منزلة من ينكر أن الله تعالى خالق الإنسان، إذ قد علم في عرف البشر أن إعادة أهون من الابتداء، والمشركون يعترفون أنه عز وجل قد خلقهم، قال عز وجل: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم (٣). ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾، أي: «لا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه». ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٩.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٧٤٨.

جَبَلِ الْوَرِيدِ ﴿١﴾ «الوريد: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن، والله أقرب من ذلك بعلمه؛ لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويغشى عنه، وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شيء»^(١)، وقد اختلف في المراد بـ ﴿وَمَنْ﴾، فذهب جمهور العلماء إلى أنه الله عز وجل، فيؤول على معنى القدرة أو العلم.^(٢) وذهب آخرون إلى أنهم الملائكة، قال ابن كثير: «ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من جبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما قرء؛ لثلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من جبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣) [الواقعة: ٨٥]، يعني: ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٤) [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، عز وجل وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من جبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك». ^(٣)، ولا مانع من الجمع بين هذين القولين، ويكون المراد قُرب ذوات الملائكة وقُرب عِلْمِ اللَّهِ منه. ^(٤)

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به، وكُل به ملكين يكتبان عمله ويحفظانه؛ إلزاماً للحجة، فقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ﴾^(٥) والمعنى: «ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى الملكان»^(٦) الموكلان به بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة ما يلفظ به، وما يعمل به، فيأخذان ذلك ويثبتانه، قال الراغب - وهو يفسر كلمة قعيد -: «أي: ملك يترصده، ويكتب له وعليه،

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٦٢-١٦٣.

(٢) انظر جامع البيان ١١/٤١٥، وانظر التفسير الكبير ٢٦/١٦٢-١٦٣، والجامع لأحكام القرآن ١٧/٩، والبحر المحيط ٨/١٢٣، وإرشاد العقل السليم ٦/١٢٥، وغيرها.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٣-٢٨٤.

(٤) وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى، انظر التفسير الكامل ٦/٢٨٧.

(٥) فتح القدير ٥/٨٠. وانظر أضواء البيان، الشنقيطي ٧/٤٢٨.

(٦) جامع البيان ١١/٤١٥.

ويقال ذلك للواحد والجمع^(١)، وقد جعل الله تعالى لكل إنسان ملكين، يكتبان ما يصدر منه، أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال. ثم زيد الأمر تهويلاً، فقال عز وجل: ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ ما يتكلم بكلام إلا لديه من يراقبه فيكتب قوله، و﴿ عَنَيْدٍ ﴾ أي: حاضر.^(٢)

«وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، كما هو قول ابن عباس، على قولين، والراجح - والعلم عند الله عز وجل - القول الأول؛ لعموم قوله: ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾^(٣)، و«الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون: لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحي»^(٤).

ثم تتوالى الآيات منذرة محذرة من هول ما سيلقاهم عقيب موتهم، بل قبيل موتهم، وليس كالموت يفرغ قلوب الكافرين، ذلك أنه «لما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه، هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي»^(٥)، قال عز وجل: ﴿ وَجَاءَت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ والمراد بسكرة الموت: «شدته وغمرته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله»^(٦). ﴿ بِالْحَقِّ ﴾، أي: بالحق من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبتته وعرفه. أو: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت.^(٧) ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَحِيذٌ ﴾ هذا الأمر المهول الذي كنت تحاول الفرار

(١) مفردات القرآن للراغب مادة (فعد).

(٢) الكشاف ٤/٣٨٨.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٣.

(٤) أضواء البيان ٧/٤٣٠.

(٥) الكشاف ٤/٣٨٩.

(٦) فتح القدير ٥/٨٠.

(٧) جامع البيان ١١/٤١٧، بتصرف يسير.

منه، مجتنباً أسبابه بكل الطرق؛ كراهية له. (١)

وللمفسرين أقوال في المخاطب بقوله: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ مَحِيدًا ﴾ هل هو الإنسان عموماً، أو الكافر؟ والصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان، ويدخل فيه ابتداء الكفار؛ (٢) لأن لهم النصيب الأكمل من كل وصف يأتي. والمؤمنون ليسوا على درجة واحدة في ذلك. ثم قال عز وجل: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ وإذا كان الكافر يقر بالموت لاحتمال؛ لأنه يراه في الدنيا، فسيرتجف فؤاده من تيقن حصول هذه النفخة، والمراد: « نفخة البعث ». (٣) وقد ورد بيان الصور عن النبي ﷺ، فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال ﷺ: (قرن ينفخ فيه) (٤) وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَيْفَ أَنْعَمَ، وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا). (٥) ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴾ ذلك وقت حصول ما توعدتم به في الدنيا (٦)، ويلاحظ أن الآية الكريمة اقتضت على الوعيد، وذلك لتحويل الأمر، ولتناسبته لسياق السورة، فالحديث مع من ينكرون البعث، وإلا فهو يوم الوعد والوعيد. (٧)

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (٨) أي: « معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر ». (٨) ويقال لهذا الإنسان: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾، وقد اختلف في المخاطب هنا، هل هم المكلفون جميعاً مؤمنهم وكافرهم، أم الكافر

(١) انظر جامع البيان ١١/٤١٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٥.

(٣) معالم التنزيل ٧/٣٦٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه برقم /٢٤٣٠. وحسنه.

(٥) سنن الترمذي برقم /٢٤٣١، وحسنه.

(٦) انظر أنوار التنزيل ٨/٥٧٧، والبحر المحيط ٨/١٢٣.

(٧) انظر فتح القدير ٥/٨١.

(٨) جامع البيان ١١/٤١٨.

فقط، وكل يوجه الأقوال حسبها اختار، ومن ذلك ما قاله الطبري، وهو يرجح العموم: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُني بها البرّ والفاجر؛ لأنَّ الله أتبع هذه الآيات قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾، والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض. فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت بالحق ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، وإذا كان ذلك كذلك كانت بينة صحة ما قلنا. وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾، يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾، يقول: فجلبنا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيت وعانيته، فزالت الغفلة عنك». (١)، وأما من يرى أن الخطاب للكافر، فيحتج بأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء. ثم يوجه الغفلة على أنها من باب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة؛ لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر، والكافر لم يكن غافلاً، وإنما كان منكراً. (٢) والأول أرجح، والمؤمن مهما فعل من الصالحات، فسيكون - كما قال الرازي - «... بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل». (٣) والعلم عند الله تعالى، ثم قال عز وجل: ﴿فَصَرِّكْ يَوْمَ حَدِيدٍ﴾، أي: قوي نافذ في غاية الحدة. (٤)

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ حَيْدٍ ﴿٣٣﴾﴾ اختلف في المعنى بالقرين هنا، على أقوال:

الأول: أنه السائق والشهيد. (٥)

الثاني: أنه «الملك الموكل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل» (٦).

(١) جامع البيان ١١/٤٢٠.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٦/٣٠٨-٣٠٩.

(٣) التفسير الكبير ٢٦/١٦٥.

(٤) النظر جامع البيان ١١/٤٢١. ونظم الدرر

(٥) جامع البيان ١١/٤٢١.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٦.

الثالث: الشيطان، الذي سلب على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد.^(١)

وقد يكون المراد بالقرين والسائق والشهيد الملكين اللذين وكلا به في الدنيا،^(٢) وبهذا نجتمع بين القولين الأولين، والله أعلم، وفي الحقيقة هما ملكان، كما مر في قوله عز وجل: ﴿عَنِ الَّيْمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ وجاء به مفرداً في قوله تعالى: ﴿قَرِينٌ﴾ مع أن لكل إنسان قرينين لأن المراد به الجنس^(٣). ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْدٌ﴾ «حاضر مهياً معد. لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد».^(٤) فيخاطب الله عز وجل الملكين: ﴿الْقِيَامِي جَهَنَّمَ﴾ وقد اختلف في توجيه ﴿الْقِيَامِي﴾ بالثنوية، مع قوله تعالى قبلها: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ «والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير. ﴿الْقِيَامِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل، مع علمه بذلك».^(٥) ﴿مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾، كثير المنع للخير، وهل المراد بالخير: المال^(٦)، أو هو الإيمان،^(٧) قولان، ولا مانع من الجمع بينهما،^(٨) وقد كان المشركون يمنعون الحقوق من أن تصل إلى أهلها، وفي الوقت نفسه يصدون عن سبيل الله عز وجل. ﴿مُعْتَرٍ﴾ «معتد على الناس بلسانه بالبذاء والفحش في المنطق، وييده بالسطوة والبطش

(١) نظم الدرر ٧/٢٥٨.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/٣٣٦٤.

(٣) انظر التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/٣٤٥، وأقول: لعل العلة في الإفراد أن الخطاب سيكون مع الملك الذي كتب السيئات؛ لأن الكافر هو من سيقذف في النار، ولا يتوقع أن تكون له حسنات. ولا يتنافي هذا مع القول بأن المراد بالإنسان العموم، لأن المقام للتهويل فناسب أن يقتصر على بيان حال الكافر، كما يقتصر أحياناً على الإنذار، في مقام بيان وظيفة الرسول مع أنه بشير ونذير. والعلم عند الله.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٣٦٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٨.

(٦) إلى هذا ذهب الطبري، والبغوي، انظر جامع البيان ١١/٤٢٢، ومعالم التنزيل ٧/٣٦١.

(٧) انظر الكشاف ٤/٣٩٠.

(٨) إلى الجمع ذهب أبو حيان، وابن عاشور، انظر التحرير والتنوير ٢٦/٣١٢-٣١٣.

ظلمًا»^(١). ﴿مُرِيبٌ﴾ «داخل في الريب وهو الشك والتهمة في أمر الدين، وموقع غيره فيه». ^(٢) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ «الذي أشرك بالله، فعبد معه معبوداً آخر من خلقه». ^(٣)

وبعد تعداد هذه الصفات القبيحة التي اتصف بها يصار إلى «توكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد: ﴿فَالْقِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾، بياناً لمكانه من جهنم، التي بدأ الأمر بإلقائه فيها». ^(٤)

ثم يقول تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: شيطانه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور. ^(٥)

وفي الكلام اختصار، تقديره: إن الإنسان يدّعي على قرينه من الشياطين أنه أضلّه، فيقول:

﴿رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ﴾، أي: لم يكن لي قوّة على إضلاله بالإكراه، وإنما طغى هو بضلاله. ^(٦) قال ابن

كثير: «بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى

في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا

أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِي﴾ إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين

لهم عذاب أليم ﴿٢٢﴾. ^(٧) [إبراهيم: ٢٢]، فيختصمان عند المولى عز وجل، فيقول: ﴿قَالَ

لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ ^(٨) «قد أعذرت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت

الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيّنات والبراهين»^(٨) ومنها براهين البعث التي ذكرت في

(١) جامع البيان ١١/٤٢٣.

(٢) نظم الدرر ٧/٢٥٩، وانظر التفسير الكبير ٢٨/١٦٦.

(٣) جامع البيان ١١/٤٢٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٣٦٥.

(٥) وهو اختيار الطبري، والبغوي، وابن كثير، وأبي حيان، وقال بلا خلاف. انظر جامع البيان ١١/٤٢٣، ومعالم التنزيل ٧/٣٦١. وتفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٧. والبحر المحيط ٨/١٢٥.

(٦) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٧/٢٤١.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٧.

(٨) المرجع السابق.

القرآن، وتنوعت أساليبها. «ومعنى النهي: أن الخصام في ذلك لا جدوى له؛ لأن استواء الفريقين في الكفر كافٍ في مؤاخذه كليهما على السواء، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِطُهُمْ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وذلك كناية عن أن حكم الله عليهم قد تقرر، فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين». (١) ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ «ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها». (٢) ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ «ولا أنا بمعاقب أحداً من خلقي بجرم غيره، ولا حامل على أحد منهم ذنب غيره فمعدّبه به». (٣)

« وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ يقول: وما أنا بظلام للعبيد في ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وذلك يوم القيامة، وسؤال الله تعالى النار: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ «لما سبق من وعده إياها بأنه يملؤها من الجنة والناس أجمعين». (٤)، والسؤال سؤال «تقرير وتوقيف، لا سؤال استفهام حقيقة، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم» (٥) وهي تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث، ففي البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يُلْقَى فِي النَّارِ، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول قط قط) (٦)، وعلى هذا فإن النار - والعياذ بالله - تطلب الزيادة (٧)، وهناك قول آخر وهو «أنها تقول ذلك بعد

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣١٥.

(٢) جامع البيان ١١/٤٢٤-٤٢٥.

(٣) جامع البيان ١١/٤٢٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) البحر المحيط ٨/١٢٦.

(٦) صحيح البخاري برقم/٤٨٤٨، وصحيح مسلم/٢٨٤٨.

(٧) هذا رأي الطبري، وابن كثير، وأبي حيان. انظر جامع البيان ١١/٤٢٦. وتفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٧،

والبحر المحيط ٨/١٢٦.

امتلائها، فالمعنى: هل بقي في موضع لم يمتلئ؟ أي: قد امتلأت». (١) بعد هذا الترهيب الشديد، يأتي الترغيب، فيقول عز وجل: ﴿ وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، أي: «وأدنت الجنة وقربت للذين اتقوا ربهم، فخافوا عقوبته بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه» (٢)، وفي كيفية إدنائها يقول ابن عاشور: «الجنة موجودة من قبل ورود المتقين إليها، فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربة منها؛ كرامة لهم عن كلفة المسير إليها، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا، وقوله: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، يرجح الاحتمال الأول، أي غير بعيد منهم، وإلا صار تأكيداً لفظياً لـ ﴿ وَأَزْلَفْتِ ﴾، كما يقال: عاجل غير أجل... والتأسيس أرجح من احتمال التأكيد». (٣) ولو قيل بالظاهر لما كان ذلك بعيداً، أعني: أن الجنة تقرب لهم، وبخاصة إذا استحضرنا أن النار يؤتى بها، فقد قال رسول الله ﷺ: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ، هَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يُجْرُونَهَا) (٤) ويقال لهؤلاء المتقين: ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ ﴾ فهذه الجنة شاخصاً يشار إليها، وهي قريبة، وإذا كان المشركون قد أوعدوا ناراً فكذبوا، فإن المتقين قد وعدوا الجنة فصدقوا، ويُتساءل لمن هذا الثواب الجزيل؟، فيأتي البيان: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ «رجاع تائب مقلع، ﴿ حَفِيزٍ ﴾، أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه». (٥)

﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾، أي: خاف الله تعالى معظماً له، وهو لا يراه، وقيل: يخشى الله في حال غيبته عن الناس، (٦) ولا مانع من إرادة القولين، وهكذا ينبغي أن يكون حال المتقي، يخاف الله عز وجل محباً له معظماً، فيبعثه هذا على فعل ما أمره، والنهي عما زجره، وهو يعلم أن الله يراه وإن لم يره هو، وهذه مرتبة الإحسان، فيستوي عنده فعل ذلك، سواء أكان مع الناس أو

(١) زاد المسير ٧/٢٤٣.

(٢) جامع البيان ١١/٤٢٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٣١٨-٣١٩.

(٤) صحيح مسلم، برقم/٢٨٤٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٨٩.

(٦) انظر الكشاف ٤/٣٩٣.

مفرداً، وقوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ «وجاء الله بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه»^(١)، فيقال لهم تكريباً: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ مصحوبين «بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم»^(٢)، ولا مانع من أن تكون السلامة من كل هذا، ومن غيره، فيسلمون من كل مخوف، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، «وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم، فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يعني: الزيادة لهم في النعيم، ما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله الكريم»^(٣)، وفي صحيح مسلم^(٤) بسنده عن صهيب الرومي رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ وَزِيَادَةٌ﴾»^(٥) ثم ذكر الحديث السابق.

بعد هذا الترغيب الذي قصد به تثبيت المؤمنين، ودعوة ذوي العقول من الكافرين، لاختيار ما ينقذهم من عذاب جهنم، عقب بذكر عذاب عاجل يستأصلهم، كما حدث لأمم كثيرة، كانوا أشد من قريش قوة وبطشاً، فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، ولم يستطيعوا الهروب والتفلت منه، يقول عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾، قرون كثيرة كذبت رسلها، وكانوا أشد من هؤلاء المشركين قوة وجبروتاً، فحق عليهم وعيد الله، والمشركون يعلمون ذلك بما سمعوا وما شاهدوا من آثارهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْمُصَلِّينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِلُ

(١) جامع البيان ١١/٤٢٩.

(٢) معالم التنزيل ٧/٣٦٣.

(٣) معالم التنزيل: ٧/٣٦٢ «وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ وَزِيَادَةٌ﴾».

يونس/ ٢٦، وانظر جامع البيان ١١/ ٤٢٩، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٤) برقم ٢٩٧ و٢٩٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٩-٢٩٠.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ [الصفات: ١٣٧-١٣٨]. فإن لم يخافوا عذاب الآخرة، فليخشوا العذاب العاجل، ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ «ساروا فيها يتتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما طفتم أنتم فيها،... وقوله: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾، أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟»^(١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ «إن في إهلاكنا القرون التي أهلكتناها من قبل قريش»^(٢)، «ويجوز أن يعود ﴿ذَلِكَ﴾ إلى جميع ما تقدم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء»^(٣) ﴿لَذِكْرِي﴾، «التذكرة العقلية، أي: التفكير في تدبر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك؛ ليقيسوا عليها أحوالهم، فيعلموا أن سينا لهم ما نال أولئك»^(٤)، «وإنما ينتفع بهذه التذكرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني: لمن كان له عقل، يتفكر به، ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أو استمع مصغياً لآيات الله وسنة رسوله ﷺ،^(٥) ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ «متفهم لما يخبر به عنهم، شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساه». ^(٦) ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٧)،^(٨) يؤكد الله تعالى بأكثر من مؤكد^(٨) «بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩١، بحذف يسير.

(٢) جامع البيان ١١/ ٤٣٢.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٣.

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٣.

(٥) انظر جامع البيان ١١/ ٤٣٣، والتحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٤.

(٦) جامع البيان ١١/ ٤٣٣.

(٧) ذكر أكثر العلماء ههنا سبباً للنزول مروياً عن قتادة والحسن، لم أذكره لضعفه، والآية تفهم بدونها، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ينظر أسباب النزول للواحدي/ ٢٧٣، ولباب النقول للسيوطي/ ١٩٩-٢٠٠، وقد أضرب عنه من التزم ذكر الصحيح من الأسباب مثل: مقبل الوادعي، وإبراهيم العلي، وغيرهما.

(٨) سبق بيان أن [لقد] فيها ثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، وقد التي للتحقيق، وكأن القرآن ينزل المشركين منزلة من أنكر هذا الأمر، مع أنهم يقرون به، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ =

أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عز وجل. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع»^(١).

والواو هنا «واو الحال؛ لأن المعنى الحال هنا موقعاً عظيماً، من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة، بأنه لا ينصب خالقه»^(٢) «وحقيقة المس: اللمس، أي: وضع اليد على شيء وضعا غير شديد، بخلاف الدفع والطم. فعبّر عن نفي أقل الإصابة بنفي المس لنفي أضعف أحوال الإصابة»^(٣)، ومعلوم أن خلق السموات الأرض أكبر من خلق الناس، قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤٧) [غافر: ٥٧]، فإذا لم يعي الله تعالى بخلق السموات والأرض، فهو على إعادة خلق الإنسان أقدر، وهذا كله من باب التقريب، ومخاطبة الناس بما يفهمون، وإلا فإن الشأن في خلق الله تعالى أن يقول للشيء كن فيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤٨) [النحل: ٤٠].

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

* اشتمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، وكذا قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٤٩) ق/ ٣٨، على

= وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاِنَّ يُوقَفُونَ ﴿ العنكبوت/ ٦١ .

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٥-٣٢٦.

براهين البعث الثلاثة، فالخلق يحتاج ابتداءً إلى علم، لأن الذي يريد أن يصنع شيئاً لا بد أن يكون عالماً بتفاصيله قبل صنعه، وأن يكون عالماً بكيفية صنعه، إلى غير ذلك من أمور، ثم لا بد أن يكون قادراً على الخلق، ثم البرهان الأخير، وهو الحكمة فلا يمكن أن يتصور أن الخالق الحكيم، يخلق الإنسان.. لمجرد أن يأكل ويشرب.. ثم يموت، فالذي خلقه هياً له كل ما يحتاج إليه، وكل ما يصلح بدنه وقلبه. ومن ذلك المنهج الذي يسير عليه ليحيا حياة طيبة، ثم يُسأل عن هذا المنهج....

* في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ « ما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه، حيث نهاه، أو يفقده، حيث أمره...»^(١) قال ابن عاشور: «ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قرب لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد»^(٢).

* من عدل الله عز وجل أنه مع علمه بأحوال الإنسان، ولا تخفى عليه خافية، إلا أنه عز وجل وكل به ملكين يكتبان، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة.

* سكرة الموت آتية لا محالة، والعاقل من استعد لها. كما ينبغي أن لا يغيب عن باله ذكر الحساب، ولذا فهو يحاسب نفسه على ما يصدر منه، وفي الحديث (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم).^(٣)

* جلَّ الرحمن الرحيم لعباده في هذا المقطع صفات أهل النار، وصفات أهل الجنة، بقوله عز وجل: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢١﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

(١) تيسر الكريم الرحمن/ ٧٤٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٠١.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٦٤٧٧.

عَاخِرًا فَاَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣١﴾. ويقول عز وجل: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٢﴾، وينبغي أن يلاحظ ما أعد الله عز وجل للفریقین، فقد جلع لأصحاب النار بين العذاب الجسدي والعذاب النفسي، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾، أما أهل الجنة فنجد «التكریم في كل كلمة، وفي كل حركة. فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تبيء إليهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٢﴾» فيوصفون هذه الصفة من الملائ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أو ابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منييون إلى ربهم طائعون»^(١). فوجب على العاقل أن يختار.

* في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ بيان لأهمية مخاطبة القلوب؛ كي تؤوب إلى خالقها.^(٢) وأحسب أن كثيراً من دعواتنا أهملوا هذا الجانب، فلا غرو أن قست القلوب، وطغت الجوانب المادية على حياة كثير من الناس، فصارت عباداتهم جسداً لا روح له. وغشيت كثيراً من الناس غفلة شديدة، ناسين أن هناك يوماً للحساب، ولا بد من تدارك الأمر قبل فوات الأوان. قبل أن يقال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

* تقرب الجنة إنما يكون للذين بلغوا منزلة عظيمة في التقوى، وهي دعوة للارتقاء في منازلها، وبخاصة أنها في سياق سورة تحذر من التلفظ بما يغضب الله، فكل ذلك معلوم ومحفوظ.^(٣)

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٥.

(٢) الأساس في التفسير ٩/ ٥٤٧٣.

(٣) عندما يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ...﴾، ويقارنه بما في سورة الزمر ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ الزمر/ ٧٣، قد يتوهم أن هناك تعارضاً، والرد على هذا: إن هناك فرقاً بين =

* في قوله عز وجل: ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ ما يلفت النظر، إذ كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ فيقال: إن هذا الخاشي مع علمه بسعة رحمة الله تعالى إلا أنه يخشاه،^(١) فصفة الرحمة لا تجعله يتجرأ على المعاصي، كما يفعل بعض الناس.

* أهمية الثبات في حياة المسلم، يتجلى ذلك في قول الحق عز وجل: ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ «حضر يوم الحشر، مصاحباً قلبه المنيب إلى الله، أي: مات موصوفاً بالإجابة، ولم يبطل عمله الصالح في آخر عمره».^(٢)

* في قوله عز وجل: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ بعد من ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ ما يؤكد حقيقة أن الجزء من جنس العمل، فالله تعالى لا يجمع على عبد آمنين ولا خوفين، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾^(٣٦) فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٣٧﴾ [الطور: ٢٦-٢٧].

* بين الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾^(٣٧) أن المستفيد من الآيات القرآنية والكونية، هو إما صاحب عقل يستطيع به الوصول للتذكر والاتعاظ، أو مصغ لمن يبين له ذلك، والأخير مرده أيضاً للعقل، إذ إنه بعد أن يستمع لما يقال، سيحكم عقله، وستهديه فطرته إلى أن ما جاء به الرسل حق لا مرية فيه.

* في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾^(٣٧) « تنويه بشأن المؤمنين، وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات

=الذين اتقوا، والمتقين، فالذين اتقوا هم الذين أحدثوا الفعل، وهو التقوى، أما المتقون، فهم العريقون في ذلك، فهم أعلى منزلة من الذين اتقوا. ولذا فقد اختلفت الأجزاء. انظر نظم الدرر ٧/٢٦٢.

(١) انظر الكشاف ٤/٣٩٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٣٢٠.

والعبر». (١) كما أن فيه دلالة على أنهم لا قلوب لهم...، يقول تعالى مبيناً حالهم يوم القيامة:
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ [الملك: ١٠].

* عظمة الله عز وجل، وقدرته، فخلق هذه السموات العظيمة التي لا يدرك مداها، وكذلك الأرض الفسيحة، وما بينهما، كل ذلك يخلقه الله تعالى في ستة أيام، لم يمسخها فيها لغوب قال سيد قطب: «وهي توحى بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل. فكيف بإحياء الموتى، وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير» (٢). وقال ابن كثير: «فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى» (٣).

* في الترغيب بعد الترهيب فتح باب الأمل، وهذا أمر حري بالدعاة والخطباء أن يولوه عنايتهم، فالعصاة يحتاجون مثل هذا البلسم الشافي.

الخاتمة

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩١.

مناسبة الخاتمة للمقطع الثاني

لما ذكر في المقطع الثاني خلق الإنسان، وما سيؤول إليه حاله في رحلته للبعث، وكان في ذلك ما يقنع مَنْ كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، جاءت الخاتمة لتسلي النبي ﷺ وتوجهه إلى ما ينبغي عليه أن يفعله إزاء ما يقوله المشركون، يقول عز وجل: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، الصبر أولاً، ثم الجأ إلى الله تعالى، منزهاً له عن كل صفة نقص، مثبتاً له كل صفة كمال، متلبساً بحمده عز وجل، وعليك بالصلاة فإنها خير معين. ولتستغرق هذه التسيبحات والتحميدات والصلوات أوقاتك كلها، لتكون موصولاً بالله عز وجل دائماً، أما فيما يتعلق بهم، فانتظر ما سيحصل لهم.. واجتهد أنت في تذكير من يخاف وعيد الله، تالياً عليه القرآن، فهم من سيستفيد من مواعظه.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وحقاً إن ما يقوله المشركون ليحزن القلب وبخاصة قلب النبي الصادق الأمين ﷺ، إذ يواجه - وهو الرحمة المهداة - بذلك التكذيب الآثم يقول الله عز وجل: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وهنا يأمره بالصبر، ثم يرشده إلى ما يعينه عليه، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالتسبيح هنا: الصلاة، أي: وصلّ منزهاً ربك مثنياً عليه،^(١) وذهب آخرون إلى أنه التنزيه، أي: «نزه الله عما لا يليق بجناحه العلي، ملتبساً بحمده»^(٢)، ولا مانع من إرادة القولين، فكلاهما مطلوب. والمراد بـ ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ صلاة الصبح، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾، قولان: «أحدهما: صلاة الظهر والعصر،

(١) انظر زاد المسير ٧/ ٢٤٥.

(٢) ممن ذهب إلى أن التسبيح قد يراد منه الظاهر الزمخشري، فقد قال: «والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة» الكشاف ٤/ ٣٩٥، وانظر إرشاد العقل السليم ٦/ ١٣١، وفتح القدير ٥/ ٨٦.

قاله ابن عباس. والثاني: صلاة العصر، قاله قتادة.^(١) وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٢) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَغْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا) ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]^(٣). وفي قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ثلاثة أقوال:

« أحدها: أنها صلاة الليل كله. قاله مجاهد.

والثاني: صلاة العشاء، قاله ابن زيد.

والثالث: صلاة المغرب والعشاء، قاله مقاتل^(٤)، وللمفسرين في ﴿ وَأَذِّنْ الشُّجُودِ ﴾

«ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الركعتان بعد صلاة المغرب، روي عن عمر، وعلي، والحسن بن علي، وأبي هريرة عز وجل، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وقاتدة، في آخرين، وهو رواية العوفي عن ابن عباس.^(٥)

(١) ورجحه الطبري، في جامع البيان ١١/ ٤٣٥، والبغوي في معالم التنزيل ٧/ ٣٦٤، وأبو حيان، وقال: «قاله قتادة وابن زيد والجمهور». البحر الميط ٨/ ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري برقم / ٥٥٤، وصحيح مسلم برقم / ٢١١، وفيه: «ثم قرأ جرير»، ثم ذكر الآية.

(٣) انظر زاد المسير ٧/ ٢٤٥.

(٤) زاد المسير، قال الطبري: «والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب، وذلك أن الله جل ثناؤه قال: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فلم يُجَدَّ وقتاً من الليل دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، فهو بأن يكون أمراً بصلاة المغرب والعشاء، أشبه منه بأن يكون أمراً بصلاة العتمة، لأنها يصلان ليلاً». ويظهر من صنيع الطبري أنه جمع بين قولي مجاهد ومقاتل، والله أعلم.

(٥) رجحه الطبري، انظر جامع البيان ١١/ ٤٣٨، والبغوي وقال: «هذا قول أكثر المفسرين». معالم التنزيل ٧/ ٣٦٥.

والثاني: أنه النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد.

والثالث: أنه التسييح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، ^(١) رواه مجاهد عن ابن

عباس». ^(٢)

ويجدر بنا ذكر قول ابن كثير، فهو حسن، وبخاصة إذا استحضرتنا مرحلة نزول السورة، يقول -رحمه الله تعالى-: «كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ولكن منهن، صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب... وقوله: ﴿ وَمِنْ أَيْلٍ فَسَيَحُثُّ ﴾، أي: فصل له، كقوله: ﴿ وَمِنْ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ﴿ وَأَذْبَنَ الشُّجُودَ ﴾، قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسييح بعد الصلاة...» ^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾، أي: استمع «يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب». ^(٤) والتعبير بـ ﴿ قَرِيبٍ ﴾ ^(٥) « للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرتة جملة ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾؛ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من مكان بعيد» ^(٦)، ولذا قال

(١) ممن رجحه النسفي انظر مدارك التنزيل ٣/ ١٦٩٤.

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٤٦، ومن رجح القول الثالث الشوكاني، انظر فتح القدير ٥/ ٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩١.

(٤) جامع البيان ١١/ ٤٣٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين، ومنهم الإمام والطبري وابن كثير أنه على صخرة بيت المقدس، وهو مروي عن كعب الأحبار، فإله أعلم بصحته. انظر جامع البيان ١١/ ٤٣٩ وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩٢.

(٦) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٣٠-٣٣١.

أبو السعود: «بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء».^(١) والمراد بالصيحة هنا: النفخة الثانية^(٢) و﴿يَالْحَقُّ﴾، يعني: بالصدق، وهو هنا الحشر، وفيه إبطال لزعم المشركين أنه اختلاق.^(٣) وردَّ على استبعادهم ذلك، بقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾، أي: «يوم خروج أهل القبور من قبورهم»^(٤) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِنَّا لَآلِمَا الصَّيْدِ﴾^(٥)، أي: «إننا نحن نُحيي الموتى ونميت الأحياء، وإلينا مصير جميعهم يوم القيامة»^(٥) وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾، أي: تتشقق الأرض وتتصدع عنهم، فيخرجون مسرعين.^(٦) وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٧) [الإسراء: ٥٢]، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)^(٧)، ﴿ذَلِكَ﴾، أي: «الإخراج العظيم جداً»^(٨) ﴿حَشْرٌ﴾ «بعث وجمع وسوق»^(٩) ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ «وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به عز وجل، فإنه سبحانه العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن»^(١٠)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(١١) [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١٢) [لقمان: ٢٨]، قال ابن عطية: «وله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ كلام معادل

(١) إرشاد العقل السليم ٦/ ١٣١.

(٢) مدارك التنزيل ٣/ ١٦٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٣١. بتصرف يسير.

(٤) جامع البيان ١١/ ٤٣٩.

(٥) جامع البيان ١١/ ٤٣٩.

(٦) جامع البيان ١١/ ٤٣٩.

(٧) صحيح مسلم، برقم (٢٢٧٨).

(٨) نظم الدرر ٧/ ٢٦٨.

(٩) إرشاد العقل السليم ٦/ ١٣٢.

(١٠) روح المعاني ١٣/ ٣٤٤.

لقول الكفرة: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. وقوله تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١)، ثم قال تعالى، مهدداً لهم، ومسلماً النبي ﷺ: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: «نحن يا محمد أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قدرة الله على البعث بعد الموت»^(٢)، ثم يبين الله عز وجل مهمة نبيه ومصطفاه ﷺ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، أي: لست بمسلط عليهم، فتجبرهم على الإيثار، إنما أنت منذر. ^(٣)، ولذا قال له ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾، ذكر الرازي في المراد بالتذكير بالقرآن ههنا وجوهاً، فقال: «الأول: فذكر بما في القرآن، واتل عليهم القرآن، يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة. الثاني: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) أي: يبين به أنك رسول لكونه معجزاً، وإذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به. الثالث: المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير، وحيث أن يكون ذكر القرآن لا تنتفع النبي ﷺ به، أي: اجعل القرآن إمامك وذكرهم بما أخبرت فيه بأن تذكركم، وعلى الأول معناه: اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه والاقتصار على من يخاف وعيد؛ لأن من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدق بوقوعه لا يذكر إذ لا تنفع فيه الذكرى، كما قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) [الذاريات: ٥٥] وقد وجهها البقاعي توجيهاً جيداً حيث قال: «أي: يمكن خوفه، وهو كل عاقل، ولكنه ساقه هكذا؛ إعلاماً بأن الذي يخاف بالفعل فيكشف الحال عن إسلامه هو المقصود بالذات، وغيره إنما يقصد لإقامة الحجة عليه لا لدهه ولا يؤسف عليه ولا يتأثر بتكذيبه، بل يعتقد أنه عدم، لا تضر عداوته ولا تنفع ولايته، وما أذى إلا نفسه وكل من والاه في الدنيا والآخرة»^(٥).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧٠.

(٢) جامع البيان ١١/ ٤٣٩.

(٣) انظر جامع البيان ١١/ ٤٣٩، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩٣.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٩.

(٥) نظم الدرر ٧/ ٢٦٨.

هدايات الخاتمة

* بينت الخاتمة ما ينبغي أن يفعله من يتصدى لتوجيه الناس، قال تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

* قلة عقول المشركين، وضعف إدراكهم، فهم يعترفون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، وقد مر الرد عليهم، بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ونورد هنا قول الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩] فلم يستبعدون البعث؟، ولو تفكروا لعلموا أن الإعادة أسير وأهون، وأن من قدر على خلق الأكبر قادر على ما هو دونه، وهذا كله في مفهوم البشر، فإن لم يقرؤا بطلاقة القدرة الربانية، وأنه يقول للشيء كن فيكون، فليقيسوا على ما يشاهدونه.

« تقرير الحشر، وذلك لأن الله عز وجل لما بين أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته، ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل، حتى يميز بين جزء بدنين، جزء بدن زيد، وجزء بدن عمرو، فقال: ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ لكمال قدرتنا، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا...».

* في قوله عز وجل: ﴿ تَحْنُ أَعْلَىٰ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ تهديد للمشركين، بأن ما يقولونه قد علمه الله عز وجل، وإخبار الله تعالى بذلك، تهديد بالعقاب، وإلا فإن مجرد الإخبار لا يخيف المنكرين وفيه تسلية للنبي ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ قد علم ما يقولونه، فإن الله تعالى أعلم بذلك، فإنه عز وجل سميع بصير.

* أثر القرآن وأهميته في الدعوة إلى الله عز وجل، يتجلى هذا من قول الله عز وجل ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾، ولذا كان النبي ﷺ ينهج هذا النهج، ونكتفي هنا بما ورد في

- فضل هذه السورة، فقد كان ﷺ يقرأها على المنبر يوم الجمعة والعيدين. ^(١) ولكن على من يريد الانتفاع به أن يكون أهلاً لذلك، قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.
- * في قوله تعالى: ﴿وَسَخِّجْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، تعريض بالمشركين، الذين لم ينزهوا الله تعالى عن النقص، فضلاً عن أن يثبتوا له كمالاً. وذلك حينما أنكروا البعث، استبعاداً له.
- * على الدعاة أن يُحْصُوا أنفسهم بساعات يلقون بها ربهم عز وجل، مسبحين مصلين؛ ليمدهم بأسباب القوة، ليتمكنوا من احتمال هذا العبء الثقيل. وأن لا ينجروا وراء العصاة، فيصرفوا جُل أوقاتهم في الجدل معهم. ^(٢)
- * عظمة الله وسلطانه المطلق في ملكه، يتجلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ مُخِيٌّ وَنُؤَيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ^(٣).
- * في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ما يؤكد محور السورة، فالخطاب هنا للرسول ﷺ بأنك لم تبعث لكي تكرههم على هذا الدين، إنما عليك أن تبلغهم الحجج التي تخاطب عقولهم، وتقودهم إلى الصراط المستقيم. ^(٤) وفيه أن هذا الدين لم يُبَيَّنْ على الإكراه، فإذا كان الرسول ﷺ يطالب بهذا، فغيره من باب أولى، وقد قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١) راجع ما سبق في قصة عتبة بن الوليد وقراءة النبي ﷺ من سورة فصلت، وكذا سماع الوليد بن المغيرة للقرآن وتأثره بذلك، وما إلى ذلك....

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن ٢٦/ ٤٩٤.

(٣) المصدر السابق ٢٦/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٤) انظر المصدر السابق ٢٦/ ٤٩٨.

سورة الذاريات

(الفرار إلى الله طريق العبودية الصادقة)

أولاً: بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ:

أ. تسمية السورة:

سميت هذه السورة (الذاريات) لورود قوله تعالى في مطلعها: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾ .

ب. فضائل السورة:

تندرج هذه السورة تحت قسم المَفْصَّل، وقد اختلف في أوله، فقليل: هو من أول سورة (ق)، وقيل: من أول الحجرات، وقيل غير ذلك^(١)، وينتهي بآخر سورة من القرآن الكريم كما ذكر العلماء، وقد وردت في فضائل المَفْصَّل أحاديث أقواها ما رواه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (أُعْطِيتَ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ الطَّوَالَ، وَمَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَمَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِئَانِي، وَفُضِّلْتَ بِالْمَفْصَّلِ)^(٢).

ج. مكان نزول السورة:

سورة (الذاريات) مكية، قال القرطبي: في قول الجميع^(٣).

(١) الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، جلال الدين السيوطي ١/ ١٨٠.

(٢) فضائل القرآن، أبو عبيد ١١٩، المسند، أحمد بن حنبل ٤/ ١٠٧، المعجم الكبير، الطبراني، ٢٢/ ٧٦، مجمع الزوائد، الهيثمي ٧/ ٤٦، الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم دراسة ونقد، د/ إبراهيم علي السيد ٢٢٤، ٢٢٥. وقال في الحكم على هذا الحديث: إسناده حسن، فيه عمران القطان صدوق يَم، وقد تابعه عند أبي عبيد والطبراني سعيد بن بشير الأزدي، وهو صدوق، وبقيه رجاله ثقات.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٩.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة (الذاريات) ستون آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف^(١).

هـ. محور السورة:

سورة (الذاريات) كغيرها من السور المكية تعنى بإثبات أصول العقيدة؛ التوحيد والنبوة، والبعث والجزاء.

فكل ما تطرقت لذكره من قضايا يستهدف تزكية النفس البشرية، وإطلاقها من أسر الشهوات والشور، ويفتح أبواب الخير أمامها لتفرد إلى الله تعالى، وتحقق العبودية الخالصة فترقى في معراج الخير والقبول، وتتخلص من الارتهاق للمعبودات الزائفة.

وكل ما ورد في السورة من صيغ تعبيرية وصور بيانية وظلال يسعى إلى تحقيق تلك الغاية وهي ربط القلب البشري بالله ليخافه ثم يتجه إليه بكليته، ومن أدلة ذلك:

أولاً: افتتاح السورة بالحديث عن عظمة الله تعالى من خلال القسم بمخلوقاته العظيمة من: الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة على وقوع اليوم الآخر، وهذا يثمر الاستعداد للوقوف بين يديه تعالى، والتجرد له.

ثانياً: تكرار القسم في السورة بالسماء ذات الحُبُك، والتحذير من مسالك أهل الكذب والانحراف، كل ذلك يدفع إلى التوجه إليه تعالى والانخلاع من كل الجواذب التي تحول دون الخلوص له عزَّ وجل.

ثالثاً: في بيان السورة لجزاء المتقين، وصفتهم من القيام في عبادته تعالى بالليل، والتوجه إليه بالأسحار، مع بذلهم المال للسائل والمحروم حتَّى للمؤمنين وإلهاب لهم للفرار إليه تعالى والتزود بالتقوى، لأنَّه خير زاد للفارِّين إليه جلَّ شأنه.

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٢.

رابعاً: ما ذكر في السورة من قَصَص الأمم الغابرة وما حلَّ بهم من النكال فيه تحذيرٌ للمؤمنين من سلوك طريق الغاوين، (وتجريد القلب للعبادة، وتخليصه من جميع العوائق ووصله بالسما. بالإيمان واليقين. ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم)^(١).

خامساً: ما ذكر في السورة من آثار القدرة الإلهية، وسعة الخلق، وتصريف الأمر في السماوات والأرض فيه استثارة للمؤمنين واستجاشة لمشاعرهم للإيمان بالله الخالق القادر العظيم؛ لأنه الحق فيسارعون بالفرار إليه.

سادساً: ما ورد في تضاعيف السورة من تسلية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في طريق الدعوة والبلاغ، يوحي من ضمن ما يوحي بأنَّ طريق الدعوة محفوف بالمخاطر والعقبات، وهذا يقوي عزيمة المؤمنين على الثبات، ويدفعهم إلى أن يسارعوا إلى أسباب مغفرته، ويفروا من موجبات عقابه.

سابعاً: اختتام السورة ببيان الحكمة من خلق العالمين، وتطمينهم على أرزاقهم فيه إشارة إلى أن الفرار إلى الله هو الطريق القويم لتحقيق العبودية.

وبناء على ما سبق يمكننا القول إنَّ محور هذه السورة الجامع لكل مواضيعها الرئيسة والفرعية ومفرداتها وظلالها هو: (الفرار إلى الله طريق العبودية الصادقة).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لاسم هذه السورة علاقة وطيدة بمحورها؛ فالقسَم من الله تعالى بالذاريات (الرياح) وغيرها من مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء فيه تعظيم لشأنها، وتوجيه للقلب البشري نحوها ليتدبر ما وراءها من دلالات القدرة والتدبير والتربية، فيرى يد الله وهي تنشئها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٧٤. بتصرف يسير.

وتصرفها، وتحقق بها قدره المرسوم.

كما أن ذكرها على هذا النحو يوجه القلب إلى تعرّف أسرارها المكنونة، ويعلقه بمبدع هذه الخلائق، فينصرف إليه بالطاعة، ويفرّ إلى رضوانه بالعبادة الخالصة.

قال البقاعي: (مقصودها الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحاً، وبشّرت به تلويحاً، ولا سيما آخرها من مصاب الدنيا وعذاب الآخرة، واسمها (الذاريات) ظاهر في ذلك بملاحظة جواب القسم فإنه مع القسم لشدة الارتباط كالأية الواحدة، وإن كان خمساً، والتعبير عن الرياح بالذاريات أتم إشارة إلى ذلك)^(١).

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

ثمّة علاقة وطيدة لمطلع هذه السورة بخاتمتها؛ فقد افتتحت بالقسم والوعيد على وقوع البعث والجزاء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْحَمْتِ وَقَرَأَ ﴿٢﴾ فَأَلْجَرْتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَسْتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَأُوْبِعُوا ﴿٦﴾﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

وختمت كذلك بالوعيد لمن لم يستعد لهذا اليوم، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات: ٦٠]، وهذا من باب رد العجز على الصدر، فانطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي ذلك القسم الأكيد)^(٢).

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الذاريات) وخاتمة سورة (ق):

افتتحت سورة (ق) بالقسم على إثبات البعث والجزاء، وإقامة الدلائل والبراهين على وقوعه، وختمت ببيان أن حشر الناس وجمعهم في موقف الحساب سهل لا صعوبة فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]، وافتتحت هذه السورة بالقسم بأربع من الأمور العظيمة؛ وهي الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٨/٤٤٤.

(٢) المرجع السابق.

على أَنَّ ما وعد الله به الخلق من البعث والجزاء أمر واقع لا محالة، قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

قال البقاعي: (لما ختم سبحانه (ق) بالتذكير والوعيد، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه، فقال مناسباً بين القسم والمقسم عليه: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ أي: الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي والتفريق والإذهاب)^(١).

٤. المناسبة بين مضمون سورتي (الذاريات وق):

بين مضمون هاتين السورتين تناسب من وجوه كثيرة أظهرها وأجلاها:
الأول: أنهما نزلتا بمكة، وموضوعهما واحد، وهو إثبات أصول العقيدة.

الثاني: أنهما افتتحتا بالقسم على إمكان البعث والجزاء وإقامة الدلائل على ذلك، وانتهتا إلى تقرير البعث، قال تعالى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُرِّفَ فِي لَيْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥] وقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات: ٥-٦]، قال أبو جعفر بن الزبير: (سورة (والذاريات) تقدمها في سورة (ق) إخباره سبحانه بالعودة الأخراوية وإقامة البرهان على ذلك لمن وفق لاعتباره فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾، إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦ - ١١] ثم أعقب بذكر مكذبي الأمم وما حق عليهم من الوعيد الأخراوي بعد أخذ كل منهم في الدنيا بذنبه، ثم استمرت أي السورة على هذا المنهج من ذكر البعث وحصر أعمال المكلفين وكتبها عليهم، مع علمه سبحانه بما توسوس به نفوسهم ووقوع الجزاء على ذلك، وغفلة المكذب عن ذلك كله... فلما اشتملت السورة على أوعاد وجزاء أعقبت بالقسم على ذلك، من صدق وعده سبحانه ووعيده، ووقوع الحساب على الأعمال فقال الله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٨/٤٨٣.

وَأَنَّ الَّذِينَ لَوْفِعَ ﴿٦﴾ ﴿الذاريات: ١ - ٦﴾، وتناسب النظم في ذلك كله أئين تناسب^(١).

الثالث: ذكر الله عز وجل في سورة (ق) سنته في إهلاك الأقسام والأمم الماضية على جهة الإجمال، وفي سورة (الذاريات) ذكر ذلك بشيء من التفصيل.

الرابع: اشتملت السورتان على أمر النبي ﷺ بالتذكير لما فيه من منافع للمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الذاريات: ٤٥﴾.

الخامس: دعت السورتان إلى النظر في ملكوت الله تعالى، من بناء السماء، ومد الأرض وخلق الأزواج، وكل ذلك ليبصر الناس آثار قدرته تعالى وجلال آلائه فيتذكرونه وينيبون إليه قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ [ق: ٦ - ٨]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴿الذاريات: ٤٧ - ٤٩﴾.

الخامس: اشتملت السورتان على بيان صفة أهل التقوى، قال تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرِ عَمِيدٍ﴾ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق: ٣١ - ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ يَخْرُجُونَ فِيهَا مِنِّي كُلِّ صَاعٍ مِمَّا يَشَاءُونَ ﴿١٦﴾ وَكَانُوا فِيهَا مِنِّي كَانُوا ﴿١٧﴾ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خضراءٍ ناعيةً ﴿١٨﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ خُبْرٌ ﴿١٩﴾ وَسُيُوفُهُمْ مُسَوَّمَةٌ فِيهَا ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ شُرْبٌ ﴿٢١﴾ وَفِيهَا جَسَدٌ لِّمُتَّكِلِي الْعَرْشِ الْأَعْلَى ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ عَرَقٌ أَلْوَبٌ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ شُرْبٌ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ عَرَقٌ أَلْوَبٌ ﴿٢٥﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ شُرْبٌ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ عَرَقٌ أَلْوَبٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ شُرْبٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ عَرَقٌ أَلْوَبٌ ﴿٢٩﴾ وَمِنْ ثَمَرِهِمْ شُرْبٌ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل ١٠٣١/٢،

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

وقوع البعث والجزاء

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُسَمَّاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعِقُ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَاكٌ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَفْرَ صَوْنٌ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُقٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءاخْذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُنَّ إِنَّهُنَّ لَأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءآيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ءَآفَآءٌ لِّبَصِيرَتِكُمْ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَآءِ رِزْقٌ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

[الذاريات: ١ - ٢٣].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لهذا المقطع علاقة واضحة بمحور السورة فقد افتتحت السورة بالقسم العظيم على وقوع البعث والجزاء من ثواب وعقاب، وبيّنت أن ما وعدوا صادق غير كاذب، وأنه كائن لا محالة، وتكرير القسم بالسماوات والجهال والبنيان والبهائم ثم التعقيب على ذلك ببيان لعن الله للمكذبين، وبيان جزاء المتقين المتصدقين كل ذلك يدفع النفس البشرية إلى عمل الصالحات رجاءً للثواب من الله تعالى، والابتعاد عن كل ما نهى عنه خوفاً من سوء العاقبة؛ لأن الله الذي بيده القدرة على كل شيء هو الجدير باللجوء إليه وحده، والفرار من معصيته إلى طاعته.

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تعالج آيات هذا المقطع ثلاث قضايا مترابطة ومتشابهة:

الأولى: القسم من الله تعالى بأمور عظيمة على إمكان البعث والجزاء.

الثانية: ذكر أحوال المكذبين بالقرآن وبالبعث والجزاء.

والثالثة: بيان صفات المتقين وما أعد الله لهم من النعيم في اليوم الآخر.

افتتحت هذه السورة بالقسم بأربعة أشياء ضخمة وشريفة لها دلالات لا تعد ولا تحصى

وكلها تدل على عجيب صنعه وعظيم قدرته:

* أقسم بالرياح التي تذر التراب وغيره من الأشياء في هبوبها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ [الكهف: ٤٥].

* وأقسم بالسحب التي تحمل ثقلاً من الماء، ينتفع به العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢].

* وأقسم بالسفن التي تجري على سطح الماء جرياً ذا يسر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [الشورى: ٣٢].

* وأقسم بالملائكة التي تقسم الأمر وتدبره؛ من الأرزاق والأمطار، وكتابة الأعمال، وقبض الأرواح، وإهلاك الأمم المكذبة، قال تعالى: ﴿ فَأَلْمَدِيذَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾ [النازعات: ٥].^(١)

(١) قال ابن عاشور: (ومن المفسرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفاً للرياح، فحمل الذرو في قوله:

﴿ وَالذَّرِيذَاتِ ذَرَوًا ۝٥ ﴾ على نشر الرياح قطع السحاب نشرأ يشبه الذرو، وأصله: ذرو الرياح التراب، فشبّه بدفع الريح قطع السحاب حتى تجتمع فتصير سحاباً كاملاً، فالذاريات تنشر السحاب ابتداءً، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۗ ﴾ [الروم: ٤٨]...

﴿ فَأَلْحَمِلَتْ وَقَرًا ۝٥ ﴾ هي الرياح حين تجمع السحاب، وقد ثقل بالماء، شبه جمعها إياه بالحمل؛ لأن شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۗ ﴾ [النور: ٤٣]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا سَقْنَهُ لِيَكْرِمَ مَنِّيَّتَ فَاذْرُنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّوَابِتِ ﴾ الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه، وقد صار ثقيلاً بقاء المطر، فالتقدير: فالجاري بذلك الوقر يسراً، ومعنى اليسر: اللين والهون، أي الجاريات جريا لنا هينا شأن السير بالثقل.

- * إِنَّ الَّذِي تَوَعَّدُونَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجِزَاءِ؛ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ أَوْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ لَصَدَقَ لَا كَذِبَ فِيهِ، وَحَقٌّ لَا مَرِيَةَ فِيهِ، وَإِنَّ الْجِزَاءَ الْعَادِلَ لِكَائِنٍ لَا مَحَالَةَ.
- ثم يأتي قسم آخر لتحقيق اضطراب أقوال منكري البعث الطاعنين في وقوع الجزاء.
- * وَأَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الطَّرَائِقِ وَالْخَلْقِ الْمَحْكَمِ الْمُتَقَنِّ، وَالْحَسَنِ وَالْبَهَاءِ وَالزَّيْنَةَ وَالْجَمَالَ وَالشَّدَّةَ وَالْإِسْتَوَاءَ !!
- * إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْكُفَّارِ لَفِي قَوْلٍ مُضْطَرِّبٍ مُتَنَاقِضٍ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَمَا جَاءَ بِهِ، مِنَ الْقُرْآنِ؛ بَيْنَ قَائِلٍ إِنَّهُ شَاعِرٌ، وَسَاحِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَمَجْنُونٌ، وَمُفْتَرٌ، وَقَائِلٍ: إِنَّ الْقُرْآنَ شِعْرٌ، وَسِحْرٌ، وَكُهَانَةٌ، وَأَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ.
- * وَإِنَّمَا يُضَرِّفُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ وَالْجِزَاءِ مَنْ صُرِفَ عَنِ الْحَقِّ، وَسَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ فَحُرِّمَ الْهُدَى وَأَفْكَ عَنْهُ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الْمَخْتَلِفَ يَكْذِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا.
- * لُعِنَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْمَخْتَلِفِ الْمُرْتَابُونَ فِي وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ، الْقَائِلُونَ: لَنْ نَبْعَثَ، الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجَحَدُوا آيَاتِهِ، وَخَاضُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَاحِرٌ وَكَاذِبٌ وَشَاعِرٌ تَخَرُّصًا وَكَذِبًا وَظَنًّا.
- * الَّذِينَ هُمْ فِي ضَلَالٍ وَجَهْلٍ يَغْمِرُهُمْ، غَافِلُونَ تَائِهُونَ فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشُّكِّ عَمَّا أَمَرُوا

= ﴿فَالْمُرِيدَتِ يُسْرًا﴾ الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء، أو هي السحب التي تنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة...
ومن رشاقة هذا التفسير أن فيه مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله: ﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا﴾ (٤) ﴿إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (٥) ﴿وَإِنَّ إِلَيْنَ لَرْجُوعٌ﴾ (٦) فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتثام أجساد الناس التي كانت معدومة ومتفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون، وقد يكون قوله: ﴿أَمْرًا﴾ إشارة إلى ما يقابله في المثال من أسباب الحياة، وهو الروح، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].
التحرير والتنوير ٢٧/٧، ٨، بتصرف.

- به، وعما هم قادمون عليه.
- * فيسألون تعنتاً وشكاً واستبعاداً: متى قيام الساعة، ووقوع يوم الجزاء؟ ... فيعاجلهم الله سبحانه بمشهدهم في هذا اليوم الذي يستبعدونه وينكرونه.
- * يوم الجزاء يقع يوم هم يعذبون على نار جهنم، ويحرقون كما يفتن الذهب بالنار.
- * وتقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذابكم وجزاء تكذيبكم ! ذلك العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا، وتسألون عنه استهزاء وكفرا بوقوعه.
- * أما المتقون فهم في يوم معادهم يكونون في حال آخر يختلف عن حال أولئك الأشقياء الذين كان مصيرهم العذاب والنكال والأغلال:
- * إنَّ الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به، ولم يعصوه بترك الواجبات ولا بفعل المحرمات هؤلاء هم يوم القيامة في بساتين، وعميون تجري تحت أشجار تلك البساتين.
- * قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].
- * لأنهم كانوا في الدار الدنيا من أهل الإحسان في أعمالهم الصالحة فكانوا يفعلون ما أمروا به، ويتركون ما نهوا عنه، ومن إحسانهم:
- * ولأنهم تركوا راحتهم في وقت اشتداد النفوس إلى الراحة؛ وهو الليل فكانوا لا ينامون إلا زمناً قليلاً منه، وأما أكثره فإنهم فيه قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة القرآن وذكر ودعاء وتضرع واستغفار.
- * وفي الجزء الأخير حين يأذن الليل بالانصراف كانوا يسألون الله، ويستغفرونه استغفار المذنب لربه الراغب فيما عنده، بعد أن قدموا من التهجد ما يرجون أن يزلفهم إلى رضاه كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].
- * وبذلوا المال الذي تشح به النفوس في الغالب، فجعلوا جزءاً مقسوماً من أموالهم للمبتدئ

بالسؤال المظهر لحاجته، كما خصّوا المتعفّف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج منه بنصيب.

* وفيما خلق الله في هذه الأرض من صنوف النباتات والحيوانات والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإيرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه وغيرها من المخلوقات دلائل على عظمة الخالق وقدرته الباهرة لا يدركها إلا أهل القلوب العامرة باليقين الذين انتفعوا بدلائلها فأكسبتهم الإيقان.

* فلمسة اليقين هي التي تحمي القلب فيرى ويدرك، وتحمي مشاهد الأرض فتنتطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحديثه عما وراءها من تدبير وإبداع.

* وفي نفسك أيها الإنسان وتركيبك الجسماني من الدلائل والبراهين آيات لا يأتي عليها الحصر؛ فالإنسان إحدى عجائب الأرض في تكوينه، وفي أسرار جسده، وفي أسرار نفسه، عجيب في ظاهره عجيب في باطنه، عجيب في أطوار خلقه أفلا تبصرون.

* وفي السماء أسباب أرزاقكم ومعاشكم وأقواتكم؛ وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد.

* وفيها ما توعدون من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء، فينزل كسائر الأقدار.

* أقسم برب السماء والأرض أنّ ما وعدتم به من البعث والجزاء كائن لا محالة، وأنّه حق لا مرية فيه فهو مثل نطقكم؛ فكما أنّه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في أنّ ذلك حق.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* قسم الله عز وجل بالأمر العظيمة فيه تأكيد على وقوع المقسم عليه، ويسره وسهولته، وهو البعث والجزاء.

- * في القسم بمخلوقات الله تشریف لها لما فيها من دلائل على الهدى والصلاح، وتذكير بنعمه تعالى فيما أوجده فيها.
- * إصرار الكفرة على إنكار البعث والجزاء بعد إقامة الدلائل والبراهين عليه دليل على ضلالهم وفساد معتقداتهم.
- * الله جل جلاله القادر على تصريف هذه المخلوقات وتسخيرها كيفما يشاء قادر بلا شك على إعادة الخلق بعد مماتهم مرة أخرى يوم القيامة.
- * أدلة قدرة الله تعالى على البعث والنشور في الأرض لا تحصى ومنها: عود النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها: أنه قدر الأقوات فيها قواماً، ومنها: ما يشاهده الخلق فيها من آثار الهلاك النازل بالأمم المكذبة، ولا يدرك مقاصد ذلك إلا الموقنون العارفون بوحداية ربهم، وصدق نبوة نبيهم، ولذلك خصهم الله بالذكر لأنهم المتنفعون بتلك الآيات وتدبرها.
- * المتقون في الدار الآخرة لهم نعيم مقيم جزاء أعمالهم وإحسانهم.
- * إنزال الله تعالى الرزق من السماء من أعظم آياته الدالة على عظمته، وأنه المعبود وحده.
- * الرزق لا يطلب إلا من الله تعالى، وما يوعده الإنسان من خير أو شر أمره في السماء، وفي ذلك تعليم للخلق أن يطلبوا الخير من الله دائماً، ويتركوا الشر.
- * مدح الله المتقين بتركهم النوم في الليل فيه إشارة إلى أفضلية التطوع بالصلاة في الليل عن التطوع في النهار وذلك لفراغ القلب بالليل وضمأن إجابة الدعاء.

المقطع الثاني

دلائل القدرة الإلهية

قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْمَةٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنَ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ يَجْنُونُ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُؤْمِمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصَّنِيعَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحِيَ مِنْ قَبْلِ إِيَّتِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٤٦].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يسرد ستة الله تعالى في إهلاك وتدمير الأمم الماضية التي كذبت الرسل وتنكبت طريق الحق والخير والعدل، وهم قوم: إبراهيم ولوط وموسى وصالح وهود ونوح وإهلاك هؤلاء بأنواع العذاب فيه دلالة على أنه تعالى قادر كذلك على أخذ المكذبين من غيرهم في أي زمان ومكان فالأولى للنفس البشرية أن تعود إليه تعالى، وترتبط به دون سواه من الآلهة المزعومة؛ لأن طاعته تعالى هي طريق الأمان في يوم العرض عليه.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

توعدت آيات المقطع السابق مشركي مكة على تكذيبهم، وانتقلت آيات هذا المقطع

من الوعيد والإنذار إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين في الكفر وتكذيب الرسل، والمناسبة أن مشركي مكة كانوا في غمرة ساهون أشبه بقوم لوط الذين قال الله فيهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَقْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي ذلك تسلية للرسول وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتناول هذا المقطع سنة من سنن الله تعالى في إنزال العذاب بالأقوام المكذبة به وبرسله، وقد تسلسل في فقرتين:

الأولى: قصة ضيف إبراهيم عليه السلام.

الثانية: قصص بقية الأمم المكذبة بدعوة الأنبياء، واستحقت العذاب الويل، وهانت على الله فلم يبال بها، وأنزل عليها صنوفا من العذاب.

* هل بلغك - أيها الرسول - حديث ضيف إبراهيم عليه السلام الذين أكرمهم، وكانوا من الملائكة الكرام عند الله.

* حين دخلوا عليه في بيته، وهم في صور بني آدم، فحيّوه قائلين له: سلامًا، فردّ عليهم التحية قائلاً: سلام عليكم، أنتم قوم لا نعرفكم، فمن أنتم؟ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لِي بِآلِئِ أَنْ يَجَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴾ [هود: ٦٩].

* فعَدَلْ ومال خفية إلى أهله، فعمد إلى عجل سمين فذبحه، وشواه بالنار.

* ثم أدناه منهم ووضعهم أمامهم، وتلطف في دعوتهم إلى الطعام قائلاً ألا تأكلون؟.

* فلما رآهم لا يأكلون أحسّ في نفسه خوفًا منهم، قالوا له: ﴿ لَا تَحْضَفْ ﴾ إنا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْضَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

* وبشروه بأن زوجه (سارة) ستلد له ولدًا، سيكون من أهل العلم بالله وبدينه، وهو

إسحاق عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلْيَسَّرْنَا لَهَا يَأْسَاحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

* فأخذت امرأته الفرحة فأقبلت مستبشرة تصيح ولطمت وجهها، وتقول: كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿ قَالَتْ يَوْنَيْلَقَءِ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢].

* فردوا عليها قائلين: ﴿ أُنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود: ٧٣] فالله هو الذي قدر ذلك وأمضاه فلا عجب من قدرته، فهو تعالى حكيم في أقواله وأفعاله عليم بما تستحقون من الكرامة وما يصلح لكم وما لا يصلح. ثم سأهم إبراهيم عليه السلام:

* ما شأنكم أيها المرسلون؟ وأي حدث عظيم وأمر جسيم أرسلتم لأجله؟

* قالت الرسل: إن الله جل شأنه أرسلنا لإهلاك قوم لوط أجرموا بكفرهم وارتكبوا الفواحش (اللواط)، وعصوا وتجبروا.

* لتنزل عليهم العذاب فنهلكهم بحجارة من طين متحجر مطبوخ بالنار.

* حجارة معلّمة على كل حجر اسم صاحبه؛ لأنهم أسرفوا وتجاوزوا حدود الله، وأتوا من الفواحش ما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين.

* وحين أهلكنا قوم لوط عليهم السلام أخرجنا من كان في تلك القرية من المؤمنين بالله، فلم نجد فيها إلا أهل بيت واحد ممن أسلم لله تعالى وانقاد لطاعته وأمره، وهم أهل بيت لوط سوى امرأته.

* وأبقينا في تلك القرية التي أهلكناها علامة ليكون ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون.

- * وفي قصة موسى وفرعون آية للذين يخافون العذاب الأليم:
- * فقد أرسلناه إلى فرعون بأدلة قاطعة وحجج واضحة وبراهين ساطعة.
- * فلما أتى موسى فرعونَ بذلك السلطان المبين أعرض فرعونُ عن الإيـان عناداً وتكبراً متعزراً بأصحابه وجموعه.
- * وقال لموسى عليه السلام: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وقال: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٧].
- * فألقاه الله تعالى هو وجنوده في البحر، وهو كافر جاحد فاجر معاند مستوجب للعذاب، وجعله آية باقية لمن جاء بعده، كما قال تعالى: ﴿ فَأَلَيْوَمَ نُنَجِّيكَ يَدَيْنَا لِتُكُونَ لِمَنْ خَلَقَ مَآيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن مَّآيَتِنَا لَفَنَاقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢].
- * وفي عاد قوم هود آيات وعظات للذين يخافون العذاب الأليم:
- فقد عذبهم الله فأرسل عليهم الريح المفسدة التي لا تتج شيئاً، فهي خالية من المنافع.
- تلك الريح العاتية لا تدع شيئاً مما تفسده الريح إلا جعلته كالرَّمم البالية، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِغُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].
- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)^(١).
- * وفي ثمود قوم صالح عليه السلام عبر وعظات للذين يخافون العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (١٠٣٥).

﴿١٧﴾ [فصلت: ١٧].
 تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

* فقد كذبوا أخاهم صالحا، وطلبوا منه آية تدل على صدق رسالته إليهم، فأعطاهم الناقة آية

فكذبوه وخالفوا أمر ربهم وعقروها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: ٦٤].

* فقيل لهم عيشوا متمتعين في الدنيا حتى يأتيكم العذاب والهلاك، كما قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥].

* فانتظروا العذاب فأتتهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار الصاعقة وهي نار من السماء وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم.

* فأصبحوا في دارهم جاثمين، وما استطاعوا من هرب ولا نهوض من شدة الصيحة، قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ [هود: ٦٧].

* وما كانوا ليقدروا على أن يتصرفوا لأنفسهم ويدفعوا عنها ما هم فيه من العذاب، ولم ينصرهم أحد.

* وتركنا في قوم نوح الذين كانوا قبل هؤلاء آية للذين يخافون العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَنُوحًا مَّا أَتَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطغى ﴿٥٢﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٢].

* فقد كذبوا نوحا وفسقوا عن أمر ربهم فأرسل الله عليهم الطوفان، فأغرق المكذبين عن

بكرة أبيهم، ولم يبق من الكافرين ديارا، قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾

وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ دُسْرًا ﴿١٣﴾ تَجْرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن

مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ [القمر: ١٠ - ١٥].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * مشروعية التحية من القادم على غيره، وهي السلام، والرد بها هو أتم وأكمل.
- * الضيافة من سنن إبراهيم عليه السلام التي أمر الله أمة محمد باتباعها.
- * مشروعية التعرف إلى الناس، وملاطفة الضيف في الكلام للتدليل على الأنس به.
- * المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، وتقديم الأجود من الطعام.
- * مشروعية خدمة الضيف ولو كان المضيف سيد الأضياف، فإبراهيم عليه السلام هو الذي خدم أضيافه وهو خليل الرحمن.
- * ملاطفة الضيف في الكلام خصوصاً عند تقديم الطعام، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي استعمال الألفاظ الحسنة والكلام اللطيف.
- * المؤمنون بالبعث والجزاء هم المنتفعون بقصه القرآن من أحوال الأمم الكافرة، ويتجنبون أسباب الهلاك، والذين لا يخافون العذاب الأليم ولا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك؛ لأنهم لا يصدقون بالسنن الإلهية، ولا يتدبرون دعوة الحق.
- * إهلاك الطغاة على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوة الله واقتداره فهو سبحانه لا يعجزه شيء، ينتقم ممن عصاه مهما بلغت قوته وسطوته.
- * قوة الله فوق كل ذي قوة.
- * كل مؤمن صادق الإيمان فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً حتى يحسن إسلامه بانبئائه على أركان الإيمان الستة.
- * الخروج عن طاعة الله والعتو عن أمره من أسباب التعرض للهلاك والعقوبة.

المقطع الثالث

الفرار إلى الله طريق النجاة

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَةٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرُمَةٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَنَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٌ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّا لَذَكَرَى نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴿ [الذاريات: ٤٧-٦٠].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع هو محور السورة وجوهرها؛ فبعد ما قررت الآيات في المقطعين السابقين أن شأن الآخرة صدق وأن الحساب واقع، وأن الغافلين المستبعدين لليوم الآخر لهم العذاب الأليم، وأن المتقين لهم الخير الجزيل عرضت آيات هذا المقطع دلائل الوجدانية، وعظيم القدرة الإلهية، ومظاهر الإبداع الرباني في خلق السموات والأرض، ثم رتبت على ذلك نتيجة مهمة وهي الدعوة إلى الفرار إلى الله تعالى، وإخلاص العبودية له؛ فهي غاية الوجود ووظيفة الإنسان الأولى، وهذا يقتضي التوجه إليه تعالى بكل حركة في الضمير، وفي الجوارح، وفي الحياة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لما كانت شبهة نفاة البعث من سائر الأمم قائمة على توهم استحالة إعادة الأجساد بعد فنائها، وكانت آيات المقطع السابق قد أثبتت ذلك وأقامت عليه الأدلة، أعقبت هنا بتهديدهم

بما يقوض تَوْهُمَهُمْ فوجهت إليهم الخطاب لتذكيرهم بأن الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئاً مذكوراً فلا تُعد إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إلى الخلق الأول إلا شيئاً يسيراً، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: ٥٧)^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتكون هذا المقطع من فقرتين:

الأولى: الاستدلال على وقوع البعث ببيان آثار القدرة الإلهية في السموات والأرض والمخلوقات.

الثانية: الدعوة إلى الرجوع إلى الله بعد ثبوت البعث بالأدلة المحسوسة والمشاهدة، والتسليم بقدرته وقوته والخضوع له والرغبة فيما عنده.

* هذه الساء العظيمة من بناها وشيدها؟ إنه الله عز وجل بقوته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]، وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

* وهي دائماً في توسع في نفسها وأرزاقها^(٢).

* وكذلك الأرض بسطها الله ومهدّها وجعلها فراشاً للمخلوقات صالحة لسكنى الإنسان

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/٣٥، ٣٦.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، الملاحظ أنه قد استعمل فيه اسم الفاعل (موسع)، واسم الفاعل في اللغة العربية يفيد في بعض الحالات الاستمرار، ومن ثم فإن الآية هنا تشير إلى سعة الكون من ناحية، كما تشير إلى موضوع تمدد الكون وتوسعه المطرد، وهذا ما كشفته المجاهر الضخمة التي صنعت لرصد حركة الكون، فأكدت ذلك... وعليه ففي هذه الآية ما فيها من إعجاز وسع به القرآن الزمان والمكان... الأساس في التفسير، سعيد حوى ١٠/٥٥٣٠.

والحيوان، وجعل فيها الأرزاق، والأقوات من الحيوان والنبات، والمعادن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتْرَافًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٧) [ق: ٧].

* فَنِعْمَ مَا فَعَلْنَا وَمَا أَجْمَلُ مَا خَلَقْنَا !!

* ومن كل شيء من المخلوقات خلقنا صنفين: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، بر وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، والجمادات^(١).

* خلقنا ذلك على هذا النحو من الإتقان والتقدير لتعلموا وتعظوا وتذكروا عظمة الخالق وأنه واحد لا شريك له، وأن من حقه عليكم بعد أن شاهدتم دلائل قدرته، وبراهين وحدانيته في السماء والأرض وخلق أنفسكم وسائر المخلوقات من زوجين أن تلجأوا إليه وتعتمدوا عليه.

* ففروا إلى الله وسارعوا إلى توحيده، واتبعوا أوامره^(٢).

* إني نذير لكم من عذابه وعقابه، ومخوف لكم من انتقامه الذي صبّه على الأمم التي قصّ

(١) قال الشيخ سعيد حوى معلقاً على قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَ كُلِّ نَسْتٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، في عصرنا اتضح معنى الزوجية بشكل أوسع حتى شمل الحيوان والنبات والمجرات، فما من ذرة إلا وعنصر الزوجية فيها موجود، والآية قالت: ﴿ وَبَيْنَ كُلِّ نَسْتٍ ﴾ فكان فيما اكتشفه الإنسان حتى الآن في هذا الموضوع معجزة من معجزات القرآن. الأساس في التفسير، ١٠ / ٥٥٣٠.

(٢) في قوله: ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠] الفاء للتفريع؛ فإنه تعالى بعد أن بين للمشركين ضلالتهم وخطأهم في الشرك والكفر وإنكار البعث بها ساق من الأدلة وأبرز عن البراهين القطعية قال لرسوله: قل لهم أيها الناس ففروا إلى الله، أي: هربوا إليه لينجيكم من الخسران، فإنه ليس لكم إلا هو، فآمنوا به ووحده وعبدوه، وعلل ذلك بقوله لهم: ﴿ إِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾.. أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١٦٩/٥.

عليكم خبرها^(١).

- * ولا تشرکوا مع الله إلهاً آخر فإن العبادة لا تصرف لغيره، ولا تنبغي لسواه.
- * إني نذير ومخوف لكم من عقابه تعالى على عبادتكم غيره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].
- * كما كذبت قومك أيها الرسول، وقالوا: ساحر أو مجنون كذلك فعلت الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم، فلا تحزن لما يقول هؤلاء المكذبون.
- * هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤا عليه؟
- * كلا، بل جمعهم الطغيان، وتشابهت قلوبهم، فهم قوم معتدون طغاة عن أمر ربهم لا يأتمرون لأمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].
- * فأعرض عنهم أيها الرسول، وكف عن الإلحاح في جدالهم ودعوتهم إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].
- * ولا لوم عليك ولا عتاب؛ لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وكررت عليهم الإنذار وبذلت الجهد في البلاغ: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].
- * ولا يمنعك هذا التولي والإعراض عن هؤلاء أن تعظ بالقرآن من يخاف وعيدنا، فدم على

(١) سَمَّى اللهُ تعالى الرجوع إليه فراراً فقال: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]؛ لأن في الرجوع إلى غيره تعالى أنواع المخاوف والمكارة، وفي الرجوع إليه سبحانه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي ٧٧٨.

الذكرى فإنها تنفع من في قلوبهم استعداد للهداية والرشاد^(١).

* وما خلقت الجن والإنس إلا لأمهم بعبادتي، وأبتليهم بالتكليف ثم أجازهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر^(٢)، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ

(١) إنما كانت الذكرى نافعة للمؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۗ سِيذِكُرْ مَنْ يَخْشَى ۗ وَنَجِّنِي مِنَ الْآسَفَى ۗ﴾ [الأعلى: ٩ - ١١]، وأما من ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير فهذا لا ينفع تذكيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، قال الله فيهم: ﴿إِنَّ آيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۗ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ٧٧٩.

(٢) يظهر للنظر في هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ سَأَلَ رَّبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَنْ رَجَعُ رَبُّكَ وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۗ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] أن ثمة تعارضاً بينهما، وهو تعارض ظاهري أزاله العلماء وكشفوا عن المراد بكل منهما، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: (وإذا تقرر أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ﴾ معناه أنه خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ ۗ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا ۗ وَنُكِرْتُمْ مُؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢]، فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والجواب عن هذا من ثلاثة وجوه:

الأول: ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان: أن معنى الآية: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي يعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم، كما أشار له قوله تعالى: ﴿إِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم....

الوجه الثاني: هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس، واختاره أن معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقروا إلي بالعبودية طوعاً أو كرها؛ لأن المؤمن بطبع باختياره، والكافر مذعن متقاد لقضاء ربه جبراً عليه.

الوجه الثالث: ويظهر لي أنه هو الحق؛ لدلالة القرآن عليه أن الإرادة في قوله: ﴿وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ﴾ إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ﴾ إرادة شرعية دينية، فبين في قوله: ﴿وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ ۗ﴾ أنه أراد بإرادته=

﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴾ [الملك: ٢٠]، وقال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُنْبِتُوهَا لِيَتَّخِذَهَا الْبَشَرُ حَرَابًا ﴾ [الكهف: ٧].

* أنا الرزاق والمعطي فما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها، وما أريد منهم أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُغْنِيهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿ فَأَبْنِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

* الله تعالى هو ذو القدرة والقوة الغالب على أمره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

* فَإِنَّ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بانشغالهم بغير ما خلَقوا له من العبادة، وكذبوا الله ورسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة التي كذبت رسلها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هُنَا لَآءٍ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر: ٥١]^(١).

* فلا يطلبوا مني أن أعجل بالآتيان به، فإنِّي لا أخاف الفوت، ولا يلحقني عجز، وهذا جواب عن قولهم: ﴿ قَالُوا أِحْتَقْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠].

= الكونية القدريّة صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة.

ويُنّ بقوله: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده، ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بينه بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء/ ٦٤]، فمتم الإرادة الشرعية بقوله: ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾، وبين التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، فالدعوة عامة والتوفيق خاص (...). أضواء البيان ٦/ ٢٨٨، ٢٨٩.

(١) عبّر سبحانه في قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَحْسَنِيهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴾ [الدّٰنوب، التي هي الدلو المملأ بالماء عن العذاب؛ لأنّ العذاب يُصب عليهم كما يُصب الماء من الدلو، ولأنّ الدلاء تأتي واحداً بعد واحد فكذلك الهلاك يتم لأمة بعد أمة حتى يسقوا كلهم مرّ العذاب. أيسر التفاسير لكلام العليّ القدير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٢.

* فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذي وعدوه يوم القيامة، حين لا تغني نفس عن نفس شيئا، ولا هم ينصرون.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* في خلق السموات وتوسيعها ومد الأرض وجعلها مهذاً لمن عليها دلالة على قدرة الله تعالى وحكمته، وأن البعث والجزاء أمر واقع، وتذكير بعظمته ونعمته، وتنبية على الشناء على منته.

* الزوجية سنة من سنن الله تعالى في الكون وفي الذرة انبهر لها العقل الإنساني، وهي مما سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) [يس: ٣٦]، فدل هذا قطعا على أن القرآن وحي الله، وأن محمداً لن يكون إلا رسول الله^(١).

* دَخُو الْأَرْضِ وبسطها كان بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش، وهذه حقيقة علمية تضمنها قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (٣٠) [النازعات: ٣٠]^(٢).

* الأمر بالفرار إلى الله تعالى أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن.

* المسارعة بالتوبة وقاية من الوقوع في العذاب.

* تقرير سنة بشرية وهي أن الملائمة من الذين كفروا في كل عصر ومصر دأبهم التكذيب بكل من جاء يدعوهم إلى خلاف مألوفهم واعتيادهم.

* حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري ١٦٩/٥، ١٧٠ بتصرف يسير.

(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ١٠/١٤.

ورباً. عبداً يُعبُد. ورباً يُعبَد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل عبيد.

الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر؛ ومن كل معنى غير معنى التبعُد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح كل عمل وسلوك عبادة... وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها..^(١).

- * نفي الله تعالى اللوم عن نبيه يدل على أنه ﷺ قد أدى الأمانة ونصح الأمة.
- * مشروعية التذكير والاستمرار عليه لتحصل به الزيادة في إقامة الحجّة على المعرضين ولئلا يزدادوا طغياناً، ولما فيه من فوائد لأهل الإيمان منها؛ رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه، واستفادة علم جديد لم يسمعه أو غفلوا عنه^(٢).
- * الله تعالى غني عن خلقه متعال عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم، وتهيئة أرزاقهم، ونفع العباد إنما يعود عليهم.
- * وعد الله الكافرين بالعذاب واقع لا محالة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٣ بتصرف..

سورة الطور

(مطاردة الباطل وأهله)

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة (الطور) لورود قوله تعالى في مطلعها: ﴿وَالطُّورِ﴾.

ب. فضائل السورة:

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور)^(١)، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أشتكى فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة، فطفت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ ﴿وَالطُّورِ﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾).

ج. مكان نزول السورة:

سورة الطور مكية، قال القرطبي في قول الجميع^(٣).

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة سبع وأربعون في المدنيّين والمكي، وثمان وأربعون في العد البصري، وتسع وأربعون آية في العد الشامي والكوفي.
واختلافها آيتان:

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٧٦٥)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٤٦٣).

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٥٨/٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ [الطور: ١] لم يعدها المدنيان والمكي، وعدّها الباقون.

والثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣] عدّها الكوفي والشامي، ولم يعدها الباقون^(١).

هـ. محور السورة:

سورة (الطور) كغيرها من السور المكية التي تعنى بموضوع العقيدة الإسلامية وبيان أصولها؛ من الوجدانية، وإثبات الرسالة، والبعث والجزاء، والمحور الرئيس الذي تتسلسل أفكار السورة ومواضيعها لإبرازه هو مطاردة الباطل ودحض شبه المبطلين، ودليل ذلك:

أولاً: افتتاحية السورة، وما صدرت به من إقسام بأمر جليلة تهدف إلى إثبات فساد تصورات المشركين وبطلان معتقداتهم وأن العذاب واقع بهم.

ثانياً: ما ورد في السورة من مقابلة وعيد المكذبين بوعد المؤمنين وإطعامهم فيها عند الله تعالى من الجنات، وبيان صفة نعيمهم، وحالهم في الدنيا تجاه أمر الله ونهيه.

ثالثاً: توجيه الأمر إلى النبي ﷺ لمتابعة التذكير، وإنذار المبطلين، والإعراض عن سفاهتهم، وافتراءهم غير عابئ بما يقوله المشركون ويفتره المفترون.

رابعاً: الحملة على الشرك وأهله، وإنكار مزاعمهم الباطلة، والرد عليهم بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل وتدمغ مزاعم أهله.

خامساً: ما حُتِمَت به السورة من أمر النبي ﷺ بترك الكفار في ضلالهم، وأن للظالمين عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة.

وإضافة إلى ما تقدم فإن مطاردة الباطل والحملة عليه في هذه السورة (يشترك فيها اللفظ

(١) البيان في عدآي القرآن، الداني ٢٣٣.

والعبارة، والمعنى والمدلول، والصور والظلال، والإيقاعات ومقاطع السورة وفواصلها على السواء. ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق، وصورها وظلالها كما لو كانت سيافاً لأذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام^(١).

بناء على الدلائل والحيثيات السابقة يمكننا تسمية محور سورة الطور: (مطاردة الباطل وأهله).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

بين المحور واسمها علاقة وطيدة؛ ف(الطور) جبل كريم وعظيم عند الله تعالى؛ كلم الله فيه كلمته موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة، فأقسم الله به تشريفا وتذكيرا بما فيه من الآيات، فهو رمز لظهور الحق وبزوغ فجره رسالة سماوية جديدة، والرسالات السماوية قوامها الدعوة إلى الحق واجتثاث الضلال من جذوره، وتسفيه الضالين.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة الطور بالوعيد بتحقيق حلول العذاب يوم القيامة بالمكذبين بالنبي ﷺ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن لذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧، ٨]، وختمت بأمر النبي ﷺ بتركهم وأن لا يحزن عليهم، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا والآخرة، ووعده بالتأييد عليهم، قال تعالى: ﴿فَدَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور: ٤٥].

(١) في ظلال القرآن، سيّد قطب ٦/ ٣٣٩١.

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الطور وخاتمة سورة الذاريات:

قال أبو حيان: (مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ إذ في آخر تلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ [الذاريات: ٥٩]، وقال هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [٧] ﴿[الطور: ٧]﴾^(١).

(فلما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله ﷺ أنهم سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم، المنبّه على ذكرهم في السورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [٦٠] ﴿[الذاريات: ٦٠]، أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه فقال تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ [١] ﴿[الطور: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [٧] ﴿[الطور: ٧]﴾^(٢).

٤. المناسبة بين مضمون سورتي الطور والذاريات:

تتأخى سورتا الذاريات والطور في جوانب كثيرة، وتمتد الوشائج والصلّات بينهما من بداية كل منهما إلى الختام، وتبرز مناسبتها من وجوه كثيرة، أبرزها:

أولاً: أنها مكيتان.

ثانياً: ابتداءهما بالقسم بمخلوقات الله عزّ وجلّ، وآياته في الكون والآفاق، وما يتعلق بمعاش الخلق ومعادهم.

ثالثاً: اختتامها بالوعيد لمن كفر بالله تعالى وجحد آياته، وظلم نفسه؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ [٥٩] ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [٦٠] ﴿[الذاريات: ٥٩، ٦٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٧] ﴿[الطور: ٧]﴾.

(١) البحر المحيط، ٨/ ١٥٤، وينظر: ملاك التأويل، أبو جعفر بن الزبير ٢/ ١٠٣٢.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ١٩.

رابعاً: في كليتها أمر للنبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، والمداومة على التذكير؛ قال تعالى:
﴿ فَنُؤَلِّعُ عَنْهُمُ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ٥٤ وَذَكَرْنَا لِلدَّكَرِيِّ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥ ﴾ [الذاريات: ٥٤ - ٥٥]
وقال: ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ١٥ ﴾ [الطور: ٤٥]، وقوله: ﴿ فَذَكَرْنَا فَمَا
أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩ ﴾ [الطور: ٢٩].

خامساً: أنها تحدثنا عن صفات عباد الله المتقين الذين إذا أمرُوا فعلوا وإذا نُهِوا انتهوا؛
ومن بديع هذا التناسب أن حكاية القرآن الكريم لهذه الصفات في موضع متقارب في كليتها،
قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ﴾ [الذاريات: ١٥]، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعَيْسٍ ١٧ ﴾ [الطور: ١٧ - ٢٠].

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: (إن هاتين السورتين اتحدتا في القصد من وعيد كفار قريش
والعرب ذوي العناد والتكذيب والإخبار بجزائهم الأخرى، فعلى هذا مبنى السورتين، ولهذا
افتتحنا بالقسم على ذلك، والموعود به فيها جزاء فريقي السعادة والشقاء والإشارة إليه بقوله:
﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُ ٦ ﴾ [الذاريات: ٦]. وهو حساب الكل وجزاؤهم بما سلف من جميعهم من خير
أو شر، والإخبار بحال الفريقين على ما هو الجاري المطرد في الكتاب العزيز، أعني أنه إذا ذكر
حال المكذبين أتبع بحال المصدقين... فنص في (الذاريات) على أسنى أعمالهم، وأمعن في (الطور)
بذكر الجزاء وضروب النعم... فارتبطت الآيتان، وتبين أنه لا اختلاف بينهما.. (١).

سادساً: أنها تضمنتا إقامة الحجج والدلائل على البعث والجزاء، وبيان موقف الكفار
من رسلهم ونسبتهم إلى السحر والجنون، قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٥٢ ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال: ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ﴾
[الطور: ١٥]، وقال: ﴿ فَذَكَرْنَا فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩ ﴾ [الطور: ٢٩]، وقال: ﴿ رَبِّهِ رَبِّبِ الْمُتَّقِينَ ٣٠ ﴾ [الطور: ٢٩، ٣٠].

(١) ملاك التأويل ٢/ ١٠٣٣ - ١٠٣٥.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

تحقيق وقوع العذاب

﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَورًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ [الطور: ١- ١٦].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة من حيث كونه قد اشتمل على القسم بمخلوقات الله العظيمة الدالة على قدرته وبديع صنعته على أن العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون في الباطل، ويتخذون دين الله هزواً ولعباً، وهذا المقطع يمثل المشهد الأول من مشاهد مطاردة الضلال ودفع شبه المبطلين، وبيان أن عنادهم واستكبارهم وإنكارهم البعث انتهى إلى الدفع بهم في نار جهنم التي طالما أنكروها وكذبوا بها.

ب. المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول أمرين:

الأول: القسم على وقوع يوم القيامة، وذكر بعض ملامح الانقلاب الكوني في ذلك اليوم.

والثاني: وصف عذاب النار الذي يزج فيه المكذبون، ويدفعون إليه دفعاً.

- يقسم تعالى بخمس من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم:
- * أقسم بـ(الطور) الجبل العظيم الشأن الذي كلمت عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة، قال تعالى: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ ۝٢﴾ [التين: ٢].
- * وأقسم بالقرآن الكريم المكتوب المنشور المبسوط الذي يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ في كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٩٧] (١).
- * وأقسم بالبيت المعمور بكثرة الواردين عليه للطواف من الملائكة؛ ذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، قال ﷺ في حديث الإسراء: (ثم رُفِعَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ) (٢).
- * وأقسم بالسماء المرفوعة السقف، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٢٣] (٣)، وقال: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنُنَا ۝٢٧﴾ رَفَعَ سَعَىٰهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ [النازعات: ٧٢، ٨٢].
- * وأقسم بالبحر الذي يوقد يوم القيامة ناراً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦]، أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف (٤).

(١) وقيل: جميع الكتب المنزلة، وقيل: ألواح موسى، وقيل: صحائف الأعمال، ومثله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ رَبِّهِ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُفِخَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْأَشْهُفُ نُفِثَتْ ﴿١٠﴾﴾ [التكوير: ١٠]، وقيل: ما كتبه الحفظة... فتح القدير، الشوكاني ٩٤/٥.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٠٧).

(٣) وقيل المراد بالسقف المرفوع هو: العرش، قال ابن كثير: يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور... تفسير القرآن العظيم ٢٥٧/٤.

(٤) وقيل: إن المراد بـ(البحر المسجور) المملوء ماء، وقيل: إن هذا البحر المسجور الذي أقسم به ربنا تبارك =

ثم يأتي جواب القسم:

* إن عذاب ربك لواقع بالكافرين.

* وليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

وتعرض الآيات طرفاً من مشاهد القيامة:

* يوم تتحرك السماء وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم.

* وتذهب الجبال فتصير هباءً منبثاً وتنسف نسفاً، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ١٠٥] (١).

* فويل للمكذبين في ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم.

* فقد كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِفَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۗ قُلْ أَلَيْسَ بِهِ ۖ وَرَسُولِي ۚ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

* بل لهم يوم يدفعون إلى نار جهنم دفعاً، كما قال تعالى: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

=وتعالى بحر في السماء تحت العرش... تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٧.

(١) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿١﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٢﴾﴾ [الطور: ٩، ١٠] تظهر الحكمة من مور السماء، وسير الجبال وهي الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرايبها... وتأکید الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما، وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: موراً عجيباً، وسيراً عجيباً، لا يدرك كنههما. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الهرري ٥٠/٢٨.

* وتقول لهم الزبانية ذلك تريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي كنتم بها تكذبون !! كما قال تعالى: ﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر: ٤٨].

* لقد كنتم تقولون عن القرآن في الدنيا إنه سحر. فأخبرونا: هل هذا العذاب الذي ترونه بأعينكم سحر؟ أم سُدت أبصاركم كما سُدت في الدنيا، فعميتم عن الخير والحق والإيمان والهدى؟.

* ادخلوا جهنم وقاسوا شدة عذابها فاصبروا أو لا تصبروا، سواء تساوى عليكم الصبر والجزع، فلا خلاص لكم ولا مناص، كما قال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

* إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة وأفعالكم الشنيعة من الكفر والتكذيب...

ج. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم بغيره تعالى.

* في القسم بالطور، وبالكتاب المسطور، وبالبيت المعمور، وبالسماء ذات السقف المرفوع وبالبحر الموقد دلائل لا تحصى على قدرة الله على البعث والجزاء، ولا يدركها إلا الموقنون بذلك اليوم.

* في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ إثبات البعث بعد كون الكلام وعيداً لهم على إنكاره، وإنكار أن يكونوا معذبين.

* وعد الله لا يخلف أبداً.

* على العبد المسلم أن يتعد عن أسباب العذاب، ويستعد للحياة الآخرة، ويترك اللهو والخوض في الباطل، وكل ما لا فائدة فيه.

* الجزاء من جنس العمل.

المقطع الثاني

صفات أهل التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ وَرَوْحَهُمْ رُبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِمُرُ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُزُلٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي آهْلَانَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آتَى اللَّهُ عَلَيْهِنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ١٧ - ٢٨].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم أن محور هذه السورة هو مطاردة الضلال ودحض شبه المبطلين حول البعث والجزاء، وهذا المقطع يعرض مشهداً لحال المصدقين بالبعث، فيذكر ما أكرمهم الله به من النعم في الجنة، ويعود بنا إلى استقراء أحوالهم في الدنيا التي استحقوا بموجبها هذا الجزاء الحسن الذي من الله تعالى به عليهم، ترغيباً لهم في المزيد من الثبات على الحق، والعمل الصالح، فقد كانوا في الدنيا حذرين مشفقين معظمين لربهم.

ب. المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لما فرغ سبحانه وتعالى من تقرير وقوع البعث، ووصف حال المجرمين المكذبين باليوم الآخر، وما يلاقونه من الشدائد في ذلك اليوم، استأنف في هذا المقطع بيان حال ضدهم، وهم المؤمنون المتقون الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة في السر والعلن، وأدوا فرائضه، وتحلوا بأداب دينه، وانتهوا عن معاصيه، ولم يندسوا أنفسهم بالمعاصي والآثام، ولم يدسوها بالذنوب فجازاهم ربهم في الآخرة جزاء حسناً.

وذلك جرياً على الموازنة وعادة القرآن في إيراد الأضداد، والجمع بين الترغيب والترهيب حتى يتأمل الإنسان في المصير، فيرغب في الرحمة، ويرهب النقمة والعذاب^(١).

ج. المعنى الإجمالي للمقطع:

يحتوي هذا المقطع على فقرتين:

الأولى: العدل الإلهي والفضل الرباني.

الثانية: عود على بعض ذكريات أهل الإيمان في الدنيا.

- * إنَّ الذين اتقوا الشرك والمعاصي، وأطاعوا ربهم باتباع أوامره واجتناب نواهيهم هم في الحياة الآخرة في بساتين ونعيم مقيم فيه كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.
- * ناعمين متلذذين بما أعطاهم ربهم الكريم وأفاضه من الخير والكرامة وصنوف النعيم من مآكل ومشارب وملابس ومراكب.
- * وقد نجَّاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها.
- * ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً لكم - فلا تنغيص فيه ولا كدر - بسبب ما كنتم تعملونه من الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].
- * وهم في نعيمهم في الجنة جالسون بتمكن وطمأنينة وراحة على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت، مصطفة أسرَّتهم بعضها إلى جانب بعض، يقابل بعضهم بعضاً، وينظر بعضهم إلى بعض، في صفاء سرائر، وعشرة حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْتَدِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ [٤٣] عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْتَدِلِينَ ﴿٤٤﴾ [الصافات: ٤٣-٤٤].

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢٧/٦٤ بتصرف يسير.

* وَقَرَّأَهُمْ فِي الْجَنَّةِ بَزُوجَاتٍ صَالِحَاتٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، شَدِيدَاتِ سَوَادِ الْعَيْونِ شَدِيدَاتِ بِيَاضِهَا، وَاسْعَاتِ الْأَعْيُنِ فِي غَايَةِ الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ، كَأَنَّهُنَّ لَوْلُؤُ مَصُونٍ عَمَّا يَكْدُرُ صَفَاءَهُ، مُسْتَوْرٍ لَمْ تَمْسَهُ الْأَيْدِي أَوْ تَرَاهُ الْأَعْيُنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ٤٩﴾ [الصافات: ٤٩].

* وَالَّذِينَ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ وَلِحَقَّتْهُمْ ذُرِّيَاتُهُمْ بِإِيمَانٍ شَامِلٍ كَامِلٍ صَحِيحٍ نَلْحَقْتَهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي نَفْسِ الْمَنْزِلَةِ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا بِأَعْمَالِهِمْ دَرَجَاتِ آبَائِهِمْ فَضِلَا مِنَّا وَإِكْرَامًا لِآبَائِهِمْ حَتَّى تَقْرَأَ أَعْيُنُهُمْ.

* وَمَا نَقَصْنَا الْأَبَاءَ بِالْحَاقِ ذُرِّيَّتِهِمْ بِهِمْ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ.

* كُلُّ نَفْسٍ مَرْتِنَةٌ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِعَمَلِهَا إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩].

* وَزِدْنَاهُمْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ النَّعِيمِ بِفَاكِهِةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَلَحْمٍ مِمَّا تَشْتَهِيهِ نَفُوسُهُمْ.

* وَيَتَعَاطُونَ فِي الْجَنَّةِ كَوْسًا مِنْ خَمْرِهَا، يَتَجَاذِبُونَهَا مَعَ جِلْسَائِهِمْ، وَحِينَ يَشْرَبُونَ خَمْرَ الْجَنَّةِ لَا يَنْفَدُ شَرَابُهُمْ، وَلَا يَصِيبُهُمْ صَدَاعٌ فِي رُؤُوسِهِمْ، وَلَا تَذْهَبُ عَقُولُهُمْ بِشَرِبِهَا؛ فَهِيَ مَنْزَهَةٌ عَنِ الْآفَاتِ الَّتِي فِي خَمْرِ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ٤٥﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧]، وَقَالَ: ﴿لَا لِلشَّرِبِينَ ٤٦﴾ [الصافات: ٤٦]، وَقَالَ: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ١٩﴾ [الواقعة: ١٩].

* وَيَدُورُ حَوْلَهُمْ لِلخِدْمَةِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْفَوَاكِهَةِ غُلَامَانِ فِي سَنٍ وَاحِدَةٍ، هَيَأْتُهُمُ اللَّهُ لِخِدْمَتِهِمْ؛ كَأَنَّهُمْ فِي الْبَهَاءِ وَالْحَسَنِ لَوْلُؤُ مَكْنُونٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة: ١٧-١٨]، وَقَالَ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ٤٥﴾ [الصافات: ٤٥-٤٦].

* وَأَقْبَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا:

- * قالوا: إنا كنا في الدنيا ونحن بين أهلنا وجلين خائفين من سوء المصير.
 - * فأكرمنا الله وتفضل علينا برحمته وتوفيقه في الدنيا، ووقانا في الآخرة، وأجارنا من عذاب النار ولفحها ووهجها.
 - * وقالوا: إِنَّا كُنَّا فِي الدُّنْيَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَنَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، فَاسْتَجَابَ لَنَا وَأَعْطَانَا سؤْلَنَا.
 - * إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ.
- د. الهدايات المستنبطة من المقطع:**
- * فضل التقوى وكرامة أهله.
 - * مشروعية الدعاء بكلمة (هنيئا) لمن أكل أو شرب اتسَاء بأهل الجنة^(١).
 - * الله سبحانه يرفع ذرية المؤمنين إليهم في الجنة، وإن كانوا دونهم في العمل، لتقرّ عيونهم وتطيب نفوسهم، بشرط كونهم مؤمنين.
 - * يجمع الله للمؤمنين في الجنة كل أنواع السرور؛ بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم^(٢).
 - * الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة، وليست ثمنًا لها؛ لأن الجنة أغلى من عمل الإنسان، وإنما العمل الصالح يزكي النفس، فيؤهل صاحبها لدخول الجنة^(٣).
 - * الخوف الشديد من الله تعالى في الدنيا سبب للسلامة في الآخرة.
 - * أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١٧٦/٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري ١١٩٢/٤.

(٣) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١٧٦/٥، ١٧٧.

- السجن إلى الجنة، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم^(١).
- * المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه لا يفكه إلا الله، فمن استطاع أن يفك رقبتة فليفعل، وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان.
- * الدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه طريق إلى الجنة، والفوز بالرحمة والغفران.
- * الله تعالى هو البر الواسع الجود؛ الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة؛ لأنه لا ينقصه إعطاء ولا يزيده منع، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له ليوسع له في العقبي، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شيء من قضاائه^(٢).

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٢٨/٢١٩.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/٢٠.

المقطع الثالث

مزاعم باطلة

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْنٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُهَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْتَأْذِنُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ يُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ [الطور: ٢٩-٤٦].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تظهر علاقة هذا المقطع بمحور السورة بصورة جلية في كون هذا المقطع يشن حملة قوية على معتقدات المبطلين، ويرد بالحجج الدامغة على مزاعمهم، وكل ما يدور في أذهانهم من شبهات، وما يحملونه من تصورات حول حقيقة الألوهية، وقد شرعت آياته في تتبع أقوالهم والكشف عن فسادها بأسلوب الإضراب والانتقال من قول إلى قول، حتى لكأنها تطاردهم وتحاصرهم، وتسد عليهم كل منفذ للفرار، وتكر على طعونهم قولاً بعد قول، وتجردهم من كل شبهة يحتجون بها^(١).

ب. المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

افتتح الأول من هذه بالقسم على وقوع العذاب بالكافرين، ثم ذكرت بعضاً من أحوال المعذبين وفي المقطع الثاني بينت الآيات ما أعدده الله للمتقين في جنات النعيم، وفي هذا المقطع

(١) من موضوعات القرآن الكريم، عبد الحميد طههاز ٩ بتصرف.

أتبعت الآيات بأمر رسوله ﷺ بالتذكير، إنذاراً للكافرين وتبشيراً للمؤمنين، وختمت السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ^(١).

ج. المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع ثلاث فقرات تسلسلت في تناغم بديع:

الأولى: الأمر بمتابعة التذكير والموعظة، وعدم الاكتراث بمكائد المبطلين، والرد على شبههم حول الرسول ومصدر القرآن.

الثانية: الرد على شبه المبطلين في إنكار البعث، وإثبات وجود الخالق وتوحيده في الأنفس والآفاق.

الثالثة: الدعوة إلى الإعراض عن الكفار المكابرين.

* فذكر أيها النبي قومك بالقرآن وعظهم به فلست بإنعام الله عليك بالنبوة والرسالة كاهنا تخبر بالغيب بضرب من الظن، ولا مجنوناً تخلط القول وتقول بما لا يفهم عنك ولا يعقل، إنما تنطق بالوحي.

ثم تنكر الآيات على المشركين المبطلين مزاعمهم الباطلة تجاه الرسول:

* بل أيقولون هو شاعر نتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك كما هلك من تقدمه من الشعراء.

* قل لهم أيها الرسول: انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكى، وستعلمون لمن تكون العاقبة الحسنة، والظفر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٤٨.

- * كيف تأمرهم عقولهم السخيفة السفهية بهذا المقال المتناقض في حق الرسول فيقولون هو كاهن ومجنون وشاعر؟ كيف يقولون هذا القول وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس؟.
- * بل هم قوم تجاوزوا الحد في الطغيان والعناد والمكابرة مع ظهور الحق، فطغيانهم هو الذي يأمرهم بما يقولون؛ لأنه قد تأصل فيهم وخالط نفوسهم فدفعهم إلى تلك الأقوال.
- * أتقولون إن محمداً ﷺ اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه؟.
- * بل إن كفركم وعدم إيمانكم بالله وتصديقكم بما جاء به رسوله ﷺ هو الذي حملكم على هذه الأقوال المتناقضة، والمطاعن المفتراة، فالقرآن وحيٌّ من عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَيْنًا بِعَاصِرِ الْأَفَاقِ لَآخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥].
- * إن صدقوا في قولهم: إن محمداً ﷺ تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه، فليأتوا بمثل هذا القرآن في نظمه وجودة سبكه وبديع أسلوبه وجمال بيانه، فهو كلام عربي، وهم أساطين البيان، وأرباب البلاغة، وفرسان الفصاحة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٣﴾﴾ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ لَكُمْ فَاَعْلَمُوْا اِنَّمَا اُنزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ وَاَنْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَهَلْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤].
- * كيف ينكرون الخالق الموجد!! فهل وجد هؤلاء من غير موجد، وخلقوا من غير خالق أم هم أوجدوا أنفسهم؟.
- * لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم خلقوا أنفسهم.
- * بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، فمن قدر على البدء فهو قادر على الإعادة^(١).

(١) العقل والمنطق ينفيان أنهم خلقوا من غير شيء كما ينفيان أنهم خلقوا أنفسهم، ويؤكدان وجود الخالق=

* ما خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون بأن الله واحد لا شريك له، فإذا سئلوا: مَنْ خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بما قالوا، وإلا لما أعرضوا عن عبادته تعالى وأنكروا البعث وكذبوا بنبوّة محمد.

* هل بيدهم مفاتيح الخزائن فيحاسبون الخلائق؛ فيعطون من شاؤوا ويحرمون من شاؤوا!! بل أهم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على مشيئتهم ويتصرفوا في الملك؟ ليس الأمر كذلك بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

* ألهم مصعد ممدود إلى السماء يصعدون به إلى الملأ الأعلى حتى يعلموا خبر السماء، وما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، ويعلقون بها أمانيتهم وأطماعهم الباطلة؟

* فإن كانوا كما يدعون ذلك فليأت كل مستمع منهم بحجة تبين أنهم على الحق، وأنّ محمداً ﷺ ما أتى بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه، أو تبين أنه على وشك الهلاك.

* أتجعلون لله تعالى البنات مع أنفتكم منهن وتحصون أنفسكم بالبنين؟، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۗ﴾ (النحل: ٥٧)، وقال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ﴾ (النجم: ٢١-٢٢).

* فمن كان هذا عقله ورأيه فلا يعد من العقلاء ولا يستبعد منه إنكار البعث.

* هل تسألهم أجراً أيها الرسول على تبليغ الرسالة؟، فهم بسبب ذلك الأجر والغرم الثقيل

=العظيم خلقهم وأنشأهم من العدم، ولا بد لكل عاقل يسمع هذه الحجج الواضحة أن يستجيب لداعي الإيمان، ويقر بوجود الخالق الواحد الأحد الديان؛ عن جبير بن مطعم عن أبيه ﷺ قال: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۗ﴾ (النجم: ٢١) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۗ﴾ (النجم: ٢٢) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۗ﴾ (النجم: ٢٣) كاد قلبي أن يطير). صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٥٤).

الذي أوجبه عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك، ولا يسلمون، فما كلفتهم شيئاً يعطونه إياك فيكون ذلك سبباً لإعراضهم عنك تخلصاً من أداء ما يطلب منهم.

* أيدعون أن عندهم علم الغيب وما في اللوح المحفوظ حتى يعلموا أن ما يخبرهم به الرسول من أمور الآخرة باطل؟ فلذلك يكتبون ما يجدونه ويروونه للناس عن معرفة ويقين.

* ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله.

* أيريدون مكرأ برسول الله ﷺ فيهلكونه بذلك المكر؟ فالذين كفروا هم الممكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقد قتلهم الله في يوم بدر وأذلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم.

* أيدعون أن لهم إلهاً غير الله يعبدونه ويحفظهم ويرزقهم وينصرهم؟، فيا لها من مقالة شنعاء!! تنزه الله وتقدس عن شركهم به، وعن الذين يجعلونهم شركاء له من أصنام وأوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

ثم يخبر تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للمحسوس.

* وإن يرى هؤلاء قطعة من نار السماء تسقط عليهم ويعذبون بها لما صدقوا، ولما أيقنوا بل يقولون: هذا سحاب متراكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٤] لقالوا إنما سكرت أبصرنا بل نحن قوم مسحورون ﴿١٥﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

* فدعهم أيها الرسول يجحدون ويعاندون ويتنادون في غيهم وضلالهم حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب - يوم القيامة - الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم^(١).

(١) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [١٥]) [الطور: ٤٥] في هذا اليوم ثلاثة أقوال:

- * يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا، ولا يدفع عنهم شيئاً من العذاب في الآخرة لا قليلاً ولا كثيراً، ولا ناصر ينصرهم، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَىٰ ۗ ۚ ﴾ [٣٨] فَإِنْ كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُوا ۗ ﴿٣٩﴾ [المرسلات: ٣٨-٣٩].
- * وإنَّ للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي وكيد النبي عذاباً في الدار الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال: ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزَّهُمْ وَيُنصِّرُهُمْ عَلَيْهُمْ وَيَشَفِّ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤].
- * غير أن الكثير من هؤلاء لا علم لهم أنا سنعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، فأقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب بل إذا جُلِّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.
- * فاصبر أيها الرسول على أذاهم ولا تبال بهم إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، ويقع بهم العذاب الذي وعدناهم به، فإنك بمرأى منا وفي حفظنا وتحت كلاءتنا.
- * ونزّه ربك عما لا يليق به؛ تنزيها مصحوباً بالحمد حين تقوم من كل مجلس جلسته وحين تقوم إلى الصلاة في الليل.
- * واذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، وفي وقت إدبار النجوم، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

= الأول: أنه يوم موتهم.

والثاني: يوم النفخة الأولى.

والثالث: يوم القيامة. وقد زعم بعضهم: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وإذا كان معنى: ﴿ قَدَرَهُمْ ﴾ الوعيد لم يقع النسخ. نواسخ القرآن، ٢٠٠.

د. الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * في دوام التذكير حكمة ربانية فقد يشرح الله به صدور بعض المكذبين للإيمان فيرجعون عن غيهم وتكذيبهم، ويزداد المصدّقون إيماناً مع إيمانهم.
- * وصف المشركين الرسول ﷺ بأوصاف متناقضة دليل على سفاهتهم وذهاب عقولهم؛ لأن العقل السليم لا يوقع صاحبه في التناقض.
- * الكهانة محرمة لأنها من عمل الشيطان.
- * عجز المشركين عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه من عند الله، وأن محمداً ﷺ مرسل من عند الله.
- * الطغيان والاستكبار هما أصل كل شر ومصدر كل بلاء وضلال وفتنة.
- * إنفراده تعالى بالخلق دليل على وحدانيته وألوهيته.
- * لا يعلم الغيب إلا الله.
- * عدم مشروعية أخذ الأجر على إبلاغ الدعوة.
- * تسلية النبي ﷺ في القرآن هي زاد للدعاة من بعده.
- * على العبد أن يتجنب الظلم فإن له عواقب وخيمة، فصاحبه يلقي العذاب في الدنيا قبل الآخرة.
- * الصبر دأب الأنبياء وهو زاد الدعاة إلى الله تعالى.
- * المكر السيئ لا يعود إلا على أهله.
- * الله عز وجل حارس نبيه ﷺ وحافظه، ولن يصل إليه أذى أحد من البشر.
- * على المسلم أن يغتنم أوقات الرغائب بالطاعات، من ذكر وصلاة ودعاء.
- * مشروعية الذكر والتسبيح في كل الأوقات، أثناء الليل وأطراف النهار، وفي كل وقت وموطن ومجلس.

سورة النجم

إثبات الوحي والرسالة

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت هذه السورة (النجم) لورود قوله تعالى في مطلعها: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾.

ب. فضائل السورة:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف^(١).

ج. مكان نزول السورة:

سورة (النجم) مكية، قال القرطبي في قول الجميع^(٢).

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة اثنتان وستون آية في العد الكوفي، وإحدى وستون في عدد الباقيين.

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٦٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٨١. وقال السيوطي: ومثال ما يشبه تنزيل المدني في السور المكية قوله في النجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم/ ٣٢]؛ فإن الفواحش: كل ذنب فيه حد، والكبائر: كل ذنب عاقبته النار، واللمم: ما بين الحدين من الذنوب، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه. الإقتان في علوم القرآن ١/ ٤٩، ٥٠.

اختلافها ثلاث آيات:

الأولى: ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم/ ٢٨] للكوفي.

الثانية: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ [النجم/ ٢٩] للشامي.

الثالثة: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۗ ﴾ [النجم/ ٢٩] أسقطها الشامي وحده^(١).

هـ. محور السورة:

موضوع سورة (النجم) هو موضوع السور المكية المرتكز على العقيدة بيان بموضوعاتها الرئيسية: الوحي، والوحدانية، والآخرة.

وتتناول السورة هذا الموضوع من زاوية معينة تتجه فيها إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته، ووهن عقيدة الشرك وتهاافت أساسها الموهون، وهذا هو محور هذه السورة وموضوعها الرئيس، ويؤيد ذلك ما يلي:

أولاً: مقدمة السورة التي استهدفت بيان حقيقة الوحي وطبيعته، ووصفت مشهدين من مشاهده، بما يثبت صحته وواقعيته، ويؤكد تلقي الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام تلقي رؤية وتمكن ودقة، واطلاعه على آيات ربه الكبرى.

ثانياً: حديث السورة عن آلهة المشركين المدعاة: اللات والعزى ومناة، والشعري، وأوهامهم عن الملائكة، وأساطيرهم حول بنوتها لله، واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبيت ورؤية ويقين.

ثالثاً: ما ورد في السورة من آيات تلقن الرسول ﷺ الإعراض عمَّن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها، ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق.

رابعاً: خاتمة السورة التي تستعرض أصول العقيدة الإسلامية منذ أقدم الرسالات.

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٣.

وكل ما تقدم يعطي دلالة واضحة أن هذا التشابك والتناغم بين آيات السورة ومقاطعها يفيد أن محورها هو: (إثبات الوحي والرسالة).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تقدم معنا أن محور هذه السورة هو إثبات الوحي والرسالة المحمدية، واسم هذه السورة يتناسب مع هذا المحور تناسباً عجبياً، ويبرز ذلك من خلال ملاحظة افتتاحية السورة بالقسم بالنجم؛ لأن هذا القسم مسوق لإثبات الوحي بالقرآن، وأنه منزل من السماء، فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويته مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير بإنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله، وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس...^(١).

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تناسب فاتحة هذه السورة مع خاتمتها من كون هذه السورة فتحت بإثبات الوحي والرسالة، وختمت ببيان الأصول التي تبنى عليه تلك الرسالة.

٣. المناسبة بين خاتمة سورة الطور وافتتاحية سورة النجم:

تناسب خاتمة سورة الطور مع فاتحة سورة النجم من وجهين:

الوجه الأول: ختمت سورة (الطور) بالحديث عن النجوم، قال الله تعالى: ﴿وَادْبَرْ
النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩]، وبدئت سورة (النجم) بالقسم بالنجم، قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ
﴿١﴾﴾ [النجم: ١].

الوجه الثاني: أنه تعالى حكى في آخر سورة (الطور) شبهة للكافرين، وهي قولهم: إنه ﷺ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/٩٩.

اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر، وقالوا عنه ﷺ بأنه كاهن ومجنون، وأقسم الله في أول (النجم) مزكياً رسوله أنه ما ضلّ، وأن ما يأتي به ﷺ هو وحي يوحى من عند الله تعالى.

٤. المناسبة بين مضمون سورتي النجم والطور:

تشابك هاتان السورتان وتشابهان في قضايا كثيرة بحيث تبدو كأنهما سورة واحدة مع احتفاظ كل منها بشخصيتها وسماها المميزة لها عن غيرها، ومن أهم الجوانب التي ظهرت لنا، ونراها جديرة بالكتابة هنا:

أولاً: أنها مكيتان، وتحويان خصائص القرآن المكي الفنية والأسلوبية وضوابطه الموضوعية.

ثانياً: افتتاح كل منهما بالقسم بإثبات أصل من أصول الإيمان، ففي (الطور) إثبات البعث والجزاء وأن القرآن من عند الله، ورد مطاعن المشركين حول الرسول ﷺ، وفي (النجم) إثبات الوحي وتزكية الرسول ﷺ الذي جاء به فزكت الآيات فؤاد النبي ﷺ، وسمعه، وبصره، وعقله.

ثالثاً: في كليتهما حديث عن موقف أهل الشرك والرد على بعض شبهاتهم؛ وبخاصة في تصورهم الفاسد حول الملائكة، وجعلهم بنات الله تعالى، وقد أفاضت سورة (النجم) في تسفيه هذا الادعاء وبيان بطلانه، قال تعالى: ﴿الْكُفْرُ وَلَهُ الْأَنْفُ﴾ (النجم: ٢١).

رابعاً: أوضحت سورة (الطور) أن المؤمن الصالح تلحقه ذريته في نفس النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١) مع نفعهم بعمل آبائهم، وفي حق الكفار أوضحت آيات سورة (النجم) فردية التبعة، ودقة الحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٣) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ (النجم: ٣٩-٤١).

خامساً: ورد في سورة (الطور) ذكر بعض صفات أهل التقوى التي تحلوا بها في الدنيا

وأهلتهم لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْتَفِينَ فِي جَنَّتِ وَيَسْمِعِ ﴿١٧﴾ فَكَيْهِنَ بِمَا ءَانْتَهُم رُبُّهُمْ وَوَقَّهْمَ رُبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُّوا وَأَشْرَبُوا هُنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُورٍ مَّصْفُوفَةً وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور: ١٧ - ٢٠]، وورد في سورة (النجم) بعض صفات أهل الإحسان التي أهلتهم لنيل الحسنى وهي الجنة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣١ - ٣٢].

سادساً: في سورة (الطور) بيان لوظيفة الرسول ﷺ وهي الإنذار، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢٩]، وفي (النجم) بيان أن الإنذار النبوي كسابقه من النذر، قال تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٦٥].

سابعاً: في سورتي الطور والنجم نقاش طويل وحجاج بليغ للكافرين، ودحض لجملة كبيرة من ضلالاتهم وشبههم، وفي (الطور) في معرض حجاج المشركين قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، وفي (النجم) ذكر الخالق، ومادة الخلق، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٥٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٦].

ثامناً: في (الطور) أمر النبي ﷺ بالصبر على ما يلحقه من أذى المشركين، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]، وفي (النجم) أمره بالإعراض عنهم، قال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٢٩].

تاسعاً: وصف الله تعالى القرآن في السورتين بالحديث؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَفِئْتِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٥٩].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

إثبات الوحي وتزكية من أنزل عليه

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتَىٰ ۝٣ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ ﴾ [النجم / ١ - ١٨].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم معنا أن محور هذه السورة هو إثبات الوحي والرسالة، وهذا المقطع الافتتاحي من السورة يتحدث عن صدق الرسول ﷺ فيما بلغه عن ربه تعالى، وأنه منزه عما ادعاه المشركون من أن محمداً ﷺ اختلق القرآن، ويثبت أن القرآن وحي من عند الله بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتفيض الآيات في بيان قرب نزول جبريل عليه السلام بالوحي من محمد ﷺ زيادةً في تقرير أن القرآن موحي من عنده تعالى، وأن الوحي واقع لا محالة.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: تأكيد استقامة النبي ﷺ على الحق.

والثانية: لقاء أمين الوحي عليه السلام بالنبي ﷺ.

والثالثة: تحقيق الوحي وتأكيد ثبوته.

- * أُقْسِمُ بِالنَّجْمِ إِذَا سَقَطَ مِنْ عَلُوِّ عِنْدَمَا يَمِيلُ لِلْغُرُوبِ^(١).
- ثم يأتي جواب القسم:
- * ما مال صاحبكم محمد ﷺ عن طريق الهداية والحق، بل هو راشد غير ضال، مهتد غير غاوي، مبلغ عن الحق غير واهم ولا مفترٍ ولا مبتدع، بل هو عالم به متبع له^(٢).
- * ولا ينطق عن هواه فيما يبلغكم به من الرسالة.
- * إنما ينطق ﷺ بوحي من الله عز وجل أوحاه إليه، واصطفاه الله لتبليغه، ويبلغ ما أمر به كاملاً من غير زيادة ولا نقصان.
- * لم يعلم صاحبكم محمداً أحدٌ من الناس بل علمه جبريل عليه السلام الشديد القوي، فهو الذي نزل بالقرآن على قلبه، وقرأه عليه، وبيّنه له، ثم بلغه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].
- * وجبريل عليه السلام ﷺ أمين الوحي صاحب عقل ورأي، ومثانة دين، ومنظر حسن

(١) اختلف المفسرون في المراد بالنجم في قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ على أقوال أهمها: الأول: أنها النجوم والتعريف للجنس. والثاني: أنه الثريا. والثالث: أنه النبات الذي لا ساق له كما في قوله: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن/ ٦]. والرابع: أنه القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفرقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق: المنجم. والخامس: أنها نجوم السماء إذا سقطت يوم القيامة. والسادس: النجوم التي ترحم بها الشياطين.

ويبدو أن المعنى المناسب لمقام الآية هو القول الأول؛ وذلك لمناسبة القسم بالنجم لما سبقت له الآية، فالقرآن وحي الله النازل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويه مشابهة تمثيلية... التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩٩/٢٧..

(٢) في إثارة التعبير عنه ﷺ بوصف: ﴿صَاحِبِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم/ ٢] تعريض بأنهم أهل بيتان؛ إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة اطلاعهم على أحواله وشؤونهم، إذ هو بينهم في بلد لا تتعذر فيه إحاطة علم أهله بحال واحد معين مقصود بينهم. التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠٠/٢٧.

استوى في مكانه في السماء وظهر في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق.

* ثم اقترب جبريل عليه السلام من محمد صلى الله عليه وسلم، وزاد في القرب منه، فكان على مقدار قوسين أو أقل.

* فأوحى الله بواسطة جبريل عليه السلام إلى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوحاه إليه من أوامره تعالى، والشرع المبين.

* ما كذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام الحقيقية^(١).

* أتكذّبونه وتجادلونه - يا معشر قريش - على ما رأى في ليلة الإسراء والمعراج.

* ولقد رأى محمدٌ جبريل عليه السلام في صورته الملائكية مرةً أخرى - غير تلك التي كانت ما بين

(١) يشور خلاف قوي بين العلماء عند تفسير قوله: ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم/ ١١]، حول رؤية محمد ربه، فقال بعض العلماء إن المراد بذلك رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه ليلة الإسراء، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه في الدنيا.. والصحيح أن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا، ومرة ثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن القيم: (وأما قوله في سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [النجم/ ٨]، فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُ سَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم/ ٥]، وهو جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ [النجم/ ٦] وهو بالآفق الأعلى ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [النجم/ ٦ - ٨]، فالضامات كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوي، وهو ذو المِرَّة، أي القوة، وهو الذي استوى بالآفق الأعلى، وهو الذي دنا فتدلى، فكان من محمد صلى الله عليه وسلم قدر قوسين أو أدنى، فأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه، ولا تعرّض في سورة النجم لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، وهذا هو جبريل، رآه محمد صلى الله عليه وسلم على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى. والله أعلم. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ٣/ ٣١، ٣٢.

السماء والأرض - ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى في السماء السابعة، التي ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحد ما وراءها إلا الله عز وجل، كما قال ﷺ: (ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقتها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها كأذان الفيلة)^(١).

- * وعند سدرة المنتهى جنة المأوى التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين.
- * رآه حين يغشى سدرة المنتهى من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.
- * ما مال بصر محمد ﷺ يمنة ولا يسره، ولا ارتفع فوق الحد الذي حدد له.
- * لقد رأى محمد ﷺ آيات عظاماً، وعجائب من ملكوت الله تبارك وتعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * للخالق تعالى أن يقسم بها شاء، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.
- * ظهور النجوم وغيابها في وقت معين يدل على أنها مخلوقة مقهورة محكومة لنظام معين، لا تستحق أن تعبد وتعظم^(٢).
- * بيان فضل النبي ﷺ حيث إن الله تعالى قال في حق أينا آدم ﷺ: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: ١٢١]، وقال في حق محمد ﷺ: ﴿ مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم: ٢].
- * استدل علماء الأصول بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَيِّتَ ﴾ [النجم: ٤] على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد استدلوا بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧].
- ولا منافاة بين هذه الآيات. قال الشنقيطي رحمه الله: والجواب عن هذا من وجهين:

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٨٨٧).

(٢) من موضوعات سور القرآن الكريم، عبد الحميد طههاز ١٥.

الأول: أن معنى قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾ [النجم: ٣] أي في كل ما يبلغه عن الله، ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي كل ما يبلغه عن الله ﴿فَأَذِّن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ من الله؛ لأنه ﷺ لا يقول على الله شيئاً إلا بوحى منه، فالآية رد على الكفار حيث قالوا: إن النبي ﷺ افترى هذا القرآن..

الوجه الثاني: أنه ﷺ إن اجتهد فإنه إنما يجتهد بوحى من الله يأذن له به في ذلك الاجتهاد، وعليه فاجتهاده ﷺ بوحى فلا منافاة.

ويدل لهذا الوجه أن اجتهاده ﷺ في الإذن للمتخلفين عن غزوة تبوك أذن الله له فيه حيث قال: ﴿فَأَذِّن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، فلما أذن ﷺ للمنافقين عاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فالاجتهاد في الحقيقة إنما هو الإذن قبل التبين، لا في مطلق الإذن للنص عليه...

والتحقيق في هذه المسألة أنه ﷺ ربما فعل بعض المسائل من غير وحي في خصوصه، كإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم، وكأسره لأسرى بدر، وكأمره بترك تأبير النخل... إلى غير ذلك.

وأن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] لا إشكال فيه، لأن النبي ﷺ لا ينطق بشيء من أجل الهوى، ولا يتكلم بالهوى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] يعني أن كل ما يبلغه ﷺ عن الله فهو وحي من الله لا بهوى ولا بكذب ولا افتراء. والعلم عند الله تعالى^(١).

* السنة المقبولة كالوحي المنزل في وجوب العمل.

* في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] دليل على كمال مباشرة جبريل ﷺ

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ملحق بكتاب: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣٤٨/٥. بتصرف.

للسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينهما.

* وصف الله تعالى وثناؤه على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ٧١] دليل على أنه ﷺ كان في غاية الأدب مع ربه، فما جاوز ما أمره الله به، ولا سأل فوق ما أعطي.

* الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة، وتأوي إليها أرواح الملائكة والشهداء المتقين.

المقطع الثاني

الظن لا يغني من الحق شيئاً

قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّدَّةَ وَالْعُرْيَى ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ النَّائِلَةَ الْآخِرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَعْبَى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ * وَكَرَّ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْبَى شَفَعْنَهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْبِيَةً الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِهَاءِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفَرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُزِّ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْشَأْتُمْ أَجْنَةً فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْفَعَى ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ١٩ - ٣٢].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يشن هجوماً شديداً على معبودات المشركين، ويندد بالشرك، ويسفه أحلام المشركين لعبادتهم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وأن هؤلاء لا يتبعون في عبادة غير الله إلا ظنونهم الباطلة، وهذا له صلة كبيرة بمحور السورة الذي يقرر ثبوت النبوة والرسالة.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى مظاهر قدرته وعظمته وعلمه وحكمته في الملكوت الأعلى وجبريل عليه السلام، وسدرة المنتهى، وما غشاها من نور الله، وما أرى رسوله ﷺ من الآيات الكبرى التي تدل على ثبوت الوحي والرسالة المحمدية، خاطب تعالى المشركين، فانتقل من تقرير النبوة إلى تقرير الربانية والألوهية.

المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: بيان عدم جدوى عبادة الأصنام؛ اللات والعزى ومناة^(١).

(١) قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وفسرت بأنها رجل كان يلت للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وكذا العزى اشتقوها من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: (لنا العزى ولا عزى لكم)، فقال رسول الله ﷺ: (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٠٤٣). وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧١.

الثانية: توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله.

الثالثة: جزاء المحسنين وبيان أوصافهم.

* أخبروني هل هذه الأصنام صالحة لأن تعبد؟ وهل وجدتم فيها من صفات الألوهية من الإيجاد والإعدام والنفع والضرر؟.

* أتجعلون له تعالى ولدا، وتجعلون هذا الولد أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكران؟ على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فكيف تنسبون إليه النقص، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل.

* لك قسمة جائزة غير مستوية ناقصة غير تامة؛ لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وأثرتم أنفسكم بما ترضون لها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٨٩-٩٠].

* ما اللات والعزى ومناة إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم، ولم ينزل الله بها وحيا يأذن بعبادتها، وهي لا تعدو كونها أسماء لآلهة لا وجود لها، ولا حقيقة في الواقع، فلا معبود بحق في الوجود إلا إله هو الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَعَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَّآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

* هؤلاء المشركون ما يتبعون في عبادة هذه الأوثان إلا الظنون والأوهام، وما تشبهه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان.

* كيف يصنعون ذلك؟ وقد جاءهم من ربهم البيان الساطع والبرهان القاطع على أن تلك الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار.

* ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام.

* فالملك كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء؛ لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهون، فهو يعطي من اتبع هداه وترك هواه.

- * وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبئين في السموات لا تغنى شفاعتهم، مع علو منزلتهم، ورفعة شأنهم.
- * ولا يشفعون لأحد إلا من بعد أن يأذن الله تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].
- فإذا كان هذا في حق الملائكة الكرام المقربين، فكيف ترجون أيها الجهلة السفهاء شفاعاة الأصنام عند الله تعالى.
- * إِنَّ الَّذِينَ لَا يَصْدُقُونَ بِالْبَعْثِ وَالْجِزَاءِ لِيُزْعَمُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ، وَأَنَّهم بنات الله، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِيهِنَّ آلَ بَنَاتٍ لَّهُنَّ الْكُتُوبُ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٠].
- * هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لا علم لهم بما يقولون، فلم يشهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم من الله حجة ولا برهان، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكُنَبُ سَهَدَتُهُمْ وَسُئِلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩].
- * ما يتبع هؤلاء في أقوالهم الباطلة إلا الظنون والأوهام، وإن الظن لا يجدي شيئاً، ولا يقوم مقام الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦].
- * فأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المستكبرين عن الإيمان واتباع القرآن واهجرهم، وإنما أكثر همهم ومبلغ علمهم الدنيا، وما فيها من المتع الزائل واللذة الفانية، بحيث صارت الدنيا منتهى همهم وقصارى سعيهم، ولا تزيدهم الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].
- * ذلك ما انتهى إليه علمهم وبلغه إدراكهم أن يؤثروا الحياة الدنيا على الآخرة، قال تعالى:

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

* فلا تتعب نفسك في دعوة هؤلاء وسلّم الأمر لله تعالى، فهو العليم بأحوال الفريقين؛ المصرين على الضلال، والمتمسكين بالهدى، وهو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي مَنْ يشاء ويضل مَنْ يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره.

* كل ما في السماوات والأرض ملك لله وحده، وتحت قبضته وسلطانه، وله التصرف فيه خلقاً وملكاً وتديراً، فهو العليم الذي لا تخفى عليه خافية، وسيجزي - بحسب علمه المحيط بكل شيء - كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر؛ فالسيء بما صنعه واقترفه، والمحسن بالإحسان ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ويمتعه بنعيم لا يخاطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

* المحسنون الذين يجزيهم الله بالحسنى هم الذين يتعدون عما عظم شأنه من كبائر الذنوب والمعاصي؛ كالشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنى وغيرها من الكبائر ولا تقع منهم إلا صغائرها، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرطوا في جنب الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ جَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١].

* وربكم رحمة وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها؛ فيغفر الصغائر ما اجتنبت الكبائر، ويغفر ما يشاء من الذنوب لمن تاب توبة صادقة، وندم على ذنوبه والإخبات إلى الله وتجافي عن الذنوب، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢].

* الله تعالى هو البصير بأحوالكم، العليم بأقوالكم وأفعالكم قبل خلقكم؛ مذ أنشأ أبابكم

من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر قسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسير. وحين كنتم أجنة في بطون أمهاتكم كتبت الملائكة الموكلة بكم أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم وأشقياء أم سعداء.

* فإذا علمتم هذا فلا تتنوا على أنفسكم وتصفوها بالطهارة من المعاصي، أو بزكاة العمل وزيادة الخير، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته، فهو العليم بمن اتقى المعاصي، وبمن اجترح السيئات، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٩]، وعن زينب بنت أبي سلمة أنها سُميت (برة) فقال ﷺ: (لا تركوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم، فقالوا بم نسئها؟ قال: سئوها زينب)^(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * الله تعالى هو وحده الأحق بالعبادة، فهو السميع البصير الضار النافع، أما اللات والعزى ومناة فهي أسماء فارغة من المعنى، سبأها المشركون هم وآباؤهم الضلال فلا تستحق العبادة.
- * كل أمر ما أنزل الله به من سلطان فهو باطل فاسد لا يتخذ ديناً.
- * إذا كان ما عليه المشركون من العبادة مبنياً على اتباع الظن الفاسد والأمانى الباطلة، فإن البقاء عليه من أظلم الظلم للنفس.
- * الملائكة الكرام المقربون منه تعالى لا تنفع شفاعتهم إلا بشرطين:
الأول: أن يأذن الله تعالى لهم في الشفاعة.
والثاني: رضی الله تعالى عن المشفوع له.
- * قول المشركين: (الملائكة بنات الله) لا يدل عليه علم مأخوذ عن الله أو عن رسوله، ولم تدل عليه الفطر والعقول.

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٦٤٢)، سنن أبي داود، الحديث رقم (٤٩٥٣).

- * الله تعالى منزّه عن الولد والصاحبة، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
- * خلق الله الملائكة الكرام لخدمته، وهم كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].
- * الظن لا يغنى من الحق شيئا، والحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة.
- * المؤمنون بالآخرة همهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم يأخذونها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.
- * الله تعالى مالك السماوات والأرض، وهو الغني عما سواه يحكم بين خلقه بالعدل.
- * الله تعالى هو العليم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى فيجازي كلا بما يستحقه.
- * المحسنون هم الذين لا يرتكبون كبائر الإثم - وهو الشرك - والفواحش، كالزنى، وكل ذنب فيه الحد.
- * صفات الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه تكفر بالصلاة وغيرها من الحسنات، قال تعالى: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ آيَلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]^(١).

(١) اختلف المفسرون في الاستثناء المذكور في قوله ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] على قولين:

الأول: أنه منقطع، وهو قول جمهور المفسرين، ولكن أقوالهم تباينت في المراد باللمم على هذا التفسير: فقيل: اللمم هي صفات الذنوب. وقيل: اللمم كل ما دون الزنى، من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدركه ذلك لا محالة؛ فزنى العينين النظر، وزنى اللسان المنطق، والنفس تمنى =

- * الله تعالى واسع المغفرة من الكبائر والصغائر لمن تاب من ذنبه واستغفر.
- * الله تعالى عليم بجميع أحوال خلقه وأقوالهم وأفعالهم، فليس لأحد أن يزكي نفسه بل الله هو المزكي.
- * النهي عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بذلك الرياء والإعجاب بالعمل، وإلا فلا بأس بها، ولا تكون منهيًا عنها.

=وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه". صحيح البخاري، الحديث رقم (٦٦١٢)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٦٥٧).

وقيل: اللّم أن يذنب الرجل الذنب ثم يتوب منه ولا يعود إليه، قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَّا
وقيل: اللّم الذنب بين الحدين وهو ما لم يأت عليه حد في الدنيا ولا توعده عليه بعذاب في الآخرة، وتكفّره الصلوات الخمس. وقيل: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به...

ثانياً: أن الاستثناء متصل، واللم هو أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ وَكَمْ يُصِرُّوْنَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلِ الْعَمَلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، فضمن لهم المغفرة كما قال عقيب اللّم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ ﴾ [النجم: ٣٢] فعلى هذا التأويل يكون ﴿ إِلَّا اللَّمَّ ﴾ استثناء متصلاً. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي ١٠٦/٩-١٠٨.

المقطع الثالث

ذم المشركين، وبيان وحدة رسالة التوحيد

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُ ﴿٣٨﴾ وَآن لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْتَ هُوَ آمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْتَ هُوَ أَتَقَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ السَّمْعَى ﴿٤٩﴾ وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَنُوحًا مِمَّا أَتَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّتِهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفِكَهَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَنَفْسُهَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءَ آيَاتِكَ نَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْآرِيفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْتَجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٣٣ - ٦٢].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع له مناسبة مع محور هذه السورة المتعلق بإثبات الوحي والرسالة؛ فهو يبين أن وحي الله إلى رسوله ﷺ كوحيه إلى سائر الرسل، وأن القرآن من جنس ما أنزل على تلك الرسل، ثم أنذر بقرب الساعة، وأنكر على الكافرين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به، وعدم خشوعهم وإعراضهم وغفلتهم، ثم أمر بالسجود لله تعالى والعبادة التي تبعد الإنسان عن غوائل الشرك وتوصله إلى الله تعالى.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لما ذكر الله سبحانه تعالى في المقطع السابق سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، وميز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعاً خاصاً من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمة ببيان ما حل بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار، تذكيراً للمشركين بانتقام الله من

أعدائه المكذبين لرسوله^(١).

المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: التحذير من حال المعطي المكدي.

الثانية: بيان ما اشتملت عليه صحف إبراهيم وموسى من العلم.

الثالثة: التحذير من التكذيب بآيات الله ونعمه والدعوة إلى الخضوع والسجود له تعالى اعترافاً بربوبيته وألوهيته وآلائه.

* أعلمت أيها الرسول شأن هذا الكافر الذي أدبر عن الإيمان بالله وعن طاعته، وعن دينه وأعطى صاحبه قليلاً من ماله ثم منعه فلم يعطه فبخل عليه^(٢).

* أئند هذا الذي أئرض عن الإيمان، وأمسك يده خشية الإنفاق علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى أمسك عن معرفه فهو يرى ذلك عياناً؟ ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

* أم لم يخبر هذا المتولي عن طاعة الله المعطي قليلاً المكدي بها في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، ولا بها في صحف إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨)

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٥٩.

(٢) قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ففعل فأعطى الذي عاتبه على ذلك بعض ما كان ضمن له ثم بخل عليه ومنعه تمام ما ضمن له. جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧١، أسباب النزول، الواحدي ٣١٥، ولم يذكر هذا السبب ابن كثير في تفسيره.

صُفِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

* إبراهيم الطيب الذي تمَّ ما أمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].
في تلك الصحف المنزلة:

* لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، ولا يؤخذ أحد بجريرة غيره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

* ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، فكما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

* إن عمل الإنسان سيعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه، فيجزى بعمله الجزاء الأكمل الأتم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَاللَّهْدَىٰ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

* والله تعالى إليه المرجع والمآب فيعاقب من يشاء ويرحم من يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ [العلق: ٨].

* والله تعالى هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا والآخرة من أضحك وأبكى من أبكى.

* وهو سبحانه خالق الموت والحياة، فييده الإحياء والإماتة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

- * وهو سبحانه بقوته وقدرته أوجد الصنفين من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].
- * وهو سبحانه الذي خلق النوعين الذكر والأنثى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣]، من نطفة تتدفق من صلب الرجل، وتصب في رحم المرأة، كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ بِكَ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ امْرَأَتٍ﴾ [القيامة: ٣٧].
- * وعليه تعالى إعادة خلق الناس للحساب والجزاء بعد موتهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْفِثُ النَّفْسَ الْأَخْرَجَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].
- * وهو تعالى الوهاب يعني مَنْ يَشَاءُ وَيَفْقَرُ مَنْ يَشَاءُ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]^(١).
- * وإن ربك أيها الرسول هو رب الشُّعْرَى، النجم الذي كان بعض أهل الجاهلية يتخذونه إلهاً ويعبدونه من دون الله.

(١) قال ابن كثير: قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم/ ٤٨] أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما، وعن مجاهد ﴿أَغْنَىٰ﴾ مَوْلٌ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿أَغْنَىٰ﴾ أعطى، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أرضى. وقيل: معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الخضر بن لاحق، وقيل: أغنى مَنْ شَاءَ من خلقه، وأقنى أي أفقر مَنْ شَاءَ منهم، قال ابن زيد، حكاهما ابن جرير وهما بعيدان من حيث اللفظ. تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٧٧.

وقال الراغب الأصفهاني: قوله تعالى: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أعطى ما فيه الغنى وما فيه القنية، أي المال المدخر، وقيل: أقنى: أرضى، وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة، وذلك أعظم الغنائين... (المفردات في غريب القرآن ٤١٤).

وإنما أثبتنا المعنى المذكور في المتن لدلالة السياق عليه؛ وذلك لمناسبته لسياق الجملة التي حوت عدداً من المتطابقات، ولدلالة القرآن عليه. والله تعالى أعلم.

* وأنه تعالى أهلك قوم عاد القدماء، الذين بعث إليهم نبيه هودا عليه السلام، وقد كانوا من أشد الناس وأقواهم، وأطغاهم فأهلكهم بريح صرصر عاتية، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْغَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

* وأنه تعالى أهلك قوم صالح عليه السلام، فأرسل عليهم الصاعقة، ودمرهم ولم يبق أحدا منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

* وأنه تعالى أهلك قوم نوح عليه السلام الذين كانوا قبل هؤلاء.

* وكانوا أظلم الفريقين ومن قومك الذين كذبوك وأشدهم طغياناً، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي مَا دَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا نُيُوبَهُمْ وَأَقْرَبُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح: ٥ - ٧].

* وقرى قوم لوط أهلكها الله، فألقاها تهوى إلى الأرض منقلبة أعلاها أسفلها، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴾ [هود: ٢٨]، وقال: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٤].

* فغطاها من ألوان العذاب ما غطى، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل منصود.

* فبأي نعم الله تعالى وآلائه الدالة على وحدانيته وقدرته تشكك أيها الإنسان أو تكذب بعد أن عرضنا عليك من مظاهر النعم والنقم التي لا تقدر على إنكارها وإخفائها بحال.

* هذا الرسول نذير لكم كسائر الرسل، وهو من جنس المنذرين الأولين^(١)، كموسى وإبراهيم اللذين أرسلنا بالصحف الأولى، وقد علمتم ما حل بالمكذبين، قال تعالى: ﴿ قُلْ

(١) وقيل: إن المراد بالنذير القرآن الكريم. الكشاف، الزمخشري ٤/١١٩٩.

مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ﴿[الأحقاف: ٩]﴾، وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّ نَذِيرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

* لقد دنت القيامة واقترب الوعد الحق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

* ولا يقدر على ردها وكشفها إذا غشيت الخلق بأهوالها إلا الله، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

* أفمن هذا القرآن الذي يحدثكم عن مصائر المكذبين، وينذركم تعجبون يا معشر المشركين وتسخرون وتستهزون؟ قال تعالى: ﴿أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

* أفتضكحون عند سماعه، ولا تبكون من آياته وزواجره؟ كان الأجدر بكم أن تبكوا دماً بدل الدمع حزناً على تفريطكم.

* وأنتم لاهون غافلون.

* فاسجدوا لله الذي خلقكم و وحدوه، ولا تعبدوا غيره؛ لا تعبدوا اللات، ولا العزى، ولا مناة، ولا الشَّعْرَى، توجهوا إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا يليق الخضوع والسجود والعبادة إلا له جل شأنه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله.

* تضمنت صحف إبراهيم وموسى عليها السلام من وجوه العلم ما يلي:

أ. لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.

ب. ليس للإنسان من ثواب القيامة إلا ما سعى في تحصيله بنفسه^(١).

(١) لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم/ ٣٩]، وبين قوله: إذا مات =

ج. ما عمله الإنسان في الدنيا من خير وشر سوف يراه علانية، ويجزي به في الآخرة خيراً كان أو شراً.

د. إلى الله تعالى تصير كل أمور الخلق بعد الموت فيحكم فيها ويجزي بها.

هـ. الله تعالى هو الذي خلق الضحك والبكاء، فأفرح من شاء فضحك فرحاً، وأحزن من شاء فبكى حزناً.

و. الله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة.

ز. الله تعالى هو خلق الصنفين الذكر والأنثى من قطرة المني.

ح. الله تعالى هو القادر على إحياء الخلائق بعد موتهم.

ط. الله تعالى هو الذي ملّك عباده المال وجعله لهم قُنِيَّةً مَقِيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه وهذا من تمام نعمه عليهم.

ي. الله تعالى هو رب الشُّعْرَى ذلك الكوكب الضخم الذي يطلع بعد الجوزاء، وهو سبحانه خالقه ومالكة ومسخره، فلا ينبغي أن يتخذ رباً من دونه تعالى.

ك. الله تعالى هو الذي أهلك عاداً، وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط، فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

* في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] دليل على أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ، ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيباء، ولم يُنقل ذلك عن أحد

= الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية). صحيح مسلم الحديث رقم (١٦٣١) فهذه الثلاثة أمور من عمل الإنسان وسعيه؛ فالولد أنجبه ورباه، والعلم تعلمه وبثه في الناس وعلمه، والصدقة الجارية أوقفها بنفسه.... فالجميع من سعيه وكسبه. أيسر التفاسير، الجزائري ٢٠٠٥/٥.

من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليهما، وهذا هو قول الإمام الشافعي - رحمه الله - ومن اتبعه من العلماء^(١).

- * لما قام إبراهيم عليه السلام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال استحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله.
- * الله تعالى عدل في حكمه وقضائه، وهو سبحانه قدير عليم وقوي.
- * تحذير الطغاة من أهل الكفر أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من العذاب المالحق.
- * الترغيب في البكاء من خشية الله، والتحذير من أسباب البعد عنه كاللهو واللعب.
- * مشروعية سجدة التلاوة عند ختام سورة النجم وهي من عزائم السجودات في القرآن الكريم، وقد سجدها المشركون مع رسول الله ﷺ.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/٢٧٦.

سورة القمر

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة القمر لابتدائها بمعجزة انشقاق القمر، قال تعالى ﴿ أَقْرَبَتْ ﴾

السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ﴿١﴾ [القمر: ١].

ب. فضائل السورة.

مما يدلُّ على فضل هذه السورة الكريمة ما في الصحيح عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود رضي الله عنهم أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر؟ فقال كان يقرأ بـ ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق: ١] و﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ﴿١﴾ ﴾^(١).

ج. مكية السورة.

هذه السورة نزلت في مكة، قال القرطبي: «سورة القمر مكية كلها في قول الجمهور»^(٢).

د. عدد آيات السورة.

عدد آياتها: خمسون وخمس آيات في عدد الجميع، ليس فيها اختلاف^(٣).

- (١) صحيح مسلم - كتاب صلاة العيدين - باب ما يُقرأ به في صلاة العيدين حديث ١٤ - (٨٩١) وموطأ مالك كتاب النداء للصلاة - باب ما جاء في التكبير والقراءة في صلاة العيدين حديث ٤٣٣.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٢٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٧٠، ومعالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٢٥.
- (٣) يراجع في ذلك: «أقوى العدد في معرفة العدد» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١ / ٢١٧، وكتاب البيان في عدد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤ هـ ص ٢٣٦ ومرشد الخلان إلى معرفة =

هـ. محور السورة.

محورها الرئيسي الذي تدور حوله هو التذكير بالآيات والنذر، وبيان مصير المكذبين بها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

سميت بسورة القمر؛ حيث استُهلَّت بالحديث عن انشقاقه؛ آية للنبي ﷺ، وإيدانا بقرب قيام الساعة، وهذا يتسق مع محور السورة حول الآيات والنذر.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* في مطلع السورة الكريمة: إنذارٌ وآيةٌ، إنذارٌ بقرب الساعة ووجوب الاستعداد لها، وآيةٌ كبرى وهي انشقاق القمر معجزةً للنبي ﷺ، قال تعالى ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ ﴾ (١)، وفي ختام السورة الكريمة تذكيرٌ بالساعة وأهوالها، ودعوة إلى الاعتبار من مصير المكذبين، مع الإشارة إلى جزاء المتقين، قال تعالى ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۗ ﴾ (٢)، ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۗ ﴾ (٣) ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۗ ﴾ (٤) ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۗ ﴾ (٥) ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۗ ﴾ (٦) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ۗ ﴾ (٧) ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۗ ﴾ (٨) ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ۗ ﴾ (٩) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۗ ﴾ (١٠) ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ۗ ﴾ (١١) [القمر: ٤٣ - ٥٥]

* في مطلع السورة: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۗ ﴾ (١) ﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۗ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۗ ﴾ (٥): فهذه النذر عبرة لكل معتبر ومصير المكذبين واحد.

=عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٦٩.

المناسبة بين اسم السورة وسابقتها

الصلة بين سورة القمر، وسورة النجم: صلة واضحة جلية، حيث جاءت سورة القمر مقررة لما جاء في سورة النجم من بيان لأصول العقيدة ورداً على شبهات المشركين: وهناك تناسبٌ من جهة التسمية؛ لما بين النجم والقمر من تلازم، ونظير ذلك: توالى سورُ الشمس والليل والضحى.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوه عديدة منها:

* فأول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة: قال تعالى ﴿ أَرَأَيْتِ الْأَزْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨]، وقال تعالى ﴿ أَقْرَبِ السَّاعَةِ وَأَشَقَّ الْقَمَرِ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر: ١ - ٣]

* وفي سورة النجم حديث عن رحلة المعراج وهو آية كبرى، وفي مطلع سورة القمر حديث عن انشقاق القمر، وهو أيضاً من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَدُّونَهُ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَنْشَى الْمِسْدَ مَا يَعَشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ١ - ١٨]

* وفي السورتين: بيان لموقف المشركين من الآيات والنذر، حيث الكذب والمراء والإعراض والافتراء: قال تعالى في سورة النجم منكرأ على الكفار مراءهم وإنكارهم: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ ﴾

مَا رَأَى ۝۱۱ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝۱۲ ﴿ [النجم: ١١ - ١٢].

وقال تعالى في سورة القمر ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۝۱ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝۲ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝۳ ﴾ [القمر: ١ - ٣].

* في السورتين الكريمتين: حديث عن هلاك المكذبين بالآيات والنذر قال تعالى في سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝۵ وَثَمُودًا فَمَا أَتَىٰ ۝۶ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ۝۷ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝۸ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ۝۹ فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝۱۰ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝۱۱ ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٦].

* وجاءت سورة القمر، مفصلة ومقررة لما جاء في سورة النجم من حديث عن هلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورة حول الآيات والنذر: جاءت الآية الأولى متضمنة، آية عجيبة، ونذارة عظيمة: الإيدان بقرب الساعة، وبيان انشقاق القمر.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسب مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورة الكريمة بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، وتفصل في مصير المكذبين، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيّنا تتنظم في سلك واحد وتدور في فلك واحد، وهو الحديث عن الآيات والنذر، وسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في السورة الكريمة.

ثانياً: في رحاب السورة الكريمة

- ١ -

المقدمة

﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَسِرٌّ ۗ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۗ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۗ (٤) حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ ۗ (٥) ﴾ القمر: ١ - ٥

سبب النزول

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: " أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةَ فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا " (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم اشْهَدُوا » (٢).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، حَتَّى صَارَ فَرْقَتَيْنِ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ فَقَالُوا: سَحَرْنَا مُحَمَّدًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَنِي كَانُوا سَحَرْنَا فَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ » (٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ حَتَّى صَارَ فَرْقَتَيْنِ، فَقَالَ كِفَارُ أَهْلِ

(١) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب انشقاق القمر حديث ٣٦٥٥

(٢) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر، حديث ٣٤٣٧ وصحيح مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب انشقاق القمر حديث ١٨٢ - (١٢٣٠).

(٣) سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ومن سورة القمر حديث ٣٣٤٣، قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد - سنن الترمذي ٥ / ٣٩٨، ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه ٨١ / ٤ ودلائل النبوة لليبهي ١٥١ / ٢ حديث ٥٧٠.

مكة: هذا سحرٌ يسحرُكم به ابنُ أبي كبشة، انظروا السُّفَّارَ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سحرٌ سحرَكم به. قال: فسئل السُّفَّارُ قال: وقدموا من كل وجه فقالوا: رأينا»^(١).

التفسير الإجمالي

بدأت السورة بهذه التذارة الجليلة حيث أُنذرت باقتراب الساعة ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ فهي قريبةٌ جداً، بل قد ظهر كثيرٌ من علاماتها، ومنها بعثةُ نبينا محمد ﷺ، كما في الصحيحين عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ﴿بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ﴾^(٢).

﴿وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾: وذلك حين طلب كفارُ قريشٍ آيةً فأيد الله نبيه بهذه المعجزة الظاهرة الباهرة، التي شهد لها التاريخ والعلم.

وقد يتساءل القارئ فيقول: لقد مضى على بعثة النبي ﷺ أربعة عشر قرناً وزيادة، ولا تزال الدنيا باقيةً إلى يومنا هذا؟ وأقول: إن تحديد ما بقي من عمر الدنيا مرتبط بما مضى منها، فهي بالنسبة لما مضى، ولقد مضى منها قرونٌ مديدةٌ وأحقابٌ بعيدة، فما بقي إنما هو بالنسبة لما مضى كما في حديث رسول الله ﷺ ﴿إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلُكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ...﴾^(٣).

﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾

(١) دلائل النبوة لليهقي ٢ / ١٤٦ حديث ٥٦٥. والفرق: الشق والجانب، والسفار: المراد القوافل التجارية العائدة إلى مكة.

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب قول النبي ﷺ ﴿بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ﴾ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) حديث ٦١٤٠، وصحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب قُرْبِ السَّاعَةِ حديث ٤٣ - (٨٦٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله، عن أبيه - صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب: من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب حديث: ٥٣٢.

ومع اقتراب الساعة وانجلاء الآيات فإن الكفار أعرضوا وعاندوا وزعموا أن هذه الآية الباهرة سحر مستمر، أي متتابع؛ لأن الآيات كانت كثيرة متتابعة، وقيل مستمر: مازَّ ذاهب زائلٌ عن قريب.

وهذا هو ردُّ الكفار، الذي يتجدد ويتكرر كلما رأوا آيةً فهو ردُّ مسبقٌ، يصرُّ فهم عن التفكير والنظر بصدق وتجرد.

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝٣﴾

تلك معاذيرهم الواهية ومزاعمهم الباطلة، وما وقعوا في ذلك التكذيب ونسجوا تلك الأكاذيب إلا اتباعاً للأهواء.

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝٤﴾: لكل أمر غايةٌ ولكل عهدٍ نهايةٌ، ونهاية تكذيبهم قريبة وعاقبتهم وخيمة، وفي هذا تسليةٌ وتثبيتٌ للنبي ﷺ وللمؤمنين.

وقيل: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝٥﴾: «أي يستقرُّ بكل عامل عمله، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار»^(١).

وفي الكشاف: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝٦﴾: «أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، وسيظهر لهم عاقبته»^(٢).

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُتُ عَلَيْكُمْ بُوَكِيلٍ ۝١٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٧﴾ [الأنعام: ٦٦ - ٦٧]: أي كل نبأ وان طال مدته، فلا بد أن ينتهي إلى غايته وتنكشف حقيقته من حق وباطل.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٢٨

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري

فالآية تهديدٌ لهم بعاقبةٍ ونهايةٍ تكذيبهم وإعراضهم، كما يقال: لكلِّ ظالمٍ نهايةٌ، ونهايتهم أليمةٌ وعاقبتهم وخيمةٌ.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ ﴿٥﴾ ﴾

وإلى جانب الآيات القاطعة والحجج الساطعة، فلقد جاءهم من العظات والعبر بأخبار من غير، ما فيه مزدجر، ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾: حكمة بالغة، بلغت الغاية في الترهيب والزجر والحكمة: تنزيل الشيء منزلته التي تليق به، وما في القرآن من آياتٍ ونُذُرٍ وقصصٍ وعبرٍ إنما جاء لحكمة بالغة ومقاصد كريمة، ﴿ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ ﴾ ولكن ماذا تغني الآيات والنُذُرُ! وهذه الآيات تمهيدٌ لما يليها من حديث عن المكذبين وعاقبتهم، فليس لهم حجةٌ ولا عذرٌ أمام الله تعالى؛ فالعبرُ جليّةٌ والحججُ قويّةٌ.

إنذارٌ ووعيدٌ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكَرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ غَيْرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٦ - ٨]

المناسبة

هذه الآيات من باب التفصيل بعد الإجمال، وفيها تسليّةٌ للنبي ﷺ وتسريةٌ عن فؤاده الذي ضاق بتكذيبهم وإعراضهم، فمن لا يرعوي ولا يتعظ بغيره، ولا يصدق بالحجج الباهرة، فليتنظر مصيره المحتوم، يوم الوقت المعلوم: ﴿ فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكَرٍ ﴿٦﴾ ﴾:

أي: إلى أمر منكر فظيع، تنكره النفوس؛ لأنها لم تعهد مثله، وهو موقف الحشر وما فيه من الأهوال العظام والخطوب الجسام.

والداعي هو إسرأفيل عليه السلام، وذلك حين ينفخ في الصور.

خشوع وخنوع

﴿ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ۗ ﴾ (٧)

﴿ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ ﴾: خشوع المذلة والهوان والحسرة والندامة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأنها تفضح عن حال صاحبها وتُفصِح عن المكنون، فيرى أثر الذل في العيون، كما يرى أثره على الوجوه، وقد قيل: والصَّبُّ تفضحه عيونه.

ومصدر هذا الخشوع أيضا الخوف والقلق مما ينتظرهم، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۗ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۘ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۗ﴾ [النازعات: ٦ - ٩]، وقال تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْشِيِّ ۗ ۙ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۗ﴾ [الغاشية: ١ - ٢].

وقال تعالى ﴿فَدَرَهُمْ خَوْضًا وَابْصُرًا حَتَّى يَلْقَا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۗ ۙ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ وِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۗ﴾ [الغاشية: ١٤] خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذَلِكَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۗ﴾ [المعارج: ٤٢ - ٤٤].

وفي الآية تصويرٌ لحال خروجهم من القبور التي طُمِرَتْ، وأبصارهم خاشعة من الذل والهوان والخزي والعار والخوف، وتمثيلٌ لانتشارهم وكثرتهم وتزاحمهم: بالجراد المنتشر.

ونظير هذا قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۗ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۗ﴾ [القارعة: ٤ - ٥]، فتارة يسرون بلا وجهة كالفراش، وتارة يسرون بوجهة كالجراد المنتشر.

قال الألوسي: « وقيل: يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لأن الفرّاش لا جهة لها تقصدها، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين»^(١).

﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۗ ﴾ (٨)

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ١٧ / ٨٠

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾: يسرون مسرعين ملين لدعوة الداعي، مادّين أعناقهم، قد صوّبوا مسامعهم، وأشخصوا أبصارهم نحو هذا الداعي، في مذلة واستكانة.

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيٌّ ﴿٨﴾﴾: يقول بعضهم لبعض هذا يومٌ عسرٌ، وهو عليهم كذلك لما يشاهدونه من مقدمات وما يكابدونه من عقبات وما يقاسونه من أهوال.

الهدايات المستنبطة

- * الإيدان بقرب قيام الساعة، ووجوب الاستعداد لها.
- * معجزة انشقاق القمر هي من المعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها نبيه، حيث انشق نصفين، ثم عاد كما كان، وهناك قصةٌ عجيبة تشهد بذلك: هذه القصة حدثت لرجل إنجليزي اسمه داوود موسى بيتكوك وقد أسلم وحسن إسلامه وصار من الدعاة في بريطانيا، ففي رحلته للبحث عن الحقيقة أهداه صديق له ترجمة لمعاني القرآن بالانجليزية فلما فتحها وجد سورة القمر فقرأ ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ فقال: ما هذا الكلام العجيب؟ هل ينشق القمر! ثم انصرف عن القراءة وعزف عنها.

وبعدها بوقت ضئيل وبينما هو جالس أمام التلفاز البريطاني لي شاهد برنامجاً، شاهد المذيع يحاور ثلاثة من العلماء الأمريكيين وكان يعتب عليهم أن أمريكا تنفق الملايين بل المليارات في مشاريع غزو الفضاء في الوقت الذي يتضور فيه الملايين من الفقراء فضل العلماء ببررون ذلك أنه أفاد كثيراً في بعض المجالات الزراعية والصناعية... الخ

ثم جاء ذكر أحد أكبر الرحلات تكلفة فقد كانت على سطح القمر وكلفت مليارات الدولارات فسألهم المذيع أمن أجل أن تضعوا علم أمريكا على سطح القمر تنفقون هذا المبلغ؟ رد العلماء: أنهم كانوا يدرسون التركيب الداخلي لهذا التابع لكي يروا مدى تشابهه مع الأرض ثم قال أحدهم: فوجئنا بأمر عجيب هو حزام من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه فأعطينا هذه المعلومات إلى [الجيولوجيين] فتعجبوا

وقرروا أنه لا يمكن أن يحدث ذلك إلا أن يكون القمر قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم، وأن تكون هذه الصخور المتحولة ناتجة من الاصطدام لحظة الالتحام.

يقول داوود موسى بيتكوك: قفزت من على المقعد وهتفت: معجزة حدثت لمحمد عليه الصلاة والسلام من أكثر من ١٤٠٠ سنة في قلب البادية يسخر الله الأمريكان لكي ينفقوا عليها مليارات الدولارات حتى يثبتوها للمسلمين! لا بد أن هذا الدين حق، وكانت سورة القمر سببا لإسلامه^(١).

- * قرب الساعة يستدعي من الإنسان أن يتقرب من مولاه ويقبل على طاعته ورضاه، ويتزود من التقوى والعمل الصالح ما ينفعه في هذا اليوم العصيب.
- * مع قرب القيامة وظهور عديد من أشراطها ومع ظهور الآيات وكثرة النذر وتكرر المواعظ إلا أن الكفار معرضون مكذبون، ولأهوائهم الجاحمة منقادون.
- * من أسباب الهلاك: الكذب والإعراض واتباع الهوى والغفلة عن سنن الله وأقداره والتولي عن الآيات والنذر.
- * لكل أمر مستقر، ولكل فعل عاقبته ونتيجته، فمهما طال الليل فلا بد من طلوع الفجر، وسيزول عهد الظالمين مهما طال.
- * تصوير حالهم وهم حفاة عراة إلا من ثوب المذلة والهوان وفي حالة الخنوع والخضوع والترقب والانسحاق لهذا الداعي الذي يوجههم إلى ما ينتظرهم وهم مسرعون مثقلون، يهمس بعضهم في أذن بعض: هذا يوم عسر.
- * في قوله تعالى ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾: دلالة على يسر هذا اليوم على المؤمنين فهو يوم البشائر والأفراح، قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾

(١) ذكر هذه القصة الدكتور زغلول النجار في ندوة له بإحدى جامعات بريطانيا، وسمعتها منه في ندوته

بعنيزة - القصيم ١٤٢٦ هـ سنة ٢٠٠٦ م

فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩]، وقال تعالى ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلْقَاهُمْ أَلَمًا يَكْفُرًا هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال جلّ وعلا ﴿ الْآيَاتُ آيَاتُ آلِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

-٢-

عاقبة قوم نوح

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْبَاجِ وَدُسِرِ ﴿١٣﴾ فَجَرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّنْذُرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ٩ - ١٧].

المناسبة

هذه الآيات من باب التفصيل بعد الإجمال، إذ تذكّر بعاقبة قوم نوح ونهاية تكذيبهم وإعراضهم، فهي تفصيل لما أجمله قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُعِنُّ الزُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١﴾ ﴾: «بدأت الآيات بقصة نوح عليه السلام مع قومه؛ إذ هو أول الرُّسُل، ومع ذلك كذب به قومه وأصرُّوا على

الكذب والضلال، واتهموه الظالمين بالجنون، وزجروه عن دعوته، بألوان الأذى وصنوف الكيد، فضيقوا عليه وطاردوه، ولا حقوه من مكانٍ إلى مكانٍ ليصرفوا الناس عنه، وسخروا منه، ولم يزداهم انجلاء الآيات، وانطواء السنوات، وتتابع النذر، إلا صدوداً وإعراضاً، وجحوداً وعنوداً.

جاء نوحٌ عليه السلام قومَه وهم على التكذيب والضلال، فلما دعاهم إلى الله تعالى بالحجج الساطعات والآيات البينات، ما زداهم هذا إلا تكذيباً وإعراضاً.

وفي نهاية المطاف: يتوجه نوحٌ إلى ربِّه أن ينصره وينجِّيه قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝١٠ ﴾: لا حيلة ولا سلطان لي عليهم؛ فانتصر لدينك ولنبيِّك.

﴿ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ ﴾: حانت ساعة الانتقام وحلَّ العذابُ الذي لا مهربَ منه ولا محيصَ عنه، ماءٌ ينهمرُ من أبواب السماء المفتحة فينصبُ عليهم انصباباً، ﴿ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾: صارت الأرضُ كلُّها عيوناً تنفجرُ بالماءِ ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على ما قدره الله عز وجل من إهلاك قوم نوح بالطوفان العظيم الذي بلغ قمم الجبال.

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ ﴾: حملنا نوحاً ومن آمن معه في سفينةٍ من الألواح الخشبية والمسامير الصلبة والحبال المتينة التي تشدُّها، صنعها نوحٌ عليه السلام بأمر وتوجيه من الله تعالى، فكانت السفينةُ تجري برعاية الرحمن وحفظه ولطفه، بينما المكذبون غارقون في سخط الله وغضبه وعقابه، لطفٌ ورفقٌ هنا وشدةٌ وعذابٌ هناك!

﴿ جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ ﴾: جزاء لنوح عليه السلام الذي كُفِرَ به، حيث كفر قومه برسالته كفر اعتقاد، كما كفروا به كفر نعمةٍ لأنه نعمةٌ أهداها الله إليهم، فنجاه الله بإيماحه وصبره وثباته.

وقيل ﴿ جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ ﴾ أي لكفرهم بالله تعالى فأغراقهم انتقاماً منهم لكفرهم بالله تعالى « قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ لِمَن ﴾ يُراد به الله تعالى، كأنه قال: غضباً وانتصاراً

لله تعالى، أي انتصر لنفسه، فأغرق الكافرين، وأنجى المؤمنين»^(١) كما قال سبحانه في هلاك فرعون وقومه ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥ - ٥٦].

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ﴿١٥﴾ ﴾: أي تركنا هذه القصة آية فهل من متعظٍ؟ وقيل تركنا السفينة آية وفي هذا إشارة إلى بقائها، لتكون عبرة لمن يعتبر؟ والله أعلم بمكانها.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ ﴾: استفهامٌ تقريرِيٌّ للتنبؤ به بقدر ذلك العذاب وعظمة

تلك النذر.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ﴿١٧﴾ ﴾: يَسَّرَ اللهُ تعالى تلاوته وحفظه وفهمه، كما يسر العمل به والدعوة إليه، فكل من أقبل عليه بصدق وعزم يَسَّرَ اللهُ أمره، وسَهَّلَ عليه مطلوبه، وهذا التيسير إنما هو بهدف الذكر والاعتبار، ولا يتم هذا إلا بتدبر، ولذا قال تعالى ﴿ فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ﴾.

الهدايات المستنبطة

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ولم يقل «فجّرنا عيون الأرض»، كأن الأرض كلها صارت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي تُضْرَمُ فيه النار ويتصاعد منه الدخان أضحى يفورُ بالماء، كما قال الله عز وجل ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَن آمَنٌ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود: ٤٠]، وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى.

* الحكمة من تكرير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ١٧٩.

«هي أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاطاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشنَّ تارات؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير عند كل نعمة عدَّها في سورة الرحمن وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّمُؤْمِنِيٍّ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، عند كل آية أوردها في سورة الرسائل وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب. مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان»^(١).

* عاقبة المكذبين وهي العذاب في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة.

* عاقبة المؤمنين، وهي الصلاح والفلاح في الدارين، والنجاة من المكائد والمحن والنصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، قال صاحب لطائف الإشارات «ثم إن الله - سبحانه - لما نَجَّى نوحاً مَتَّعَهُ بعد هلاك قومه ومتع أولاده، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام، وفي هذا قوة لرجاء أهل الدين، وإذا لقوا في دين الله محنة؛ فإنَّ الله يهلك - عن قريب - عدوَّهم، ويُمكِّنهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم، وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنة الله في جميع أهل الضلال أن يُعزَّز أوليائه بعد أن يزهق أعداءه»^(٢).

* من تيسير الله تعالى كتابه للادكار والاعتبار أن صرَّفه هذا التصريف العجيب وجعله بهذا الأسلوب الفريد الذي لا مثيل له لا في الكتب السابقة ولا في كلام البشر، لأنه كتاب ذكر وموعظة قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُوا لَّهُمْ ذِكْرًا ۗ﴾ [طه: ١١٣]، وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۗ﴾ [النور: ٣٤].

(١) الكشاف للزمخشري ٤ / ٤٠.

(٢) لطائف الإشارات للقسيري ٧ / ٣٣٠.

-٣-

عاقبة عاد

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢].

المناسبة

بعد الحديث عن عاقبة المكذبين من قوم نوح عليه السلام يأتي الحديث عن عاد، الذين كذبوا نبي الله هود عليه السلام وبيان عاقبة تكذيبهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾

فانظر كيف كان عاقبة تكذيبهم وجحودهم؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم ريحا عاتية باردة في يوم عاصيب رهيب في يوم نحس مستمر عليهم، انتقلوا فيه من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة فهو نحس متواصل، فكانت الريح تنزع الناس مع تشبثهم لجوئهم لديارهم الحصينة فتقذف بهم رأسا على عقب.

قال مجاهد: يُلْقَى الرَّجُلُ عَلَى رَأْسِهِ، فَتَفْتَتِ رَأْسَهُ وَعُنُقَهُ وَمَا يَبْلِي ذَلِكَ مِنْ بَدَنِهِ. وقيل: كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض، ويدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها، فتنزعهم وتدق رقابهم^(١).

والأعجاز: الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها. وقيل: كانت الريح تقطع

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ١٧٩.

رؤوسهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، تأتي أحدهم فترفعه حتى تعييه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط على الأرض جثة بلا رأس، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها. (١)

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ ﴾: كيف كان عاقبة التكذيب والإعراض؟ وهذا الاستفهام كما أسلفنا تقريرياً وفيه لفتُ الأنظار إلى شدة هذا العذاب الذي جعله الله نذيراً وعبراً، ثم ذكر تعالى بنعمة تيسيره الكتاب للذكر والاعتبار فيسر تلاوته وفهمه للناس جميعاً، على تفاوت علمهم ومداركهم، فضلاً عن تفسير النبي ﷺ وتفسير الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين.

الهدايات المستنبطة

- * سُنُّنُ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَبَدُّلُ وَلَا تَحْوَلُ، فَهِيَ سُنُّنٌ ثَابِتَةٌ مَطَّرِدَةٌ، مِنْ ذَلِكَ سَنَةُ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ مَهْمَا طَالَ بِهِمُ الزَّمَانُ.
- * الرِّيحُ جَنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ يُرْسَلُهَا بِالْخَيْرَاتِ وَالْمَبَشَرَاتِ، كَمَا تُرْسَلُ بِالْعَذَابِ وَالْدمَارِ.
- * التَّحْذِيرُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِهِ وَشِدَّةِ بَأْسِهِ وَتَنْكِيلِهِ بِالظُّلْمَةِ وَالْفِسْقَةِ، قَالَ تَعَالَى ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤]
- وقال تعالى ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [البروج: ١٢].
- * رَحْمَةُ اللَّهِ بِأَوْلِيَائِهِ وَنُصْرَتُهُ لَهُمْ، مَهْمَا طَالَ لَيْلُ الظُّلْمِ، وَتَمَادَى الظَّالِمُونَ.

(١) يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٧٩.

-٤-

عاقبة ثمود

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَى ضَلَالِى وَسُعْرِ ﴿٢٤﴾
 أَهْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ عَذَابًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُونَ
 النَّاقَةَ فَنِنَّ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَّ صَاحِبُهُمْ
 فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْظِرِ ﴿٣١﴾
 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٢٣ - ٣٢].

المناسبة

بعد الحديث عن تكذيب عادٍ وعاقبتهم، يأتي الحديث عن عاقبة ثمود، وهذا إنذارٌ للمكذبين ووعيدٌ لهم.

التفسير الإجمالي

لم تعتبر ثمود من قوم عاد، كما لم تعتبر عادٌ من قوم نوح، بل كذبوا جميعاً مع كثرة النُّذُرِ وتجلي العبر، ومن العجيب أنهم تعلقوا بهذا الاعتراض الغريب ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَى ضَلَالِى وَسُعْرِ ﴿٢٤﴾﴾؟ سخروا من نبيهم وازدروه، وقلبوا الحقائق؛ فزعموا أن اتباعهم له سلوكٌ لطريق الضلال والعذاب، وقد كذبوا في زعمهم، فكان اعتراضهم على أنه بشرٌ وعلى كونه واحداً، وعلى أنه منهم، فاعتبروا اتباعه ضرباً من الضلال والخسران! فأَيُّ ضلالٍ أشدُّ مما هم عليه؛ رضوا بالآله أن يكون حجراً أو شجراً! واعترضوا على كون النبي بشراً! إنه الكبرُ والاغترار والعجبُ والحسد وغير ذلك من أمراض النفوس، مع غفلتهم وجهلهم بسنن الله وأقداره وحكمه وشؤونه في خلقه، فالفضل بيد الله يؤتیه من يشاء، ويختص برحمته من يشاء ويصطفي بحمل رسالته من يشاء.

ثم عبّر قومٌ صالحٍ عن خبث طويتهم، وأعربوا عما يختلج في صدورهم ويدبُّ في قلوبهم

من كِبْرٍ وَحَسَدٍ، فقالوا معترضين على اختيار الله تعالى واصطفائه ﴿ أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ۝٣٥ ﴾، أي: كيف خصّه الله من بيننا بالوحي والنبوة، وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟

ونظير هذا قول كفار قريش ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهَرَّ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

ثم عادوا إلى إلصاق التّهم بصالح عليه السلام فاتهموه بالكذب ورموه بحُبّ الظهور والشهرة والاستعلاء والسيطرة عليهم ﴿ أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ۝٣٥ ﴾.

وهم في الحقيقة كاذبون متكبرون، حسدوا نبيهم على هذه المنزلة، فكان لا بدّ من كشف خباياهم وفضح نواياهم كما أخبر تعالى بقوله ﴿ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَابِ الْآخِرِ ۝٣٦ ﴾. آيةٌ ونهايةٌ

﴿ إِنَّا مَرْسَلْنَا النَّاقَةَ فَنَنَّا لَهُمْ فَأَرْزَقْنَاهُمْ وَأَصْطَبِرَ ۝٣٧ ﴾.

وحتى لا تبقى لهم حجة أرسل الله لهم آية واضحة جلية وهي الناقة فتنه لهم وحجة عليهم وتلبية لإلحاحهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ۝١٥٣ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هِيَ تَأْكُلُ مِمَّا شَرَبْتُمْ وَتَكْفُرُ بِشَرِّ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ۝١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٥٨ ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٨].

وقال سبحانه ﴿ وَيَقْوَرُ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ۝٦٥ ﴾ [هود: ٦٤ - ٦٥].

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّةً لَهُمْ ﴾ أي: ابتلاء وامتحاناً، ﴿ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴾ أي: انتظر ما يصنعون، واصطبر على ما يصيبك من أذاهم، وعبر باصطبر لأن الخطب قد اشتد فصار الأمر يحتاج إلى مزيد من الصبر في هذه المرحلة الأخيرة الحاسمة ﴿ وَبَيَّنَّتْهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُخْضَرٌ ۝٢٨ ﴾، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرِبٌ وَلَكِنَّ شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝٢٩ ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿ كُلُّ شَرِبٍ مُخْضَرٌ ﴾ لكل قدر ونوبة يحضرها، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً فإذا كان يوم نوبتهم حلبوها فانتفع الجميع بلبنها.

﴿ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ ۝٢٩ ﴾ تأمر المجرمون على عقر الناقة وحرصوا على ذلك أشقاهم، وأعانوه على هذه الجريمة المنكرة ﴿ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ والتعاطي: تناول الشيء بتكلف والمعنى: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَيُذَرِ ۝٣٠ ﴾ تنبيه ولفت إلى عذابه الذي حل بهم: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح جبريل بهم صيحة شديدة، ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ اللَّحْنِظِيرِ ﴾ والهشيم: حطام الشجر ويابس، والمحنظير: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الريح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض، أو كهشيم الحظيرة ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه، وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح.^(١)

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝٣١ ﴾ تذكير بهذه النعمة العظيمة، نعمة تيسير القرآن، للتلاوة والتدبر والعظة والاعتبار.

الهدايات المستنبطة

* ديدن أهل الكفر والضلال: الاعتراض على دعاة الحق وغمزهم وتشويه صورتهم، دون

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٢، وفتح القدير للشوكاني ٥ / ١٨٠.

- أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر في دعوة الحق، مع صدودهم عن الآيات وعدائهم لها.
- * صبر الأنبياء عليهم السلام وثباتهم على الحق وامتنانهم لأوامر ربهم واطمئنانهم ورضاهم بأقداره تعالى.
- * من أسباب الصدود عن الحق: الغرور والعجب والكبر والأثرة وحب الظهور والتعالي على الآخرين.
- * انقلاب موازين الكفرة والطغاة: فالهداية عندهم ضلال، واتباع الرسل في نظرهم جحيمٌ ووبالٌ.
- * تعلقُ أهل الكفر والضلال بالشبه الواهية والحجج الداحضة، وتعلُّلهم بالأعدارِ المتناقضة.
- * أعداء الحق لا يراعون الله حرمة ولا يحفظون عهداً ولا ذمة، شأن ثمود الذين علّقوا إيمانهم بآية فلما جاءتهم كفروا بها وعقروها، فدلّ على ما في صدورهم من غلٍّ وحقْدٍ على الآيات والنذر.
- * أصحابُ النوايا الخبيثة والنفوس المريضة لا بد وأن يتليهم الله تعالى ليكشف طويتهم ويبتك أسرارهم، ويخرج أضغانهم، ويفضح خباياهم، كما فعل الله بقوم ثمود إذ كشف الله تعالى كذبهم وأشرهم حين ابتلاهم بالناقة قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَبَعْنَاهُ إِنَّا إِذْأَلْفَى ضَلَّالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآيُرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنْتَهَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة محمد: ٢٩].

-٥-

عاقبة قوم لوط

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ (٤٠)﴾ القمر: ٣٣ - ٤٠

المناسبة

كما كذبت ثمود كذب قوم لوط فكانت النهاية واحدة وإن اختلفت تفاصيلها.

التفسير الإجمالي

لا يزال السياق حول مصير المكذبين من الأمم الغابرة، وتقف بنا الآيات عند عاقبة قوم لوط الذين اقترفوا كثيرا من الجرائم والموبقات مع كفرهم وإعراضهم، كذبوا بنبي الله لوط عليه السلام وصدوا عن دعوته وجأهروا بالمعاصي مستحلين لها، واجتمعت كلمتهم على إخراج لوط وبناته لأنهم متطهرون، وكان التطهر جرماً يعاقب صاحبه بالطرده والإبعاد، ولا عجب فهذا منطق أهل الكفر والضلال في كل زمان.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤)﴾: «والحصباء بالمد الحصى، والحاصب الريح الشديد تثير الحصباء». (١)

فعدب الله قوم لوط بأنواع شتى من العذاب، طمست أعينهم، وقلبت قراهم، وأمطروا بحجارة من سجيل منضود، كما أخذوا بالصيحة المخيفة المرعبة التي تدوي في الأذان فيهتز

(١) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص ١٣٩ ٠ مادة ح ص ب، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٨ / ١٨١، وروح المعاني للألوسي

منها الكيان، ويشيب من هولها الولدان.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بِكُورَةٍ عَذَابٍ مُّسْتَقَرًّا ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ « قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط باباه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوّر الجدران، أو كسر الباب أو دفعه بالقوة، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكره والنصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه... وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، وقال الضحّاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم»^(١).

وعن قلب قراهم بجعل عاليها سافلها يقول جل جلاله ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

و نحو هذا قول الله عز وجل ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم: ٥٣-٥٤].

والمؤتفكة هي: قرى قوم لوط، سدوم وما حولها: وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت رأساً على عقب، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه.

قال الحافظ ابن حجر: «أهلكهم الله عز وجل على يد جبريل فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوط بأهل بيته إلا امرأته فإنها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٧٨، ٨٠ بتصرف، ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٩٦،

* وصف الله لوطا ومن آمن به من أهل بيته بالشكر، قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ إِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرٍ ۗ قَدْ كُنَّا فِئْتًا بِقَوْمٍ فَجُورًا ﴾ (٣٤) نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْرِي مَنْ شَكَرَ ﴿ ٣٥ ﴾ وقد يتساءل البعض ويقول: أيُّ شكرٍ وقد ابتلوا بأرذل قوم، قوم لوط الذين جمعوا بين الكفر والفسوق والعصيان والانحلال والتبجح والدناءة وسائر ما يُعدُّ من مساوئ الأخلاق؟ لكن أقول: إن أمر المؤمن كلُّه خير فهو بين الصبر والشكر، يحمد الله تعالى على الضراء، كما يحمده على السراء، يشكره تعالى في زمان الفتن وأوقات المحن كما يشكره في سائر الأوقات، يستنشق نسيم النعم ويتذوق حلاوة الهداية ويعتزُّ بالحق ويستعصم بالعفاف والطهر، سيِّما إذا رأى المجتمع من حوله يتردَّى في ظلمات الكفر، أو يتمرغ في أوحال الرذيلة، أو يكتوي بلهب المعاصي، ويتقلب على جهرها الحار، فيحمد الله تعالى على أن هداه وعصمه وطهره ونجَّاه من حمأة الرذيلة، فيشعرُ بجنة الرضا وبرد اليقين وحلاوة الإيمان، ولذة الطاعات.

* هلاك الظالمين ونجاة المتقين نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر.

-٦-

عاقبة المكذبين من آل فرعون

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

القمر: ٤١ - ٤٢

المناسبة

ما زال الحديث حول مواقف الكفار من الآيات والنذر حيث الجحود والإعراض والتمرد والعناد، والغفلة عن عاقبة من سبقهم إلى الهلاك والخسران.

التفسير الإجمالي

كذب آل فرعون كما كذب من سبقهم وكفروا بأنعم الله وجحدوا آياته فأخذهم الله تعالى أخذة شديدة عاتية، وجعل منهم عبرة لكل معتبر: قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَلٌ بَيْنِي وَبَيْنَ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هُنَا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٣].

من هذه الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام وكذب بها فرعون وآله: إخراج موسى عليه السلام يده بيضاء للناظرين، ومنها إلقاء عصاه فإذا هي ثعبان مبین، ومنها أخذ آل فرعون بالسنين وهو الجذب والقحط، ومنها إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

الهدايات المستنبطة

- * عاقبة الكفر ونهاية التكذيب واحدة، وهي الهلاك والدمار، وإن اختلفت الطُرُق وتنوعت الخواتيم، كما قال تعالى ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].
- * الاعتبار والادِّكار من عاقبة المكذبين، وسنن الله في الأولين مها طال بهم العهد.

-٧-

تعقيب وختام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۗ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۗ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبُرَ ۗ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۗ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۗ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۗ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ۗ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۗ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۗ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۗ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۗ ﴿٥٣﴾ إِنَّ النَّفْقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۗ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقَدِّرٍ ۗ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٥٥].

المناسبة

جاءت هذه الآية الكريمة معقبة على ما سبق من نذر بمصير الكاذبين: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وأن الإنذار بهم موجه لكل مكذب، وعاقبة الكاذبين ومصيرهم واحد، وإن اختلفت العقوبة.

التفسير الإجمالي

مصير الكاذبين واحد

﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۗ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۗ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبُرَ ۗ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۗ ﴿٤٦﴾ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن مصير من سبق من الكاذبين بالآيات والنذر، يلتفت السياق إلى الكاذبين بدعوة النبي ﷺ من كفار قريش وسائر من كفر بدعوة الإسلام، ليقرر وحدة مصير الكاذبين جميعاً، ونظير هذه الآيات قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۗ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۗ ﴿٣٥﴾ فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۗ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ

إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٧].

التفسير الإجمالي

﴿ أَكْفَارًا كَثِيرًا مِّنْ أَوْلِيَاكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾: أَيْظُنُّ كَفَارًا قَرِيشٌ أَنَّهُمْ فِي مَنَآئِ عَن هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهَلْ هُمْ خَيْرٌ مِّنْ هَذِهِ الْأُمَّمِ الْهَالِكَةِ؟ أَمْ أَنَّ بَرَاءَتَهُمْ ثَابِتَةٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ مَسْجَلَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؟ أَوْ فِي الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؟ أَمْ أَنَّ حَشْدَهُمْ وَاجْتِمَاعَ كَلِمَتِهِمْ سَوْفَ تَنْصُرُهُمْ، أَحْتِمَالَاتٌ ثَلَاثٌ، أَوْلَاهَا مَبْنِيٌّ عَلَى عُجْبِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ وَكَأَنَّهَا فَوْقَ الْحَاسِبَةِ وَالْمَسَاءَلَةِ، وَالثَّانِي مَبْنِيٌّ عَلَى اغْتِرَارِهِ بِحَالِهِ وَرِضَاؤِهِ وَاطْمَئِنَانِهِ لِكُفْرِهِ وَكَأَنَّهُ قَدْ ضَمِنَ النِّجَاةَ؟ وَالثَّلَاثَةُ اغْتِرَارُهُ بِالْقُوَّةِ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ؟ وَكَأَنَّهَا تَعْصُمُهُ مِّنْ قَدْرِ اللَّهِ! وَكُلُّهَا أَحْتِمَالَاتٌ بَاطِلَةٌ وَاهِيَةٌ.

﴿ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾: وَعَيْدٌ شَدِيدٌ بِهَزِيمَةٍ عَاجِلَةٍ لِحُشُودِ الْكُفْرِ وَجَمُوعِهِ وَفِرَارِهِمْ أَمَامَ جُنْدِ الْحَقِّ، وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا فِي غُرُوبِ بَدْرِ، فَقُتِلَ صِنَادِيدُ الْكُفْرِ وَأَسَاطِينُ الضَّلَالِ وَتَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ وَوَلَّوْا مِنْ نَجَاةٍ مِنْهُمْ بِالْفِرَارِ.

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾: وَعَيْدٌ لَهُمْ بِمَا يَنْتَظِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَعِظَائِمِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَفْرَجَ مِنْهَا، وَالِدَاهِيَةِ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ، الَّذِي لَا سَبِيلَ لِلخِلَاصِ مِنْهُ.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾: إِبَانَةٌ وَإِفْصَاحٌ عَن مَصِيرِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، حَيْرَةٌ وَذَهُولٌ، وَنَارٌ تَضْرِبُ بِهِمْ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي حَيْرَةِ الضَّلَالِ وَجَحِيمِ الْكُفْرِ، وَلَأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ إِتْبَاعَ الرِّسْلِ سَيُفْضِلُهُمْ إِلَى الضَّلَالِ وَيُحَوِّلُ حَيَاتِهِمْ إِلَى جَحِيمِ، كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ عَن ثَمُودَ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَجِدًا نَبِّعُهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وَكَأَيُّ قَالِ كَفَارٍ قَرِيشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبَّيْنَاكَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَحِّطُفَ مِنْ أَرْضِنَا ۗ أَوْلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبُّ إِلَيْهِ نَمَرَتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [القصص: ٥٧].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾: وهذا من أشد أنواع العذاب الحسي والمعنوي، حيث تمرغ الوجوه وترغم الأنوف في قعر نار جهنم، ويقال لهم توبيخاً وتبكيثاً ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

الهدايات المستنبطة

- * سنن الله تعالى ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ومصير المكذبين واحد لا محيص عنه.
- * لن تغني عن المشركين قوتهم، ولن تعصمهم وحدتهم من عذاب الله الذي يحق بهم.
- * عذاب الآخرة: أدهى وأمر وأخزى وأكبر من عذاب الدنيا.

ختام السورة

﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا شَيْئًا كَثِيرًا مِّنْ مُّذَكَّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٥].

المناسبة

تأتي هذه الآيات في ختام السورة الكريمة لتقرر ما تقدم من بيان سنن الله تعالى الثابتة وأقداره النافذة، ومنها ما قدره تعالى من إهلاك المكذبين بعد إقامة الحجج عليهم وإمهالهم وفي هذا دعوة للاعتبار بحال من سبق، والزجر عن المعاصي فهي مكتوبةٌ صغيرها وكبيرها، ثم مسك الختام مع عاقبة المتقين.

التفسير الإجمالي

كلُّ ما في هذا الكون من تصريف وأقدار إنما هو بتقدير وتدبير من رب العالمين، وأقداره

تعالى نافذة وأوامره عاجلة فهي أسرع من لمح البصر، فهل من مُعْتَبِرٍ بمصيرِ المهالكين؟ الذين أحصى الله تعالى عليهم أعمالهم، وعدَّ عليهم كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ.

ثم التفت السياق إلى مسك الختام وهو مصير المتقين في الآخرة بعد الإشارة إلى نجاتهم ونصرتهم في الدنيا، قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ : جنات كثيرة، وسعة وضياء وأنهار جارية مطردة، أنهار الماء والخمر والعسل واللبن.

﴿ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

منازل الصادقين ومجالسهم وما أطيهاها ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ : «في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، عِنْدَ الْمَلِكِ الْمُقْتَدِرِ: أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدِّرها، وهو مقتدرٌ على ما يشاء مما يطلبون ويريدون»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لأن القربة من الملوك لذيدة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً « وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى قال: ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يقرب أحداً إلا بفضله»^(٢).

وهو أحلى جوار وأطيب مقام بجوار الرحمن، وقد قيل الجارُّ قبل الدارِ، فنعم الدار ونعم

الجوار:

إني لأحْسُدُ جَارَكُمْ لجواركم طُوبَى لِمَنْ أَضْحَى لِدَارِكَ جَاراً
يا ليت جارك باعني من داره شِبراً لأعْطيه بِشِبرِ داراً

الهدايات المستنبطة

* الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٨١، ٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٧/ ٤٨٧.

قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته. ^(١) والآيات ردُّ على القدرية في كفرهم بالقدر، فكلُّ شيء بتقدير الله تعالى، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان كما في حديث جبريل وفيه قال ﷺ (... فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ) ^(٢).

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ كَانَ لِابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَدِيقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُكَاتِبُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقَدْرِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّهُ (سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَكْذِبُونَ بِالْقَدْرِ) ^(٣).

- * لهذا الكون نظامٌ دقيقٌ وتدبيرٌ حكيمٌ، فكل شيء فيه بتقدير الله تعالى وتصريفه وتدبيره
- * التوازن الدقيق في هذا الكون فكل شيء خلقه تعالى بتقدير محكم وحساب دقيق، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨].
- * ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لِمُرْزُقَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ١٩ - ٢١].
- * هلاك المكذبين إنما هو بتقدير وتدبير من الله.
- * التحذير من الذنوب صغيرها وكبيرها فهي مسطرةٌ معدودةٌ على مقاريفها: فعن عبد الله

(١) التفسير الكبير للرازي ١٥ / ٤٧

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٨.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٩٠) رقم (٥٦٣٩)، والحاكم (١/ ١٥٨) رقم (٢٨٥) وقال: صحيح على شرط

بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ »، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ضَرَبَ لِهِنَّ مَثَلًا: « كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا »^(١).

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعُ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوكِ يَمْدَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ
إِنَّ الْمَحَبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ
فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الْإِلَهَ بِنِيَّةٍ
إِنْ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
عِنْدَ الْإِلَهِ مَسْطَرَّةً تَسْطِيرًا
صَعَبَ الْقِيَادِ وَشَمْرُنَ تَشْمِيرًا
طَارَ الْفَوَؤَادُ وَأُلْهِمِ التَّفَكِيرًا
فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

* رفعة مكانة وعلو منزلة المتقين الصادقين فهم في مقعد صدق درجة لا يصل إليها إلا الصادقون، ومجتمع لا يضم غير الصادقين، ومنزل طيب يتسم بالصدق، والصدق من أصول الأخلاق وأعظم القربات وأسنى المقامات، الصدق مع الله ومع الناس ومع النفس. اللهم اجعلنا من الصادقين.

(١) سنن أبي داود كتاب السنّة - باب لزوم السنّة حديث ٤٦١٣، ومسند أحمد ٢ / ٩٠ حديث ٥٦٣٩، والإبانة الكبرى لابن بطّة ٣ / ٤٠٣ حديث ١٣٦٣

سورة الرحمن

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة الرحمن حيث استهلكت بهذا الاسم الجليل، كما ظهرت في جميع آياتها آثار الرحمة وظلالها.

ب. فضائل السورة.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: (لَقَدْ قَرَأْتُمْهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجَنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ أَتَكْذِبَانِ﴾: قَالُوا: لَا بَشِيءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ).^(١)

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، أَوْ قَرَأَتْ عَنْدَهُ، فَقَالَ (مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوَاباً لِرَبِّهَا مِنْكُمْ)؟ قَالُوا: مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (مَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَيْبِكُمْ أَتَكْذِبَانِ﴾؟ إِلَّا قَالَتِ الْجِنُّ: لَا بَشِيءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبَّنَا نَكْذِبُ).^(٢)

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في السنن كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - باب ومن سورة الرحمن - حديث ٣٢١٣، ورواه الحاكم في المستدرک كتاب التفسير باب سورة الرحمن ٤٧٣/٢، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في شعب الإيمان باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات ٤٨٩/٢ حديث ٢٤٩٣، وفي دلائل النبوة باب ذكر إسلام الجن وما ظهر في ذلك من آيات... ٢٣٢/٢.

(٢) حديث حسن: رواه البزار في مسنده كما في كشف الأستار - كتاب التفسير باب سورة الرحمن ٧٤/٣ حديث ٢٢٦٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٣٠١/٤، وابن جرير في جامع البيان ٢٣/٢٢ ولهذا الحديث شاهد من الحديث السابق، وأورده السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة الرحمن ١٥٥/٦ وقال أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند=

ج. مكية السورة.

هذه السورة مكيةٌ كلها، في قول الجمهور كما ذكر القرطبي، ويشهد لذلك ما ورد من جهر ابن مسعود بها أمام الكعبة، فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: كَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجَهَرُ لَهَا بِهِ قَطًّا، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا؛ قَالُوا: إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ، قَالَ دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي، قَالَ فَعَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أُنْدِيَّتِهَا، حَتَّى قَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ ثُمَّ قَرَأَ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ قَالَ ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَأُهَا، قَالَ فَتَأْمَلُوهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَاذَا قَالَ؟ قَالَ ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثْرُوا فِي وَجْهِهِ فَقَالُوا لَهُ هَذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ! فَقَالَ مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمْ الْآنَ وَلَئِنْ سِتُّمْ لِأَعْدَائِهِمْ بِمِثْلِهَا عَدَاءً؛ قَالُوا: لَا، حَسْبُكَ، قَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ. (١)

د. عدد آيات السورة.

عدد آياتها سبعون وست: بصري، وسبعٌ مديان ومكي، وثمانٍ كوفي وشامي، اختلافها خمس آيات:

=صحيح، وأروده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد كتاب التفسير باب تفسير سورة الرحمن ١١٧/٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٥١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٨٨، ومعالم التنزيل للبخاري ٧ / ٤٣٨ سيرة ابن هشام ١ / ٣١٤ فصل [أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَمَا نَالَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي سَبِيلِ جَهْرِهِ بِالْقُرْآنِ].

- ١ - ﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَدَّهَا الكوفيُّ والشاميُّ، ولم يُعَدِّهَا الباقون آية.
- ٢ - ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٢﴾ لم يُعَدِّهَا المدنيان وعَدَّهَا الباقون.
- ٣ - ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠﴾ لم يُعَدِّهَا المكي وعَدَّهَا الباقون.
- ٤ - ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [آية ٣٥] عَدَّهَا المدنيان والمكي، ولم يُعَدِّهَا الباقون.
- ٥ - ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ١٢﴾: لم يُعَدِّهَا البصريُّ، وعَدَّهَا الباقون.^(١)

هـ. محور السورة.

تدور هذه السورة الكريمة حول بيان نعم الله تعالى في الدنيا والآخرة، والحث على شكرها، والتحذير من تكذيبها، أو الغفلة عنها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة الكريمة هي: سورة الرحمن، ومناسبتها لمحورها واضحة جلية فهذه النعم التي بيّنتها السورة هي فضلٌ وعطاءٌ من الرحمن جلَّ وعلا.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* في مطلع السورة الكريمة تمجيدُ الله تعالى وتعظيمٌ له حيث استُهلَّت باسمه «الرحمن»، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ [الرحمن: ١]، كذلك خُتِمَتِ السورةُ بتمجيدِ الله تعالى وتعظيمه قال تعالى ﴿بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٧٨﴾ [الرحمن: ٧٨].

(١) يراجع في ذلك: «أقوى العُدَد في معرفة العَدَد» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ ضمن كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١/٢٢٤، وكتاب البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤ هـ ص ٢٣٧ ومرشد الخلان إلى معرفة عدِّ آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٦٩.

- * ولما كانت نَعَمُ الله الجليلةُ رحمةً وإكراماً مِنَ الله تعالى بدأت السورةُ باسمِ الله ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾﴾، وَخُتِمَتْ بوصفه تعالى ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.
- * وحيث بدأتِ السورةُ باسمِ الله ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾﴾، فقد خُتِمَتْ ببيانِ رحمةِ الله تعالى بأوليائه وأصفيائه في الآخرةِ بدخولِ الجنةِ!
- * ولما بدأتِ السورةُ بأجلُّ النعمِ نعمةِ القرآن: كان مسك الختام بأوفى النعم، نعمة دخول الجنة.

المناسبة بين السورة وسابقتها

- بين سورة الرحمن، وبين سورة القمر: تناسبٌ جليٌّ وترابطٌ قويٌّ:
- * فسورة القمر مفتوحةٌ بمعجزة انشقاق القمر، بينما استُهلَّت سورة الرحمن بالمعجزة الكبرى التي أيدَ الله عز وجل بها نبيّه ﷺ: معجزة القرآن الكريم.
- * التناسب بين خاتمة سورة القمر مع مطلع سورة الرحمن ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾﴾ [الرحمن: ١]: فالمليك المقتدر هو الرحمن عز وجل، وبين اتصافه تعالى بالملك والاقْتِدَارِ والرحمة، مناسبةٌ واضحةٌ؛ لأنه لا يملك الرحمة ولا يقدر عليها إلا المليك المقتدر.
- * ختامُ السورتين بالشأنِ على الله تعالى ففي نهاية سورة القمر وصفه تعالى بالملك والقدرة، قال تعالى ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾، وفي نهاية سورة الرحمن تنزيهه وتقديسه وتمجيد، وبيان اتصافه تعالى بذِي الجلال والإكرام قال تعالى ﴿نَبِّزَكَ أَنتُمْ رَبِّيكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].
- * ختمت السورتان بنعيم المتقين في الجنان، ففي ختام سورة القمر يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّتَّائِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥١﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥]، كما ختمت سورة الرحمن بذلك.

* لما بينت سورة القمر إعراض الكفار عن الآيات والنذر وتكذيبهم بها، ذكرت سورة الرحمن تكذيبهم بآلاء الله تعالى وغفلتهم عنها: قال تعالى في مطلع سورة القمر ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② ﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُعِنُّ الزُّنُورُ ⑤ ﴾ [القمر: ١ - ٥]، كما بينت السورة عاقبة بعض الأمم المكذبة: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون..

* في سورة الرحمن تكرر قوله تعالى ﴿ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: إحدى وثلاثين مرة. وفي سورة القمر دعوة إلى النظر والاعتبار بالآيات والنذر، وفي سورة الرحمن دعوة للنظر في نعم الله تعالى والتفكير فيها وأداء شكرها والتحذير من نكرانها.

* أتت سورة الرحمن مفصلة لما ورد في سورة القمر من أحوال القيامة وأهوالها ووصف الجنة والنار.

تحدثت السورتان عن نعمة القرآن، فبينت سورة القمر تيسير الله تعالى لكتابه حيث تكرر قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَتْرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑦ ﴾ [القمر: ١٧] أربع مرات في السورة تذكيرا وتقريرا ولفنا لهذا المعنى، بينما استهلكت سورة الرحمن بنعمة تعليم القرآن قال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② ﴾ [الرحمن: ١ - ٢].

* في سورة القمر ﴿ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ④ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ⑤ ﴾ [القمر: ٤٩-٥٠]، وفي سورة الرحمن ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ ﴾ ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ⑧ ﴾ ﴿ فَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑩ ﴾ [الرحمن: ٢٩ - ٣٠].

والصلة بين هذه الآيات لا تخفى: فلهذا الكون خالق رازق مدبر مقدر، ولهذا الكون نظام محكم، وتصريف عجيب، وتناسق بديع، وميزان دقيق.

* في سورة القمر ﴿ وَحَمَلْنَهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدْرِكٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر: ١٣-١٥].

وفي سورة الرحمن ﴿ وَلَهُ الْمَجَارِ الْمُنْتَشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالِأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمْ أَكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾. وتلك مقابلة لطيفة ومناسبة دقيقة حيث ذكر الله تعالى في سورة القمر نعمته على نبيه نوح عليه السلام ومن آمن معه بسفينة النجاة، وفي سورة الرحمن ذكر امتنانه على عباده بالجوار المنشآت، ويُقال إن أول من صنع السفينة نوح عليه السلام، ولقد بين القرآن الكريم أن صناعة نوح للسفينة كانت بتوجيه وإرشاد وعناية ورعاية من الله تعالى قال سبحانه: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تناسب مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تضي السورة الكريمة بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، حيث تنتظم آيات السورة مع محورها انتظام حبات اللؤلؤ في عقدها النضيد، فتدور الآيات جميعها حول نعم الرحمن جلّ وعلا، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيّنا تنتظم في سلك واحد وتدور في فلك واحد، وهو الحديث عن نعم الله تعالى، وسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوه عديدة منها:

* حديث السورتين عن القيامة وأهوالها، وعن الجنة والنار، ولقد فصلت سورة الرحمن ما أجملته سورة القمر.

* حديث السورتين عن نعمة تيسير القرآن وتعليمه.

* حديث السورتين عن أقدار الله تعالى وتدبيره لهذا الكون وتصريفه لشؤونه.

* حديث سورة القمر عن جزاء الشاكرين، قال تعالى في قصة لوط مع قومه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾، وقد فصلت سورة الرحمن في نعم الله تعالى، وحدثت من التكذيب بها.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورة حول تعداد النعم كان استفتاح السورة باسم الله ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ ﴾ واهب النعم، كما بدأت السورة الكريمة بأجل النعم وأسناها نعمة إنزال القرآن، قال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ ﴾ « بُدِيَءَ بتعليم القرآن فقيل: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ ﴾ لأنها أعظم النعم شأنًا وأرفعها مكانًا كيف لا وهو مدارٌ للسعادة الدينية والدينية، معيارٌ على سائر الكتب السماوية، ما من مرصد يرنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه، ولا مقصد يمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للإيدان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتصر على ذكره تنبيهًا على أصالته وجلالة قدره»^(١).

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٨ / ١٧٦.

ثانياً: في رحاب السورة الكريمة

بعد وقفة متأنية ونظرة شاملة لهذه السورة الكريمة بدالي تقسيمها إلى سبعة مقاطع، تدور كلها حول نعم الرحمن:

المقطع الأول: من نعم الله الظاهرة

قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَارِ ۝١٠ فِيهَا فَكِّهَةٌ وَالتَّحُلُّ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ كَذَّبْتُمْ ۝١٣﴾ [الرحمن: ١ - ١٣]

مناسبة المقطع مع المحور

تستهل السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل: اسم الله تعالى الذي يحمل لنا بشائر الرحمات ونسائم الخيرات، يأتي هذا الاسم في مستهل السورة الكريمة ليكون دليلاً لها وعنواناً عليها وإشارةً لمضمونها، ومحوراً لآياتها، فتدور السورة الكريمة حول آثار رحمة الله تعالى، وآلائه التي لا تعد ولا تحصى.

التفسير الإجمالي

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾

تستهل السورة الكريمة باسم جليل تفرّده ربُّ العزة فلا يطلق على أحدٍ سواه: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾، وهو من الرحمة بل هو الرحمة في أجلِّ معانيها وأعظم آثارها، ومن رحمة الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم إنزاله القرآن وتيسير تعلمه تلاوةً وتدبراً وحفظاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾، فكما استهلّت السورة بهذا الاسم الجليل فقد بدأت بأجلِّ النعم وأسناها:

نعمة القرآن، وهذا من براعة الاستهلال وحسن المطلع.

فالقرآن رحمة ربانية ونعمة إلهية، حكمة بالغة ونعمة سابغة، وحجة قاطعة، أنزله الله هداية ورحمة، ونوراً وحكمة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) ﴿ [الأعراف: ٥٢].

وقال جل وعلا ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠٣) ﴿ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سبحانه ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) ﴿ [يونس: ٥٧].

وقال عز وجل ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨١) ﴿ [النحل: ٨٩].

فلما كانت السورة الكريمة تهدفُ إلى تعداد نعم الرحمن في الدارين ناسب ذلك افتتاحها بهذا الاسم الجليل ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ (١) ﴿، وبدأ بأوفر النعم وأجلها وهو القرآن؛ أساس الدين ومصدره الثرُّ، وأصلُ الشرع ومنبعه الصافي، وأقوم الهدى، وأعزُّ الكتب، وأشملها، وأصدق الحديث وأعدبُه.

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾

تذكُرنا السورة الكريمة بنعم الله تعالى الجليلة وآلائه الجزيلة ومن أهمها نعمة خلق الإنسان، فهل أدى الإنسان شكر هذه النعمة؟ وهل تفكَّر في هذه الآية العجيبة؟ وهل نظرَ نظرة تأمُّلٍ واعتبارٍ في أطوار خلقه؟ وهل تأمَّل في نعمة البيان التي تميَّز بها عن كثيرٍ من الخلق! فتمكن من الفهم والإفهام، والتعبير عن مطالبه، والإعراب عن مشاعره.

قال الألوسي: والمراد به «المنطق الفصيح المُعَرَّبُ عما في الضمير»^(١).

واختار الطبري عموم البيان هنا لكل ما يحتاجه الإنسان في دينه ودنياه: وفي ذلك يقول: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن الله عَلَّمَ الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعاش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه، لأن الله جلّ ثناؤه لم يخص بخبره ذلك، أنه عَلَّمه من البيان بعضا دون بعض، بل عمّ فقال: عَلَّمه البيان، فهو كما عمّ جلّ ثناؤه»^(٢).

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾

انتقل السياق من خلق الإنسان إلى خلق الأكوان، فبين تعالى انسجام هذا الكون وتناسقه، واتساقه عبر نظام محكم وحساب دقيق، قال تعالى ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ أي يجريان بحسابٍ دقيقٍ ونظامٍ محكمٍ لا يتبدلُ ولا يتحوّلُ.

ومن دقة هذا الحساب أن به تعرف الأوقات والليالي والأيام والشهور والفصول والسنين.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: قَالَ: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾: «بِحِسَابٍ وَمَنَازِلٍ»^(٣).

وعن مجاهد قال: ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ قال: «كحسبان الرحا»^(٤)، لأنها يدوران في الفلك كما تدور الرحا، فلا تخرج عن مدارها.

ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي ٢٠ / ١١٣.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٢ / ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٢.

(٤) جامع البيان للطبري ٢٢ / ١٠.

وقوله جل وعلا ﴿ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١١ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهل انتبه الإنسان إلى هذه النعم الظاهرة، نعمة الشمس والقمر وما يتفرع عنهما من نعم لا تحصى؟ أم أن وضوحهما وإفهامها كانا مدعاة للغفلة والنسيان؟

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ ﴾

النجم والشجر يسجدان لله تعالى في خشوع وخضوع وامتنال وإجلال لمقام الرحمن، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمُ الْغُدُورُ وَالْأَصَالُ ١٥ ﴾ [الرعد: ١٥]، ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ١٦ ﴾ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿ ٥٠ ﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ١٨ ﴾ [الحج: ١٨].

عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ ﴾، قال: «النجم ما اتبسط على الأرض، والشجر ما كان على ساق»^(١).

وعن مجاهد في قوله: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ ﴾: قال: نجوم السماء، وأشجار الأرض، يسجدان بكرة وعشياً^(٢).

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾: رفع السماء بغير عمد نراها، وبالإحكام والإتقان أبدعها وبنها

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/٣٣٢٢، وبحر العلوم للسمرقندي ٤/ ٢٢٦.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٧/ ٤٤٢.

وبالنجوم والكواكب رصَّعها وحلَّها.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، قال مجاهد: أراد بالميزان العدل. المعنى: أنه أمر بالعدل يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (٨)، أي لا تتجاوزوا العدل، وقال الحسن وقتادة والضحاك: أراد به الذي يوزن به ليوصل به إلى الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير «ألا تطغوا» يعني لئلا تميلوا وتظلموا وتتجاوزوا الحق في الميزان.

﴿وَأَقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾، بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل، ﴿وَلَا تَخْسِرُوا﴾، ولا تنقصوا ﴿الْمِيزَانَ﴾، ولا تطففوا في الكيل والوزن.

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) يعني: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال ها هنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (٨) أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (٩) أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِ﴾ (١٨٢) [الشعراء: ١٨١ - ١٨٢].^(١)

وأما وضع الميزان فإشارة إلى العدل، وفيه لطيفة «وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن، ثم ذكر العدل وذكر أخص الأمور له وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب». ^(٢)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٩٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٥ / ٦٠.

والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: ٧]، والثاني بمعنى المصدر ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ [الرحمن: ٨] أي الوزن، والثالث للمفعول: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ أي الموزون، وذكر الكل بلفظ الميزان لما بيَّنا أن الميزان أشمل للفائدة وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] وبمعنى المقروء في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩].

وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: ٣١].^(١)

وبالميزان يتحقق العدل والإنصاف ويرتفع الجور، ويضمن الناس حقوقهم.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْبَاءِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ بسطها ومهدها ويسرها وسلكها سبلا وجعل فيها معاش وقدّر فيها أقواتها، وأنبت أشجارها وأزهارها، وأجرى أنهارها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، مراعاة لمصالح الأنام.

هذه الأرض التي منها وعليها نشأنا، وبها درجنا، ومن خيراتها أكلنا وشربنا ونعمنا، هل توقفنا مرة أمام هذه النعمة التي تحوينا وتضمنا؟ هل أدينا شكرها؟ هل وفينا حقها؟ هل تدبرنا أمرها؟ هل استشعرنا عظمة خالقها الذي يسرها وبسطها ومهدها وقدّر فيها الأقوات والخيرات وأودع فيها الكنوز والأسرار؟ فإذ بها نعمة للناس جميعاً.

آيات كثيرة تذكرنا بهذه النعمة الجليلة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

(١) نفس المرجع ١٥ / ٥٧.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ [البقرة: ٢٢].

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣١].
 ﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَيْنَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٨].

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٣].
 ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ﴿١٠﴾ ﴾: أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدّها، وأرساها بالجلال الراسيات الشاخات، لتستقرّ بها على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألستهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

ولقد يسّر لهم فيها الحياة، وقدر فيها أوقاتا ومن أشهائها الفاكهة، ومن أكثرها منافع: النخيل، وفي الآية إشارة إلى جمال هيئتها، فضلا عن حلاوة ثمرتها، مما يزيد الناظر بهجة ومتعة، كما قال تعالى عن جمالها وشموعها ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق: ١٠].
 والأكمام هي أوعية الطلع التي ينبثق عنها الثمر.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل بالنخلة، حيث لا يسقط ورقها، ولا ينقطع نفعها، فكل ما فيها نافع مفيد، فضلا عن ثمرها الطيب: ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةَ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا. وَإِذَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ. فَحَدَّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَقَالَ «هِيَ النَّخْلَةُ»، قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لِأَنَّ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا»^(١).

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحياء في العلم الحديث رقم ١٣١: ورواه مسلم في صحيحه عنه صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب =

وعن شموخ هذه الشجرة الأصيلية، وعطائها الدائم، وتساميها يقول الشاعر:

كُنْ كَالنَّخِيلِ عَنِ الْأَحْقَادِ مُرْتَفِعاً يُرْمَى بِصَخْرٍ فَيَرْمِي أَحْسَنَ الثَّمْرِ

ثم ذكر الحب ذا الورق والسيقان التي تعصف وتصير طعاماً للماشية، وذكر منها الريحان.

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانَ ﴿١٤﴾ ﴾

ثم ذكر تعالى من تمام مَنِّهِ على عباده ومن كريم عطائه أن أمدَّ الخلق بما يتقوّتون به وما يدّخرونه، وأتحفهم بطعامهم وأتمّ المنّة عليهم بطعام أنعامهم وماشيئهم، فضلاً عما ينبت في الأرض من ورودٍ ورياحين، وهذا من فضل الكريم ومن بديع صنعِهِ، أن جمع لهم بين ما يتقوّتون به وبين ما يتفكّهون مما يُمتعُّ الأنظار ويخلّب الأفكار، فتقرُّ العيون بأنقِ مرآه، في الحقول والبساتين، وعلى الموائد، وتفعمُّ الأنوفُ بعبق شداه، وتلذُّ الأفواه بطيب جناه.

والعصف: سيقان النبات وأوراقه التي ينتفعُ بها في غذاء الأنعام والماشية وفي غير ذلك من المنافع.

وبدأ بالفاكهة وختم بالريحان ليجمع بين اللذة بالغذاء والتمتع بالروائح الطيبة، والمناظر المبهجة.

ووصفُ الحَبِّ بأنه ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ للتذكير بمَنَّةِ جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله وبيادره، ونظير ذلك وصف النخل بذات الأكمَام.

الهدايات المستنبطة

* بدأت السورة الكريمة باسم الله الرحمن وهو مشتقُّ من الرحمة، والرحمة من أعظم وأجلِّ وأجلِّ الصفات، وأحبُّها إلى النفوس، قال تعالى ﴿ وَأَكْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

الْآخِرَةَ إِنَّا هَدَانَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿ [الأعراف: ١٥٦].

وقال جلّ وعلا ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً
وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعَطَّفُ
الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(١).

وعن عمر بن الخطاب ؓ أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فُرِّقَ بينها وبين
ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيًّا من السبي أخذته فألصقتُه بصدرها وهي تدور على
ولدها، فلما وجدته ضمته وألصقتُه ثديها، فقال رسول الله ﷺ: « أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً
وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ؟ » قالوا: لا يا رسول الله، قال: « فَوَاللَّهِ لَوْ
أَرْحَمَ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا » ^(٢).

وحظ العبد من هذا الاسم: أن يرجو رحمة ربه ويطمع في مغفرته ورضوانه، وأن يكون
رحيماً بالضعفاء، فيعينهم، وبالغافلين فيبصرهم، وبالمعرضين فيقبل عليهم، ويذكرهم.

ولو تراحم الناس فيما بينهم لما أمسى بينهم فقيرٌ ولا مظلومٌ، ولا بات فيهم جائعٌ ولا
محرومٌ.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب جعل الله الرحمة في مائة جزء، حديث ٦٠٠، ورواه الإمام مسلم
في صحيحه كتاب الرقاق باب سعة رحمة الله، حديث ٢٥٨٥ صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/١٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ؓ: صحيح البخاري كتاب الأدب باب: رحمة الولد
وتقبيله ومعانقته. في الحديث ٥٦٥٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه ﷺ صحيح مسلم كتاب التوبة باب
في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢- (٢٧٤٥).

فالرحمة خلق كريم من أخلاق المؤمن، وسمه من سمات المجتمع المسلم.

قال تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٌ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَآزَرَهُ، فَأَسْتَفْظَ فَاَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ^(١).

* أشارت المقدمة إلى نعمة من أجل النعم، نعمة العلم الذي تحيا به الأرواح والقلوب وتنهض به الأمم والشعوب، قال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾، فالعلم رتبة جليلة، ومنزلة أئيلة، ومزية وفضيلة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ ﴾ [النمل: ١٥].

وواجب العالم أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة، وأن يعمل بما علم ولا يبخل بعلمه على أحد ولا يكتمه، وأن يوظفه في نفع الناس.

هذا ومما يؤسف له في هذا العالم الذي نكابده همومه ونعايش مشكلاته ونكتوي بنار أزماته أن يوجه العلم عن غير مساره الصحيح ويوظف في كثير من الأحيان إلى الإضرار بالإنسانية من قبل من لا خلاق لهم ولا ذمة من الكفرة والملاحدة الذين فرحوا بما عندهم من علم وحرموا الإنسانية من اقتطاف ثمار العلم النافعة، بل صار العلم وبالاً ونقمة، حتى أنفقت «المليارات» في مشاريع مفسدة للبيئة والقطرة، وفي تطوير أسلحة الإبادة الشاملة، حتى

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي عنها كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين حديث ٢٥٨٦، ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه ٤٠ / ٢٧٠، والبيهقي في السنن ٣ / ٣٥٣.

غدا تقدم العلم نذيراً ومؤشراً على تفاقم خطر التلوث البيئي، وكم والله تُبدد الميزانيات وتُهدر الطاقات وتضيع الأوقات! بينما يعيش أغلب البشر في فقرٍ وحرمانٍ، وإنني لأكتب هذه السطور بينما نقف على أبواب كارثة - إن لم نكن قد أقحمنا فيها بالفعل - وهي أزمة الغذاء العالمية، بسبب نقص حاد في المحاصيل الزراعية، وغلاء فاحش واستغلال بشع ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الذي قد كنتَ ترجوه وتعلمُ	أهذا جَنَى العلم الذي قد غرستهُ
لنفسِكَ في الدارينِ لو كنتَ تفهمُ	وهذا هو الحظُّ الذي قد رضيتهُ
لعمرك لا ربحٌ ولا الأصلُ يسلمُ	وهذا هو الربحُ الذي كسبتهُ
وجدتَ بشيءٍ مثله لا يُقَوِّمُ	بخلتَ بشيءٍ لا يضركَ بذلهُ
ببخسٍ عن قليلٍ سيعدمُ	وبعتَ نعيماً لا انقضاءَ له
فأنتَ مدى الأيامِ تبني وتهدمُ	وتهدمُ ما تبني بكفِّيكَ جاهداً
كذبتَ يقيناً في الذي أنتَ تزعمُ	وتزعمُ مع هذا بأنك عارفٌ
وإنَّكَ بينَ الجاهلينَ مقدمُ	وما أنتَ إلا جاهلٌ ثم ظالمُ

* المتأمل في آيات السورة الكريمة يجد آيات باهرات ودلائل نيرات على ذلك الجمال الرباني الذي أودعه الخالق جل وعلا في هذا الكون الفسيح: سماء ذات أبراج قد زيتها كواكب نيرات، وأرض ذات فجاج لو تأملتها في جناحتها الباسقة وروضاتها الباسمة لتتعت ناظريك بسحرها وجمالها وروعتها، فضلاً عن تلك البحار وما فيها من آيات الجمال وما حوته من لآلئ ومرجان في غاية الإبداع، وبشتى الألوان وغاية الإتقان فسبحان مبدع الأكوان:

تِلْكَ الطَّيْبَةُ قِفِ بِنَا يَا سَارِي
 الْأَرْضِ حَوْلَكَ وَالسَّمَاءِ اهْتَرَّتَا
 مِنْ كُلِّ نَاطِقَةٍ الْجَلَالِ كَأَنَّهَا
 دَلَّتْ عَلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ فَلَمْ تَدْعِ
 مَنْ شَكَّ فِيهِ فَنظَرَةٌ فِي صُنْعِهِ
 حَتَّى أُرِيكَ بَدِيعَ صُنْعِ الْبَارِي
 لِرَوَائِعِ الْآيَاتِ وَالْآثَارِ
 أُمَّ الْكِتَابِ عَلَى لِسَانِ الْقَارِي
 لِأَدَلَّةِ الْمُفْقَهَاءِ وَالْأَحْبَارِ
 تَمَحَّوْا أَيْمَ الشَّكِّ وَالْإِنْكَارِ^(١)

تأمل في خلال الأرض وانظر
 عيون من لجين شاخصات
 على قضب الزبرجد شاهدات
 إلى آثار ما صنع المليك
 بأحداق هي الذهب السيك
 بأن الله ليس له شريك^(٢)

المقطع الثاني: نعمة الخلق

قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝١٥﴾ فَإِنَّ آيَةَ آيَةٍ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٦﴾

مناسبة المقطع لما قبله

تأتي نعمة الخلق في مقدمة النعم الربانية فهي أصل النعم وأساسها من هنا كان الحديث عنها في هذه السورة الجليلة.

(١) الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي.

(٢) الأبيات للعالم المحدث الواعظ عبد الغني النابلسي ت ١١٤٣ هـ.

التفسير الإجمالي

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي صوتٌ إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال الذي تغيرت رائحته بطول بقائه، والفخار الطين الذي تعرض لشمس أو أدخل نارا شبه به الصلصال لشدة يسه، وفي هذه الآية بيان لطور من أطوار خلق آدم، حيث خلقه الله من تراب قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ يَكْتُمُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُمُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥].

والمراد هنا خلق أبيهم آدم، لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن هذا التراب اختلط بالماء فصار طيناً، ولذا قال تعالى ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧١] ثم حُمِرَ هذا الطين فصار حمأ مسنوناً، أي طيناً مصوراً كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦] الآية. وقال تعالى: ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] ، ثم ييس هذا الطين فصار صلصالاً. كما قال هنا: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١٤].

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ ﴾

وخلق الجان من مارج من نار، وهو ما اختلط بعضه ببعض، وقيل لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقيل: مارج من نار لا دخان لها. ^(١)

﴿ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

{ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمَا تُكذِّبانِ }، أيها الثقلان، يريد من هذه الأشياء المذكورة. وتكرار هذه الآية الكريمة التي تعدُّ تذييلاً لما سبقها من نعم؛ نظراً لتعدد هذه النعم

(١) جامع البيان للطبري ١٨ / ٤٠.

وتنوعها، « وكرّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيدي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً، فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عربياً، فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملاً، فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حسن تقريراً»^(١).

وعن ابن قتيبة « أن الله عدّد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع كل خلة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها». وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة^(٢).

ومن لطائف هذا التكرار: ما ذكره النسفي في تفسيره: حيث قال رحمه الله: « وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنة وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنة اللتين دونها»^(٣).

الهدايات المستنبطة من المقطع

* إعجاز القرآن الكريم في حديثه عن خلق الإنسان حيث بين أصل مادة تكوينه وهي التراب الذي صار طينا لزجا ثم تشكّل وتحددت معالمه وهو المسنون ومنه سنة الوجه أي هيئته وملامحه، ثم يبس فصار صلصالا كالفخار، فصار الإنسان بهذا الشكل حتى نفخ الله فيه الروح كما قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٢٨٤.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٤٣، ومشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٩.

(٣) مدارك التنزيل للنسفي ٤ / ٢٠٦.

هذا « وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض. فهو يتكون من الكربون، والأوكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت والآزوت والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم. وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب. وإن اختلفت نسبتها من إنسان لآخر »^(١).

* تثير الآيات الكريمة فينا تساؤلات عديدة: هل نحمد الله تعالى على أن خلقنا في أحسن تقويم؟ وهل نؤدي شكر هذه النعمة؟ وهل تفكرنا في غاية وجودنا في هذا الكون، وهو عبادة الله تعالى حق العبادة كما قال سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

بين المقطع ومحور السورة

* الصلة واضحة جلية حيث التذكير بنعم الله تعالى التي لا تُحصى والتي من أهمها نعمة الخلق، فهي أصل النعم.

المقطع الثالث، من نعم الله في الأفاق

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۗ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما سبقه

لما تحدث سبحانه عن خلق الثقلين الإنس والجان، ناسب ذلك ذكر الخافقين المشرق

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٥١ بتصرف.

والمغرب، فكما خلق الله الإنس والجان مع ما بينهم من تنافر واختلاف، فكذلك خلق سبحانه المشرق والمغرب مع ما بينهما من بعدٍ واختلاف، حتى يضرب بهما المثل في البعد كما ورد في قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرَيْنِ ﴾ [الزخرف: ٣٨].
وكما قال الشاعر:

سَارَتْ مَشْرِقَةٌ وَسِرْتُ مَغْرِبًا شَتَانٌ بَيْنَ مَشْرِقٍ وَمَغْرِبٍ

وكذلك خلق الله البحرين مختلفين فلا امتزاج بينهما، وفي هذا التنوع والاختلاف فوائد ومنافع لا تحصى، فقد ناسب الحديث عن المشرقين والمغربين الحديث عن عالم البحار والأنهار حيث الآفاق الرحبية والعوالم العجيبة.

بين المقطع ومحور السورة

تتنظم آيات هذا المقطع مع محور السورة الذي يدور حول نعم الله تعالى على الأنام.

التفسير الإجمالي

من نعم الله تعالى الجزيلة وآلائه الجليلة ربوبيته سبحانه للمشرقين والمغربين خلقاً وملكاً وتقديراً وتصرفاً وعنايةً ولطفاً.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (١٧)، قال: «لِلشَّمْسِ مَطْلَعٌ فِي الشُّتَاءِ، وَمَغْرِبٌ فِي الشُّتَاءِ، وَمَطْلَعٌ فِي الصَّيْفِ، وَمَغْرِبٌ فِي الصَّيْفِ، غَيْرُ مَطْلَعِهَا فِي الشُّتَاءِ وَغَيْرُ مَغْرِبِهَا فِي الشُّتَاءِ» (١).

﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٨) مما في ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء، وانتظام الأوقات، واختلاف الفصول، مما يتلاءم مع منافع الأنام ويتوأكب مع مصالحهم.

﴿ مَرَجَ الْجَبَرَيْنِ يَلْقِيَانِ ﴾ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَا يَبْعِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٣.

اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾: ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب الانتقال إلى الاعتبار بخلقها والامتنان بما أودعها من منافع الناس.

﴿يَنْبَغِي بَرِّحٌ لَا يَتَّبِعَانِ ﴿٢٢﴾﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من أجرام الأرض لا ينبغي أحدهما على صاحبه، وقيل لا يمتلطان ولا يمتزجان ولا يتغيران وقيل لا يطغيان على الناس بالغرق.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾﴾: اللؤلؤ معروف ويتكون في الأصدف، والمرجان كائنٌ بحري ذو أطرافٍ دقيقة ينشأ لنا ثم يتحجر ويتصلب كلما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية، وألوانه بديعة.

وفي ذكر اللؤلؤ والمرجان لفت الأنظار إلى لطائف وجماليات النعم التي أودعها الله في هذا الكون، فلا تقع العين إلا على جمال.

فاللؤلؤ والمرجان من تمام نعمه تعالى على عباده ومن لطائف جوده، وفي التفكر فيهما ما يزيد المؤمن تعظيماً وإجلالاً للخالق جل وعلا.

﴿وَلَهُ الْمَجَارِ الْمُنْتَشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾﴾: الجواري: جمع جارية وهي السفينة، ﴿الْمُنْتَشَاتُ﴾ أي المرفوعات المصنوعات، ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل.

وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن للإشارة إلى أن كونهم هم منشئوها لا يخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل.

الهدايات المستنبطة

* في كل يوم تشرق الشمس علينا ثم تغرب آخر النهار، وفي هذا من النعم ما لا يحصى، وفي

اختلاف المشارق والمغارب باختلاف فصول السنة وأيامها نعمٌ جليلةٌ وفوائدٌ عظيمةٌ لا يدركها إلا العالمون.

* البحار والأنهار من أجل النعم ومن لطف الله تعالى وحكمته أن جعل ماء النهر والبحر مزايا وخصائص تتناسب مع طبيعة الحياة وحاجات الكائنات، فللبحر العذب خصائصه ومزاياه وفيه كائناته وعوالمه، وكذلك البحر المالح له مزايا لا تنحصر وله خصائصه وله أحيائه وعوالمه، وهذا التنوع العجيب في عالم البحار والأنهار ينصبُّ في صالح الإنسان كما يستفيد منه الجان؛ ولذا جاء الخطاب موجهاً إلى الثقلين معا مذكراً بهذه النعمة التي تشملها.

والبحران المشار إليهما هما البحرُ المالحُ والبحرُ العذبُ، ويشملُ الأولُ البحارَ والمحيطات، ويشمل الثاني الأنهار، ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان، ولكنهما لا يبغيان، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله، وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يأت مصادفة ولا جزافاً، فهو مقدر تقديراً عجيباً، الماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض؛ ويشغل اليابس الربع، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة.

وفي قلب البحار اكتشف الناس ينابيع الماء العذب، وهذا من عجيب لطف الله وبديع صنعه.

وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باقٍ دون تلوث في الواقع - ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.. وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط -.

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس؛ وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله. وأعظمها الأنهار. والتوافق بين سعة

المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب.

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة، من نبات وحيوان وإنسان..

وتصب جميع الأنهار - تقريباً - في البحار. هي التي تنقل إليها أملاح الأرض، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها. ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح، فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها! وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله. فلا يبغيان، فلا عجب يذكر البحرين، وما بينهما من برزخ، في مجال الآلاء ﴿فَيَأْتِي آءَآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾. ثم يذكر من آلاء الله في البحرين بعض ما هو قريب منهم في حياتهم^(١).

من لطائف النعم

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَأَن ﴿٢٦﴾ وَبَغَىٰ وَجَهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِي آءَآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْتَلُّهُ. مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِي آءَآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِي آءَآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

المناسبة

بعد الحديث عن تلك النعم العاجلة ذكّر تعالى بنعمة هي السبيل أو الوسيلة إلى تحقق النعم الآجلة، نعم الآخرة، نعمة الموت حيث الانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وقد قيل: لا تظنوا الموت موتاً إنه حياة وهو غايات المنى لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا الانتقال من هنا

(١) يراجع: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٤٥٣.

كما تناولت الآيات طائفةً من دقائق النعم ولطائف الكرم، ومنها نعمة تدبير هذا الكون وتصريفه ونعمة الحساب والجزاء في الآخرة.

بين المقطع ومحور السورة

الفناء من نعم الله تعالى على عباده وهو سنة الوجود، وقنطرة إلى دار الخلود. ولولا الموت لاستحالت الحياة، ولولا الفناء ما كان البقاء، والموت كما أسلفنا راحةً للمؤمن وراحةً من الكافر والمنافق، من هنا تنتظم الآيات مع أخواتها في عقد النعم.

التفسير الإجمالي

جاءت هذه الآيات حداً فاصلاً بين نعم الدنيا والآخرة، فهي تتحدث عن الموت وهو القنطرة والمر إلى نعيم الآخرة، وكل ما في الوجود من مخلوقات، لا بد لها من تجرع كأس الموت، فلا يبقى إلا الحي تبارك وتعالى ذو الجلال والهيبة والعظمة والسلطان، وصاحب العطاء والجد والإكرام.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾ ﴾ فكل من على هذه البسيطة من كائنات ستنقضي أيامها، وتذبل براعمها، وتذوي أغصانها، وتساقط أوراقها، وينطفئ بريقها وتنطوي صفحاتها، قال تعالى ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَثُهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال جلّ وعلا ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

يمضي الصغير إذا انقضت أيامه
والناس في قسم المنية بينهم
إنر الكبير ويولد المولود
كالزراع منه قائم وحصيد

وقال قس بن ساعدة:

في الزاهبين الأولي
لمأرايت مواردا
ورأيت قومي نحوها
لا يرجع الماضي ولا
أيقنت أتي لا محالة
ن من القرون لنا بصائر
للموت ليس لها مصادير
تمضي الأصغر والأكابر
يبقى من الباقيين غابر
حيث صار القوم صائر

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فالله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، وهو الذي تقصده الخلائق في قضاء حوائجها وهو الغني وكل الخلق مفتقر إليه، وكل يوم هو في شأن، من إحياء وإماتة، وقبض وبسط، وغير ذلك من تصرفه وتديره لشؤون خلقه بما تقتضيه الحكمة، وهذا من تمام إنعامه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

أي للحساب، وفي هذا وعيد للمسيء ووعد للمحسن، « ولما كان تخوفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم فقال ﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(١)

الهدايات المستنبطة

الموت نعمة من الله: في قوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٢﴾ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٨] ما يفيد أن الموت من آلاء الله عز وجل أي من نعمه التي لا يكذب بها إلا جاحد معاند، فإن الموت بوابة إلى الآخرة، وكنز لا بد من عبورها، فالموت نعمة من الله لأنه يذكرنا بالحياة وما يذكر بالنعمة فهو نعمة.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٨٣٠.

والموت نعمة من الله لأنه من أعظم العظات وأبلغ العبر.

والموت نعمة من الله لأن الصبر والاحتساب عند فقد الأحباب يفضي إلى جزيل الثواب.

والموت نعمة من الله لأنه انتقال من دار العمل إلى دار الجزاء، ليجزي المؤمن بإيمانه وإحسانه، ويمجزي الكافر بكفره وعصيانه.

والموت نعمة من الله تعالى؛ فكم قصم الله بالموت أعناق جبابرة فأراح منهم العباد والبلاد، ونقلهم من القصور إلى أعماق القبور، ومن بين الحشود والجنود إلى بيت بابه مسدود، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩]، ﴿فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

والموت نعمة من الله: فبالموت يستريح المؤمن من هموم الدنيا ونكدها ومحنها وفتنها وآفاتها، فعن أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه أنه: «كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ؟ قَالَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالِدَوَابُّ»^(١).

ولولا أن الله كتب الموت على الأحياء لأصبحت الدنيا متحفاً مفتوحاً للمعمرين فهذا عمره خمسمائة عام، وهذا عمره ألفان، وهذا عمره سبعة، وهكذا تمتلئ الدنيا بالمعمرين.

«فلو أن ذبابتين تتوالدان بلا موت لمدة خمس سنوات لشكل ذلك الذباب طبقة حول

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب سكرات الموت حديث ٦٥١٢، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز باب ما جاء في مُسْتَرِيحٍ وَمُسْتَرَاخٍ مِنْهُ، حديث ٦١ - (٩٥٠) والنسائي في السنن عنه كتاب الجنائز باب اسْتِرَاخَةُ الْمُؤْمِنِ بِالْمَوْتِ حديث ١٩٠٤. والإمام مالك في الموطأ كتاب الجنائز باب جامع الجنائز ٢ / ١٦٨.

الكرة الأرضية سمكها خمس ستيمترات من الذباب»^(١).

ومن هنا فإن الموت نعمة من الله، به يتحقق التوازن في هذا الكون.

* وفي الآية ردُّ على اليهود حيث قالوا: إِنَّ اللَّهَ يَسْتَرِيحُ يَوْمَ السَّبْتِ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، وَلَوْ أُخْلِيَ الْعَالَمُ لِحِظَّةٍ مِنْ حِفْظِهِ لَتَلَأَشَى وَبَطَلَ.

* ومن شأنه أن يغفر ذنباً، وَيَسْتَرَّ عِيَاباً، وَيُذْهِبَ كَرْباً، وَيُطَيِّبُ قَلْباً، وَيُقْصِي عَبْدًا وَيُذْنِي عَبْدًا... إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلَّ ساعةٍ برٌّ جديدٌ، وسرٌّ بينه وبين عبده - عن البقاء - بعيد، ويقال: كل يوم هو في شأنٍ سَوَّقِ المقادير إلى أوقاتها، ويقال: كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسرٍّ ظاهرٍ، وإحْضارٍ غائبٍ وتغييبٍ حاضرٍ. سأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها، فقال غلام له أسود: يا مولاي، أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي، فأخبره فقال له: أنا أفسرها للملك فأعلمه، فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً ويسقم سليماً، ويبتلى معافاً ويعافي مبتلى، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويفقر غنياً ويغني فقيراً؛ فقال الملك: أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال: يا مولاي هذا من شأن الله.^(٢)

* الحساب والجزاء من أجل النعم التي بها تستقيم أمور الدنيا وموازن الآخرة، ليجزي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته، ويُقْتَصُّ للمظلوم من ظالمه.

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى رحمه الله ١٠ / ٥٦٥٢.

(٢) الكشف للزخشري ٤ / ٤٦.

المقطع الخامس: تحدُّ واعجاز

﴿ يَمَعَشَرِ الْجَيْنَ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن ٣٣-٣٦]

المناسبة

بعد الإشارة إلى حساب الثقلين في الآخرة بين تعالى أن هذا الموعد المرتقب لن يتفَلَّت منه أحدٌ، فلا مفرَّ من الله إلا إليه، ثم انتقل بنا السياق إلى جملة من أهوال يومِ الفزعِ الأكبرِ.

بين المقطع ومحور السورة

نعم الله في هذه الآيات واضحة وآلؤه ظاهرة وهي منتظمة مع سياق السورة ومحورها الذي يدور حول نعم الرحمن في الدارين.

التفسير الإجمالي

قيل هذا النداء يوم القيامة حيث لا مفرَّ ولا مهرب من قدر الله تعالى، وهو الذي أرجحُه مراعاةً لسياق الآيات، وعلى هذا فقولته تعالى ﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾: توبيخٌ في الآخرة للمكذبين، وتأنيبٌ لما وقع منهم في الدنيا من تكذيب.

وقيل الآية: تحدُّ لهم في الدنيا، بأنه لا سبيل إلى النفوذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطان، قال بعض المعاصرين هو سلطان العلم، واعتبروا ذلك من إعجاز القرآن حيث أشار إلى صعود الفضاء، وعلى هذا فقولته تعالى ﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾: تنويهٌ وتذكيرٌ بنعمة العلم ونعمة التوفيق والهداية والسداد تلك النعم التي ظهر أثرها في تمكّن الإنسان من ارتياد الفضاء والهبوط على سطح القمر، فهل شكَّر روادُ الفضاءِ ومن وراءهم هذه النعم؟ لا والله بل كفر الكثير منهم وأعرضوا وفرحوا بما عندهم من العلم واغتروا وركنوا لما يتملكونه من تقنيات كما هو حال الغرب الآن، إلا من عصم الرحمن.

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءَ آءَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾:
وذلك في الآخرة، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم؛ أنهم في قبضة الجبار، فلا تفلت ولا فرار، ولا نصير
ولا مخلص، فالنار تلاحقهم أينما حلوا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَأَنْثَانَ
عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةً عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةً عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيُحْشَرُ بِقَيْتِهِمُ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ
قَالُوا، وَتَبِيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتَمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا) ^(١).

وَالشَّوَابُ: وَهُوَ اللَّهَيْبُ الَّذِي لَا دَخَانَ فِيهِ، وَالنَّحَّاسُ: الْمَذَابُ الَّذِي يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. ^(٢)

ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿ أَنْطَلِقُوا لِيَ مَا كُنْتُمْ بِهِءَ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ
﴿ لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٤].

﴿ فَيَأْتِيءَ آءَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن التخويف لطفٌ أي لطف، وتكرار الإنذار نعمةٌ بعد
نعمة، والتقديم بالوعيد إنصافٌ ورحمة، وإذا حملنا الخطاب على ما يكون في الآخرة: فهذا
تقريعٌ بعد تقريع.

الهدايات المستنبطة

- * من رحمة الله بعباده ولطفه بهم أن أذرهم وحذرهم من سخطه وعذابه، وأذرهم من شديد عقابه.
- * الحساب والجزاء نعمةٌ من أتمَّ النعم فهو رحمةٌ للمحسنين وعدلٌ بالمسيئين.
- * في الآيات إشارةٌ علميةٌ - كما ذكر بعض العلماء - وهي التنويه على ارتياد الفضاء بسلطان العلم.
- * لا مفرَّ يوم القيامة من قضاء الله ولا عاصمٍ من أمر الله، ولا ناصرٍ لأعداء الله.

(١) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب كيف الحشر - حديث ٦٠٤١.

(٢) معالم التنزيل للإمام البغوي ٧ / ٤٤٨.

المقطع السادس: عاقبة المجرمين

﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءَ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آءَانِ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٧-٤٥]

المناسبة

ما زال الحديث موصولاً حول أهوال هذا اليوم العظيم، ووقعه على المكذبين المجرمين وهذا من نعمه تعالى أن انتقم من العصاة، وأذنبهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، كما أن من نعمه تعالى: أن قدم إلينا بالوعيد.

بين المقطع ومحور السورة

لا يزال السياق حول نعم الله تعالى، ومنها نعم الآخرة، بمحاسبة الخلائق، وجزائهم.

التفسير الإجمالي

تذكير بهذا اليوم العصيب، يوم تشقق السماء تلك القبة الزرقاء التي تحيط بنا، يتبدل هذا اللون الذي يدعو إلى الطمأنينة ويجلب الراحة، إلى اللون الأحمر مما يثير الرعب والفرع، عندئذ يوبخ المكذب على تكذبه، والغافل على غفلته، فيقال للجاحدين الغافلين المكذبين بنعم الله تعالى ﴿ فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ مواطن مختلفة، ومواقف متباينة تزيدهم حيرة واضطراباً، وقلقاً ورعباً، فتارة يسألون وتارة لا يسألون، أو يسألون سؤال التوبيخ والتقريب والتفريع، لا سؤال الاستعلام، لأن الله تعالى عليهم بكل شيء.

وقال الحسن ومجاهد: لا يسأل الملائكة عنهم، لأنهم يعرفونهم بالسيما، والسيما التي

يعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرق العيون في الكفرة، قاله الحسن. (١)

ويحتمل أن يكون لكل طائفة سبها التي تميّزها وهيئتها التي تفضح حالها.

كما قال سبحانه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا

﴿ [مریم: ٨٥-٨٦].

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢﴾ [الصفات: ٢٢].

عَنْ أَنَسٍ ۞ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: (أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّبَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) (٢)

وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ۞ عَنْ النَّبِيِّ ۞ قَالَ (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) (٣).

﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ يعرفون بعلامات تميّزهم، من ذلك سواد الوجوه، وزُرْقَةُ

العيون، ثم يسحبون تارة من نواصيهم وتارة من أقدامهم أو: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره.

فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ويجرّونهم من أقدامهم ثم يلقونهم في النار.

﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾: فمن نعم الله تعالى أن ذكرهم وأنذرهم وأمهلمهم حتى يتوبوا

ويرجعوا، كما أن يوم القيامة من كمال نعمه تعالى على خلقه حيث يفصل بينهم ويميزي المحسن

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٦ / ٢٧١.

(٢) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن - باب قوله تعالى (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا). حديث ٤٤٨٢ وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب يحشر الكافر على وجهه رقم ٥٤ - (٢٨٠٦).

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال هذا حديث حسن صحيح سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرفائق والنورع عن رسول الله ۞ باب منه حديث ٢٤٩٢.

بإحسانه والمسيء بإساءته، كما يُوَبِّخُ الكفار في هذا الموقف على تكذيبهم بنعم الله تعالى.

﴿ فَيَأْتِيَهُمْ آيَآءُ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبِينَ ﴾ (١٤): هذه جهنم التي كذبوا بها في الدنيا، وسخروا وتهكّموا هذه جهنم التي حذر منها الأنبياء وأندروا، ها هي اليوم شاخصة بارزة متوفّزة، ها هي حاضرة بادية تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وترهيباً.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿ [الطور: ١٣-١٥].

وها هم يطوفون بينها وبين الحميم المغلي فهم بين النار والحميم، كالمستغيث من الرمضاء بالنار، تارة يعدّون في الجحيم، وتارة يُسْقَوْنَ من الحميم، وهو شرابٌ حارٌّ كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، ونظير هذا كقوله تعالى: ﴿ إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ [غافر: ٧١ - ٧٢].

يمشون بين النار والحميم فإذا أصابهم حرُّ النار طلبوا التبرّد فلاح لهم الماء فاشتبهوه، فأصابهم حرُّه فانصرفوا إلى النار ذوّالينك وهذا كقوله: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١٢) [الكهف: ٢٩].

﴿ فَيَأْتِيَهُمْ آيَآءُ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبِينَ ﴾ (١٥)

يقال ذلك توبيخاً لهم وتقريعاً في الآخرة، أو هذا خطابٌ للثقلين في الدنيا تذكيرٌ بنعم الله تعالى التي يغفل عنها الغافلون ويحدها الجاحدون ويعرض عنها المعرضون، ومن هذه النعم الجليلة الترهيب من النار ومن حرّها وهيبها، وتصريف الوعيد كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (١٣٣) [طه: ١١٣].

الهدايات المستنبطة

- * في تذكير الناس بأهوال القيامة ومواقفها العظام نعمٌ جليلةٌ، حتى نحذر الآخرة ونتزود لها بالتقى والصلاح.
- * عقاب المجرمين والتنكيل بهم من أعظم النعم؛ فبه شفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، فكم أفلت كثيرٌ من المجرمين من العقوبة العاجلة في الدنيا، وكم تنصّلوا بما وُجّه إليهم من تهم، أو عاجلهم الموت قبل القصاصِ منهم، أو لم تُهَيَأْ محكمةٌ عادلةٌ، ولكن أنى لهم الخلاصُ من المحكمة الإلهية الفاصلة؟
- * الذنوب لها روائحها التي تفوحُ كروائح الجيفِ، ولها أصباغها السودُ على الوجوه كقطع الليل المظلم، ولها ثقلها ووطأتها على الظهر التي تنوءُ بحملها، ولها حرارتها وهيئها على الأكبادِ اليابسةِ والنفوسِ الآيسةِ، فإذا رأتهم ملائكةُ العذاب سارعوا بالتنكيل بهم والانتقام منهم على جرائمهم النكراء، فترغمُ الأنوفُ وتقرعُ النواصي، وتُحصدُ الأقدامُ كما تُحصدُ الزروعُ بالمناجلِ ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (١١).
- * كمالُ قدرته تعالى وعظيمُ سلطانه وقوة جبروته بأعدائه الذين كذبوا به وكفروا بأنعمه تعالى.

المقطع السابع: نعيم المتقين

﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٤٧﴾ ذُرًّا أَنَابًا ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٤٩﴾ فِيهَا عِزٌّ مُبْتَدِيٌّ ﴿٥٠﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٥١﴾ فِيهَا مِن كُلِّ ثَمَرٍ مَّا نَشَاءُ ﴿٥٢﴾ مَكْتَسَبٌ غَلِيظٌ ﴿٥٣﴾ لِّمَنْ هَمَزَ لُحْمًا ﴿٥٤﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٥٥﴾ فِيهَا قَصْرٌ مِّمَّنْ يَلْمِزُ أَلْفَ لَيْلَةٍ مِّنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جُنَّاتٌ ﴿٥٦﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهَا لِبَابُ آسَافٍ ﴿٥٨﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٦٣﴾ مُدَّهَاتَتَانِ ﴿٦٤﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عِتَابٌ لِّفَاعِلَيْنِ ﴿٦٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ ﴿٦٨﴾ وَرِيَّانٌ ﴿٦٩﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٧٠﴾ فِيهِمَا حِجَابٌ ﴿٧١﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٧٢﴾ فِيهِمَا مَقْصُورَتٌ ﴿٧٣﴾ فِي الْحِجَابِ ﴿٧٤﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٧٥﴾ لِّمَنْ هَمَزَ لُحْمًا ﴿٧٦﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٧٧﴾ حُضْرًا وَعَبْقَرِيًّا ﴿٧٨﴾ حِسَابًا ﴿٧٩﴾ وَإِنِّي ءَأَلِّئُكُمْ ثَمَرًا مُكْتَسَبًا ﴿٨٠﴾ تَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٨١﴾ ﴾

[الرحمن: ٤٦ - ٧٨]

المناسبة

بعد الحديث عن مصير المجرمين المكذبين يأتي الحديث عن عاقبة المتقين، وتتظم اللجنة في سلك النعم الواردة في السورة لأنها هي النعمة الكبرى، والرحمة العظمى التي يمن بها الرحمن على من يشاء من عباده.

بين المقطع ومحور السورة

نعيم الجنة من أجل النعم، فهو النعمة الخالدة المتجددة، وتشويق المتقين إليها نعمة عظيمة؛ لأنها تجدد نشاطهم، وتعلي من همتهم، وتحفزهم على العمل الصالح، وبهذا تتجلى لنا الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة.

التفسير الإجمالي

بعد بيان مصير المجرمين يأتي الحديث عن مصير المتقين، وما أذخره لهم الرحمن، ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾ (٤٦)، وفي الصحيحين عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (جَنَّاتٍ مِنْ فَضَّةٍ أُنْبِئُهُمَا وَمَا فِيهِنَّ، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ أُنْبِئُهُمَا وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكَبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ).^(١)

﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ۖ﴾ (٤٧): وهذه نعمة من أجل النعم إنها نعمة دائمة في دار البقاء.

﴿ذَوَاتًا أَفْنَانٍ ۖ﴾ (٤٨): والأفنان: جمع فن أي صنف أو نوع أو فرع، فالنعيم فيها أصناف وألوان لا تحطرب بال، أي ذوات أنواع من الأشجار والثمار والأنهار، والقصور والدور والأثاث والمتاع، والنياب والمراكب، وألوان الأطعمة والأشربة، أو جمع فنن وهو ما دق ولان من الأغصان، وإنما خصها بالذكر لأنها هي التي تورق وتزهو وتثمر. فمنها تمتد الظلال، وتفتح الأزهار وتفتق الثمار، وكل ذلك من النعم التي تستوجب الشكر، ولذا عقبها بقوله تعالى ﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ۖ﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ﴾ (٤٩): ﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ۖ﴾ (٥١)

تلك العينان الجاريتان بما صفا وطاب ولذ: من ألوان النعيم، وأسباب الأُنس، والبهجة وصنوف اللذات، ونعمة الماء ولذة الشراب من أعظم النعم؛ لذا جاء التعقيب بقوله تعالى ﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ۖ﴾.

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهِمَ زَوَاجَانِ ۖ﴾ (٥٢): ﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ۖ﴾ (٥٣)

تنوع في صنوف النعم، وهذا من لطائف الكرم وتمام المنن، ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهِمَ زَوَاجَانِ ۖ﴾ (٥٢)، مما يعلمون ومما لا يعلمون، من المعروف المألوف، ومن العجيب الطريف.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير باب: ﴿وَمِنْ ذُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ رقم (٧٩٥٤)، وصحيح مسلم كتاب الإيثار - باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى رقم (١٨٠).

﴿ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾ تنويه وتذكير بهذه النعم الجليلة.

﴿ مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾

والانكباء يدل على صفاء البال، فهم في راحة ورفاهية، وأنس وبهجة، ﴿ مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾: البطانة ما تحت الظهارة، والإستبرق من الديباج الصفيق، ﴿ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾: ثمرها قريب مناله، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٢ - ٢٤]، وقوله جل وعلا ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾

﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ ﴾، على أزواجهن؛ فلا يرين ولا يتطلعن لغيرهم، قَصْرُنَ أَبْصَارِهِنَّ وقلوبهن وأسماعهن على أزواجهن، فلا يُرَدْنَ غيرهم، وهذا من تمام الإنعام وكمال الإحسان أن يرزق الرجل بالزوجة الحسنة التي تقرُّ بها عينه كما تقرُّ عينها به، يحبُّها وتحبُّه.

﴿ كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ ﴿٥٨﴾ ﴾ في صفاء الياقوت ومُحَمَّرَةٌ وروعةٌ وبياض المرجان، فهذا التشبيه

البلغ لوصف بياضهن المشرب بالحمرة مع صفاء البشرة ونعومتها ورقتها بالياقوت والمرجان.

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾ هل جزاء

من أحسن في دنياه، إلا أن نحسن له في آخرته؟ وهل جزاء من أحسننا له في دنياه بالهداية والتوفيق، إلا أن نحسن له في آخرته بالأجر والثواب؟

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدَاهِمَاتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِيءَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

جنتان من ذهب وجنتان من فضة وفي هذا التنوع والتفنن والتنقل بين المتع ما تبتهج به النفوس وتنشرح الصدور وتلذذ العيون وتلهج الألسنة بالحمد والثناء على واهب النعم جل

وعلا، فكيف يكذب أهل الضلال بهذه المسائل اليقينية؟ ﴿فَيَأْتِي آءِآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾
﴿مُدَّهَامَتَانِ ﴿١٤﴾﴾ وصف الجنتين بخضرتها الشديدة وأشجارهما الوريقة وظلالهما الوارفة،
وهذا من طيب التربة وصفاء الهواء وعدوبة الماء ووفرتة.

﴿فَيَأْتِي آءِآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾﴾ تذكيرٌ بالنعم وتأنيبٌ لمن يُصرُّ على التكذيب بها مع
جلالتها وجلالها.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿١٦﴾﴾ ﴿فَيَأْتِي آءِآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾﴾: النَّضْخُ فَوْرَانُ الْعَيْنِ
بِالْمَاءِ، وَعَنْ أَنَسٍ ؓ فِي قَوْلِهِ: «عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ»، قَالَ: بِالْمَسِكِ وَالْعَنْبَرِ، تَنْضُخَانِ عَلَى دُورِ
الْجَنَّةِ، كَمَا يَنْضُخُ الْمَطْرُ عَلَى دُورِ أَهْلِ الدُّنْيَا»^(١).

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿١٨﴾﴾ ﴿فَيَأْتِي آءِآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾﴾

في الجنتين من أطيب الفاكهة صنوفٌ وألوان، وخصَّ النخل والرُّمان لأنهما من أفضل
الفواكه، وإنما ذكر النخيل ولم يقل الرطب أو التمر ليشير إلى جمال النخيل وشموعها وروعها
فهي زينةٌ فوق ما فيها من الأطيب والمنافع؛ ولذا تغنى بها الشعراء، من ذلك قول أحدهم:

قَد طَابَ لِي مَقِيلِي	فِي سَهْلِكَ الْجَمِيلِ
فِي ظِلِّكَ الظَّلِيلِ	يَا شَجَرَ النَّخِيلِ
يَا جَنَّةَ الظِّلَالِ	يَا مَسْبَحَ الْجَمَالِ
وَيَا جَنِي السَّدَوَالِي	يَا شَجَرَ النَّخِيلِ
قَامَتْكَ الهَيْفَاءُ	ثُمَّ أَرَاكَ الحَمْرَاءُ
وَالْحَايِرُ وَالرَّخَاءُ	يَا شَجَرَ النَّخِيلِ
قَد طَابَ لِي مَقَامِي	وَرَفْرَفَتِ أَحْلَامِي
فِي رُكْنِكَ الحَرَامِ	يَا شَجَرَ النَّخِيلِ ^(٢)

(١) تفسير القرآن العظيم ابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٨.

(٢) الأبيات للهمشري.

وقال آخر:

وَفِي الرَّوِّضِ آيَاتٌ وَلِلنَّيْلِ رَوْعَةٌ
وَأَبْدَعُ مَا فِيهَا النَّخِيلُ مُقْلَدًا
فَلَا تَدَايُقُوتِ لَهَا الْحُسْنُ نَاطِمٌ^(١)

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «نخل الجنة سَعْفُهَا كَسَوْةٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مَقَطَعَاتُهُمْ، وَمِنْهَا خَلَلُهُمْ، وَكَرْبُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرٌ، وَجَذْوُعُهَا زُمُرْدٌ أَخْضَرٌ، وَتَمْرُهَا أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَلَيْسَ لَهُ عُجْمٌ»^(٢).

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ۗ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾
أي: حورٌ خَيْرَاتٍ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْوَجْهِ، قَدْ جَمَعَ بَيْنَ جَمَالِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، قَدْ بَلَغْنَ الْغَايَةَ فِي الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ، وَحَمِيدِ الْخِصَالِ، وَنُبْلِ الطَّبَاعِ.

والحوراء هي شديدة بياض الوجه وسائر البشرة مع سعة العينين في ملاحظة ودعج، ومع هذا الحسن البديع فهن خفريات، بناتُ الخدور، ربيبات القصور، ربّاتُ الحجال، مقصوراتٌ في الخيام، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنان، كما جرت العادة لبنات الملوك.
﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾: لَمْ يَفْتَضِضْهُنَّ، وَلَمْ يَمَسْسْهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَهِنَّ أَبْكَارٌ، وَلِلْبِكْرِ حِظْوَةٌ وَمَكَانَةٌ لَدَى الرَّجْلِ، قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٧٥﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧].

عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ جُوفَةٌ عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْأَخْرِيْنَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ أُنْيُتْهُمَا وَمَا فِيهَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ كَذَا أُنْيُتْهُمَا وَمَا فِيهَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ

(١) البيتان لخليل مطران.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٨، وقطع كرب النخل: أصول سعفها وهي الكرائيف.

وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءَ الْكِبَرِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنِ).^(١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَدَوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٌ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعٌ قِيدَ يَغْنِي سَوْطَهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لِكُلِّ مُسْلِمٍ خَيْرَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْرَةٍ خَيْمَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْمَةٍ أَرْبَعَةٌ أَبْوَابٌ، يَدْخُلُ عَلَيْهَا كُلُّ يَوْمٍ مِنْ اللَّهِ نُحْفَةٌ وَكِرَامَةٌ وَهَدِيَّةٌ، لَمْ تَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ لَا مَرَاحَاتٍ، وَلَا طَمَاحَاتٍ، وَلَا بَخِرَاتٍ، وَلَا ذَفِرَاتٍ»^(٣).

﴿ مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾^(٤)

الاتكاء مظهرٌ من مظاهر النعيم والرفاهية، والررفرف هو السرير الذي يجلس عليه المؤمن ويتهجد بمناظر الجنة.

عن سعيد بن جبیر: أنه قال في هذه الآية ﴿ مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ ﴾ قال: رياض الجنة.^(٤)

وقال القرطبي: «وقد قيل: إن الررفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته»^(٥).

(١) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) حديث ٤٥٩٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة خيام الجنة رقم ٢٨٣٨.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب الحور العين وصفتهن مجارٌ فيها الطرف شديدة سواد العين شديدة بياض العين حديث ٢٦٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٨.

(٤) جامع البيان للطبري ٢٣ / ٨٣

(٥) تفسير القرطبي ١٧ / ١٩١، و«اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل ١٥ / ٦٧، وقريبٌ منه في زماننا =

والبعقري الحسان: البُسْطُ والِنهَارِقُ والوسائد المنسوجةُ من الحرير بأبدع النقوش والألوان.

﴿بِزَكَّ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلِيلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨)

قوله تعالى: ﴿بِزَكَّ اسْمُ رَبِّكَ﴾: «تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى، فيه تقريرٌ لما ذُكِرَ في السورةِ الكريمةِ من آلائه الفائضةِ على الأنامِ أي تعالى اسمه الجليلُ الذي من جملته ما صُدِّرتَ به السورةُ من اسمِ الرحمنِ المنبئِ عن إفاضتهِ الآلاءِ المُفصَّلةِ وارتفعَ عمَّا لا يليقُ بشأنه من الأمور التي من جملتها جحودُ نعمائه وتكذيبُها، وإذا كانَ حالُ اسمه بملاسةِ دلالةِ عليه فيما ظنُّك بذاتهِ الأقدسِ الأعلى، ﴿ذِي الْجَلِيلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وصفَ به الربُّ تكميلاً لما ذُكِرَ من التنزيهِ والتقديرِ. وقُرِيَءَ ذُو الْجَلالِ على أَنَّهُ نعتٌ للاسمِ»^(١).

والجلال: العظمة، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى.

والإكرام: إسداء النعمة والخير، فهو إذن حقيق بالثناء والشكر.

الهدايات المستنبطة

* من نعم الله على عباده أن حدثهم عن نعيم الجنة ليزدادوا حرصاً عليها، ويطيروا شوقاً إليها، حيث النعيم المقيم والعيش الكريم والتمتع بكل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين دون منغص أو مكدر، ودون ملل أو سأم، ودون عجز أو ضعف أو حرمان.

ولله در ابن القيم حين قال:

فَلِلَّهِ كَمِ حورِيَةٍ إِنْ تَبَسَّمتْ أَضَاءَ لها نورٌ من الفَجْرِ أعظْمُ
فِيَا لذةَ الأبصارِ إِنْ هِيَ أَقبلتْ ويا لذةَ الأسماعِ حينَ تكَلَّمُ

=المنظاد، الذي يطيرُ فوق المدن والقرى والصحاري والغابات والأنهار والبحيرات.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٨ / ١٨٧.

ويا خَجَلَةَ الغُضَنِ الرطِيبِ إِذَا انْتَشَتْ
فِيانِ كُنْتَ ذَا قَلْبٍ عَلِيلٍ بِحُبِّهَا
تَفَكَّهُ مِنْهَا العَيْنُ عِنْدَ اجْتِلَائِهَا
عِنَاقِيدُ مِنْ كَرَمٍ وَتَفَاحٍ وَجَنَّةٍ
وَلِلْوَرْدِ مَا قَدِ أَلْبَسْتُهُ خَدُودَهَا
تَقَسَّمَ مِنْهَا الحُسْنُ فِي جَمْعٍ وَاحِدٍ
لَهَا فَرَقٌ شَتَّى مِنَ الحَسَنِ أَجْمَعَتْ
تُذَكَّرُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ هُوَ نَاطِرٌ
إِذَا قَابَلَتْ جَيْشَ الهُمُومِ بِوَجْهِهَا
وَلَمَّا جَرَى مَاءُ الشَّبَابِ بِغُضَنِهَا
فِيَا خَاطِبَ الحَسَنَاءِ إِنْ كُنْتَ بَاعِيًا

* وُغِضُّ الطَّرْفِ مِمَّا يَزِيدُ المَرَأَةَ حَسَنًا وَجَمَالًا، وَيَزِيدُ النَّاظِرَ إِلَيْهَا وَلَعَا وَافْتَتَانًا، وَقَدْ مَدَحَتِ
المَرَأَةَ بِذَلِكَ كَمَا قَالَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ رضي الله عنه:

وَمَا سَعَادَ غَدَاةَ البَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَعْنُ غَضِيضِ الطَّرْفِ مَكْحُولِ

أَي: كَظْمِي غَضِيضِ الطَّرْفِ.

وَوَجْهَ الشَّبهِ بِالبَاقُوتِ وَالمَرْجَانِ فِي لَوْنِ البَيَاضِ مَعَ حَمْرَةِ الخَدُودِ كَمَا يَشْبَهُ الخَدَ بِالوَرْدِ،
وَيَجُوزُ كَوْنُ التَّشْبِيهِ بِهَمَا فِي الصَّفَاءِ وَالبَرِيقِ وَالرَوْنِقِ.

* مِنَ العَجِيبِ أَنْ يَغْفَلَ الإِنْسَانُ عَنِ الحُورِ الحَسَنِ وَيَبْهَدُ مَهُورَهْنَ بَعْرَضِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ
وَقَدْ قِيلَ:

جُنَّتَا بَلِيلَى وَهِيَ جُنَّتْ بغيرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نُرِيدُهَا

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة عن أحمد بن أبي الحواري قال: قال لي أبو سليمان الداراني: يا أحمد إني محدثك بحديث فلا تحدث به أحداً حتى أموت: نمت ذات ليلة عن وردي فإذا أنا بحوراء تنبهني وتقول: يا أبا سليمان تنام وأنا أرى لك في الخدور؟ قال: فوثبت فزعاً وقد عرفت استحياء من تويخها إياي، وإن حلاوة منطقتها لفي سمعي وقلبي^(١).

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ١ / ٤٦٨.

سورة الواقعة

البعث والجزاء في سورة الواقعة

أولاً: بين يدى السورة:

أ. تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة (الواقعة) لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، والواقعة تعني الحادثة العظيمة، وهي اسم من أسماء يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لتحقق وقوعها، وكثرة ما يقع فيها من الشدائد^(١).

ب. فضائل السورة:

وردت أحاديث كثيرة في فضائل سورة الواقعة صحَّ منها حديثان:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شَبَّتَ! فقال صلى الله عليه وسلم: «شَبَّتَنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ [النبا: ١]، وَ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]»^(٢).

والثاني: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الصلاة كنعو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفُّف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، كان يقرأ في الفجر الواقعة، ونحوها من السور^(٣).

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٥٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٠٢/٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/١٩٤.

(٢) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني ٣/٣٦٨، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/١٣١، المستدرک، الحاكم النيسابوري ٢/٣٤٣، وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني ٢/٦٣٩.

(٣) المصنّف، عبد الرزاق الصنعاني ٢/١١٥، المستدرک، الحاكم النيسابوري ١/٢٤٠.

ج. مكان نزول السورة:

سورة الواقعة مكّية، قال ابن عطية: « وهي مكّية بإجماع مَنْ يُعْتَدُّ بقوله من المفسرين وقيل: إنّ فيها آياتٍ مدنية، أو ممّا نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت»^(١).

وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا آية منها نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]^(٢).

وقال الكلبي: مكية إلا أربع آيات؛ منها اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما: ﴿أَفِينَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ [٨١] و﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [٨٢]، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٩] و﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [٤٠]^(٣).

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الواقعة ست وتسعون آية في العد الكوفي، وتسع وتسعون آية في عدد الباقيين، قال الداني: « واختلافها في أربع عشرة آية:

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨]، وكذا: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: ٩]، لم يعدها الكوفي، وعددهما الباقيون.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥]، لم يعدها البصري والشامي، وعددها الباقيون.

﴿وَأَبَارِقُ﴾ [الواقعة: ١٨]، عددها المدني الأخير والمكي، ولم يعدها الباقيون.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، عددها المدني الأول والكوفي، ولم يعدها الباقيون.

﴿وَلَا تَأْتِيَانَا﴾ [الواقعة: ٢٥]، لم يعدها المدني الأول والمكي، وعددها الباقيون.

(١) المحرر الوجيز: ٣٣٨/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٥/١٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/١٩٤.

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧]، لم يعدها المدني الأخير والكوفي، وعدّها الباقرن.
 ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ۝٣٥ ﴾ [الواقعة: ٣٥]، لم يعدها البصري، وعدّها الباقرن.
 ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ [الواقعة: ٤١]، لم يعدها الكوفي، وعدّها الباقرن.
 ﴿ فِي سَمُورٍ وَجَمِيرٍ ۝٤٢ ﴾ [الواقعة: ٤٢]، لم يعدها المكّي، وعدّها الباقرن.
 ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧]، عدّها المكّي، ولم يعدّها الباقرن.
 ﴿ إِنَّكَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٩]، لم يعدّها المدني الأخير والشامي، وعدّها الباقرن.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٠]، عدّها المدني الأخير والشامي، ولم يعدّها الباقرن.
 ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ ۝٨٩ ﴾ [الواقعة: ٨٩]، عدّها الشامي، ولم يعدّها الباقرن^(١).

هـ. محور السورة:

سورة الواقعة كغيرها من السور المكّية تعنى بغرس العقيدة، وإقامة الدلائل على توحيد الربوبية والألوهية، وتقرير البعث والجزاء، وهذا الأخير هو محورها الأبرز، ودليل ذلك:

١ - الموضوعات التي تناولتها السورة، وهي:

أولاً: التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه، وأصناف الناس في ذلك اليوم، ومآلاتهم.

ثانياً: دلائل الإيمان بالبعث والجزاء.

ثالثاً: تعظيم شأن القرآن الكريم وصدق ما أخبر به من أمر البعث والجزاء.

وكل موضوع مما تقدم له ارتباط بمحور السورة، وسنشير إلى ذلك عند استعراض المعنى الإجمالي لمقاطع السورة إن شاء الله تعالى.

(١) البيان في عدّ آي القرآن ٢٣٩.

٢ - تحديد بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين مقصود هذه السورة بتقرير البعث والجزاء.

فأما المتقدمون؛ فقال مسروق بن الأجدع: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ نَبَأَ الْأَوَّلِينَ، وَنَبَأَ الْآخِرِينَ وَنَبَأَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَنَبَأَ أَهْلَ النَّارِ، وَنَبَأَ الدُّنْيَا، وَنَبَأَ الْآخِرَةِ، فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ»^(١).
وأما المتأخرون فمنهم: البقاعي، وسيد قطب، والمراغي، وابن عاشور، وسعيد حوى، والصابوني^(٢).

٣ - قوله ﷺ: «شَيَّبَنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَ﴿عَمَّ يَسَاءَ لُونٌ﴾ (١)، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)»^(٣).

وسر الاقتران بين هذه السور هو اتحادهن في تقرير النشأة الآخرة؛ وسنكتفي هنا بعرض بعض الآيات من كل سورة للتدليل على ذلك:

فمن سورة هود قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِيَكُمْ مِنْهَا حَسَنًا لِيْنَ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِيَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤) [هود: ٣-٤].

ومن سورة الواقعة قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥)﴾ [الواقعة: ١-٥].

ومن سورة المرسلات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ (١٠) وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِذَتْ (١١) لِأَنَّ يَوْمَ أُحُلَّتْ (١٢) يَوْمَ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا﴾

(١) فضائل القرآن، أبو عبيد ١٣٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٧/٤٠٤، في ظلال القرآن: ٦/٣٤٦١، تفسير المراغي: ٩/١٥٦،

التحرير والتنوير: ٢٧/٣٠٨، الأساس في التفسير: ١٠/٥٦٨١، صفوة التفاسير: ٣/٣٠٤.

(٣) تقدم تخريجه.

أَدْرَبْنَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ [المرسلات: ٧ - ١٤].

ومن سورة النبا قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ١٧ - ٢٠].

ومن سورة الشمس قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير: ١ - ٣].

فهذه الآيات شاهد صدق على قول الرسول ﷺ، وكلها تشترك في الحديث عن يوم البعث والجزاء، وما فيه من شدائد عظام، ولا ريب أن كل شدة من تلك الشدائد تنذر بحلول الشيب، وتندد بالركون إلى الدنيا، وتحض على الاستعداد ليوم المعاد.

وانطلاقاً مما تقدم يمكننا تسمية عنوان محور هذه السورة: «البعث والجزاء في سورة الواقعة».

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قال سيد قطب: « الواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها معاً، فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة، رداً على الشاكين فيها، المشركين بالله المكذبين بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَكَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأُولُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٤٨]»^(١).

كما أن الواقعة هي النفخة الآخرة للبعث، ووقوعها هو أول أحداث اليوم الآخر.

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٤٦١.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يظهر التناسب بين فاتحة هذه السورة وخاتمتها من وجهين:

أولاً: افتتحت السورة بتقرير البعث، ثم أقامت الأدلة على إمكانه، وورد في آخرها تأكيد لما تقرر في فاتحتها، وبذلك انطبق آخرها على أولها تمام الانطباق.

وبيان ذلك أنه لما تمَّ ما أُريد من التذكير بأمر البعث، وبعد أن أقام القرآن الأدلة القطعية المشاهدة على إمكانه، وكان الكفار رغم ذلك يكذبون به، ويقولون: ﴿أَوِنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] أكدّه في آخرها، فقال سائقا له مساق النتيجة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ [الواقعة: ٩٥]، فكانه من الظهور في حد لا يساويه فيه غيره، فهو حق اليقين، قال قتادة: إن الله تعالى ليس تاركاً أحداً من خلقه حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن؛ فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه^(١).

ثانياً: افتتحت السورة بالحديث عن القيامة الكبرى، وانقسام الناس عند وقوعها إلى ثلاثة أصناف، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ٧ - ١٠]، واختتمت بذكر أحوالهم عند القيامة الصغرى، وقسمتهم إلى نفس الأصناف المذكورة في افتتاحيتها، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَطْنَاكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزِّلُ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةً جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الواقعة وخاتمة سورة الرحمن:

تظهر العلاقة بين فاتحة سورة الواقعة وخاتمة سورة الرحمن من وجهين:

الأول: قسّمت سورة الرحمن الناس إلى ثلاثة أصناف في اليوم الآخر، الصنف الأول:

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/٣٨٢، ٣٨٣، نظم الدرر، البقاعي ٧/٤٣١ بتصرف.

المجرمون المكذبون بالبعث، ومصيرهم إلى جهنم، قال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرحمن: ٤٣]، والثاني: السابقون وهم أهل التقوى، وهم جنتان، قال تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، والثالث: أهل اليمين، وهم جنتان أدنى من جنتي السابقين، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وبدئت سورة الواقعة بذكر تلك الأصناف الثلاثة المذكورة في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ [الواقعة: ٧-١٠].

الثاني: في آخر سورة الرحمن إشارة إلى بعض صفات الله تعالى، قال تعالى: ﴿ بَرَكَةً أُنزِلَتْ بِرَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وفي أول سورة الواقعة حديث عن القيامة، وما فيها من المثوبات والعقوبات، وكلاهما يدل على علو اسمه تعالى، وكمال قدرته^(١).

٤. المناسبة بين مضمون سورتي الواقعة والرحمن:

بين مضمون هاتين السورتين تناسب بديع من وجوه، أهمها:

الأول: اشتراكهما في الحديث عن طورين مختلفين من أطوار خلق الإنسان، وعن النهايتين الصغرى (الموت)، والكبرى (القيامة).

قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]، وقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال: ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وقال في سورة الواقعة: ﴿ تَخَنُّنُ خَلْقَتِكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧-٥٩]، وقال: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ [الواقعة: ٨٣]، وأنتم حينئذٍ ﴿ تَنْظُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤]، وقال: ﴿ إِذَا رُحَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ [الواقعة: ٨٤].

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٥/١٢٠-١٢٢.

﴿ الواقعة: ٤ - ٥ ﴾.

والثاني: اشتراكهما في وصف النار والجنة وأهلها، ففي سورة الرحمن حديث عن أهل النار، وبيان لجزائهم حين كذبوا بيوم الدين، وأن من ضمن عذابهم الحميم، قال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤] وفي سورة الواقعة حديث عن أهل النار، وعن بعض ما هُيئ لهم؛ ومنه الحميم، وهو نفس ما ورد في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٢]، وقال: ﴿ فَتَرَى مِنَ حَمِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٣].

وفي سورة الرحمن أن أهل الجنة نوعان، لكل منهما نوعان من الجنان؛ فهناك درجة عليا من العبادة والتقوى، استحق أهلها نوعين من الجنان، قال تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وفيها نعيم مقيم، قال تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنِ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ لِنِسِّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٠-٥٨].

وهناك درجة دنيا من العبادة والتقوى استحق أهلها نوعين آخرين من الجنان، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وفيها ألوان من النعيم، قال تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ لِنِسِّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيِّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٦-٧٦].

وفي سورة الواقعة حديث وافٍ عن أهل تلك الجنات، وهم السابقون وأهل اليمين وعن منازلهم، قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ ﴿١٣﴾ مِنَ الْأُولَئِينَ ﴿١٤﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٥﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٦﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿١٧﴾ يَطُوفُ

عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ يَا كُوفِبَ وَأَبَارِيكَ يَا مَعْيَرَ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّقُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَمَتِ
 وَمَا يَتَحَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحِرَ طَيْرٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
 الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُورٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهَمَتِ كَثِيرٌ
 ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُورٍ مَّرْقُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا
 ﴿٣٧﴾ [الواقعة: ١٠ - ٣٧] (١).

والثالث: اشتملت السورتان على تعديد نعم الله تعالى على خلقه؛ ففي سورة الرحمن ذكر
 لنعمة تعليم الإنسان القرآن الذي هو مدار السعادة في الدارين، وخلق له لإعمار الأرض وتعليمه
 البيان، وخلق الشمس والقمر، وبها يحسب الأوقات، وخلق الميزان لإقامة العدل، وبسط
 الأرض للأنام، وتسخير ما فيها لمنفعتهم، وكررت السورة التوبيخات على آلائه تعالى إحدى
 وثلاثين مرة مطالبة بالشكر وعدم التكذيب: ﴿فَإِيءَآءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وكل ذلك فيه
 إظهار لرحمته تعالى بخلقه، بدليل افتتاحها بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الرحمن: ١].

وفي سورة الواقعة ذكر لنعمة الخلق، والرزق؛ من مأكول ومشروب ونار كثيرة المنافع
 وأعقبت بالتوبيخ على الشكر والتذكر، والجزاء بالخير لمن شكر، وبالشر لمن كذب وكفر، وفي
 ذلك إظهار لهيبته تعالى، بدليل افتتاحها بقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣].

والرابع: «أن الله تعالى ذكر في سورة الرحمن انشقاق السماء عند قيام القيامة، وذكر في
 سورة الواقعة رجَّ الأرض، ولكن مع عكس الترتيب، فكأن موضوع السورتين واحد؛ فذكر
 في أول هذه ما في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، فافتتحت الرحمن بذكر القرآن،
 والشمس والقمر، والنبات، وخلق الإنسان والجان، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم
 صفة الجنة، وابتدئت الواقعة بذكر القيامة، وصفة الجنة والنار، وخلق الإنسان والنبات والماء

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٢٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١٠/٥٦٧٧.

والنار، وذكرت النجوم، ولم تذكر في سورة الرحمن، كما لم تذكر في الواقعة الشمس والقمر، فكانت هذه كالمقابلة لتلك، وكالمضمنة لرد العجز على الصدر^(١).

والخامس: أن كلا السورتين قد ختم بتقديس الله تعالى وتنزيه اسمه، فهو سبحانه العظيم ذو الجلال والإكرام، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

تحقيق القيامة

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ⑨ وَالسَّعِيدُونَ السَّعِيدُونَ ⑩ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑫ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ⑬ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ⑭ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ⑮ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑯ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ⑰ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ⑱ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ⑲ وَفَكَهَمُوا مِمَّا بَشَحِرُوتٌ ⑳ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ㉑ وَحُورٌ عِينٌ ㉒ كَأَمْثَلِ الذُّلُوفِ الْمَكْنُونِ ㉓ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉔ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا ㉕ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ㉖ وَأَصْحَابُ اليمينِ مَا أَصْحَابُ اليمينِ ㉗ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ㉘ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ㉙ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ㉚ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ㉛ وَفَكَهَمُوا كَثِيرًا ㉜ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ㉝ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ㉞ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ㉟ فَعَلَّاتُهُنَّ أَجْكَارًا ㊱ عُرُبًا أَتْرَابًا ㊲ لِأَصْحَابِ اليمينِ ㊳ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ㊴ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ㊵ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ㊶ فِي سُمُورٍ وَجِيمٍ ㊷ وَظِلِّ مِّنْ يَّجُومٍ ㊸ لَا بَارِدٍ

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٢٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٤/٢٣٧، ٢٣٨.

وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَعْنَتِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ
 أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِيَّا نَا لَمَجْعُوعُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ
 ﴿٤٩﴾ لَمَجْعُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالِّينَ الْمُكْذِبِينَ ﴿٥١﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾
 فَالَّذِينَ مِنهَا الْأَبْطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرْبَ الْمَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴿

[الواقعة: ١ - ٥٦].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مرَّ أن محور السورة هو تقرير البعث والجزاء، وهذا المقطع له علاقة وطيدة به؛ فقد افتتح بالتذكير بقيام الساعة، وهو أول إرهاصات البعث، ثم وصف المقطع ما يعرض للعالم الأرضي من أحداث، وانقسام الناس إلى ثلاثة أصناف؛ صنفان من أهل الجنة، وهم السابقون وأهل اليمين الذين صدقوا بالبعث فنالوا النعيم المقيم، وصنف من أهل النار، وهم الذين أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وأنكروا البعث، وقد رد دعواهم في عدم البعث وأخبر أنه واقع حتماً.

ثانياً: التفسير الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاث قضايا:

الأولى: تقرير البعث والجزاء.

والثانية: انقسام الناس عند قيام الساعة إلى ثلاثة أصناف، وبيان مآل كل صنف.

والثالثة: تأكيد اجتماع الأولين والآخرين في ذلك اليوم.

* إذا وقعت القيامة ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة، ولا دافع يدفعها، قال تعالى: ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٧]، ولا يكون عند وقوعها نفس مكذبة، لأنها تؤمن حين ترى العذاب، قال تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ٢٠١].

* الواقعة تخفض المجرمين الذين كانوا في الدنيا مرفوعين، فتجعلهم في الجحيم، وترفع أهل الإيمان إلى أعلى عليين، وقد كانوا في الدنيا مغمورين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُم مِّنْ يَّاتِ رَبَّهُمْ نُجْحِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۗ﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّعْلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴿طه: ٧٤-٧٥﴾.

* وعندها تُزلزل الأرض زلزالاً، وتضطرب اضطراباً شديداً، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١]، وقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

* وتفتت الجبال الشامخات فتاً، فتصير كالهباء المنبث الذي ذرته الريح وفرقته، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُجُّفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الزلزال: ١٤].
* وصرت يوم القيامة أصنافاً ثلاثة:

* الأول: أهل اليمين الذين يؤتون صحائفهم بأيانهم، وكانت أعمالهم: ﴿فَكَ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ ﴿١٤﴾ بَيْسًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ وَسَّكِينًا ذَا مَفْرَقَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١٣-١٨].

* هل تدري أي شيء هم في حالهم وصفاتهم وسعادتهم؟! إنهم في غاية السعادة، يؤخذ بأيانهم إلى الجنة. فما أعلى شأنهم! وما أحسن حالهم!.

* والثاني: أهل الشمال الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، وهم الذين كفروا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ [البلد: ١٩].

* أي شيء هم في حالهم؟ إنهم في غاية من سوء الحال؛ يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.. فلما أسوأ حالهم!

* والثالث: السابقون المبادرون من كل أمة إلى الإيمان والطاعة والخيرات والجهاد والتوبة.

* السابقون هم المقربون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته، لهم الدرجات العالية، يقربهم ربهم منه يوم القيامة، ويدخلهم جنة النعيم.

- * وهم جماعة كثيرة، من الأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقليل من أمته صلى الله عليه وسلم^(١).
- * إنهم في الجنة على أسرة منسوجة، مشبكة بالذهب والدر والياقوت والجواهر.
- * جالسون على أسرتهم جلوس تمكن وطمأنينة وراحة، يقابل بعضهم بعضاً، وينظر بعضهم إلى بعض، في صفاء سرائر، وحسن عشرة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) [الحجر: ٤٧]، وقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) [الصفوات: ٤٣-٤٤].
- * ويدور حولهم غلمان في سن واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون، هيأهم الله لخدمتهم، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ (٤٤) [الطور: ٢٤].
- * يطوفون عليهم بأقداح مستديرة الأفواه لا عرى لها ولا خراطيم، وبأنية لها عرى وخراطيم، وكؤوس من خمر الجنة الجارية الينابيع والعيون، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) [الصفوات: ٤٥-٤٦].
- * وحين يشربون خمر الجنة لا ينفد شرابهم، ولا يصيبهم صداع في رؤوسهم، ولا تذهب عقولهم بشرها^(٢)؛ فهي منزهة عن الآفات التي في خمر الدنيا، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ

(١) هذا هو اختيار الطبري وجمع من المفسرين. جامع البيان: ٣٣٠/٢٢. وقد رده ابن كثير؛ فقال: «وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) [الواقعة: ١٣، ١٤]، فقيل المراد بالاولين: الأمم الماضية، وبالآخرين: هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون الأولون يوم القيامة" [صحيح البخاري، الحديث رقم ٨٧٦] وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ﴾ (١٣) «أي من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) «أي من هذه الأمة». تفسير القرآن العظيم: ٣٠٥/٤.

(٢) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله: ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، فقد قرأ عاصم وحزمة =

مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾ [الصفات: ٤٥ - ٤٧]، وقال: ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمُ﴾ [الطور: ٢٣].

* ويطوفون عليهم بفاكهة كثيرة غير مقطوعة ولا ممنوعة، فيختارون منها ما يشتهون.

* وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب، مما تشتهي نفوسهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا كِهْمَةً وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

* ولهم في الجنة نساء شديداً سواد العيون وبياضها، واسعات الأعين في غاية الحسن والجمال^(١)، كأنهن لؤلؤ في الصدف، مصون عما يكدر صفاءه ونقاءه، مستور لم تمسه الأيدي أو تراه الأعين، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصفات: ٤٩].

* أعد الله لهم هذا النعيم ثواباً ومجازاة على ما قدموا في الدنيا من صالح القول والعمل.

* ولا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، ولا باطلاً أو كذباً، ولا يلحقهم إثم ما يسمعون، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

* لا يسمعون إلا سلام الله تعالى عليهم، أو ملائكته، أو سلام بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقال: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [٣٣] سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال: ﴿تَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

* وأما أصحاب اليمين، فما أدراك ما هم، وما حالهم، وكيف ما لهم؟.

=والكسائي، بكسر الزاي: ﴿وَلَا يُنْفَوْنَ﴾، والمعنى: لا ينفذ شرابهم كما ينفذ شراب أهل الدنيا، وقرأ الباقون بفتح الزاي: "ولا ينزفون"، والمعنى: لا تذهب عقولهم بشرها. حجة القراءات، ابن زنجلة ٦٩٤.

(١) هذا المعنى أفادته قراءة الرفع؛ وهي قراءة الجمهور، أما قراءة الجر: «وحوار عين»، وهي قراءة حمزة والكسائي، فالتقدير: في جنات النعيم وفي حور عين. الكشف، مكّي بن أبي طالب ٣٠٤/٢.

- * هم في جنات فيها شجر النَّبَق المورق الذي خُضد شوكة وقطع، وجعل مكانه الثمر الطيب.
- * وفيها شجرة الطلح المتراكبة الثمر، الذي نُضد حمله من أسفله إلى أعلاه^(١).
- عن عتبة السلمي ؓ قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي، فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجراً أكثر شوكا منها - يعني الطلح - فقال رسول الله ﷺ: "إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود..."^(٢).
- * وفي ظل دائم لا يزول، قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٌّ مُمْدُودٌ﴾ [الواقعة: ٣٠]"^(٣).
- * وفي ماء من أنهار الجنة يسكب لهم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفُورٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].
- * وفي فاكهة متنوعة كثيرة لا تنقطع في وقت من الأوقات، ولا تمتنع على من أردتها في أي وقت، بل هي معدة لمن أَرادها، قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣].
- * ويجلسون على فرش مرفوعة على الأسرة^(٤)، قال تعالى: ﴿مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]

- (١) وقيل المراد بالطلح الموز. صحيح البخاري ١١٢١/٢. قال ابن عاشور: والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره، لأنه ثمر طيب لذيق، ولشجره لما فيه من حسن المنظر، ولم يكن شائعا في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء. التحرير والتنوير: ٢٧/٢٧٥.
- (٢) المعجم الكبير، الطبراني ١٧/١٣٠، مجمع الزوائد، الهيثمي ١٠/٤١٤.
- (٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٥٢)، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/١٢٨.
- (٤) وقيل المعنى: ونساء مرتفعتات الأقدار في حسنهن وكمالهن. المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/٢٤٤.

قال: « إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض »^(١).

- * ولهم في الجنة نساء من الحور ابتدأنا خلقهن ابتداء، وأبدعناهن إبداعاً فريداً لم يسبق^(٢).
- * فصيرناهن عذارى، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّ لِلنِّسَاءِ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وكلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً، قال ﷺ: « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدن أبكاراً »^(٣).
- * وهنَّ متحبيات إلى أزواجهنَّ، عواشق لهم، متساويات في السنِّ والحسن، قال تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا ﴾ [النبا: ٣٣].
- * أنشأناهنَّ وصيّرناهنَّ أبكاراً لأصحاب اليمين في الجنة، الذين هم جماعات كثيرة من الأمم الماضية، وجماعات كثيرة من الأمم اللاحقة من أمة محمد ﷺ.
- * وأمَّا أصحاب الشمال الأشقياء، فما أدراك ما هم، وما حالهم، وكيف مآلهم ؟.
- * هم في النار في ریح حار، وماء شديد الحرارة؛ فالهواء الذي يستنشقونه سموم، والماء الذي يشربونه حميم: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتِنُ ﴾ [الرحمن: ٤٤].

(١) سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ١٢٨/٩.

(٢) وقيل المراد: نساء الدنيا، ينشئن الله أبكاراً عذارى أرباباً، إذ كانت الواحدة منهن في الدنيا عجوزاً رمصاً، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ لِإِنشَاءِ ﴾ [الواقعة: ٣٥]، قال: « إنَّ من المنشآت عجائز كنَّ في الدنيا عُمشاً رمصاً ». سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ١٣٠/٩، تفسير ابن أبي حاتم: ٣٣٣٢/١٠.

وعلاقة هذه الآية بسابقتها أنه لما جرى ذكر الفرش يخطر بالبال مصاحبة الحور العين عليها، فيتشوف إلى وصفهن، فكانت جملة: ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ لِإِنشَاءِ ﴾ بياناً؛ لأن الخاطر بمنزلة السؤال، فضمير المؤنث من: ﴿ أَنْشَأْنَهُنَّ لِإِنشَاءِ ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام، ولكنه ملحوظ في الأفهام. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧٦/٢٧. بتصرف.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني ١٧/١٣٠.

- * وفي ظل من دخان شديد السواد، يصيبهم من حره ما يغلي دماغهم، ليس بارداً يستروحون به من شدة الحر، وليس بحسن المنظر يسر به من يستفيء بظله، كما قال تعالى: ﴿ أَنْظِقُوا إِلَيَّ ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِبِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].
- * استحقوا ذلك؛ لأنهم كانوا في الدنيا منعمين مقبلين على الشهوات والملذات، لا يأبهون بما جاءت به الرسل، وشغلهم الترف فأعرضوا عن الإيمان بالله ورسله^(١).
- * وكانوا في إصرار دائم على الذنوب العظيمة؛ من كفر بالله، وشرك، وأيمان يقسمونها كذبا على أن لا بعث ولا نشور.
- * وكانوا يعتقدون استحالة أن يبعثوا بعد موتهم وصيرورتهم ترابا، قائلين: كيف نبعث إذا متنا وصرنا أجساداً بالية وعظاماً نخرة، بل كيف يبعث آباؤنا وأجدادنا الأولون؟! قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَدَا كُنَّا تَرْبَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّيهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد: ٥].
- * أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين سيجمعون إلى ساحة القيامة في يوم معلوم الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٨].
- * ثم إنكم أيها الضالون عن الحق والهدى، المكذبون بالبعث:
- * ستأكلون في الآخرة من أخصب الشجر؛ شجر الزقوم المر الكريه الطعم والمنظر، الذي ينبت في أصل الجحيم، فهاثون منه بطونكم لغلبة الجوع عليكم.
- * ثم تشربون فوقه الماء الحار الذي اشتد غليانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ شَجَرَتَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

(١) ينبغي أن يفهم أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٥] التوسع في الحرام وما لا يحل، أما التوسع في الحلال فجائز، ولا عقوبة عليه. تفسير القرآن، السمعي ٥/٣٥٣.

- * فشاربون شربا لا ينقطع كشرب الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها.
- * هذا هو الرزق والنزل الذي هيمع لهم يوم الجزاء على أعمالهم، كالتنزل الذي يعد للأضياف
- قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٢].

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * وقوع القيامة أمر لا ريب فيه، ولا يملك أحد رده أو دفعه.
- * على المسلم أن يحذر أسباب الخفض في الآخرة، ويرغب في أسباب النجاة والرفع.
- * الإيمان والتقوى يرفعان صاحبهما، والشرك والمعاصي يخفضان أهلها.
- * كون الناس عند قيام الساعة ثلاثة أصناف وهي: السابقون، وأهل اليمين، وأهل الشمال.
- * السابقون إلى الإيمان، والطاعة، والجهاد، والتوبة... هم المقربون بين يدي الله تعالى.
- * جنات السابقين المقربين خالية من الآفات والكدورات المنغصة لساكنيها.
- * لأصحاب اليمين في الجنة نعيم لا ينقطع جزاء إيمانهم، وهم فيها جماعة عظيمة من الأمم السابقة واللاحقة.
- * لأصحاب الشمال ألوان من العذاب في الآخرة؛ لأنهم كانوا في الدنيا في ترف أبعدهم عن الله تعالى، وكانوا يصرون على الكبائر، وكانوا ينكرون البعث.
- * الجزاء من جنس العمل.
- * في الآخرة تقام موازين الحق، ولا يرجع بأحد حسب ولا نسب، وإنما الإيمان والتقوى.

المقطع الثاني

دلائل البعث والجزاء

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلَىٰ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَاعِلُهَا تَذَكِّرَةً وَآمِنًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾ سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

محور السورة هو البعث والجزاء - كما سبق - وهذا المقطع له تعلق كبير به؛ إذ يستعرض دلائل الإيـان بالبعث وفق منهج القرآن في عرض قضايا العقيدة، « فهو يتخذ مادته من البيئة المحيطة بالمخاطبين ومن مشاهداتهم اليومية، ثم يعرض آثار القدرة الإلهية المبدعة، ودلائل الإيـان بطريقة تحرك قلوب المشاهدين لينظروا في أصل خلقتهم، وفي زرعهم الذي تراوله أيديهم، وفي الماء الذي يشربونه، وفي النار التي يوقدونها»^(١).

وبهذه المشاهد البسيطة التي تدخل في تجارب الإنسان ينشئ القرآن عقيدة البعث؛ لأنه يخاطب كل إنسان في بيئته، فلا تملك نفسه حيال تلك المشاهدات إلا أن تنزه ربه، وتعترف بقدرته على البعث والجزاء.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لما ذكر تعالى في المقطع السابق أصناف الناس عند قيام الساعة، ومآل كل صنف، وذكر ما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٤٦٦ بتصرف.

يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم، وما أعد لأصحاب المشأمة من سموم وحميم، وأن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بالله، وأنكروا بعثهم وآباءهم الأولين، وأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين، أردف هنا يبطل نفيعهم البعث، بالاستدلال بالبراهين القاطعة على إمكانه^(١).

ثالثاً: التفسير الإجمالي للمقطع:

تعرض آيات هذا المقطع شواهد الألوهية ودلائل القدرة الربانية على البعث في فقرتين:

الأولى: دليل الخلق، وتقرير النشأة الآخرة قياساً على النشأة الأولى.

والثانية: دليل العناية والإمداد بالرزق.

* نحن ابتدأنا خلقكم الأول بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فهلا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني! إن من قدر على الإبداء قادر على الإعادة بطريق الأولى؛ لأنها أهون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

* خبروني أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم عما تصبونه من النطف في أرحام نساءكم.

* أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه وتصورونه وتجعلونه بشراً سوياً أم نحن الخالقون؟

* نحن قسمنا الموت بينكم أيها الناس، فجعَلناه لبعض، وأخرناه عن بعض، قال تعالى:

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وما

نحن بعاجزين على ما قدرنا من آجالكم، فلا يتقدم شيء أجلناه ولا يتأخر، قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْزُبُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

* ونحن قادرون على أن نذهبكم ونبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم، ونخلق مكانكم أشباهكم.

(١) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ١٤٥/٩.

* ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة من الصور والهيئات التي لا تعلمونها، ولا تصل إلى عقولكم.

* ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا، فخلقكم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغته، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة^(١)، فهلا تتذكرون أن الذي أنشأكم النشأة الأولى قادر على النشأة الآخرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧]، وقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿الَّذِي يَخْلُقُ مِمَّن يَشَاءُ فَيُخَوِّضُهُمْ فِي مَرَجٍ خِلْقَةٍ وَأَنْعَمَ الْبُرُوقِ﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُّخَلَّقَةً فَفُوِّقًا﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الأنعام: ٦٣]، ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأنعام: ٦٤]. [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

* أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الأرض بعد تحريكها وتسويتها^(٢).

* أنتم تجعلونه زرعاً، ثم تنموه وتنشئونه حتى يصير مدركاً صالحاً للأكل، أم نحن نُنبته في الأرض بقدرتنا، حتى نصيره زرعاً؟! قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

* لو نشاء لأيسنائه وجعلناه هشيماً متكسراً، لا ينتفع به في طعام ولا غيره، فصرتم تعجبون

(١) وقيل المراد بالنشأة الأولى: خلق آدم من تراب. جامع البيان، الطبري ٣٤٧/٢٢.

(٢) هذا هو الدليل الثاني، وهو دليل العناية والإمداد بالرزق، وقد احتوى على ثلاث حجج تتناسب جميعها في أن كلا منها مبدوء بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾، كما تتناسب من حيث المضمون، فالحجة الأولى، وهي الإمداد بالمأكول مناسبة لدليل الخلق؛ وذلك أن الاستدلال بإنبات الزرع بعد الاستدلال بخلق النسل يعود إلى ما بينها من التشابه بين تحويل النطفة إلى جنين والحبة إلى نبات، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، والحجة الثانية وهي الإمداد بالمشروب، مناسبة للحجة السابقة، وهي أن الحرث إنما ينبت زرعه وشجره بالماء، فانتقل من الاستدلال بتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر، والحجة الثالثة وهي النار، مناسبة للحجة السابقة، وذلك أن النار بها صلاح المطعوم. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/٢٨٨ وما بعدها.

من تحطيم زرعكم، وتحسرون من سوء حاله ومما نزل به، نادمين على ما خسرتم في الإنفاق عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُفْلِكُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

* وتقولون: إنا لمحملون الغرم في إنفاقنا، وهالكون لهلاك أرزاقنا.

* أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذبا فراتا لتدفعوا عنكم العطش، وحياتكم متوقفة عليه.

* أنتم أنزلتموه من السحاب، وجعلتموه عذبا صالحا للشرب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا. فكيف لا تصدقون بالبعث؟!

* لو نشاء لجعلناه شديد الملوحة، لا يصلح لشرب ولا زرع، فهلا تشكرون ربكم، حيث أنزل لكم ماء: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْمِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١٠-١١].

كان ﷺ إذا شرب قال: «الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا، ولم يجعله ملحا أجاجا»^(١).

* أخبروني عن النار التي توقدونها من الشجر.

* أنتم الذين خلقتم شجرها التي توقد منها^(٢)، وأوجدتموها من العدم أم نحن المنشئون لها بقدرتنا؟ قال تعالى: ﴿وَصَرَبٌ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٨-٨٠].

* نحن جعلنا هذه النار تذكرة لكم، إذا رأيتموها تذكرتم حرَّ نار الآخرة، فتخشون ربكم

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٣٤.

(٢) كان للعرب شجرتان يقدحون بهما النار هما المرخ والعفارة؛ فكانوا يأخذون غصنا من المرخ ويحكونه بغصن من العفارة، فتخرج من بينهما النار. أضواء البيان، الشنقيطي ٥/٢٤٨.

وتخافون عقابه، وجعلناها بلغة للمسافرين النازلين بالخلاء من الأرض، يتبَلَّغون بها في سفرهم حتى يعودوا إلى ديارهم^(١)، وليتفتح بها سائر الخلق، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»^(٢).

* فنزّه ربك العظيم الذي بقدرته خلق هذه الأشياء، وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى قادر على بعث الخلق بعد موتهم، فكما قدر على البدء فإنه قادر على الإعادة من باب أولى.

* إذا كان الموت واقعا في زمن لا نعلمه، فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة، أو يغفل عن إعداد العدة.

* الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله، ولولا أن الله جعله عذبا فراتا لم يحصل الانتفاع به.

* على الناس أن يشكروا الله على نعمه التي لا تحصى ويتعظوا، فكما أنه تعالى يجعل الزرع حطاما إذا شاء، فكذلك يهلكهم إذا شاء فقدرته تعالى لا حدود لها.

* في نار الدنيا عبرة وعظة للمتقين.

* وجوب تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به.

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٢٥٢/٥.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٦٥)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٨٤٣).

المقطع الثالث

تعظيم القرآن الكريم وصدق ما أخبر به

قال تعالى: ﴿ فَلَا أَفْسَدُ بِمَوْقِعِ النَّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
 إِنَّهُ لَقَوْلَانُ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾
 أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُكُومَ ﴿٨٣﴾
 وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾
 تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنْتٌ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾
 وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْضَبِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلْتُكَ لَكَ مِنْ أَحْسَبِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾
 فَتَرَّلُ مِنْ حِمِيرٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ يَعِينُ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴿
 [الواقعة: ٧٥ - ٩٦].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم أن محور السورة هو تقرير البعث والجزاء، وهذا المقطع له تعلق كبير به؛ وبيان ذلك أن الكفار لما أنكروا ما أخبرهم به القرآن من أمر البعث، وقالوا: ﴿ أَيَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧]، فلما عدوه محالاً، وكان إثباته من أهم ما جاء به القرآن، قامت الحجة على خطئهم، وتبين صدق ما أنبأهم به القرآن، فتهيأ المقام للتنبؤ به بشأنه^(١).

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لهذا المقطع تعلق بسابقه من وجهين:

الأول: أن الله تعالى ذكر في المقطع السابق الأدلة والبراهين على الوحدانية والبعث والنشور، وهنا أعقب بذكر الأدلة على النبوة، ومصدر الرسالة، وصدق هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، وأنه ليس كما يزعم المشركون قول شاعر أو كاهن. بل هو قول رب العالمين، قال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/٣٠٠، ٣٠١.

ابن عاشور: « الفاء في: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾ [الواقعة: ٧٥] لتفريع القسم على ما سبق من أدلة وقوع البعث؛ فإن قوله: ﴿ قُلْ لَيْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٩١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَيَّ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] إخبار بيوم البعث، وإنذار لهم به، وهم قد أنكروه، ولأجل استحالته في نظرهم القاصر كذبوا القرآن، وكذبوا ما جاء به، ففرَّع على تحقيق وقوع البعث، والإنذار به تحقيق أن القرآن منزّه عن النقائص، وأنه تنزيل من الله، وأن الذي جاء به مبلغ عن الله»^(١).

والثاني: أن كلا المقطعين ختم بالأمر بتنزيه الله تعالى، قال تعالى فيهما: ﴿ فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦].

ثالثاً: سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطِرَ النَّاسَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةٌ وَضَعَهَا اللَّهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ: ﴿ ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ الْجُبُورِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٥] حتى قوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢]^(٢).

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يحتوي هذا المقطع على ثلاث قضايا:

الأولى: فيها إثبات النبوة وصدق القرآن وعلو شأنه.

والثانية: فيها توبيخ الضالين المكذبين على جحود النعمة، وجعل التكذيب موضع

الشكر.

والثالثة: فيها بيان لمصائر الناس عند الاحتضار.

(١) المصدر السابق: ٣٠١/٢٧.

(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم (٧٣)، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ١٢٩/٩، تفسير ابن أبي حاتم

٣٣٣٤/١٠، أسباب النزول، الواحدي ٣١٨، ٣١٩.

- * فأقسم بمساقط النجوم وبروجها، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١) [١].
- * وإنه لقسم عظيم لو عرفتم عظم مواقع النجوم، وسعة هذا الكون، الدالة على عظيم قدرة الله، وفرط رحمته بكم [٢].
- * إن هذا القرآن (٣) - الذي أنزل على محمد ﷺ، وأخبركم بأمر البعث - لكريم على الله، كرمه

(١) في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَمْسِدُ بَمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥)، تكون "لا" زائدة مؤكدة في قول أكثر المفسرين، والمعنى: فأقسم بمواقع النجوم، كما في قوله: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (الحديد: ٢٩)، وقال الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترني صباية وكاد نياط القلب لا يتقطع

أي: كاد يتقطع. وقيل: «لا» هي نفي، والنفي محذوف، والمعنى: أي ليس الأمر كما زعمتم، إن القرآن سحر أو كهانة أو شعر أو أساطير الأولين، ثم استأنف فقال: فأقسم. البحر المحيط، أبو حيان ٢١٢/٨، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/٣١٤.

وقيل المراد ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ أوقات نزول القرآن، فقد كان ينزل منجما على النبي ﷺ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٥) فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾، أي نجوم القرآن. تفسير القرآن، السمعاني ٥/٣٥٨، ٣٥٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/٢١٣.

(٢) قال سيد قطب: ولم يكن المخاطبون يوم ذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل، الذي يدركونه بعيونهم المجردة، ومن ثم قال لهم: ﴿وَلَئِنَّ لَقَسَمًا لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾ (الواقعة: ٧٦)، فأما نحن اليوم فنذكر من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم، وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة، المحدودة المناظر، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا مجموعة واحدة وهي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم. في ظلال القرآن ٦/٣٤٧٠.

(٣) هذا هو جواب القسم: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٧)، قال ابن القيم: "المناسبة بين ذكر القسم بمواقع النجوم وبين المقسم عليه، وهو القرآن: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين، والنجوم آياته المشهودة المعينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في =

ورفع قدره على جميع الكتب، كريم لما فيه من دعوة إلى كريم الأخلاق ومعالي الأمور، كريم لما فيه من الهدى والبيان والخبر الصادق، والعلم والحكمة والخير النافع.

* وهو مصون عند الله، مستور محفوظ عن الباطل والتغيير والتبديل.

* ولا يمسه إلا المطهرون المنزهون عن دنس الأرجاس، وهم الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ في

صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس: ١٣-١٦].

ولا يمسه إلا من كان متوضئاً طاهراً من الجنابة والحدث^(١).

=مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول". بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد ٤/ ٣٥٩.

(١) في معنى قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ [الواقعة: ٧٩] اختلاف بين المفسرين، فمنهم من

قال: إن (لا) نافية، و(المطهرون): الملائكة، والتقدير: لا يقربه ولا يطلع عليه إلا المنزهون من الحظوظ

النفسية، وهم الملائكة، وقيل: إنه خبر بمعنى النهي، والمعنى لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث،

فيكون نفيًا بمعنى النهي. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢١.

وقد رجح ابن القيم القول الأول وانتصر له، فقال: "اختلف المفسرون في هذا: فقيل هو اللوح

المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿ في صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾

مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس: ١٣-١٦]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي

الملائكة قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ [الواقعة: ٧٩]، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسه،

وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر،

والأول أرجح الوجه؛ أحدها: أن الآية سبقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل

إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخايب خلق الله، وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسه، قال

تعالى: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

[الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، والوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية، إنها هو بأصول

الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية، والوجه

الثالث: أن القرآن لم يكن كله في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع

في المصحف في خلافة أبي بكر ﷺ، والوجه الرابع: وهو قوله: ﴿ في كِتَابٍ مُّكْتُوبٍ ﴿١٣﴾ ﴾ والمكتون

المستور لا تناله أيدي البشر، قال تعالى: ﴿ كَاتِبِينَ يَكْتُوبُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات: ٤٩]. وهكذا قال=

- كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم رحمته: " وأن لا يمس القرآن إلا طاهر" ^(١).
- * وهو منزل من عند الله رب العالمين، فهو كلامه، وليس بقول ساحر أو كاهن أو شاعر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٣].
- * أفأنتم شاكون في القرآن، وفيما أخبركم به من أمر البعث، تمالثون أهل الكفر، وتركونون إليهم كمن يدهن في الأمر، ويلين جانبه تهاونا به ؟!
- * وتجعلون شكر ما أنعم الله به عليكم من المطر ^(٢) أنكم تكذبون بنعمه وبالبعث، وبما دل

=السلف، والوجه الخامس: أنه قال: ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، ولم يقل إلا المتطهرين، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]". بدائع التفسير: ٤/ ٣٦٣، ٣٦٤.

- (١) فضائل القرآن، أبو عبيد ٢٤٤، المصنف، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٣٤١، المستدرک، الحاكم ١/ ٣٩٥، وصححه ووافقه الذهبي. إرواء الغليل، الألباني ١/ ١٥٨. قال محمد بن إسماعيل بن الأمير الصنعاني: «وكتاب عمرو بن حزم تلقاه الناس بالقبول؛ قال ابن عبد البر: إنه أشبه المتواتر لتلقي الناس له بالقبول، وقال يعقوب بن سفيان: لا أعلم كتابا أصح من هذا الكتاب، فإن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين يرجعون إليه ويدعون رأيهم، وقال الحاكم: قد شهد عمر بن عبد العزيز وإمام عصره الزهري بالصحة لهذا الكتاب... ولكنه يبقى النظر في المراد من الطاهر؛ فإنه لفظ مشترك يطلق على الطاهر من الحدث الأكبر، والطاهر من الحدث الأصغر، ويطلق على المؤمن، وعلى من ليس على بدنه نجاسة، ولا بد لحمه على معين من قرينته، وأما قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ^(٣)، فالأوضح أن الضمير للكتاب المكنون الذي سبق ذكره في صدر الآية، وأن ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ هم الملائكة". سبل السلام: ١/ ١١٠.
- (٢) القول المشهور في معنى الرزق في قوله تعالى: ﴿ وَتَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ ^(٤) [الواقعة: ٨٢] هو المطر، والتكذيب هو قولهم: مطرنا بنوء كذا، وقد ثبت هذا المعنى بالحديث المذكور في سبب النزول، وقيل: إن معنى الرزق في الآية الهداية التي أعطاها الله تعالى بالقرآن، والمعنى: وتجعلون شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به، فكأن الله تعالى لما أنزل القرآن، وبين لهم طريق الحق به فكذبوه وأنكروا، سمي ذلك البيان رزقا، وجعل تكذيبهم كفرا لهذا الرزق، وقيل: المعنى جعلوا حظهم من =

عليه القرآن، فتضعون التكذيب موضع الشكر.

- * إن التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لأخرتكم ؟.
- * فهلا إذا وصلت الروح وقت النزح الحلقوم، وأنتم حيثئذ إلى جانب المحتضر، ترونه قد قارب فراق الحياة، وترون ما يكابده من سكرات الموت...
- * ونحن بعلمنا وقدرتنا، وبملائكتنا أقرب إليه منكم، ولكن لا ترون، قال تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].
- * فهلا تردونها إلى بدنها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء إن كنتم صادقين في زعمكم ألا بعث، وأنكم غير مدنين.
- * فأما إن كان المحتضر من السابقين إلى فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، فله راحة^(١)، وطمأنينة، ورزق واسع ونعيم في الجنة.
- * وأما إن كان من أهل اليمين، فبشره الملائكة قائلة: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين، قال تعالى: ﴿ تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]^(٢).

= القرآن التكذيب. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٦٠، ٣٦١.

- (١) ورد في لفظ ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ ﴾ [الواقعة: ٨٩] قراءتان، الأولى: «فَرُوح» بفتح الراء، وهي قراءة الجمهور، أي الراحة، والمعنى: هو في رُوح وراحة، والثانية: «فَرُوح» بضم الراء، وهي قراءة يعقوب، ومعناها: أن روحه معها الريحان، وهو الطيب، وقيل: الرُوح هو الرحمة. الكتاب الموضح، ابن أبي مريم ٣/ ١٢٣٤، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٨٣.
- (٢) والكاف في قوله: «لك» على هذا المعنى موجهة لغير معين، وقيل الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه يسر بها يناله أهل الإسلام من الكرامة عند الله، وقيل: الكلام على تقدير القول، أي يقال له: سلام لك، أي تقول له الملائكة، قال تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٨.

- * وأما إن كان من المكذبين الضالين عن الهدى ودين الحق، وهم أصحاب الشمال، فله ضيافة من الماء الحار، ويصلى نار جهنم في الآخرة.
- * إنَّ هذا الخبر وما جاء في هذه السورة من أمر البعث وغيره هو محض اليقين، والحق الثابت الذي لا شك فيه، ولا محيد لأحد عنه.
- * فنزه الله عما لا يليق به لما علمت من آثار قدرته، واستبان لك الحق، وظهر لك اليقين^(١).

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * الله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بربه عز وجل.
- * القسم بمواقع النجوم تنبيه على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وسعة خلقه.
- * القرآن الكريم كلام الله، وهو معجزة الرسول ﷺ الخالدة، وليس بشعر ولا بسحر....
- * القرآن الكريم « لا يدرك معانيه أو يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المثلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي^(٢) ».
- * القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين تنزلت به الملائكة الأطهار، ولم تنزل به الشياطين، ولا ينبغي أن يمسه إلا طاهر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « إن الآية: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] تدل على الحكم من باب الإشارة، فإذا كان الله تبارك وتعالى يخبر أن الصحف المطهرة في السماء لا يمسه إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسه إلا طاهر^(٣) ».

(١) روي أنه لما نزل: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦]، قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزل: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، قال: «اجعلوها في سجودكم». سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث ٢٩٢/١.

(٢) بدائع الفوائد الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد ٣٦٦/٤.

(٣) مجموع الفتاوى: ٥٦/١، بدائع الفوائد، يسري السيد محمد ٣٦٥/٤.

- * القرآن الكريم محفوظ عن التغيير والتبديل والباطل؛ لأن الله تكفل بحفظه.
- * القرآن الكريم أحكامه كلها عدل، وأخباره كلها صدق.
- * حرمة المداهنة في دين الله بأن يتنازل العبد عن شيء من الدين ليحفظ شيئاً من دنياه.
- * الموت نهاية كل حي، والمؤمن الحق لا يغفل عن ذكره.
- * الدنيا دار عمل وسعي والآخرة دار جزاء وحساب.
- * عجز الناس جميعاً أمام قدرة الله تعالى.
- * الاشتغال بالثناء على الله وتسيححه وتقديسه يوصل إلى درجات المقربين.

الفهرس

الصفحة	السورة
١	فصلت
٦١	الشورى
٩٩	الزخرف
١٤١	الدخان
١٥٩	الجاثية
١٧٧	الأحقاف
٢٢٥	محمد
٢٨١	الفتح
٣٣٣	الحجرات
٣٨٩	ق
٤٣٧	الذاريات
٤٦٣	الطور
٤٨٥	النجم
٥١١	القمر
٥٤٣	الرحمن
٥٨٩	الواقعة



مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS

Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com